



سلسلة الإصدارات العلمية

(٤)

الإصدار

(٥٨)

# أَشَارُ الدُّعُوبِ عَلَى الْأَفْرَادِ وَالشُّعُوبِ

تأليف  
أبي عبدة مشهور بن حسن آل سلمان



مَجْلَدُ الْإِسْلَامِ فِي الْأَشَارِ الدُّعُوبِ  
عَلَى الْأَفْرَادِ وَالشُّعُوبِ



أَشَارَةُ الذُّنُوبِ  
عَلَى أَفْرَادٍ وَالشُّعُوبِ

جمعية  
مركز الإمام عبد الله الباني  
للدراستات والأبحاث

الأردن - عمان - المقابلين - شارع الحرية - مبنى رقم (٤٩)

[www.alalbany.org](http://www.alalbany.org)

[info@alalbany.org](mailto:info@alalbany.org)

[twitter.com/Alalbanycenter](https://twitter.com/Alalbanycenter)

[fb.com/Alalbany](https://fb.com/Alalbany)

[Instagram.com/Alalbanycenter](https://Instagram.com/Alalbanycenter)

[telegram.me/Alalbanycenter](https://telegram.me/Alalbanycenter)

[Youtub.com/AlalbanycenterJordan](https://Youtub.com/AlalbanycenterJordan)

تلفون: ٠٠٩٢٦٤٢٠٠٣٠٥

خلوي: ٠٠٩٦٢٧٩٢٨٠٤٣٤٩

فاكس: ٠٠٩٦٢٠٦٤٢٠٥٤٥١

ص.ب: ٢٢١ أبو علندا - الرمز البريدي: ١١٥٩٢

حساب رقم:

(١٥٠٨١٦٢٤١٠٤٠٠٠١)

البنك الإسلامي الأردني

IBAN: jo79jiba0310001508162410400001

الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

حقوق الطبع محفوظة لإدار التوادير

قائمه جليله انتصار الفري والفرع الفري والعبادة

دار النواذر

لبنان - بيروت

ص.ب: ٤٤٦٢/١٤

هاتف: 009611652528

فاكس: 009611652529

E-mail: [info@daralnawader.com](mailto:info@daralnawader.com)

Website: [www.daralnawader.com](http://www.daralnawader.com)



جمعية  
مركز الأبحاث والدراسات  
للدراسات والأبحاث

سلسلة الإصدارات العلمية  
(٤)  
الإصدار  
(٥٨)

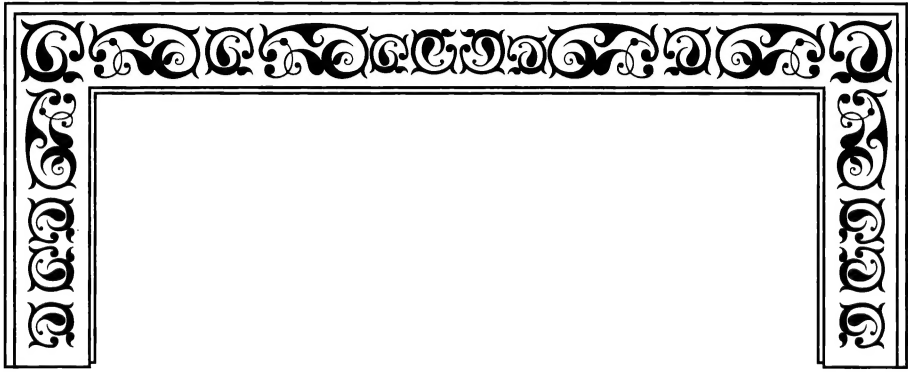
# أَشَارُ الدُّنُوبِ عَلَى الْأَفْرَادِ وَالشُّعُوبِ

تأليف  
أبي عبدة مشهور بن حسن آل سلمان

جمعية مركز الأبحاث والدراسات  
للدراسات والأبحاث  
الإصدار  
(٥٨)







«إلى صاحبي القديم...»

وَقَالَ لي: قد علمتَ من أَيْنَ غَلَطْتَ! أَحَسَنْتَ الظَّنَّ بِنَفْسِكَ فتَأَقَّتْ إلى  
دَرَجَاتِ الْمُحْسِنِينَ بِخِلَافِ سِيرَتِهِمْ، مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ مِنْكَ عَلَيْهَا لِمَسَاوِي أَعْمَالِهَا،  
وَلَا دَفْعَ لِمَا ادَّعَتْهُ مِنْ أَعْمَالِ الصَّادِقِينَ.

وَأَسَاءْتَ الظَّنَّ بِغَيْرِكَ فَأَنْزَلْتَهُمْ فِي دَرَجَةِ الْمُسِيئِينَ إِغْفَالًا مِنْكَ لَشَأْنِكَ،  
وَتَفَرَّغْتَ لِلنَّظَرِ فِي عُيُوبِ غَيْرِكَ.

فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنْكَ كَذَلِكَ عَوَّقْتَ بِأَنْ غَارَتْ عُيُونُ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ مِنْ  
قَلْبِكَ، وَانْفَجَرَتْ إِلَيْهِ أَنْهَارُ الْغِلْظَةِ وَالْقَسْوَةِ، فَأَحْبَبْتَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ بِالْإِزْرَاءِ  
عَلَيْهِمْ وَالْإِحْتِقَارِ لَهُمْ وَقِلَّةِ الرَّحْمَةِ، وَأَرَدْتَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ بِالتَّعْظِيمِ وَالْمُهَابَةِ وَالرَّحْمَةِ،  
فَمَنْ وَافَقَكَ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ نَالَ مِنْكَ قُرْبًا وَمَحَبَّةً، وَنَلْتَ أَنْتَ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - بُعْدًا  
وَسَخَطًا، وَمَنْ خَالَفَكَ فِيهِ أَزْدَادَ مِنْكَ بُعْدًا وَبُغْضًا، وَازْدَدْتَ أَنْتَ مِنَ اللَّهِ بُعْدًا  
وَسَخَطًا.

وَأُطْلِتَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ أَمْلَكَ فَطَابَ لَكَ الْمَسِيرُ فِي طَرِيقِ التَّسْوِيفِ وَمَدَارِجِ  
الْحَيْرَاتِ، فَاشْتَدَّتْ رَغْبَةُ نَفْسِكَ وَاسْتَمَكَّنَ الْحِرْصُ مِنْ قَلْبِكَ فَعَظُمَتْ لَذَلِكَ فِي

الدُّنْيَا رَغْبَتُكَ، وَشَحَّتْ فَجَمَحَتْ إِلَى شَهَوَاتِهَا وَاحْتَوَشَتْ قَلْبُكَ لَذَائِهَا، فَحَالَ ذَلِكَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَنْ تَجِدَ حَلَاوَةَ سُلُوكِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ، فَقَلْبُكَ حَيْرَانٌ عَلَى سَبِيلِ حَيْرَةٍ، قَدْ اشْتَبَهَتْ عَلَيْكَ سُبُلُ النِّجَاةِ، وَشَقَّقَ حِجَابُ الدُّنُوبِ فَأَنْسَتْ لِقُرْبَهَا وَطَابَ لَكَ شَمَ رِيحُهَا، فَوصلَتْ بِذَلِكَ إِلَى مُحَضِّصِ الْمُعْصِيَةِ، فَادَّعَيْتَ مَا لَيْسَ لَكَ وَتَنَاوَلْتَ مَا يَبْعَدُ مَرَامُهُ مِنْ مِثْلِكَ.

ثُمَّ أَخْرَجَكَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَكَلِّمْتَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَنَظَرْتَ إِلَى مَا لَيْسَ لَكَ، وَعَمَلْتَ لِغَيْرِ اللَّهِ فَكُنْتَ مَخْدُوعًا مَسْبُوعًا<sup>(١)</sup> عِنْدَ حَسَنِ ظَنِّكَ بِنَفْسِكَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ، وَمُسْتَدْرَجًا مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُ، فَكَانَ مِيرَاثَ عَمَلِكَ الْخُبْثَ وَالْجَرِيرَةَ وَالْغِشَّ وَالْخَدِيعَةَ وَالْخِيَانَةَ وَالْمَدَاهِنَةَ وَالْمَكْرُوهَ وَتَرَكَ النَّصِيحَةَ، وَأَنْتَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مُظْهِرٌ لِمَا بَيْنَهُ ذَلِكَ.

فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ سِيرَتُهُ؛ فَلَا يُنْكِرُ أَنْ يَبْدُو لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ يُحْتَسِبُ. فَلَوْ كَانَ لَكَ يَا مُسْكِينُ! أَدْنَى تَخَوُّفٍ لِبَكَاةٍ عَلَى نَفْسِكَ بِكَاءِ الثَّكْلِي الْمُحِبَّةِ لِمَنْ أَثْكَلْتَ، وَنُحِتَ عَلَيْهَا نِيَاحَةُ الْمَوْتَى حِينَ غَشِيكَ شُؤْمُ الدُّنُوبِ.

وَلَوْ بَكَى عَلَيْكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ لَكُنْتَ مُسْتَوْجِبًا لِذَلِكَ لِعِظَمِ مُصِيبَتِكَ.

وَلَوْ عَزَاكَ عَلَيْهَا جَمِيعُ الْخَلْقِ تَغْزِيَةَ الْمَحْرُوبِ الْمَسْلُوبِ لَكُنْتَ مُسْتَحَقًّا لِذَلِكَ؛ لِأَنَّكَ قَدْ حُرِمْتَ دِينِكَ وَسُلِبَتْ مَعْرِفَتُكَ بِشُؤْمِ الدُّنُوبِ، فَرَبِّكَ ذُلٌّ

---

(١) المسبوع: الذي ذعره السبع، والعامة تطلقه على كل مذعور. «تكملة المعاجم العربية» (٢٤/٦).



المُعْصِيَّة، وَأُثْبِتَ اسْمُكَ فِي دِيْوَانِ الْعَاصِيَيْنِ، وَاسْتَوَحَّشَ مِنْكَ أَهْلُ التَّقْوَى إِلَّا مَنْ  
كَانَ فِي مِثَالِكَ».

«آداب النفوس» (٦٥ - ٦٦)





## مقدمة المؤلف

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:

١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد :

فهذه مجموعة كلماتٍ ونُقولٍ ومدُوناتٍ على ظهور الكتب، وإشاراتٌ في أثناء البحث والتحضير للدُّروس، ورسائلٌ وصلتني عبر (الواتس)، وكلماتٌ ودروسٌ ومحاضراتٌ، تخصُّ المعاصي والذنوب وأثرها في خراب الدُّول وفساد الشعوب، تشمل الناس جميعًا بلا استثناء، ذكرتُ فيها سُنَنًا لله - عز وجل - في المذنبين على الذنوب، الذين استسلموا لها وما جاهدوا أنفسهم للخلاص منها،



وآثار ذلك عليهم، أفرادًا وشعوبًا، آحادًا وجماعاتٍ، في جميع مناحي حياتهم، ودلّلتُ على ذلك بنصوص الكتاب وصحيح السُّنَّةِ وآثار السُّلف، وعبارات المجريين من الثَّقَات، والأئمة الهداة، وأرشدتهم إلى أسباب الوقوع فيها وتمكُّنها منهم، وطُرق الخلاص وإن وصل الأمر إلى حدِّ الإدمان.

وكانت متفرقةً مبعثرةً، فأحببتُ أن يجمعها عقدٌ وينظمها سلكٌ، لعلَّ الله - عز وجل - ينفعُ بها، فإنَّ المزبور فيها يوضِّحُ شيئًا ممَّا بُعث به النبيُّون الذين أرسلوا إلى الله داعين، وبه معرِّفين، ولمن أجابهم مبشِّرين، ولمن خالفهم منذرين. فدفعتُ بها بما تجمَّع عندي لبعض إخواننا الحريصين، وطلبة العلم النَّاهِين، فيبِّضُها وحرَّرها وبوّبها، فكان هذا الكتاب المهمُّ - إن شاء الله -، الذي أنصحُ بإدمانِ النَّظر فيه، وعرض محتواه على جماهير النَّاس، ونشر عباراته المؤثِّرة، ودرره الغالية، وحكِّمه السَّامية، وتحريراته الماتعة، وتقريراته النافعة، ونصائحه المُنجية، عبر وسائل الاتصال، وأسأل الله الأجر له، وأن ينفع بنا جميعًا دينَ الله - عز وجل -، وأن يُمِّنَّ علينا بخدمة كتابه وسنَّة نبيِّهِ ﷺ، وأن يستخدمنا لنصرة دينه، ونشر سُنَّة نبيِّهِ ﷺ.

هذا، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

وكتبَ  
أبو عبيدة  
مشور بن حسن آل سلمان



## الاستقامة

فقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

ومن المعلوم بإجماع علماء الأمة أنَّ الأمر الذي يُخاطَبُ به النبي ﷺ إنما هو خطابٌ له ولأمته، ما لم تأتِ قرينةٌ تخصُّ أحدهما، فالخطاب للنبي خطابٌ لأمته، والخطاب للأمة خطابٌ للنبي ﷺ، ولِعَظَمَ شأن الاستقامة على مُراد الله، جاء الخطاب موجَّهًا لرسول الله ﷺ، فأمر الله نبيه بقوله: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ﴾، وهذا الذي يسمِّيه بعض أهل العلم: تنبيهٌ بالأعلى على الأدنى؛ أي: إن كان أشرفُ الخلق ﷺ مأمورًا بالاستقامة، فمن سواه أولى بأن يتوجَّه إليه هذا الأمر.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «...الأصل فيما خُوطب به النبي ﷺ في كل ما أمر به ونُهي عنه وأُبيح له؛ سارٍ في حق أمته، كمشاركة أمته له في الأحكام وغيرها حتى يقوم دليل التخصيص، فما ثبت في حقّه من الأحكام ثبت في حقِّ الأمة إذا لم يخصَّص، هذا مذهب السلف والفقهاء، ودلائل ذلك كثيرة؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ولما أباح له الموهوبة قال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]»<sup>(١)</sup>.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/٨٢).

وأوّل ما يُستفادُ من هذا: أنَّ الاستقامة لا تكون على وَفْقِ العادات والتقاليد، ولا على وَفْقِ المألوف، ولا على وَفْقِ العقل المجرّد، ولا على وَفْقِ الأهواء والسياسات، وإنّما تكون على وَفْقِ الوحي؛ فإنَّ الله - تعالى - قال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ فمع كَوْنِ الأُصلِ أَنَّ الخطابَ عامٌّ للأُمَّةِ، إلّا أنَّ هذا الأمر لا يقدر عليه إلا ثُلَّةٌ؛ هم المنعوتون بقوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾، فالاستقامة ثَقِيلَةٌ، لا يقدر عليها إلا من كان تَوَّابًا أَوْابًا، كثير المحاسبة لنفسه، وكثير الرجوع إلى ربّه.

﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ فحتى تتّضح حقيقة الاستقامة أمر الله باجتناِبِ ضِدِّها؛ وهو الطغيان، والغلو، والخروج عن الصراط المستقيم.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فالوسيلةُ لحصولِ الاستقامة إنّما تكونُ باستشعارِ أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - بصيرٌ، فلا يمكن أن يَحَقِّقَ أَحَدٌ الاستقامة إلا باستشعاره أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - بصيرٌ به ومطلّعٌ على ظاهره وباطنه.

قال ابن كثير - رحمه الله -: «يأمر - تعالى - رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مَصْرَعَةٌ حتى ولو كان على مُشرك! وأَعْلَمَ - تعالى - أنّه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء»<sup>(١)</sup>.

وجاء الأمرُ للأُمَّةِ بالاستقامة في آيةٍ ثانية، نحتاج أن نتدبّرَها، وأن نعرف المعاني المشتركة بينها وبين الآيةِ آنفَةِ الذكر، قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٥٤).



بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكَبِ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۖ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿فصلت: ٦ - ٧﴾.

قبل أن يأمر الله هذه الأمة بالاستقامة بقوله: ﴿فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾، قال الله - عز وجل -: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وهذا معناه: لا تَغْلُوا في رسول الله، ولا تتوجهوا إليه بالعبادة، فتقعوا في الطغيان، فرسول الله ﷺ بشرٌ مثلكم، يمتاز عنكم بأنه يوحى إليه، فذكر الوحي - أيضًا - مرةً أخرى، للتأكيد على أن الدعوة التي ندعوا إليها دعوةٌ وَحِيٌّ، وليست دعوةً فِكْرِيٍّ، ولا دعوةً رَأْيِيٍّ وتركٍ للنصوص الشرعية الواضحة المبيّنة في كتاب ربنا وأحاديث نبيِّنا ﷺ، عبادًا بالله.

﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكَبِ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ فهو الذي يستحق أن يُستقامَ على أمره؛ لأنه معبودٌ بحقٍّ، واحدٌ لا ثانيَ له، فهو الخالق، ومن خلق ملكك، ومن ملكَ أمرَ ودبرَ، فإنه يأمر الناس بما شاء - سبحانه وتعالى -.

﴿فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فجاء هنا أمرُ الأمة بأن تستقيمَ على أمر الله - عز وجل -.

\*\*\*

\* حقيقة الاستقامة وحدها:

قال ابن القيم - رحمه الله -: «فالاستقامة كلمةٌ جامعةٌ آخذةٌ بمجامع الدِّين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلّق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيّات؛ فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله، قال بعض العارفين: كُنْ صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإنَّ نفسك متحرّكة في طلب الكرامة، وربُّك يطالبك بالاستقامة، وسمعتُ شيخ الإسلام

ابن تيمية - قدس الله - تعالى - روحه - يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن رجب الحنبلي - رحمه الله -: «والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها»<sup>(٢)</sup>.

ومن لطيف ما ذكر في حقيقتها: أنها «توبة بلا إصرار، وعمل بلا فتور، وإخلاص بلا التفات، ويقين بلا تردد، وتفويض بلا تدبير»<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

\* من آثار السلف الواردة في معناها، وبيان مظاهرها وخصائصها<sup>(٤)</sup>:

قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وقد سُئِلَ عن الاستقامة: «أن لا تشرك بالله شيئاً».

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعالب».

وقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه -: «استقاموا: أخلصوا العمل لله».

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، وابن عباس - رضي الله عنهما -: «استقاموا: أدّوا الفرائض».

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٠٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٠٥).

(٣) «شرح الأربعين النووية» للنووي (ص ٦٤)، «هداية المرشدين» (ص ٦٤) لعلي محفوظ.

(٤) تُنظر هذه الآثار في «تفسير الطبري» (٢١/٤٦٤ وما بعدها).

وقال الحسن: «استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته».

وقال مجاهد: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله».

وهذه التفسيرات كلها من قبيل تنويع العبارة، أو الذي يسميه أهل العلم: (اختلاف التنوع)، فهي عبارات متغيرة في الألفاظ، يدل كل منها على صورة من صور الاستقامة، ومظهر من مظاهرها، أو تلخيص لروحها ومعناها، وكلها لا تعارض بينها.

وأسوق ههنا - قبل أن نمضي في الكلام - فائدة من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -، تُفيد عند النظر في آثار السلف في التفسير.

قال - رحمه الله -: «فالسلف كثيرًا ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه، وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر؛ كمن يقول: أحمد هو الحاشر والماحي والعاقب، والقُدوس هو الغفور والرحيم؛ أي: أن المسمى واحد، لا أن هذه الصفة هي هذه، ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس، مثال تفسيرهم للصراط المستقيم؛ فقال بعضهم: هو القرآن؛ أي: أتباعه، لقول النبي ﷺ في حديث علي الذي رواه الترمذي، ورواه أبو نعيم من طرق متعددة: «هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم»<sup>(١)</sup>. وقال بعضهم: هو الإسلام؛ لقوله ﷺ في حديث النّوّاس بن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره: «ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو من فوق الصراط، وداع يدعو على رأس الصراط».

قال: «الصراط المستقيم هو الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب

(١) رواه الترمذي (٢٩٠٦)، وسنده ضعيف.



الْمُفْتَحَةُ مُحَارَمُ اللَّهِ، والدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصَّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ، والدَّاعِي فَوْقَ الصَّرَاطِ  
وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ»<sup>(١)</sup>.

فهذان القولانِ مَتَّفَقَانِ؛ لِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ كُلُّ مِنْهُمَا  
نَبَّهَ عَلَى وَصْفٍ غَيْرِ الْوَصْفِ الْآخَرِ.

كَمَا أَنَّ لَفْظَ (صِرَاطٍ) يُشْعِرُ بِوَصْفٍ ثَالِثٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ السُّنَّةُ  
وَالْجَمَاعَةُ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ طَرِيقُ الْعِبَادَةِ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ  
وَالرَّسُولِ ﷺ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ أَشَارُوا إِلَى ذَاتٍ وَاحِدَةٍ، لَكِنْ وَصَفَهَا  
كُلُّ مِنْهُمْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهَا»<sup>(٢)</sup>.

فَالْعِبَارَاتُ الْمَنْقُولَةُ أَعْلَاهُ - إِذَنْ - فِي مَعْنَى الْاسْتِقَامَةِ، لَا تَعَارِضُ بَيْنَهَا، وَكُلُّهَا  
صَحِيحَةٌ.

قَالَ - تَعَالَى -: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا﴾ هَذَا الْمَقَامُ عَسِرٌ صَعْبٌ، إِلَّا  
مَنْ يَسِّرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ فَقَوْلُهُ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا﴾ فِي مَقَامِ قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَمَنْ تَابَ  
مَعَكَ﴾ فِي الْآيَةِ الْأُولَى، فَوْسِيلُهُ التَّوْبَةُ إِنَّهَا هِيَ الْاسْتِغْفَارُ، وَلِأَنَّ الْاسْتِقَامَةَ أَمْرًا  
عَسِرٌ تَحْتَاجُ إِلَى تَوْبَةٍ دَائِمَةٍ، فَانْظُرْ إِلَى الصَّلَاةِ - مَثَلًا -؛ فَإِنَّهُ لِعِظَمِ مَقَامِهَا، وَمَقَامِ  
مُنَاجَاةِ اللَّهِ بِهَا، فَإِنَّكَ تَقُولُ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْهَا: (أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ  
اللَّهَ)، وَذَلِكَ لَمَّا يَعْتَرِي صَلَاةَ الْعَبْدِ - غَالِبًا - مِنْ خَلَلٍ وَذَهُولٍ وَنَسْيَانٍ، وَعَدَمِ  
اسْتِشْعَارِ لِعِظَمِ الْحَالِ وَالْمَقَامِ الَّذِي كَانَ فِيهِ.

وَلِذَا، فَمَنْ رَحِمَهُ رَبُّنَا بَنَّا أَنْ أَرْسَلَ لَنَا نَبِيًّا ﷺ، وَأَمَرْنَا فَقَالَ: «سَدُّدُوا وَقَارِبُوا  
وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:

(١) رواه - بنحوه - : الترمذي (٢٨٥٩) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٣٣)، وسنده صحيح.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٣٥ - ٣٣٦).

«وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ»<sup>(١)</sup>.

سدّد وقارب؛ والمعنى: ابذل وسعك في إصابة الهدف بعينه، فإن لم تصب الهدف، فحُم حول الهدف، وكن قريباً منه ما أمكن.

والمقصود: أنك إذا كنت لا تستطيع أن تلتزم الصراط المستقيم لزوماً كاملاً، فابذل كلّ ما في وسعك لتكون أقرب شيء إلى التمام والكمال.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وَمَنْزِلُ التَّوْبَةِ أَوَّلُ الْمَنَازِلِ وَأَوْسَطُهَا وَآخِرُهَا، فَلَا يَفَارِقُهُ الْعَبْدُ السَّالِكُ، وَلَا يَزَالُ فِيهِ إِلَى الْمَمَاتِ، وَإِنْ ارْتَحَلَ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ ارْتَحَلَ بِهِ وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ وَنَزَلَ بِهِ، فَالتَّوْبَةُ هِيَ بَدَايَةُ الْعَبْدِ وَنَهَايَتُهُ، وَحَاجَتُهُ إِلَيْهَا فِي النِّهَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ كَمَا أَنَّ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا فِي الْبَدَايَةِ كَذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وهذه الآية في سورة مدنيّة، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم؛ ثم علّق الفلاح بالتوبة تعليق المسبّب بسببه؛ وأتى بأداة (لعلّ) المشعرة بالترجّي، إيذاناً بأنكم إذا ثبتتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] قسّم العباد إلى تائب وظالم، وما تمّ قسم ثالث البتّة، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه وبعبئ نفسه وآفات أعماله، وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس! توبوا إلى الله، فوالله! إنّي لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»<sup>(٢)</sup>، وكان أصحابه يعدّون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «رَبِّ اغْفِرْ لِي

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٦٧).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة وليس في أوله: «يا أيها الناس! توبوا إلى =

وَتُبَّ عَلَيْكَ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ» مئة مرة (١) «(٢).

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُصْرِكِينَ﴾ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿﴾ فيها:

أَنَّ مِنْ أَهَمِّ مَا يَعِينُ عَلَى الاستقامة: الصدقة، فالصدقة برهان، والزكوات تعين على لزوم طريق الاستقامة، فَإِنَّ الْمُتَصَدِّقَ لَا يَتَصَدَّقُ إِلَّا وَهُوَ عَلَى يَقِينٍ بالرجوع إلى الله، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِ إِحْسَانًا بِإِحْسَانِهِ، وَلِذَا كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رحمه الله - إِذَا أَتَاهُ سَائِلٌ رَحَّبَ بِهِ، وَقَالَ: «مَرْحَبًا بِمَنْ يَحْمِلُ زَادِي إِلَى الْآخِرَةِ» (٣)، فَالسَّائِلُ الَّذِي يَسْأَلُكَ فَتَعْطِيهِ، يَقْدَمُ لَكَ زَادُكَ إِلَى دَارِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَبِغَيْرِ أَجْرَةٍ.

وَالشَّاهِدُ أَنَّ الصَّدَقَةَ بَرَهَانٌ عَلَى الْإِيمَانِ، وَأَمَّا الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَقَامُ الاستقامة عَسِيرٌ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَعْسَرَ صُورُ الاستقامة عَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَ الصَّدَقَةَ، وَلِذَا قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى الاستقامة - أَيْضًا -: «الاعْتِبَارُ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ لَا يَزَالُ مَسْتُورًا مِنْكَ أَوْ غَائِبًا عَنْكَ، فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمُعْتَبِرِ كَادَ أَنْ يَقُومَ لَكَ الْاعْتِبَارُ مَقَامَ الْمُخْبِرِ الْمُعَايِنِ لِمَا قَدْ غَابَ عَنْكَ، وَمَقَامَ الْكَاشِفِ لَكَ عَنِ الْمَسْتُورِ عَنْكَ، حَتَّى تَنْظُرَ إِلَى زِينِ الْأُمُورِ وَشَيْنِهَا، وَحَسَنِهَا وَقَبِيحِهَا، وَتَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ صَارَ الْحَسَنُ حَسَنًا

---

= الله»، وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٧٠٢) مِنْ حَدِيثِ الْأَعْرَبِيِّ الْمَزْنِيِّ مَرْفُوعًا: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِئَةَ مَرَّةٍ».

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٤٣٤)، وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ.

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (١/١٧٨).

(٣) «صِفَةُ الصَّفْوَةِ» (٢/٩٥).

والقيح قبيحًا، فَتَتَّبِعْ مِنْ ذَلِكَ مَا فِيهِ نَجَاتُكَ وَتَجْتَنِبْ مَا فِيهِ هَلَكَتُكَ»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### \* ثمار الاستقامة:

الاستقامة لها بركاتٌ وثمار، ودونها تقع المصائب والنكبات، وتظهر آثارٌ سلبيةٌ على الأمم والشعوب، ومن ثمارها ما بيَّنه الله - عز وجل - بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا شِئْتُمْ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ فالاستقامة تكون أول ما تكون على التوحيد، لأنها حق كلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

وفي «سنن ابن ماجه» سأل سفيان بن عبد الله الثقفي رسول الله ﷺ أن يوصيه، فقال له: «قُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»<sup>(٢)</sup>، فالاستقامة من مقتضيات العلم، فبدون علم لا يمكن تحصيل الاستقامة، والاستقامة تقتضي الإخلاص، والاستقامة تقتضي التزام السنة، فالاستقامة هي الثبات على هذا الطريق، ولذا قال أبو بكر - رضي الله عنه - في تفسير قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا

---

(١) «آداب النفوس» (١٢٥ ط الكتب الثقافية).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٩٧٢)، والترمذي (٢٤١)، وأحمد (٤١٣ / ٣)، وصححه الترمذي

وابن حبان والألباني، وهو في «صحيح مسلم» بلفظ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، فاستقيم».

اللَّهُ ثُمَّ اسْتَغْفِرُوا ﴿١﴾ قال: «على لا إله إلا الله»<sup>(١)</sup>.

(لا إله إلا الله) أعظم كلمة يقولها العبد، وأثقل من السماوات والأرض في الميزان، وحقها على قائلها عظيم، حتى إنَّ الإنسان لو قالها ثمَّ أراد أن يرجع عنها فثمَّنها دمه؛ فقد جاء في الحديث «مَنْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ، فَاقْتُلُوهُ»<sup>(٢)</sup>، فهذه الكلمة حقها على قائلها عظيم.

﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ في النزاع، والإنسان في النزاع مدبرٌ عن دار ومقبلٌ على أخرى، والذي يدبر عن دار وينتقل إلى دار أخرى يحتاج أن يطمئنَّ إلى ما هو مقبلٌ عليه، ويحتاج إلى أن يُطمئنَّ على ما ترك، والله - عز وجل - ينزل الملائكة على أهل الاستقامة وهم في النزاع، ليذهب عنهم القلق على ما خلفوا وراءهم، ومما هم مقبلون عليه.

﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فلا تخافوا مما أنتم مقبلون عليه، ولا تحزنوا على ما تركتم خلفكم، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾.

تعلم يا عبد الله! من هو وليُّ الله؟

قال الإمام الشافعي - رحمه الله -: «إن لم يكن العلماء العاملون هم أولياء

---

(١) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٥٩١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٨٥٦٣)، وهو في «البخاري» (٣٠١٧) بلفظ: «مَنْ بَدَّلَ

دِينَهُ؛ فَاقْتُلُوهُ».

الله، فلا أعلم الله ولياً»<sup>(١)</sup>.

من هم الذين قال الله عنهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي  
الْآخِرَةِ﴾؟

هم أهل الاستقامة، فهم أهل ولاية الله وأهل حفظه ورعايته، فرادى كانوا  
أم مجتمعين.

فنعوذ بالله الرحمن الرحيم من أن يحلّ علينا سخطه ومقته، فيحرمنا ولايته  
وحفظه، ويكلنا إلى أنفسنا، ويمنع عنا توفيقه، فإن الله إذا مقت عبداً أو شعباً أو  
دولةً حرّمها توفيقه، ونزع عنها تدبيره، ووكل كُلاً إلى نفسه، نسأل الله السلامة  
والعافية.

ما معنى: «تَعَرَّفَ عَلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ»<sup>(٢)</sup>؟

تَعَرَّفَ عَلَى اللَّهِ فِي الْأَمْنِ، يَعْرِفَكَ اللَّهُ فِي وَقْتِ الْقَلَاقِلِ وَالْفِتَنِ.

تَعَرَّفَ عَلَى اللَّهِ فِي الْقُوَّةِ، يَعْرِفَكَ اللَّهُ فِي الضَّعْفِ.

تَعَرَّفَ عَلَى اللَّهِ فِي الشَّبَابِ، يَعْرِفَكَ اللَّهُ فِي الشَّيْخُوخَةِ.

تَعَرَّفَ عَلَى اللَّهِ فِي الْغِنَى، يَعْرِفَكَ اللَّهُ فِي الْفَقْرِ.

وعلى كلِّ حال، فإذا حصلت الاستقامة فالثمرات عظيمة ومدهشة، وهذا  
نموذجٌ منها فتأمّله:

قال - تعالى -: ﴿وَالْوِاسْتِقَامَةُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] لو

استقام الناس لكفاهم الله - جلّ في علاه - صعوبة العيش، ولجعلهم يعيشون في

(١) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٣/١١٨).

(٢) رواه أحمد (١/٣٠٧) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - .



رغد، وفي بحبوحة.

الاستقامة تتولد عنها الخيرات على مستوى الأفراد والشعوب والحكومات، وفي المقابل تتولد الشرور والكوارث والنكبات على الأفراد والشعوب عن الذنوب والمعاصي.

ومن المناسب أن نتعرض - مستنيرين بالقرآن والسنة، ومسترشدين بهدائيهما - إلى بعض الثمار الكلية لا التفصيلية للاستقامة والطاعة التي لا يمكن أن يكفينا في الحديث عنها يومٌ ولا بعضُ يوم، ونحن نقصد بطبيعة الحال: الثمرات الطيبة المباركة المعنوية أو المحسوسة، التي وعد الله بها أهل طاعته ورضوانه في الدنيا.

وإنما اخترتُ أن يكون أكثر الكلام عن بركات الطاعة وآثار الذنوب على دُنيا الإنسان وحياته، لا تعلقًا بالدُّنيا ولا دعوةً للنَّاس للعكوف على إصلاحها وحدها، ونعوذ بالله من ذلك، فإنَّ هذا هو الجهل والحُمق، كيف لا؟! ونبينا ﷺ يقول: «ما لي وللدُّنيا؟! ما أنا في الدُّنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ثمَّ راح وتركها»<sup>(١)</sup>.

وإنما نختار التركيز على الآثار الدنيوية والمحسوسة، لا لشيءٍ إلا لأنَّ النفوسَ مجبولةٌ على الميل إلى الحظوظ العاجلة، ومطبوعةٌ على الاستزادة ممَّا ترى مقدماتٍ منافعه، ويسهلُ عليها التصديق به والإقرار بحقيته.

وهذا كما قيل لعكرمة بن أبي جهل لما هرب من النبي ﷺ وهو مشرك يوم فتح مكة، فركب البحر وهو هائج، فقال أصحاب السفينة: «أخلصوا! فإنَّ أهلكم لا تغني عنكم شيئاً ها هنا!». فقال عكرمة: «والله! لئن لم يُنجني من البحر إلا

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٧) وابن ماجه (٤١٠٩).

الإخلاص؛ لا يُنجيني في البرِّ غيرُه، اللهم! إنَّ لك عليَّ عهدًا إنَّ أنتَ عافيتني ممَّا أنا فيه، أن آتي محمدًا حتى أضَعَ يدي في يده، فلا جدَّنه عفوًّا كريماً، فجاء فأسلم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

\* كلماتُ جامعاتٍ في بركاتِ الطَّاعات:

نوردُ بعضَ الكلماتِ المجلَّةِ لأهلِ العلمِ حولِ ثمراتِ الطَّاعةِ والاستقامةِ ومنافعها وبركاتِها، فإنَّ لأهلِ العلمِ كلماتٍ رائقةً حريَّةً بالتأمُّلِ والقراءةِ بالقلبِ. قال ابنُ الجوزيِّ - رحمه الله -: «من تأمَّل عواقبَ المعاصي رآها قبيحةً، ولقد تفكَّرتُ في أقوامٍ أعرَفهم يقرُّون بالزَّنا وغيره، فأرى من تعرُّهم في الدنيا - مع جلاذتهم - ما لا يقف عند حدٍّ! وكأنَّهم قد ألبسوا ظُلْمَةً، فالقلوبُ تنفر عنهم! فإنَّ اتَّسع لهم شيءٌ فأكثره من مالِ الغيْرِ، وإن ضاقَ بهم أمرٌ أخذوا يتسَخَّطون على القَدَر، هذا، وقد شغلوا بهذه الأوساخِ عن ذكرِ الآخرة.

ثم عكستُ فتفكَّرتُ في أقوامٍ صابروا الهوى، وتركوا ما لا يحلُّ؛ فمنهم من قد أينعت له ثمراتُ الدنيا من قوتٍ مُستلذٍّ، ومهادٍ مُستطابٍ، وعيشٍ لذيذٍ، وجاهٍ عريضٍ، فإن ضاقَ بهم أمرٌ وسَّعه الصبرُ، وطيبَّه الرِّضى، ففهمتُ بالحالِ معنى قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيُصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال ابنُ القيم - رحمه الله - في مقدِّمته لكتابه العظيم «إعلام الموقعين»: «فإنَّ أوَّلَى ما يتنافس به المتنافسون، وأحرى ما يتسابق في حلبة سباقه المتسابقون،

---

(١) رواه النَّسائي (٤٠٦٧)، وسنده صحيح.

(٢) «صيد الخاطر» (ص ١٤٠ ط دار القلم).

ما كان بسعادة العبد في معاشه ومعاده كفيلاً، وعلى طريق هذه السَّعادة دليلاً، وذلك العلم النَّافع والعمل الصَّالح، اللَّذان لا سعادة للعبد إلاَّ بهما، ولا نِجاة له إلاَّ بالتعلُّق بسببهما، فمن رُزقهما فقد فاز وَغَنِمَ، ومن حُرِّمَهما فالخِيرَ كُلَّهُ حُرِمَ، وهما مورد انقسام العباد إلى مرحوم ومحروم، وبهما يتميَّز البَرُّ من الفاجر، والتَّقِيُّ من الغَوِيِّ، والظَّالِمُ من المظلوم»<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «العبدُ إنما خُلِقَ لعبادةِ ربِّه، فصلاحه وكمالُه ولذَّته وفرحُه وسروره في أنْ يعبدَ ربَّه وينيبَ إليه، وذلك قَدْرُ زائدٍ على مسألته والافتقارِ إليه؛ فإنَّ جميعَ الكائناتِ حادثَةٌ بمشيئته، قائمَةٌ بقدرته وكلمته، محتاجةٌ إليه، فقيرةٌ إليه، مسلمةٌ له طَوْعاً وَكَرْهاً، فإذا شهدَ العبدُ ذلك وأسلمَ له وخضع، فقد آمَنَ بربوبيَّته ورأى حاجته وفقره إليه، وصار سائلاً له متوكِّلاً عليه، مستعيناً به إما بحاله أو بقاله، بخلافِ المستكبر عنه المعرض عن مسألته»<sup>(٢)</sup>.

ولا ريب أنَّ الله - تبارك وتعالى - بيَّنَ عناوين سعادة المرء بياناً شافياً، وكذلك رُسُلُه الكرام - عليهم الصلاة والسلام -، فقد رُفِعت منارات السَّعادة وأعلام الهداية لطلَّابها، وهذا من لُطف الله ورحمته بعباده، فالله هُداة لمراده وأرسل لنا رسله لأنَّه - سبحانه وتعالى - الرحمن الرحيم.

يقول ابن القيم - رحمه الله - معدِّداً دَلالات سورة الفاتحة:

«وتضمنت إثبات النبوات من جهاتٍ عديدةٍ:

أحدها: كونه ربِّ العالمين، فلا يليقُ به أن يترك عباده سُدىً هملاً، لا يُعرِّفهم

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ٧ - ٨ بتحقيقي).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤ / ٣٢).

ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرهم فيهما، فهذا هُضمٌ للربوبية ونسبةُ الرَّبِّ - تعالى - إلى ما لا يليق به، وما قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم (الله)، وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه (الرحمن)، فإنَّ رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم الرحمن حقَّه عرف أنَّه متضمَّنٌ لإرسال الرُّسل وإنزال الكتب؛ أعظم من تضمُّنه إنزال الغيث وإنبات الكلاء وإخراج الحبِّ، فافتضاء الرَّحمة لِمَا تحصلُ به حياة القلوب والأرواح، أعظم من اقتضاءها لِمَا تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدوابِّ، وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك»<sup>(١)</sup>.

والله - تبارك وتعالى - يقول: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٥١)</sup> وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١ - ٥٢].

فالفوز والفلاح، ثمراتٌ مباركةٌ للإذعان لحُكم الله وحُكم رسوله، ونتائجٌ سعيدةٌ لطاعة الله، وخشيته، وتقواه، وطاعة رسوله ﷺ.

قال ابن كثير - رحمه الله -: «أخبر - تعالى - عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يبغيون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سماعاً وطاعة؛ ولهذا وصفهم - تعالى - بالفلاح؛ وهو نيل المطلوب والسلامة من المارهب، فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وقوله ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما أمراه به

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٧ - ٨).

وترك ما نهاه عنه ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ فيما يستقبل، وقوله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup>.

وقال العلامة السَّعدي - رحمه الله -: «أي: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة، الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم حين يُدْعَوْنَ إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء وافق أهواءهم أو خالفها ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حصر الفلاح فيهم؛ لأنَّ الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حَكَّم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله.

ولما ذكر فضل الطاعة في الحُكْم خصوصًا، ذكر فضلها عمومًا في جميع الأحوال؛ فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيصدق خبرهما ويمثل أمرهما ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ أي: يخافه خوفًا مقرونًا بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ بترك المحذور؛ لأن التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها فعلُ المأمور وتركُ المنهي عنه، وعند اقترانها بالبرِّ أو الطَّاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقِّي عذابِ الله بترك معاصيه، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بنجاتهم من العذاب لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قَصَرَ عنه من هذه الأوصاف الحميدة<sup>(٢)</sup>.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٧٥).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٥٧٢).

قال ابن القيم - رحمه الله -:

«فَفِي الْقَلْبِ شَعْتُ لَا يُلْتَمُهُ إِلَّا الْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ.

وَفِيهِ وَحْشَةٌ لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْأَنْسُ بِهِ فِي خَلَوْتِهِ.

وَفِيهِ حُزْنٌ لَا يَذْهَبُهُ إِلَّا السُّرُورُ بِمَعْرِفَتِهِ وَصِدْقِ مُعَامَلَتِهِ.

وَفِيهِ قَلَقٌ لَا يُسْكِنُهُ إِلَّا الْاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَالْفِرَارُ مِنْهُ إِلَيْهِ.

وَفِيهِ نِيرَانٌ حَسَرَاتٍ لَا يُطْفِئُهَا إِلَّا الرِّضَا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَقَضَائِهِ، وَمُعَانَقَةُ الصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى وَقْتِ لِقَائِهِ.

وَفِيهِ طَلَبٌ شَدِيدٌ لَا يَقِفُ دُونَ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَحْدَهُ مَطْلُوبُهُ.

وَفِيهِ فَاقَةٌ لَا يَسُدُّهَا إِلَّا مَحَبَّتُهُ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَدَوَامُ ذِكْرِهِ، وَصِدْقُ الْإِخْلَاصِ لَهُ.

وَلَوْ أُعْطِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَمْ تَسُدَّ تِلْكَ الْفَاقَةَ مِنْهُ أَبَدًا»<sup>(١)</sup>.

وقد قال حذيفة بن اليمان - رضي الله عنهما -: «من أراد أنساباً بلا جماعة، وعزاً بلا عشيرة، فليَتَّخِذْ طَاعَةَ اللَّهِ بِضَاعَةً»<sup>(٢)</sup>.

وقال الحسين بن أحمد الهروي: سمعت الشبلي يقول: «أَطْعِ اللَّهَ، يُطْعِكَ كُلُّ شَيْءٍ»<sup>(٣)</sup>.

وقال يحيى بن معاذ: «من سَرَّ بِخِدْمَةِ اللَّهِ، سُرَّتْ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا بِخِدْمَتِهِ،

(١) «مدارج السالكين» (٣/١٥٦ ط الكتاب العربي).

(٢) «الزهد الكبير» للبيهقي (ص ٢٨٢).

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

ومن قَرَّتْ عينُه بالله، قَرَّتْ عيونُ كلِّ شيءٍ بالنَّظَرِ إليه»<sup>(١)</sup>.

ومن الكلمات المؤثرة قول بعضهم: «أي شيء وجدَ من فقدَ الله؟! وأي شيء فقدَ من وجدَ الله؟! لا يستويان أبداً! من وجدَ الله وجدَ كلَّ شيء، ومن فقدَ الله فقدَ كلَّ شيء».

ثمرات الطَّاعة وآثار الاستقامة على الفرد لا يمكن أن تُحصى، ولا نقدر على إحصاء آثارها على ظاهر الإنسان؛ من العافية في بدنه والسَّعة في رزقه، فضلاً عن أن نحصي آثارها على باطنه وعلى قلبه، وفي ذلك من الصور والأحوال ودقيق المسائل ما لا يحصيه إلا من هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت - سبحانه وتعالى -، ولذا فإنِّي أقتصرُ فيما أورده على بضع ثمراتٍ كليَّةٍ تتَّسم بأنَّها تعمُّ الناس، وتشمل المجتمع، وتمسُّ منافعها جماعة المسلمين، حكَّامًا ومحكومين، إذا ما تعاونوا على مراعاة أسبابها وما يوصل إليها.

فمن ذلك:

أولاً - النَّصر على العدو:

قال - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأَلَهُمْ وَاصْلَ أَعْمَالُهُمْ ۝٨ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَطُوا أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾  
[محمد: ٧-٩].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله -: «ومعنى نصر المؤمنين لله: نصرُهم لدينه ولكتابهِ، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدودُه في أرضه، وتُتمثل أوامره وتُجتنب نواهيه، ويُحكم في عبادته بما أنزل

(١) «الزهد الكبير» للبيهقي (ص ٢٨٢).

على رسوله ﷺ»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عطية: «وقوله - تعالى -: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ﴾ فيه حذف مضاف؛ أي: دين الله ورسوله، والمعنى: تنصروه بجدِّكم وأتباعكم وإيمانكم ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ بخلق القوة لكم، والجرأة، وغير ذلك من المَعَاوِنِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال العلامة السَّعدي - رحمه الله -: «هذا أمرٌ منه - تعالى - للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم؛ أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاة، ويسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره.

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم في تعس؛ أي: انتكاس من أمرهم وخذلان»<sup>(٣)</sup>.

وللعلامة البقاعي - رحمه الله - كلمة راقية مفصَّلة جميلة، قال:

﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: يتجدد لكم نية مستمرة وفعل دائم على نصره دين الملك الأعظم؛ بإيضاح أدلته وتبيينها، وتوحيه شبه أهل الباطل وقتالهم، ويكون ذلك خالصاً له لا غيره من النيات الفاسدة المعلولة بطلب الدنيا أو الشهرة بالشجاعة والعلم وطيب الذكر والغضب للأهل وغير ذلك ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ فإنه النَّاصر لا غيره من عُدَدٍ أو عَدَدٍ، فيقمع أعداء الدين بأيديكم.

(١) «أضواء البيان» (٧/ ٤٥٢).

(٢) «المحرر الوجيز» (٥/ ١١٢).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٧٨٥).



ولما كان النصر قد يكون مع العجز والكسل والجبن والفشل؛ يَبْنُ أنه يحميهم من ذلك فقال: ﴿وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي: تثبيتاً عظيماً؛ بأن يملأ قلوبكم سكينه واطمئنناً، وأبدانكم قوة وشجاعة في حال القتل، ووقت البحث والجدال، وعند مباشرة جميع الأعمال، فتكونوا عالين قاهرين، في غاية ما يكون من طيب النفوس وانسراح الصدور، ثقة بالله واعتزازاً به، وإن تمالاً عليكم أهل الأرض»<sup>(١)</sup>.

وهذا المعنى من قطعيات الشريعة كما نعلم جميعاً، ولذا جاء تقريره بأوضح عبارة في مجموعة من النصوص، قال - سبحانه -: ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهؤا عن المنكر ولله عتبة الأمور] [الحج: ٤٠ - ٤١].

وقال - تعالى -: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقال - تعالى -: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال - سبحانه -: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، وغير ذلك.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «وقد أخبر - سبحانه - أن كثيراً من الأنبياء قُتل معه ربيون كثير؛ أي: ألوف كثيرة، وأنهم ما ضَعُفُوا ولا استكانوا لذلك، بل استغفروا من ذنوبهم التي كانت سبب ظهور العدو، وأن الله آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، فإذا كان هذا قتلى المؤمنين، فما الظنُّ بقتلى الأنبياء؟! ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح.

(١) «نظم الدرر» (١٨/٢٠٩).

وظهور الكفار على المؤمنين - أحياناً - هو بسبب ذنوب المسلمين؛ كيوم أحد، فإن تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم، كما قد جرى مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها، فإنَّ النبيَّ إذا قاموا بعهوده ووصاياه نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له، فإذا ضيَّعوا عهوده ظهر أولئك عليهم، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبيِّ وجوداً وعدمًا، من غير سبب يزاحم ذلك، ودوران الحكم مع الوصف وجوداً وعدمًا من غير مزاحمة وصف آخر، موجب للعلم بأنَّ المدارَ علَّةٌ للدائر»<sup>(١)</sup>.

وقال - رحمه الله -: «وكذلك الشام، كانوا في أوَّل الإسلام في سعادة الدنيا والدين، ثمَّ جرت فتنٌ وخرج المُلكُ من أيديهم، ثمَّ سُلِّطَ عليهم المنافقون الملاحدة والنَّصارى بذنوبهم، واستولوا على بيت المقدس وقبر الخليل، وفتحوا البناء الذي كان عليه وجعلوه كنيسةً، ثمَّ صلَّح دينهم، فأعزَّهُم الله ونصرهم على عدوهم لما أطاعوا الله ورسوله واتبَعُوا ما أنزل إليهم من ربهم، فطاعة الله ورسوله قُطِبُ السَّعادة، وعليها تدور»<sup>(٢)</sup>.

ونقف هنا وقفةً أخرى مع شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو يؤرِّخ تاريخاً واقعياً لهذه الصِّلة بين نصر دين الله، واعتناق العقيدة الصحيحة، وتحقيق توحيد الله، وتجريد المتابعة للرسول ﷺ، وبين النصر على الأعداء، وهو نقلٌ قيِّمٌ خطيرٌ حريٌّ بالتأمل، ينقل فيه شيخ الإسلام ما وقع أيام التَّار.

قال شيخ الإسلام: «ولهذا، ما بيَّنتُ هذه المسألة قطُّ لمن يَعرف أصل الإسلام، إلا تَفَطَّن وقال: هذا أصل دين الإسلام، وكان بعض الأكابر من الشيوخ

(١) «الجواب الصحيح» (٦/ ٤١٥-٤١٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٤٣٧).

العارفين من أصحابنا يقول: هذا أعظم ما بيّنته لنا، لعلمه بأنّ هذا أصل الدّين.

وكان هذا وأمثاله في ناحية أخرى يدعون الأموات ويسألونهم ويستجيرون بهم ويتضرعون إليهم، وربما كان ما يفعلونه بالأموات أعظم؛ لأنّهم إنّما يقصدون الميّت في ضرورة نزلت بهم، فيدعونه دعاء المضطر راجين قضاء حاجتهم بدعائه والدعاء به أو الدعاء عند قبره، بخلاف عبادتهم الله - تعالى - ودعائهم إيّاه، فإنّهم يفعلونه في كثير من الأوقات على وجه العادة والتكلّف!

حتى إنّ العدو الخارج عن شريعة الإسلام لمّا قدم دمشق؛ خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجون عندها كشف ضرّهم!!  
وقال بعض الشعراء:

يا خائفين من التتر      لودوا بقبر أبي عمر  
أو قال:

عودوا بقبر أبي عمر      ينجيكم من الضر  
فقلت لهم: هؤلاء الذين تستغيثون بهم لو كانوا معكم في القتال لانهزموا كما انهزم من المسلمين يوم أحد، فإنّه كان قد قُضي أنّ العسكر ينكسر لأسبابٍ اقتضت ذلك، ولحكمة الله - عز وجل - في ذلك، ولهذا كان أهل المعرفة بالدين والمكاشفة لم يقاتلوا في تلك المرة، لعدم القتال الشرعيّ الذي أمر الله به ورسوله، ولمّا يحصل في ذلك من الشرّ والفساد وانتفاء النصرة المطلوبة من القتال، فلا يكون فيه ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة، لمن عرف هذا وهذا، وإنّ كثيرًا من القائلين الذين اعتقدوا هذا قتالًا شرعيًّا أجروا على نيّاتهم.

فلما كان بعد ذلك؛ جعلنا نأمر الناس بإخلاص الدين لله - عز وجل -

والاستغاثة به، وأنهم لا يستغيثون إلا إياه، لا يستغيثون بملكٍ مقرب ولا نبيٍّ مرسل، كما قال - تعالى - يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، وروي أنَّ رسول الله ﷺ كان يوم بدر يقول: «يا حيُّ يا قيُّوم! لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث»، وفي لفظ: «أصلح لي شأني كلَّه، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»<sup>(١)</sup>.

فلما أصلح الناس أمورهم وصدقوا في الاستغاثة برهيم، نصرهم على عدوهم نصرًا عزيزًا، ولم تهزم التتار مثل هذه الهزيمة قبل ذلك أصلًا، لِمَا صحَّ من تحقيق توحيد الله - تعالى - وطاعة رسوله ما لم يكن قبل ذلك، فإنَّ الله - تعالى - ينصر رسوله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم الأَشهاد<sup>(٢)</sup>.

ويزيدُ ابن القيم - رحمه الله - هذا المعنى بسطًا، فيقول: «قال - تعالى -: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فللعبد من العلوِّ بحسب ما معه من الإيمان.

وقال - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظُّ من العلوِّ والعزة، ففي مُقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علمًا وعملاً، ظاهرًا وباطنًا.

وكذلك الدفْعُ عن العبد هو بحسب إيمانه، قال - تعالى -: ﴿إِنِ اتَّبَعَ اللَّهُ يُدْفَعْ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]. فإذا ضَعُف الدفْعُ عنه فهو من نَقْصِ إيمانه.

وكذلك الكفاية والحسْبُ هي بقَدْرِ الإيمان، قال - تعالى -: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي: حَسْبُكَ الله وحَسْبُ

(١) انظر: «الصحيحة» (٢٢٧، ٣١٨٢).

(٢) «الرد على البكري» (٧٣١/٢ - ٧٣٣).

أتباعك، أي كافيك وكافيتهم، فكفايته لهم بحسب أتباعهم لرسوله، وانقيادهم له، وطاعتهم له، فما نقص من الإيمان عاد بنقصان ذلك كله...

وكذلك النصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال - تعالى -: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد.

ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله أو بإدالة عَدُوِّه عليه، فإنها هي بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم، وهو من نقص إيمانه.

وهذا يزول الإشكال الذي يُورده كثير من الناس على قوله - تعالى -: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، ويجبُ عنه كثيرٌ منهم: بأنه لن يجعلَ لهم عليهم سبيلًا في الآخرة، ويجب آخرون: بأنه لن يجعلَ لهم عليهم سبيلًا في الحجة.

والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضَعُفَ الإيمان صار لعدُوِّهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوه من طاعة الله - تعالى -.

فالمؤمن عزيز عالٍ مُؤَيَّدٌ منصور مَكْفِيٌّ مَدْفُوعٌ عنه بالذَّاتِ أين كان، ولو اجتمع عليه مَنْ بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهرًا وباطنًا<sup>(١)</sup>.

وقال - رحمه الله -: «فلولا أَنَّهُ - سبحانه - يداوي عباده بأدويةِ المِحنِ والابتلاء، لطغوا، وبَغَوْا، وَعَتَوْا، واللهُ - سبحانه - إذا أراد بعبدٍ خيرًا سقاه دواءً

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٢٦ - ٩٢٧) مع حذفٍ يسير.

من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبته ونقاه وصفاه، أهله لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته وقربه»<sup>(١)</sup>.

وما أجل ما خرجه أبو نعيم في «الحلية»<sup>(٢)</sup> بسنده عن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أنه كتب إلى بعض عماله:

«عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك، فإن تقوى الله أفضل العدة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة، ولا تكن في شيء من عداوة عدوك أشد احتباساً لنفسك ومن معك من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم، لأن عدونا ليس كعددهم، ولا قوتنا كقوتهم، فإن لا تُنصر عليهم بمقتنا<sup>(٣)</sup> لا نغلبهم بقوتنا.

ولا تكونن لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم، ولا أشد تعاهداً منكم لذنوبكم، واعلموا أن عليكم ملائكة الله حفظة عليكم، يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنازلكم، فاستحيوا منهم وأحسنوا صحابتهم، ولا تؤذوهم بمعاصي الله وأنتم - زعمتم - في سبيل الله!

ولا تقولوا: إن عدونا شر منّا، ولن يُنصروا علينا وإن أذنبنا، فكم من قوم قد سُلط - أو سُخِط - عليهم بأشر منهم لذنوبهم، وسلوا الله العون على أنفسهم،

---

(١) «زاد المعاد» (٤/١٩٥).

(٢) «حلية الأولياء» (٥/٣٠٣).

(٣) كذا في «الحلية»، ولعلها مصحفة عن (بحقنا).

كما تسألونه العون على عدوكم، نسأل الله ذلك لنا ولكم».

ثانيًا - تحقيق الأمن في المجتمع، والتمكين له واستقراره:

تبدل الدول اليوم جهودًا كثيرةً متتابعةً، وميزانيات استثنائية، كل ذلك لكي تُصنّف في عداد الدول الآمنة، وتنخفض فيها مؤشرات الجرائم على اختلاف أشكالها وتنوع مرتكبيها، فالأمن من أعظم المقاصد التي يسعى خلفها الإنسان بفطرته، وهو من الأمور التي راعاها الشرع مراعاة منقطعة النظير، وشرع لأجل تحقيقها في النفوس والمجتمعات تشريعات لا مثيل لها في إحكامها وحكمها، ولسنا بصدد التعرّض لتفاصيل ذلك، وإنما نذكر الأمن باعتباره ثمرةً عامّةً لعموم الطاعات، ونتيجة لاستقامة المجتمعات على توحيد الله، وأتباع الرسول ﷺ.

قال ربُّنا - تبارك وتعالى - عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في مناظرته لقومه: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالُوا أَمْحَجَّجُوكَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا وَلَا آخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ آخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٢].

فأهل التوحيد والإيمان، هم أهل الأمن والاطمئنان، لأنهم يركنون إلى القوي العزيز ويتوكلون عليه، ومن يتوكل عليه فهو حسبه - سبحانه -.

قال - تعالى -: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٨٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٦ - ٣٧].

قال ابن جزي: «﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ تقوية لقلب محمد ﷺ، وإزالة

للخوف الذي كان الكفار يخوفونه»<sup>(١)</sup>.

وهناك قراءة متواترة مشهورة صحيحة بالجمع: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾<sup>(٢)</sup>، والقراءة الأولى لا تعارضها، فإنَّ قوله - تعالى - ﴿عَبْدَهُ﴾ يصحُّ حمله على أشرف العباد وهو نبينا ﷺ، ويصحُّ حملها على الجنس، وهي مفردٌ مُضافٌ فتكون من صيغ العموم، لتكون عامَّةً في كلِّ من حقَّق العبودية لله - تعالى -، فإنَّ الله يكفيه شرَّ الكائدين، ويؤمِّنُه على نفسه، فإذا تحقَّقت العبودية في المجتمع، كان الأمان عامًّا، ودفع الشرور عامًّا، والكفاية الربَّانية عامَّة.

قال ابن عطية: «وقرأ حمزة والكسائي ﴿عباده﴾ يريد: الأنبياء المختصين به وأنت أحدهم، فدخل في ذلك المطيعون من المؤمنين، والمتوكلون على الله»<sup>(٣)</sup>.

وقال العلامة السَّعدي: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أي: أليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبده، الذي قام بعبوديته، وامثل أمره واجتنب نهيه، خصوصًا أكمل الخلق عبودية لربه وهو محمد ﷺ، فإنَّ الله - تعالى - سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناواه بسوء»<sup>(٤)</sup>.

ولذا يقول الله - تعالى - مادحًا إيمان الصَّحابة - رضي الله عنهم - به، وركونهم إلى كفايته، ثقةً بتوحيدهم وأتباعهم لنبيهم ﷺ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دَارِهِمْ وَأَتَّابِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢/ ٢٢١).

(٢) انظر: «معجم القراءات» (٨/ ١٦٠) لعبد اللطيف الخطيب.

(٣) «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٣٢).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٢٤).



عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥].

وكذلك وعد الله أهل الطاعات من الإيَّان والعمل الصالح بالتمكين لهم، واستقرار سلطتهم؛ فقال - تعالى -: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

قال العلامة الشنقيطي: «أي: ليجعلنهم خلفاء الأرض، الذين لهم السيطرة فيها، ونفوذ الكلمة، والآيات تدلُّ على أنَّ طاعة الله بالإيَّان به، والعمل الصالح، سببٌ للقوَّة والاستخلاف في الأرض، ونفوذ الكلمة»<sup>(١)</sup>.

وقال العلامة الألوسي: «والمعنى: ليجعلنَّ دينهم ثابتًا مقررًا بأن يعلي - سبحانه - شأنه، ويقوِّي بتأييده - تعالى - أركانه، ويعظِّم أهله في نفوس أعدائهم الذين يستغرقون النهار والليل في التدبير لإطفاء أنواره، ويستنهضون الرجال والخليل للتوصل إلى إعفاء آثاره، فيكونون بحيث يأسون من التجمُّع لتفريقهم عنه ليذهب من البين، ولا تكاد تحدثهم أنفسهم بالحيلولة بينهم وبينه ليعود أثرًا بعد عين.

وقيل: المعنى ليجعله مقررًا ثابتًا بحيث يستمرون على العمل بأحكامه، ويرجعون إليه في كل ما يأتون وما يذرون، وأصل (التمكين): جعلُ الشيء مكانًا لآخر، والتعبير عن ذلك به للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة أحكامه، وسلامته عن التغير والتبديل، لابتنائه على تشبيهه بالأرض في الثبات والقرار،

(١) «أضواء البيان» (٦/ ٢٧٣).

مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف في الأرض»<sup>(١)</sup>.

فالأمن واستقرار الحال على الخير ثمرتان للاستقامة والطاعة، كما يوضحه - أيضًا - قوله - تعالى -: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

عن يحيى الغساني قال: «لَمَّا وَلَّانِي عمرُ بن عبد العزيز المَوْصِلَ، قَدِمْتُهَا فوجدتها من أكبر البلاد سَرَقًا وَنَقْبًا، فكتبتُ إلى عمر أُعْلِمُهُ حَالِ الْبَلَدِ، وأسأله: أَخَذُ مِنَ النَّاسِ بِالْمَظْنَةِ وَأَضْرِبُهُمْ عَلَى التُّهْمَةِ؟ أَوْ أَخَذُهُمْ بِالْبَيِّنَةِ وَمَا جَرَتْ عَلَيْهِ عَادَةُ النَّاسِ؟ فَكَتَبَ إِلَيَّ أَنْ أَخَذَ النَّاسَ بِالْبَيِّنَةِ وَمَا جَرَتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ، فَإِنْ لَمْ يَصْلَحْهُمْ الْحَقُّ فَلَا أَصْلَحْهُمْ اللَّهُ!

قال يحيى: ففعلتُ ذلك، فما خرجتُ من المَوْصِلِ حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سَرَقًا وَنَقْبًا»<sup>(٢)</sup>.

وكتب الجراح بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: «إِنَّ أَهْلَ خُرَاسَانَ قَوْمٌ سَاءَتْ رَعِيَّتُهُمْ، وَإِنَّهُ لَا يَصْلِحُهُمْ إِلَّا السِّيفُ وَالسَّوْطُ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي ذَلِكَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عمر: أَمَا بَعْدُ! فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذَكُّرَ أَنَّ أَهْلَ خُرَاسَانَ قَدْ سَاءَتْ رَعِيَّتُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا يَصْلِحُهُمْ إِلَّا السِّيفُ وَالسَّوْطُ، فَقَدْ كَذَبْتَ! بَلْ يَصْلَحُهُمُ الْعَدْلُ وَالْحَقُّ فَابْسُطْ ذَلِكَ فِيهِمْ، وَالسَّلَامُ»<sup>(٣)</sup>.

فانظر كيف آل أمر المجتمع إلى الخير والعافية، عند تحكيم القرآن والسُّنَّةِ، وتأمرهما على كل صغيرة وكبيرة، والثقة بحُسن العاقبة لمن أطاع الله.

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٢٠٣).

(٢) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٧١).

(٣) «المتفق والمفروق» (٣/ ١٧٣١)، و«تاريخ دمشق» (٧٢/ ٥٩).

ثالثاً - البركة في الرزق، وتيسير أسبابه:

قال - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وهذه قاعدة مطردة في معاملة الله - تبارك وتعالى - لخلقه، وسنة ماضية فيهم، عامل الله - تعالى - بها من قبلنا، ويعاملنا ويعامل بها من بعدنا، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥ - ٦٦].

وقال - تعالى -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا، ويدل عليه بقية الآية: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ...﴾ فإن هذا الجزاء هو الذي يكون في الآخرة.

وروى الإمام الترمذي - رحمه الله - في «جامعه»<sup>(١)</sup> عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

قال ابن رجب - رحمه الله -: «وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله - عز وجل - في استجلاب المنافع ودفع المضار، من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنَّه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه»<sup>(٢)</sup>.

(١) رقم (٢٣٤٤)، وصححه ابن حبان والضياء وشيخنا الألباني في «الصحيحة» (٣١٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٩٧ ط الرسالة).

وقال في فوائد الحديث: «ويدلُّ على أنَّ الناس إنما يُؤْتَوْنَ من قَلَّةٍ تحقيق التوكُّل، ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم، ومساكتهم لها، فلذلك يتعبون أنفسهم في الأسباب ويجهدون فيها غاية الاجتهاد، ولا يأتيهم إلا ما قُدِّرَ لهم. فلو حقَّقوا التوكُّل على الله بقلوبهم لساق إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب، كما يسوق الطير إلى أرزاقها بمجرد الغدوِّ والرَّواح، وهو نوعٌ من الطَّلَب والسَّعي، لكنَّه سعي يسير»<sup>(١)</sup>.

قال البيهقي - رحمه الله -: «وليس في هذا الحديث دلالة على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدلُّ على طلب الرِّزق، لأنَّ الطَّير إذا غدت فإنها تغدو لطلب الرزق.

وإنما أراد - والله - تعالى - أعلم -: لو توكَّلوا على الله - تعالى - في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم، ورأوا أنَّ الخير بيده ومن عنده؛ لم ينصرفوا إلَّا سالمين غانمين، كالطَّير تغدو خماصًا وتروح بطانًا، لكنَّهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم، ويغشون ويكذبون ولا ينصحون، وهذا خلاف التوكُّل»<sup>(٢)</sup>.

بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أيُّها النَّاس! اتقوا الله وأَجْمِلُوا في الطَّلَب، فإنَّ نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها وإنَّ أبطأ عنها، فاتقوا الله، وأَجْمِلُوا في الطلب، خذوا ما حَلَّ، ودعوا ما حَرُم»<sup>(٣)</sup>.

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٠٢ ط الرسالة).

(٢) «شعب الإيمان» (٢/ ٦٦).

(٣) رواه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصححه ابن حبان والحاكم وشيخنا الألباني في «الصحيحة»

ومعنى «أجملوا في الطلب»: اعتدلوا ولا تُفْرِطُوا، «وإذا تكفَّلَ الله برزقه وجبَ أن لا يبالغَ في الطلب، وأن يعوَّلَ على وعد الله - تعالى - وإحسانه، فإنَّه أكرمُ من أن يُخْلِفَ وعده»<sup>(١)</sup>.

وذلك لأنَّ الله - تبارك وتعالى - قد طمَّأنَّ أهل الإيمان بما يكفي على أرزاقهم، وأتمَّها مضمونةً لهم، حتى قال النبي ﷺ: «لو أنَّ ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت، لأدركه رزقه كما يدركه الموت»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم - رحمه الله -:

«وكذلك شؤم تأثير الذُّنوبِ في نقص الثَّمار وما تُرمى به من الآفات، وقد ذكر الإمام أحمد في «مسنده»<sup>(٣)</sup> - في ضَمَنِ حديثٍ - قال: وَجِدْتُ في خزائن بعض بني أُمَيَّةٍ حِنْطَةً، الحَبَّةُ بِقَدْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ، وهي في صُرَّةٍ مكتوبٌ عليها: هذا كان يَنْبُتُ في زمنِ العدل!

وكثيرٌ من هذه الآفاتِ أحدثها الله - سبحانه وتعالى - بما أحدثَ العبادُ من الذُّنوبِ، وأخبرني جماعةٌ من شيوخ الصَّحراءِ أنَّهم كانوا يَعْهَدُونَ الثَّمارَ أكبرَ ممَّا هي الآن، وكثيرٌ من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها! وإنَّما حدثت من قُرْبٍ.

... فإذا أراد الله أن يطهِّرَ الأرضَ من الظِّلْمَةِ والْحَوْنَةِ والفَجَرَةِ، ويُخْرِجَ عبدًا

---

(١) قاله الفخر الرازي في «تفسيره» (١٢/ ٧٧).

(٢) انظر: «الصحيح» (٩٥٢) لشيخنا الألباني - رحمه الله - .

(٣) (٢/ ٢٩٧) بسندٍ صحيحٍ إلى أبي فحزم قال: وَجَدَ في زمن زياد أو ابن زياد صُرَّةً فيها حَبٌّ أمثالُ النَّوى عليه مكتوبٌ: هذا نبتَ في زمنٍ كان يُعملُ فيه بالعدل.

من عباده من أهل بيت نبيه، فيملاً الأرض قسماً كما ملئت جوراً، ويقتل المسيح اليهود والنصارى، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله؛ تخرج الأرض بركاتها وتعود كما كانت، حتى إن العصاة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وقربع، وإن اللقحة الواحدة لتكفي الفئام من الناس!

وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي؛ ظهرت فيها آثار البركة من الله - تعالى -، التي محقتها الذنوب والكفر<sup>(١)</sup>.

وقال - رحمه الله -:

«وتأمل قوله ﷺ: «الكمأة من المن الذي أنزله الله على بني إسرائيل»<sup>(٢)</sup>، فجعلها من جملته، وفرداً من أفراده، والترنجين الذي يسقط على الأشجار نوع من المن، ثم غلب استعمال المن عليه عرفاً حادثاً.

والقول الثاني: أنه شبه الكمأة بالمن المنزل من السماء، لأنه يجمع من غير تعب ولا كلفة ولا زرع بز ولا سقي.

فإن قلت: فإذا كان هذا شأن الكمأة، فما بال هذا الضرر فيها، ومن أين أتاها ذلك؟

فاعلم أن الله - سبحانه - أتقن كل شيء صنعه، وأحسن كل شيء خلقه، فهو عند مبدإ خلقه بريء من الآفات والعلل، تأم المنفعة لما هيئ وخلق له، وإنما تعرض له الآفات بعد ذلك بأمر آخر من مجاورة، أو امتزاج واختلاط، أو أسباب

(١) «الجواب الكافي» (ص ١٦٠ - ١٦٢).

(٢) رواه مسلم (٢٠٤٩) وابن ماجه (٣٤٥٤).

أَخْرَ تَقْتَضِي فِسَادَهُ، فَلَوْ تَرِكَ عَلَى خِلْقَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّقِ أَسْبَابِ الْفِسَادِ بِهِ، لَمْ يَفْسُدْ.

وَمَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِأَحْوَالِ الْعَالَمِ وَمَبْدِئِهِ يَعْرِفُ أَنَّ جَمِيعَ الْفِسَادِ فِي جَوْهِ وَنَبَاتِهِ وَحَيَوَانِهِ وَأَحْوَالِ أَهْلِهِ، حَادِثٌ بَعْدَ خَلْقِهِ بِأَسْبَابٍ اقْتَضَتْ حَدُوثَهُ، وَلَمْ تَزَلْ أَعْمَالُ بَنِي آدَمَ وَمَخَالَفَتُهُمْ لِلرُّسُلِ تُحْدِثُ لَهُمْ مِنَ الْفِسَادِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ مَا يَجْلِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآلَامِ، وَالْأَمْرَاضِ، وَالْأَسْقَامِ، وَالطَّوَاعِينِ، وَالْقَحُوطِ، وَالْجُدُوبِ، وَسَلْبِ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَثَمَارِهَا، وَنَبَاتِهَا، وَسَلْبِ مَنَافِعِهَا، أَوْ نَقْصَانِهَا أُمُورًا مُتَتَابِعَةً يَتَلَوُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

فَإِنْ لَمْ يَتَّسِعْ عِلْمُكَ لِهَذَا، فَاكْتَفِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الرُّومُ: ٤١]، وَنَزَّلْ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَحْوَالِ الْعَالَمِ، وَطَابِقِ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَبَيْنِهَا، وَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ تَحْدِثُ الْآفَاتُ وَالْعِلَلُ كُلَّ وَقْتٍ فِي الثَّمَارِ وَالزَّرْعِ وَالْحَيَوَانِ، وَكَيْفَ يَحْدُثُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ آفَاتٌ أُخَرُ مُتَتَابِعَةً، بَعْضُهَا آخِذٌ بِرِقَابِ بَعْضٍ، وَكُلُّهَا أَحْدَثُ النَّاسِ ظُلْمًا وَفَجُورًا، أَحْدَثَ لَهُمْ رَبُّهُمْ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مِنَ الْآفَاتِ وَالْعِلَلِ فِي أَغْذِيَتِهِمْ، وَفَوَاكِهِمْ، وَأَهْوِيَتِهِمْ، وَمِيَاهِهِمْ، وَأَبْدَانِهِمْ، وَخَلْقِهِمْ، وَصُورِهِمْ، وَأَشْكَالِهِمْ، وَأَخْلَاقِهِمْ مِنَ النِّقْصِ وَالْآفَاتِ، مَا هُوَ مُوجِبٌ أَعْمَالِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَفَجُورِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: «إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - عَقُوبَاتٍ، فَتَعَاهِدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي الْقَلْبِ وَالْأَيْدَانِ، ضَنْكًا فِي الْمَعِيشَةِ، وَوَهْنًا فِي الْعِبَادَةِ، وَسُخْطَةً فِي الرِّزْقِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) «زاد المعاد» (٤/٣٦٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/٣٦٤).

بل قال أبو خلّاد - رحمه الله - : «ما من قوم فيهم من يتهاون بالصّلاة، ولا يأخذون على يديه؛ إلّا كان أوّل عقوبتهم أن يُنْقَصَ من أرزاقهم!»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن القيم - رحمه الله - : «الصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقويّة للقلب، مبيضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدة للقوى، شارحة للصدر، مغذية للروح، منورة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مُبعدة من الشيطان، مقربة من الرحمن»<sup>(٢)</sup>.

رابعًا - تحقيق الأخوة، وتحقيق الوحدة:

وهذا كذلك من أعظم بركات الطّاعات، فإنّ الأُمَّة الإسلاميّة الممزّقة قد أُشِيعت وأُتخمت بأطروحات السّياسيين ونظريّات من يسمّونهم بالمفكرين، الذين يحاولون الخروج بالأُمَّة العربيّة من حالة التّشرذم والتّفرّق، ولا ندري كيف يقوى هؤلاء على نسيان الأسباب التي وحّد الإسلام بها كلّ المُنضمّين تحت رايته توحيّدًا واجتماعًا عزّ نظيره.

قال - تعالى - : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

قال ابن عطية: «وكلُّ تألّف في الله فتابعٌ لذلك التّألف الكائن في صدر الإسلام، وقد روى سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن مألّفه، لا خير

(١) «فتح الباري» (٣/ ١٤٤) لابن رجب.

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ٣٠٤ ط الرسالة).



فيمَن لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ»<sup>(١)</sup>. قال القاضي أبو محمد: والتَّشابه هو سبب الألفة، فمن كان من أهل الخير أَلِفَ أشباهه وأَلِفُوهُ»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن كثير: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ» ﴿لَمَّا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ، فَإِنَّ الْأَنْصَارَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَأُمُورٌ يَلْزَمُ مِنْهَا التَّسْلُسُ فِي الشَّرِّ، حَتَّى قَطَعَ اللَّهُ ذَلِكَ بِنُورِ الْإِيمَانِ»<sup>(٣)</sup>.

وانظر إلى هذا الوصف البديع الذي ساقه أبو محمد بن حزم - رحمه الله - لحال العرب في تفرُّقها وتشتُّتها قبل الإسلام، قال:

«وأما محمد ﷺ، فلا يختلف أحدٌ في مشرق الأرض وغربها أنه - عليه السلام - أتى إلى قومٍ لِقَاحٍ لا يُقَرُّونَ بِمَلِكٍ، ولا يطيعون لأحد، ولا ينقادون لرئيسٍ، نشأ على هذا آبائهم وأجدادهم وأسلافهم منذ أُلوف من الأعوام، قد سرى الفخر والعزُّ والنخوة والكِبَرُ والظُّلُمُ والأَنَفَةُ في طباعهم، وهم أعدادٌ عظيمةٌ قد ملؤوا جزيرة العرب، وهي نحو شهرين في شهرين، قد صارت طباعهم طِبَاعَ السَّبَاعِ، وهم أُلوفُ الأُلوفِ، قبائلٌ وعشائرٌ يتعصَّبُ بعضهم لبعضٍ أبدًا.

فدعاهم - بلا مالٍ ولا أتباعٍ، بل خذله قومه - إلى أن ينحطُّوا من ذلك العزِّ إلى غُرْمِ الزكاة، ومن الحرِّيَّةِ والظُّلْمِ إلى جَرِي الأحكام عليهم، ومن طول الأيدي بقتل من أحبُّوا وأخذ مالٍ من أحبُّوا إلى القصاص من النَّفْسِ ومن قطع الأعضاء

---

(١) رواه أحمد (٣٣٥/٥)، وصححه شيخنا الألباني في «الصحيح» (٤٢٥).

(٢) «المحرر الوجيز» (٥٤٩/٢).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٨٤/٤).

ومن اللَّطْمَةِ، من أَجَلَ مَنْ فِيهِمْ لِأَقْلٍ عُلِجَ غَرِيبٍ دَخَلَ فِيهِمْ، وإلى إسقاط  
الْأَنَفَةِ والفخر إلى ضربِ الظُّهُورِ بالسَّيَاطِ أو بالنَّعَالِ إن شربوا خمرًا أو قذفوا  
إنسانًا، وإلى الضَّرْبِ بالسَّوْطِ والرَّجْمِ بالحجارةِ إلى أن يموتوا إن زَنَوْا.

فانقَادَ أَكْثَرُهُمْ لِكُلِّ ذَلِكَ طَوْعًا، بَلَا طَمَعٍ وَلَا غَلْبَةٍ وَلَا خَوْفٍ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ  
أَخَذَ بَغْلَبَةً إِلَّا مَكَّةَ وَخَيْرَ فَقَطْ! وَمَا غَزَا قَطُّ غَزْوَةً يِقَاتِلُ فِيهَا إِلَّا تَسَعَ غَزَوَاتٍ،  
بَعْضُهَا عَلَيْهِ وَبَعْضُهَا لَهُ.

فَصَحَّ ضَرُورَةً أَنَّهُمْ إِنَّمَا آمَنُوا بِهِ طَوْعًا لَا كَرْهًا، وَتَبَدَّلَتْ طَبَعَاتُهُمْ بِقُدْرَةِ  
اللَّهِ - تَعَالَى - مِنْ الظُّلْمِ إِلَى الْعَدْلِ، وَمِنْ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ، وَمِنْ الْفِسْقِ وَالْقَسْوَةِ إِلَى  
الْعَدْلِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْهُ أَكَابِرُ الْفَلَاسِفَةِ، وَأَسْقَطُوا كُلَّهُمْ وَأَوَّلَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ  
طَلَبَ الثَّأْرِ، وَصَحِبَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ قَاتِلَ ابْنِهِ وَأَبِيهِ وَأَعْدَى النَّاسِ لَهُ؛ صُحْبَةَ الْإِخْوَةِ  
الْمُتَحَايِينَ، دُونَ خَوْفٍ يَجْمَعُهُمْ، وَلَا رِئَاسَةٍ يَنْفَرِدُونَ بِهَا دُونَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ غَيْرِهِمْ،  
وَلَا مَالٍ يَتَعَجَّلُونَهُ.

فَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ كَانَتْ سِيرَةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، وَكَيْفَ  
كَانَتْ طَاعَةُ الْعَرَبِ لِهَما بِلَا رِزْقٍ وَلَا عَطَاءٍ وَلَا غَلْبَةٍ، فَهَلْ هَذَا إِلَّا بَغْلَبَةٌ مِنَ اللَّهِ  
- تَعَالَى - عَلَى نَفْسِهِمْ، وَقَسْرِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَطِبَاعِهِمْ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ  
عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ  
النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قَالَ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ: «أَمْرٌ - تَعَالَى - بِتَذَكُّرِ نِعْمَتِهِ، وَأَعْظَمُهَا الْإِسْلَامُ وَاتِّبَاعُ

(١) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٢/ ٧٣).

نبيه محمد - عليه السلام -؛ فَإِنَّ به زالت العداوة والفرقة، وكانت المحبة والألفة، والمراد: الأوس والخزرج، والآية تَعُمُّ.

ومعنى ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ أي: صرُّتم بنعمة الإسلام إخوانًا في الدِّين، وكلُّ ما في القرآن (أصبحتم) معناه: صرُّتم<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير - رحمه الله -: «وهذا السِّياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حُرُوبٌ كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإِحْنٌ وَذُحُولٌ<sup>(٢)</sup> طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانًا متحابِّين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البرِّ والتقوى»<sup>(٣)</sup>.

وقال شيخ المفسِّرين أبو جعفر بن جرير: «وتأويل ذلك: واذكروا أيها المؤمنون! نعمة الله عليكم التي أنعم بها عليكم، حين كنتم أعداءً في شُرُكِكُمْ، يقتل بعضكم بعضًا، عصبيةً في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعضٍ إخوانًا بعد إذ كنتم أعداءً، تتواصلون بألفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه»<sup>(٤)</sup>.

بل تأمَّل معي أخي في الله! قول ربِّنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ١٦٤).

(٢) الذُّحُلُ: الحقد والعداوة. يقال: طلب بذحله؛ أي: بئاره. والجمع: ذُحُولٌ. «مختار الصحاح» مادة (ذ ح ل).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٩٠).

(٤) «تفسير الطبري» (٧/ ٧٧).

قَالُوا إِنَّا نَصْرِيحُ أَحَدَنَا مِثْلَهُمْ فَتَسُوا حَظًا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ  
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

[المائدة: ١٤].

تأمل! كيف جعل الله - تبارك وتعالى - تركهم بعض ما أنزل إليهم سبباً في  
تفرقهم، وسبب ذلك واضح؛ وهو أن الأمة التي ألزمها الله - تعالى - باتباع نبيٍّ  
معصوم، وضمن لها سلامة العاقبة في الدنيا والآخرة إن هي اتبعته، فإنها إن تركت  
شيئاً مما جاء به، احتاج الناس أن يملؤوا مكانه من آرائهم وبنات أفكارهم، فحين  
ذلك يختلفون، ويتدابرون، ويتباغضون، ويقتتلون.

قال ابن أبي زمين: «وتأويل العداوة والبغضاء: أي صاروا فرقاً يكفر  
بعضهم بعضاً»<sup>(١)</sup>.

فانظر - على سبيل المثال - اعتقاد النصاري في عيسى - عليه الصلاة والسلام -  
والقول الحق فيه ما قال الله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ  
قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَا يَاقُوتَانِ الطَّلَعُ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ  
لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

لكنهم افرقوا فيه على أقوال باطلة عندما فارقوا القول الحق، فالنور واحد،  
والظلمات كثيرة!

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: «فالنصاري - عليهم لعنة الله - من جهلهم  
ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقد  
إلهاً، ومنهم من يعتقد شريكاً، ومنهم من يعتقد ولدًا، وهم طوائف كثيرة لهم

(١) «تفسير ابن أبي زمين» (١٧/٢).

آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لا فترقوا على أحد عشر قولاً!

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير، وهو سعيد بن بطريق - بترك الإسكندرية - في حدود سنة أربع مئة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافًا لا ينضبط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفًا، فكانوا أحزابًا كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومئة على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص.

فلما رأى عصابة منهم قد زادوا على الثلاث مئة بثمانية عشر نفرًا، وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها - وكان فيلسوفًا ذاهية - ومحقق ما عداها من الأقوال، وانتظم دسئت أولئك الثلاث مئة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتبًا وقوانين، وأحدثوا الأمانة التي يلقونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعمّدونهم عليها، وأتباع هؤلاء هم الملكية.

ثم إنهم اجتمعوا مجمعًا ثانيًا فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعًا ثالثًا فحدث فيهم النسطورية!

وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت - على زعمهم! -: هل اتحد؟ أو ما اتحد، بل امتزجا؟ أو حلّ فيه؟ على ثلاث مقالات، وكلّ منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة<sup>(١)</sup>.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٧٩).

وما أصاب هؤلاء النَّصارى هو ما أصاب الخوارج المارقين على هذه الأُمَّة؛ فإنَّهم فارقوا الأُمَّة بالاعتقاد والقول، وردُّوا الحقَّ، وطعنوا في أصحاب النبي ﷺ، وكفروا عثمان وعليًّا وغيرهما، فأل أمرهم إلى افتراقٍ واقتتالٍ وتكفيرٍ متبادلٍ، وما زالت هذه ستَّهم إلى اليوم، وها هي هذه الجماعات والتنظيمات المسلَّحة مثل داعش وتنظيم القاعدة، وبناتها وأخواتها وضرائرها، ما تلبث أن تنقسم على نفسها أقسامًا، يكفر بعضها بعضًا، وتسيل بينها أنهارُ الدِّماء، ولا تستمرُّ لهم شوكةٌ قطُّ ولا يستقرُّ لهم حال، مع أنَّهم من أجلد النَّاس على القتال ومن أصبرهم على العنف وشظف العيش! وكلُّ ذلك لأنَّهم خسروا بركة السُّنة، ولحقهم شؤم البدعة.

قال قتادة - رحمه الله -: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧] إن لم تكن الحروريَّة والسبئيَّة؛ فلا أدري من هم! ولعمري! لقد كان في أصحاب بدر والحديبية، الذين شهدوا مع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار؛ خبر لمن استخبر، وعبرة لمن اعتبر، لمن كان يعقل أو يبصر.

إنَّ الخوارج خرجوا وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير، بالمدينة وبالشام وبالعراق، وأزواجه يومئذ أحياء، والله! إن خرج منهم ذكر ولا أنثى حروريًّا قطُّ، ولا رضوا الذي هم عليه، ولا مالؤوهم فيه، بل كانوا يحدثون بعيب رسول الله ﷺ إياهم، ونعته الذي نعتهم به، وكانوا يبغضونهم بقلوبهم، ويعادونهم بألسنتهم، وتشتدُّ والله! أيديهم عليهم إذا لقوهم.

ولعمري! لو كان أمرُ الخوارج هُدًى لاجتمع، ولكنه كان ضلالةً فتفرَّق، وكذلك الأمر إذا كان من عند غير الله وجدت فيه اختلافًا كثيرًا.

فقد أَلْصُوا<sup>(١)</sup> هذا الأمر منذ زمان طويل، فهل أفلحوا فيه يومًا قطُّ أو

(١) أي: كَرَّمُوا هذا الأمرَ وداروا عليه وأصروا على حمله. انظر: «لسان العرب» مادة (لوص).

أنجحوا؟! يا سبحان الله! كيف لا يعتبر آخر هؤلاء القوم بأولهم! إنهم لو كانوا على حقٍّ أو هُدى؛ قد أظهره الله وأفلجه ونصره، ولكنهم كانوا على باطلٍ فأكذبه الله - تعالى - وأدخضه، فهم كما رأيتهم، كلما خرج منهم قرن أذخض الله حجتهم، وأكذب أئحدوئتهم، وأهراق دماءهم، وإن كتموه كان قرحاً في قلوبهم، وعماً عليهم، وإن أظهره أهرأق الله دماءهم، ذاكم والله! دين سوءٍ فاجتنبوه.

فوالله! إن اليهودية لبدعة، وإن النصرانية لبدعة، وإن الحرورية لبدعة، وإن السبئية لبدعة، ما نزل بهن كتاب، ولا سنهن نبي»<sup>(١)</sup>.

فتأمل أخي في الله! هذا الفقه الدقيق، والاعتبار الجميل، والنظر الرأقي، كيف قرن هذا الإمام الحافظ المفسر الجبل، بين هذه الضلالات الكبيرة، وهي مللٌ ونحلٌ متهارشةٌ مختلفة، لكن سبب تولدها واحدٌ، وهو الإعراض عن الحق الذي أنزله الله على أنبيائه، واستبداله بالآراء والأفكار.

فإن وصف اليهودية والنصرانية بكونيهما من البدع غير مألوف، ولا شائع، ولكنه صحيح، بل عميقٌ ودقيقٌ إلى الغاية، فإن فيه إشارةً إلى اتصال الابتداع بتحريف الدين، والسطو على مفاهيمه، والتلاعب بنصوصه - لفظاً ومعنى -، وهذا كله معروفٌ عن اليهود والنصارى والخوارج والروافض على السواء!

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

«وإنما كثر الاختلاف وتفاقم أمره بسبب التقليد وأهله، وهم الذين فرقوا الدين وصيروا أهله شيعاً، كل فرقة تنصر متبوعها وتدعو إليه، وتذم من خالفها،

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٨١ - ٣٨٢)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره»

(٦/ ١٨٧ - ١٨٨)، وإسناده صحيح.

ولا يرون العمل بقولهم، حتى كأنهم ملةٌ أخرى سواهم، يدأبون ويكدحون في الردِّ عليهم، ويقولون: كتبهم وكتبنا، وأئمتهم وأئمتنا، ومذهبهم ومذهبنا!  
هذا، والنبيُّ واحدٌ، والقرآن واحدٌ، والدِّين واحدٌ، والرَّبُّ واحدٌ، فالواجبُ على الجميع أن ينقادوا إلى كلمةٍ سواءٍ بينهم كلُّهم، وأن لا يطيعوا إلاَّ الرسول، ولا يجعلوا معه من يكون أقواله كنصوصه، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

فلو اتفقت كلمتهم على ذلك، وانقاد كل واحد منهم لمن دعاه إلى الله ورسوله، وتحاكموا كلُّهم إلى السُّنَّةِ وآثار الصَّحابة لَقَلَّ الاختلافُ، وإن لم يُعَدَم من الأرض.

ولهذا تجدُّ أقلَّ النَّاس اختلافًا أهل السُّنَّة والحديث، فليس على وجه الأرض طائفةٌ أكثرُ اتِّفاقًا وأقلَّ اختلافًا منهم، لما بَنَوْا على هذا الأصل، وكلَّما كانت الفرقة عن الحديث أبعد، كان اختلافهم في أنفسهم أشدَّ وأكثر، فإنَّ من ردَّ الحقَّ، مَرَجَ عليه أمره واختلطَ عليه، والتبسَ عليه وجه الصَّواب، فلم يدرِ أين يذهب، كما قال - تعالى -: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥] <sup>(١)</sup>.

فطاعة الله إذن طاعةٌ عامَّة، خضوعاً لدينه الكامل، وامتنالاً لكلِّ المطالب الشرعيَّة، هي التي تجمع القلوب، وتؤلِّف بين العقول، وتجمع شتات الآراء، وتهذِّب الأفكار.

فرضي الله عن صديق هذه الأُمَّة الأكبر أبي بكر، الذي قال: «لستُ تاركاً

---

(١) «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٥٦ - ٥٥٧ بتحقيقي).



شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملتُ به، فأني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ»<sup>(١)</sup>.

فنسأل الله العافية من الزيغ، ومن الافتراق، ومن عموم الفتن، ومن أن تستحكم بنا عقوبة الله التي توعد بها في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا بَينَ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسْكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

قال القرطبي - رحمه الله -: «﴿شَيْعًا﴾ معناه: فِرَقًا. وقيل: يجعلكم فِرَقًا يقاتل بعضكم بعضًا؛ وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهم على طلب الدنيا، وهو معنى قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي: بالحرب والقتل في الفتنة؛ عن مجاهد. والآية عامة في المسلمين والكفار، وقيل: هي في الكفار خاصة، وقال الحسن: هي في أهل الصلاة.

قلت: وهو الصحيح؛ فإنه المُشَاهِدُ في الوجود، فقد لبسنا العدو في ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضًا واستباحة بعضنا أموال بعض! نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»<sup>(٢)</sup>.

لا ريب أن أمثال هذه المعاني القرآنية الشريفة، والحقائق الشرعية الخطيرة، هي التي حجزت الكثير من الصالحين والعلماء عن الفتن على تنوع شعاراتها وكثرة مغرياتها، وليت شعري! ما الذي يدفع السيد الهاشمي الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - أن يتنازل عما كان به خليقًا، وله أهلاً، لئلا تنازل عن

(١) رواه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (٥٥٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/٩ - ١٠).

الخلافة لمعاوية - رضي الله عنه -؟

عن الشعبي، أنَّ الحسن بن عليَّ خطبَ، فحمد الله وأثنى عليه، وتشهَّدَ، ثمَّ قال: «إِنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ الثَّقَى، وَإِنَّ أَهَقَّ الْحُمَقِ الْفُجُورُ، وَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي اخْتَلَفْتُ فِيهِ أَنَا وَمَعَاوِيَةُ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَقٌّ أَمْرِي كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنِّي، أَوْ كَانَ حَقًّا لِي تَرَكْتُهُ التَّيَاسًا لِصَلَاحِ أَمْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، ﴿وَلَنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتْنٌ إِلَيَّ حِينَ﴾ [الأنبياء: ١١١]»<sup>(١)</sup>.

وعن صدقة بن المثنى، عن جدِّه، أنَّ النَّاسَ اجتمعوا إلى الحسن بن عليٍّ بالمدائن بعد قتلِ عليٍّ، فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أَمَّا بَعْدُ: إِنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، وَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ وَقَعَ إِذْ لَالَهُ وَإِنْ كَرِهَ النَّاسُ - يَعْنِي: دَافِعٌ -، وَإِنِّي وَاللَّهِ! مَا أَحْبَبْتُ أَنْ أَلِيَّ مِنْ أَمْرِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا يَزِنُ مُثْقَالَ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ تُهْرَاقُ فِيهَا مُحْجَمَةٌ مِنْ دَمٍ، فَقَدْ عَقَلْتُ مَا يَنْفَعُنِي مِمَّا يَضُرُّنِي! فَالْحَقُّوا بِمَطِيَّتِكُمْ»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي العَرِيفِ قال: كُنَّا مَقْدَمَةَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا بِمَسْكَنِ مَسْتَمِيتَيْنِ تَقَطَّرُ أَسْيَافُنَا مِنَ الْجِدِّ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ! وَعَلَيْنَا أَبُو الْعَمَرَّةُ، فَلَمَّا جَاءَ صَلُحُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ كَانَتْ كُسِرَتْ ظُهُورُنَا مِنَ الْغَيْظِ! فَلَمَّا قَدِمَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْكُوفَةَ، قَالَ لَهُ رَجُلٌ مَنَّا يُقَالُ لَهُ أَبُو عَامِرٍ سَفِيَانُ بْنُ لَيْلَى: ... السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُدِّلَ الْمُؤْمِنِينَ! فَقَالَ: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا أَبَا عَامِرٍ! لَسْتُ بِمُدِّلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنِّي

(١) «مُصَنَّفُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ» (٣٠٦٩٨)، و«تَارِيخُ دِمَشْقَ» (١٣/٢٧٣ - ٢٧٤).

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ» (١٣٦٤)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٣٧٣٥٨)، وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي

«تَارِيخُ دِمَشْقَ» (١٣/٢٧٣).

كَرِهْتُ أَنْ أَقْتُلَكُمْ عَلَى الْمُلْكِ»<sup>(١)</sup>.

فنسأل الله أن يجمع بين قلوبنا على الحق، ويؤلف بيننا، وأن يقينا نزغات الشيطان، ويكفينا شر القطيعة والمناكرة والهجران، ولا قوة إلا بالله.

وهل تريد أكثر من أن تكون المعاصي سبباً في التفريق بين الزوجين، وسبباً في إفساد أولادهما إن رزقاً بالولد؟!

قال ابن الحاج - في شأن تهاون الزوجين في الصلاة -: «لا جرم أن التوفيق بينهما قل أن يقع، وإن دامت الألفة بينهما فعلى دخن، وإن قُدِّرَ بينهما مولودٌ فالغالب عليه - إن نشأ - العقوق وارتكاب ما لا ينبغي، كل ذلك بسبب ترك مراعاة ما يجب من حق الله - تعالى - منهما معاً»<sup>(٢)</sup>.

وصدق! فقد قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده! ما توادَّ اثنان ففُرقَ بينهما، إلا بذنب يُحدثُهُ أحدهما»<sup>(٣)</sup>.



---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٩٣/١٥)، و«تاريخ دمشق» (٢٧٩/١٣)، و«تاريخ بغداد» (٣٠٥/١٠).

(٢) «المدخل» (١٧٠/٢).

(٣) رواه أحمد (٦٨/٢) من حديث ابن عمر، وفيه ابن لهيعة، وله شاهد من حديث أنس عند البخاري في «الأدب المفرد» (٤٠١) وسنده حسن في الشواهد.

## إِمَّاخْ لَأَثَرِ الذُّنُوبِ عَلَى الْوِلَادِ وَالذَّرِيَّةِ

قال - تعالى -: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وهذه الزينة مكانتها في نفوس البشر لا يكاد يضاعفها شيء مما يشتهي، حتى إن بعض الذين يجرمون منها يسلكون لتحصيلها مسالك تقف بهم على حافة الجنون! من شدة الرغبة فيها والشعور بالنقص من دونها، حتى إذا حصلوها فسدت على أكثرهم، ثم يملؤون السهل والجبل بالشكوى من عقوق الأولاد وتطاولهم عليهم، غافلين عن أن معاصي الآباء من أهم الأسباب المفضية إلى إفساد الأبناء.

وقد تابعت الإشارات القرآنية دالة على ارتباط صلاح الولد بصلاح الوالد، ليس على سبيل أن الوالد هو محل التأسي بالنسبة للولد فحسب! بل بكون نفس أتصاف الوالد بالصلاح والطاعة سبب شرعي في حفظ ذريته وسلامتهم من الآفات والأمراض، الظاهرة والباطنة، على القلوب وعلى الأبدان، وهو كذلك سبب في جريان الأرزاق عليهم، وصلاح دنياهم وأمر آخرتهم من بعده.

كما قال - تعالى -: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

خرَجَ ابن جرير عن ابن عباس، قال: «يعني بذلك الرجل يموت وله أولاد صغارٌ ضعاف، يخاف عليهم العيلة والضيعة، ويخاف بعده أن لا يحسن إليه من

يليهـم، يقـول: فإن وليّ مـثل ذرّيـتـه ضـعافاً يـتامى، فليُحسـن إليـهـم، ولا يأكـل أموالـهـم إسرأفاً وبداراً خشية أن يكبروا، فليـتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً<sup>(١)</sup>.

وقـد جـاءت هـذه الآيـة في سـياق الكـلام عـلى أـموال الـيتامى، وأحـكام الأولـياء، وبيان حقوقهم وواجباتهم، وقد أفاض جمع من المفسرين<sup>(٢)</sup> في بلاغتها إفاضات حسنة، فمن ذلك أنه - تعالى - قال: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ وهو أمرٌ بخشيته للذين يتوقعون عند موتهم أن يتركوا ذريةً صغاراً ضعافاً يخافون ضياعهم من بعدهم، فليتنق هؤلاء ربهم، ولا يعتدوا على أموال الأيتام بأكلها بالباطل، لأنهم إن فعلوا ذلك فستؤول حال أولادهم إلى مثل حال الأيتام الذين اعتدوا عليهم من الاستضعاف والمهانة.

فلم يبين الله لهم من أيّ عذاب يخشون! فأبهم العذاب والجزاء، وإبهاؤه من أسباب تهيبه وتعظيم أمره، لكي تذهب كل نفس في تقديره وتصوره كلّ مذهب.

وجاء بأداة الشرط (لو)، ووجه انتقائها من بين أدوات الشرط، أن إنشاء الشرط بها يصح دون تعرض لفعل الشرط (لو تركوا) من حيث إمكانه أو استبعاده أو امتناعه، فيدخل في ذلك من كان يتوقع ترك ذرية ضعيفة بعده، ومن يستبعد ذلك، ومن يراه ممتنعاً.

قال أبو حيّان: «وقالت فرقة: المراد جميع الناس، أمروا باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس، وإن لم يكونوا في حجرهم، وأن يسدّدوا لهم القول، كما يحبون أن

(١) «تفسير الطبري» (٧/ ٢٤).

(٢) انظر - على سبيل المثال - : «التحرير والتنوير» (٤/ ٢٥٢ وما بعدها).

يُفْعَلْ بِأَوْلَادِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

«ومن هذا ما حكاه الشيباني قال: كنّا على قسطنطينية في عسكر مسلمة بن عبد الملك، فجلسنا يوماً في جماعة من أهل العلم فيهم الدَّيْلَمِيُّ، فتذاكروا ما يكون من أهوالِ آخر الزَّمان، فقلت له: يا أبا يسر! وُدِّي أَنْ لَا يكون لي ولدٌ! فقال لي: ما عليك! ما من نَسَمَةٍ قضى الله بخروجها من رجلٍ إلا خرجت، أحبُّ أم كَرِهَ، ولكن إن أردت أن تأمنَ عليهم؛ فاتَّقِ الله في غيرهم، ثم تلا هذه الآية...»<sup>(٢)</sup>.

وقال العلامة البقاعي: «﴿تَوَرَّكُوا﴾ أي: شارفوا التَّركَ بموتٍ أو هَرَمٍ، وصوّر حالهم وحقَّه بقوله: ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: بعد موتهم أو عجزهم العجز الذي هو كموتهم، ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ أي: أولاداً من ذكورٍ أو إناثٍ ﴿ضِعْفًا﴾ أي: لصغرٍ أو غيره، ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: جَوَرَ الجائرين.

ولما تسبب عن ذلك التصوير في أنفسهم خوفهم على ذُرِّيَّةِ غيرهم كما يخافون على ذُرِّيَّتِهِمْ، سواء كانوا أوصياءً أو أولياءً أو أجنب، وكان هذا الخوفُ ربِّاً أَدَاهُمْ في قصدِ نفعِهِمْ إلى جَوَرٍ على غيرهم؛ أَمَرَ بما يحفظُهُمْ على الصراطِ السَّوِيِّ بقوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا﴾، وعَبَّرَ بالاسمِ الأعظمِ إرشاداً إلى استحضرِ جميعِ عظمتِهِ، فقال: ﴿اللَّهُ﴾ أي: فليعدِّلوا في أمرهم ليقضِ الله لهم من يعدل في ذُرِّيَّتِهِمْ، وإلا أوشك أن يُسَلِّطَ على ذُرِّيَّتِهِمْ من يجورُ عليهم، ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ أي: في ذلك وغيره ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: عدلاً قاصداً صواباً، ليدلَّ هذا الظَّاهرُ على صلاحِ ما ائتمره من الباطنِ»<sup>(٣)</sup>.

(١) «البحر المحيط» (٣/١٨٥).

(٢) «المحرر الوجيز» (٢/١٧).

(٣) «نظم الدرر» (٢/٢١٩).

وكذلك ما جاء في قوله - تعالى - : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلَتُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

فجعل - سبحانه - صلاح الوالد كالمقدمة والتوطئة لسؤال الوالد من ربه صلاح ذريته، لا سيما صلاح الوالد في برّه بوالديه، لأن الآية في سياقها، ولأن الجزء من جنس العمل.

وقد قال تعالى - أيضًا - في سياق قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - : ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

فكان كون أبيهما صالحًا كالعلة للقيام على حفظهما وحفظ مالهما.

قال ابن عباس: «حفظًا بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاحٌ!»<sup>(١)</sup>.

قال القرطبي: «ففيه ما يدل على أن الله - تعالى - يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بُعدوا عنه، وقد روي أن الله - تعالى - يحفظ الصالح في سبعة من ذريته؛ وعلى هذا يدل قوله - تعالى - : ﴿إِنَّا وَلِيُّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]»<sup>(٢)</sup>.

وقال الزمخشري: «﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ اعتدادًا بصلاح أبيهما، وحفظًا لحقه فيهما»<sup>(٣)</sup>.

(١) «تفسير الطبري» (١٨ / ٩١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١ / ٣٨ - ٣٩).

(٣) «الكشاف» (٢ / ٦٩).

أَمَّا الْآثَارُ فَهِيَ كَثِيرَةٌ طَبِئَةً تَدُلُّ بِوُضُوحٍ عَلَى رَعَايَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ لِهَذَا الْمَعْنَى، وَأَنَّهُ كَانَ مُتَقَرِّرًا فِي أَذْهَانِهِمْ.

قال سعيد بن المسيَّب لابنه: «لَأَزِيدَنَّ فِي صَلَاتِي مِنْ أَجْلِكَ، رَجَاءً أَنْ أُحْفَظَ فِيكَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾»<sup>(١)</sup>.

وقال سعيد بن جبیر: «إِنِّي لَأَزِيدُ فِي صَلَاتِي مِنْ أَجْلِ ابْنِي هَذَا»<sup>(٢)</sup>.

وعن مجاهدٍ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيُصَلِّحُ بِصَلَاكِ الْعَبْدِ وَلَدَهُ، وَوَلَدَ وَلَدِهِ»<sup>(٣)</sup>.

ورأى مالك بن دينار رجلاً يسيئُ صَلَاتَهُ، فقال: ما أرحمني بعياله! ف قيل له: يا أبا يحيى! يسيئُ هذا صَلَاتَهُ، وترحمُ عياله؟! قال: إِنَّهُ كَبِيرُهُمْ، وَمِنْهُ يَتَعَلَّمُونَ<sup>(٤)</sup>.

وعن مالك بن مَعُوْلٍ قال: شكى أبو معشر ابنه إلى طلحة بن مُصَرِّفٍ، فقال: استعن عليه بهذه الآية: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ ﴿[الأحقاف: ١٥]»<sup>(٥)</sup>.

وقال يحيى بن بيان: خرجتُ إلى مَكَّةَ، فقال لي سعيد بن سفيان: أقرئ أبي السَّلام، وقلْ له يَقْدُمُ، فلقِيتُ سفيان بمَكَّةَ، فقال: ما فعل سعيد؟! فقلت: صالحٌ،

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/١٨٧).

(٢) «حلية الأولياء» (٤/٢٧٩)، وهو في «السنن الكبرى» للنسائي (١١٨٦٦) عن محمد بن المنكدر.

(٣) «حلية الأولياء» (٣/٢٨٥).

(٤) المرجع السابق (٢/٣٨٣).

(٥) المرجع السابق (٥/١٩).



يَقْرِئُكَ السَّلَامَ، ويقول لك: اقدم. فتجهّز بالخروج، وقال: إِنَّمَا سُمُّوا الْأَبْرَارَ لِأَنَّهُمْ  
بَرُّوا الْآبَاءَ وَالْأَبْنََاءَ<sup>(١)</sup>.

قال أبو عبيدة: كان ذلك وسفيانُ الثوريُّ - رحمه الله - مجاوراً بمكّة، وأهلُه  
بالبصرة، فما البرُّ الذي يُسَدِّدُه سفيانُ لابنَه؟! أليس هو سياستُه بالموعظة، ورعايته  
بالْحُسْنَى بدلاً من أن يُعَصِّى الله لأجلِ تَسْمِينِهِ والكَدِّ في جَلْبِ قُوَّتِهِ من غيرِ الوجوه  
التي أحلَّها الله، فيهلك في ذلك الوالدُ وما ولد، والله المستعان.

وقال أبو عبد الرحمن العمري: «من ترك الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عن المنكر  
من مخافةِ المخلوقين، نُزِعَتْ منه هِيبةُ الطاعة، فلو أَمَرَ وَلَدَهُ أو بعضُ موالِيه  
لاستَحَفَّ به!»<sup>(٢)</sup>

وعن الحسن قال: «إذا رأيتَ في وَلَدِكَ ما تكره، فأَعْتَبْ رَبَّكَ، فإنَّما هو  
شيءٌ يُرَادُّ به أنت»<sup>(٣)</sup>.

وعن مسلمٍ أبي عبد الله الحنفي قال: «بَرٌّ وَلَدُكَ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أن يَبْرَكَ، وإنَّه  
من ساءَ عَقَّةٌ وَلَدُهُ»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) «حلية الأولياء» (٧ / ٨١).

(٢) «العقوبات» (٣٨) لابن أبي الدنيا.

(٣) المرجع السابق (٦٥)، وقوله: «فَأَعْتَبْ» الهمزة فيه هي همزة السَّلبِ والإزالة، تقول:  
عَاتَبَنِي فلانٌ - أو استعْتَبَنِي - ، فَأَعْتَبْتُهُ؛ أي: أَجَبْتُهُ إلى مُرَادِهِ فيما عَاتَبَنِي لأجله، فزالت  
بذلك عُتْبَاهُ، فمُرَادُ الحسَن - رحمه الله - : تُبِّ إلى رَبِّكَ وارجع إليه بما يرضيه حتى يزولَ  
ما نزلَ بولَدِكَ من المكروه، بسببِ ما أنت عليه من المعصية، والله أعلم.

(٤) «العيال» (١٤٨) لابن أبي الدنيا.

ويعجبني صنيع بعض العلماء وولاية الملوك النظر على الأوقاف، وكانت  
كثيرة يجتمع منها مال جمٌّ؛ فلم يتناول منها درهمًا فما فوقه، لا لنفسه ولا لعياله،  
حتى ولا علف حيوانه، وكان يقول:

«كل هذا الزهد في هذا المال الدنيئ ليرزقني الله ولدًا صالحًا؛ فإني رأيتُ  
فساد أولاد المشايخ من تناول هذا المال الخبيث»<sup>(١)</sup>.



---

(١) «درر العقود الفريدة» (١ / ٣١١).

## أسباب الوقوع في الذنوب

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ...»<sup>(١)</sup>.

بل ضربَ النبي ﷺ لنفسِهِ ولما جاء به أمثالا، حرصا على أَنْ يُفَقَّهَ عنه مرأوه، وَيُفْهِمَ عنه قصده، ويزدادَ محبةً له كُلُّ مؤمنٍ به، وما نطقَ قطُّ عن الهوى!

فقال: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَبَعَلَ الرَّجُلُ يَزِعُهُنَّ، وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا! فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا»<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي! وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ! فَالْجَاءَ النَّجَاءُ! فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ فَأَذْجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَجَبُوا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَاجْتَاَحَهُمْ»<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤).

(٣) رواه البخاري (٦٤٨٢) ومسلم (٢٢٨٣).

فَاللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ، مَا أَرْحَمَهُ وَمَا أَرَأَفَهُ بِنَا.. فهذا مصداق لقوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله - سبحانه -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله - تبارك اسمه -: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

بل تقطعت نفسه على كل معرضٍ عن الحق الذي جاء به، حتى نهاه ربه عن أن تذهب نفسه عليهم حسرات! في حين لا يضرُّ المِعْرُضُ إِلَّا نفسه، فقد سلاه الله - تعالى - عن جفائهم وغلظتهم وجهلهم، فقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ﴾ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَايَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿[الأنعام: ٣٣].

فحقُّ على كلِّ عاقلٍ يؤمن بالله واليوم الآخر، ويصدق بالجنة والنار، ويرضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، أن يُجْهَدَ نفسه ويكُدَّها في فهم ما جاء به من القرآن والسنة المطهرة، لا سيما ما أخبر فيه عن مكاييد الشيطان ودسائسه، وطباع النفوس، وحقيقة الهوى.

وقد استقرأ أهل العلم - الهداة الأعلام، النصحة البررة - ما جاء في ذلك، ونحن نُورِدُ منه ما يدلُّ على ما وراءه، فإن كلامهم في هذه الأبواب لا يأتي عليه حصْرٌ، غير أن الآفات على نحو كليٍّ أربعة؛ هي: النفس، والجهل، والهوى، والشيطان<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: «شرح سنن أبي داود» (٢١٨/١٨) لابن رسلان الرملي، وسيأتي كلامه (ص ٣٨١ - ٣٨٢).

فالنفس هي الأساس، والجهل والهوى من صفاتها وحالاتها، والشيطان عدوٌ خارجٌ في الماهية، لكنه يجري من ابن آدم مجرى الدَّم في الحقيقة، فإن ثلِمَ حصنُ النفس وَلَجَ إليها منه.

ونحنُ هنا نذكرُ نبذاً عن كلِّ سببٍ، وإلا فكلُّمُ أهلِ العلمِ في هذا الباب كثيرٌ جداً.

### السبب الأول - الجهل:

قال - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧].

وقد قرَّرَ أهلُ العلمِ - استنباطاً من هذه الآية ومثيلاتها - أنَّ كلَّ من عصى الله فهو جاهل، وهو مأثورٌ عن ابن عباس، ومجاهد، وجابر بن زيد، بل ذكرَ شيخ الإسلام<sup>(١)</sup> - رحمه الله - عن أبي العالية أنَّه نسبَ هذا القولَ إلى عمومِ الصحابة - رضي الله عنهم -، فهذا أصلٌ متقرَّرٌ عند السَّلفِ.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «من عَرَفَ الله بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أَحَبَّهُ لا محالة»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن بطَّال: «كلُّ مذنبٍ فهو عندِ واقعة الذنب جاهلٌ وإن كان عالماً، ومن تاب قبل الموت تاب من قريب»<sup>(٣)</sup>.

وأوَّلُ ما يُستفادُ من هذا، أنَّ العلمَ - على التحقيق - هو ما كانَ مورثاً لخشية

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٨٠).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧).

(٣) «شرح ابن بطَّال على صحيح البخاري» (١٠/ ٨٠).

الله، ومانعًا وزاجرًا عن المعصية، كما قال - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وأنَّ من وقعَ فيها فهو جاهلٌ أبدًا حتى يَنْزَعَ عنها، ولو حاز علومَ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ بينَ جَنِبَيْهِ، ولو شَهِدَ له القاصي والدَّاني وأذعنوا له، فشهادةُ معصيته عليه بأنَّه جاهلٌ، أَصْدَقُ من شهادةِ أيِّ شيءٍ، لأنَّها الشهادةُ التي قَبَلَهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ - تبارك وتعالى - وأخبرنا عنها.

فلا عَجَبَ إِذْن، من أن نرى كثيرًا من المحسوبين على ما يُسَمَّى بـ (النُّخْبِ الفكرية والثقافية) من حَمَلَةِ الشهادات العالية، ومن مُتَّبِئِي أعلى المناصب والمراكز المؤثِّرة في حياة النَّاسِ، يرتكبون من القبائح والمعاصي ما يقعُ فيه دَهْمَاءُ الْعَامَّةِ، وفيهم من لا يقرأ ولا يكتب، بل كثيرًا ما يكون دَهْمَاءُ الْعَامَّةِ أحسن حالًا من أولئك، لعَجْزِهِم عن أدوات المعصية وتخليُّهم من أسبابها، في حين يجدها أولئك متى ما أرادوها لكثرة الملاهي والشواغل والملذَّات، وسرُّ وقوعِ القبائح من الجميع - إلا ما رحم الله - هو استواؤُهُم في الجهلِ بالله - تعالى - (١)، وبأسباب السعادة في الآخرة، وإن كانوا متفاوتين في العلم بما يُصْلِحُ دُنْيَاهُمْ أعظم التَّفَاوُتِ.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : «فلو عرفَ الْعَبْدُ كُلَّ شيءٍ ولم يعرفَ رَبَّهُ؛ فكأنَّه لم يعرفَ شيئًا، ولو نال كُلَّ حَظٍّ من حظوظ الدُّنيا ولذَّاتها وشهواتها، ولم يظفر بمحبةِ الله والشُّوقِ إليه والأنسِ به؛ فكأنَّه لم يَظْفَرْ بِلَذَّةٍ ولا نعيمٍ ولا قُرَّةِ عينٍ» (٢).

(١) يَفْرُقُ المَوْفَّقُ بين العلم بالله والعلم بأحكامه، فقد يكون العلم ناقصًا أو غير شامل، فتُعرَفُ الأحكام دون أن يُعرفَ الله - عز وجل - المعرفة الشرعية الحقيقية، ويتسلَّل الطُّرُقِيُّونَ من هذا فيزعمون معرفة الله دون العلم بمحبَّته ومراضيه من الأحكام، والأمرُ لا يقبلُ العكس، فتَقَطَّنْ، ولا تكن من الضَّالِّين!

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١١٢).

فالله - تعالى - ما عُبِدَ إِلَّا بالعلم، وما عُصِيَ بمعصيةٍ أعظم من الجهل، كما يروى عن الإمام سهل بن عبد الله التستري - رحمه الله -.

والله - تعالى - ما ذكرَ الجهلَ في كتابه إِلَّا مذموماً مُنفِراً عنه، وقد وردَ التَّنْصِيصُ صريحاً على أَنَّ كبارَ المعاصي كالشُّركِ والكُفْرِ بالله - تعالى - سببُها الجهلُ في الدَّرَجَةِ الأولى.

قال - تعالى -: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف: ٨٩]، وقال - سبحانه -: ﴿ وَنُقِلَبْ أَفْعِدْتَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتُهُمْ فِي طَعْنِهِمْ يَمَعُهُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَأِيكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠ - ١١١]، وقال - تبارك اسمه -: ﴿ وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقال - تعالى -: ﴿ وَيَقُولُوا لَا آتَاكُم بِهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلِنُكْفِيَ زُججَكُمُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴾ [هود: ٢٩]، وقال: ﴿ وَلَوْ طَافَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ءَاتَاوُكُمُ الْفَلَحِشَّةَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ۝ أَيْنَ كُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٥]، وقال - سبحانه -: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤].

إذا عُلِمَ هذا، فينبغي العلمُ بأنَّ الجهلَ يدورُ على معنيين:  
الأوَّلُ: أَنَّهُ نَقِيضُ العلم، والثاني: أَنَّهُ الطَّيْشُ، والسَّفَهُ، والخِفَّةُ، والاضطرابُ، وعدمُ الطَّمَأْنِينَةِ.

قال ابن فارس: «الجيم والهاء واللام أضلّان: أحدهما خلاف العلم، والآخر الخفة وخلاف الطمأنينة. فالأوّل: الجهل نقيض العلم، ويُقال للمفازة التي لا علم بها: مجهلٌ.

والثاني: قولهم للخشبة التي يُحرّك بها الجمر: مجهلٌ، ويُقال: استجهلت الرّيح الغصن، إذا حرّكته فاضطرب، ومنه قول النّابغة:

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل      وكيف تصابي المرء والشّيب شاملٌ

وهو من الباب؛ لأنّ معناه: استخفّتك واستفزّتك، والمجهلة: الأمر الذي يحملك على الجهل»<sup>(١)</sup>.

ومن تأمل هذا المقام وجد أنّ العاصي يجتمع فيه معنَي الجهل في آن، فإنّ معصيته تعني جهله بأنّ نقيضها - وهو الطّاعة - كان خيرًا له في العاقبة، ويكون جهله لها حال المعصية بنسيانها أو تناسيها ولو سبق له علمٌ بذلك، وتعني - أيضًا - طيشه وخفته واضطرابه أمام دواعي النّفس والهوى والشّيطان.

وقد بيّن النبي ﷺ أنّ الفتنة بكلّ شروها وشؤمها، إنّما هي حالة من ارتفاع العلم، وحلول الجهل محلّه، كما في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَيُظْهَرُ الْجَهْلُ وَالْفِتْنُ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ». قيل: يا رسول الله! وما الهرج؟ فقال هكذا بيده، فحرّفها، كأنّه يريد: القتل<sup>(٢)</sup>.

(١) «مقاييس اللغة» (١/ ٤٣٥).

(٢) رواه البخاري (٨٥).



## آثار السلف في التحذير من الجهل:

قال ابن مسعود: «اغْدُ عَالِمًا، أو متعلِّمًا، أو مستمعًا، ولا تَكُنْ الرَّابِعَ فَتَهْلِكَ»<sup>(١)</sup>.

وقال علي بن أبي طالب: «النَّاسُ ثَلَاثَةٌ؛ فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَّجٌ رِعَاغٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ»<sup>(٢)</sup>.

وقال وكيع: «إِنَّمَا الْعَاقِلُ مَنْ عَقَلَ عَنْ اللَّهِ أَمْرَهُ، لَيْسَ مَنْ عَقَلَ أَمْرَ دُنْيَاهُ»<sup>(٣)</sup>.  
وقال وهب بن منبه: «وَلَا زَالَ الْجَبَلِ صَخْرَةً صَخْرَةً، وَحَجَرًا حَجَرًا، أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ مَكَابِدَةِ الْمُؤْمِنِ الْعَاقِلِ، فَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ تَحَوَّلَ إِلَى الْجَاهِلِ، فَيَسْتَأْسِرُهُ وَيَسْتَمْكِنُ مِنْ قِيَادِهِ حَتَّى يُسَلِّمَهُ إِلَى الْفَضَائِحِ، الَّتِي يَتَعَجَّلُ بِهَا فِي الدُّنْيَا الْجَلْدَ وَالْحُلُقَ وَتَسْخِيمَ الْوَجْهِ وَالْقَطْعَ وَالرَّجَمَ وَالصَّلْبَ، وَإِنَّ الرَّجُلَيْنِ يَسْتَوِيَانِ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ، وَيَكُونُ بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ أَوْ أَعْدَا إِذَا كَانَ أَحَدُهُمَا أَعْقَلَ مِنَ الْآخَرِ، وَمَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) رواه الدارمي (٢٤٨).

(٢) «جامع بيان العلم» (٢/٢٢٦).

(٣) «حلية الأولياء» (٨/٣٧٠).

(٤) «ذمُّ الهوى» (ص ٩).

قلت: ومُرَادُهُ بـ (العقل) هنا: إطلاَقُ الدَّهْنِ والفِكرِ الصَّحِيحِ فِي فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَا كَمَا قَدْ يَظُنُّهُ الْجَاهِلُونَ - حَقِيقَةً - مَنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ عَقْلَهُمْ لِيَعَارِضُوا بِهَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، هَذَا مَعَ مَا فِيهِمْ مِنَ الْبَلَادَةِ، وَثَقُلِ الْأَفْهَامُ، وَغَلِظَ الْحِجَابُ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صَنْعًا، وَإِنَّا نَبِينُ هَذَا لِأَنَّ هَذِهِ الْفَلَسَفَاتِ ظَهَرَتْ بَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ مِنْ زَمَنِ =

من كلمات أهل العلم في التحذير من الجهل:

قال ابن الجوزي - رحمه الله -: «اعلم أن الباب الأعظم الذي يدخل منه إبليس على الناس هو الجهل، فهو يدخل منه على الجهال بأمان، وأمّا العالم فلا يدخل عليه إلا مُسَارَقَةً»<sup>(١)</sup>.

وقال: «اعلم أن أول تلبس إبليس على الناس صدُّهم عن العلم؛ لأنَّ العلم نورٌ، فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلم كيف شاء»<sup>(٢)</sup>.

وقال شهاب الدين القرافي: «أصل كلِّ فسادٍ في الدنيا والآخرة إنما هو الجهل؛ فاجتهد في إزالته عنك ما استطعت، كما أن أصل كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة إنما هو العلم؛ فاجتهد في تحصيله ما استطعت، والله - تعالى - هو المُعِينُ على الخير كله»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن القيم - رحمه الله -: «وغلَبَ الشُّرْكُ على أكثرِ النفوسِ لظهورِ الجهلِ، وخَفَاءُ العلمِ، فصَارَ المعروفُ منكرًا، والمنكرُ معروفًا، والسُّنَّةُ بدعة، والبدعة سُنَّةٌ، ونشأ في ذلك الصغير، وهَرِمَ عليه الكبير، وطُمست الأعلام، واشتدَّتْ غُرْبَةُ الإسلام، وقَلَّ العلماء، وغلَبَ السُّفَهَاءُ، وتَفَاقَمَ الأمرُ، واشتدَّ البأسُ، وظهر

---

= وهب بن منبه - رحمه الله -، فقد كان السلف إذا مدحوا العقل أرادوا به حُسنَ الفهم عن الله ورسوله، كما سُئِلَ عطاء بن أبي رباح: ما أفضل ما أُعطي العباد؟ قال: «العقل عن الله - تعالى -»، رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣١٥).

(١) «تلبس إبليس» (ص ١٢١ ط الفكر).

(٢) «تلبس إبليس» (٢٨٣).

(٣) «الفروق» (٤/ ٤٤٩ ط العلميّة).

الفساد في البرِّ والبحرِ بما كسبت أيدي النَّاس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمّدية بالحقّ قائمين، ولأهل الشُّرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله - سبحانه - الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين»<sup>(١)</sup>.

وقال - رحمه الله -: «فإنَّ الجهالة متى خالطت العبوديّة أوردّها العبدُ غير مَورِدّها، ووضّعها في غير مَوْضِعها، وفعلها في غير مستَحَقّها، وفعل أفعالاً يعتقِد أنّها صلاحٌ، وهي إفسادٌ لخدمته وعبوديته»<sup>(٢)</sup>.

وقال - رحمه الله -: «فالحيُّ العالمُ الناصح لنفسه لا يُؤثّر محبة ما يضرُّه، ويشقى به، ويتألم به، ولا يقع في ذلك إلا من فساد تصوّره ومعرفته، أو من فساد قصده وإرادته، فالأول جهل، والثاني ظلم.

والإنسان خلُق في الأصل ظلومًا جهولًا، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويُلهمه رُشدَه، فمتى أراد به الخير علّمه ما ينفعه، فخرج به من الجهل، ونفعه بما علّمه، فخرج من الظلم، ومتى لم يُردّ به خيرًا أبقاه على أصل الخِلقة...

والمقصود أنّ محبة الظلم والعدوان سببها فساد العلم، أو فساد القصد، أو فسادهما جميعًا.

وقد قيل: إنّ فساد القصد من فساد العلم، وإلا فلو علّم ما في الضارّ من المَصْرّة ولو أوزمها حقيقة العلم لما آثره، ولهذا من علم من طعامٍ شهيّ لذيذ أنه مسموم فإنه لا يُقدّم عليه، فضغف علمه بما في الضارّ من وجوه المَصْرّة،

(١) «زاد المعاد» (٣/٥٠٧).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٩٨).

وضَعُفُ عَزْمِهِ عَلَى اجْتِنَابِهِ يُوَقِّعُهُ فِي ارْتِكَابِهِ، وَلِهَذَا كَانَ الْإِيمَانُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى فِعْلٍ مَا يَنْفَعُهُ، وَتَرْكٍ مَا يَضُرُّهُ، فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ هَذَا وَلَمْ يَتْرَكْ هَذَا، لَمْ يَكُنْ إِيْمَانَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِحَسَبِ ذَلِكَ.

فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ بِالنَّارِ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى كَأَنَّهُ يَرَاهَا، لَا يَسْلُكُ طَرِيقَهَا الْمَوْصِلَةَ إِلَيْهَا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَسْعَى فِيهَا بِجَهْدِهِ! وَالْمُؤْمِنُ بِالْجَنَّةِ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ لَا تَطَاوَعَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَقْعَدَ عَنْ طَلِبِهَا، وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُّهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ فِيمَا يَسْعَى فِيهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَنَافِعِ، أَوْ التَّخَلُّصِ مِنْهُ مِنَ الْمَضَارِّ...

إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا، فَالْعَبْدُ أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يَضُرُّهُ لِيَجْتَنِبَهُ، وَمَا يَنْفَعُهُ لِيَحْرَصَ عَلَيْهِ وَيَفْعَلَهُ، فَيُحِبُّ النَّافِعَ، وَيُبْغِضُ الضَّارَّ، فَتَكُونُ مَحَبَّتُهُ وَكَرَاهَتُهُ مُوَافِقَتَيْنِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَكَرَاهَتِهِ، وَهَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْعِبَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَمَتَى خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ أَحَبَّ مَا يُسْخِطُ رَبَّهُ، وَكَرِهَ مَا يَحِبُّهُ، فَتَنَقَّصَتْ عِبَادَتُهُ بِحَسَبِ ذَلِكَ»<sup>(١)</sup>.

### السبب الثاني - الهوى:

الهوى مِنْ ثَمَارِ الْجَهْلِ، وَمِنْ نَتَاجِ فُسَادِ الْعِلْمِ وَنَقْصِهِ، وَهُوَ عَدُوُّ الْعَقْلِ، وَغَشَاوَةُ الْفَهْمِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَقْلِ عَدَاوَةٌ مَنْصُوبَةٌ أَبَدًا، فَإِذَا لَمْ يُجْعَلْ تَحْتَ سُلْطَانِ الْعَقْلِ أَفْسَدَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الْهَوَى وَحْدَهُ لَا يَسْتَقِلُّ بِفَسَادِ السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَعَ الْجَهْلِ، وَإِلَّا فَصَاحِبُ الْهَوَى لَوْ جَزَمَ بِأَنَّهُ ارْتَكَابَ هَوَاهُ يَضُرُّهُ وَلَا بُدَّ ضَرَرًا رَاجِحًا، لَانْصَرَفَتْ نَفْسُهُ عَنْ طَاعَتِهِ لَهُ بِالطَّبَعِ! فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - جَعَلَ فِي النَّفْسِ حُبًّا لِمَا يَنْفَعُهَا وَبُغْضًا لِمَا يَضُرُّهَا، فَلَا تَفْعَلْ مَعَ حُضُورِ عَقْلِهَا

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (٢/ ٨٥٨ - ٨٦١) مَعَ حَذْفٍ.

ما تجزم بأنه يضرُّها ضرًّا راجحًا، ولهذا يوصفُ تاركُ ذلك بالعقلِ والحجى واللبِّ.

فالبلاءُ مُركَّبٌ من تزيينِ الشَّيْطَانِ وَجَهْلِ النَّفْسِ، فإنه يُزَيِّنُ لها السَّيِّئَاتِ وَيُريها أنَّها في صُورِ المنافعِ واللذاتِ والطَّيِّبَاتِ، ويُغفلُها عن مُطالعتها لمَصْرِتها، فتولَّدُ من بينِ هذا التَّزْيِينِ وهذا الإغفالِ والإنسَاءِ لها إرادةٌ وشهوةٌ، ثم يمدُّها بأنواعِ التَّزْيِينِ، فلا يزالُ يَقْوَى حتى يصيرَ عزمًا جازمًا يَقْتَرِنُ به الفعلُ، كما زَيَّنَ للأبوينِ الأكلَ من الشَّجَرَةِ، وأغفلَهما عن مُطالعةِ مَصْرَةِ المعصيةِ، فالتزيينُ هو سببُ إثارةِ الخيرِ والشرِّ<sup>(١)</sup>.

«وقد جعلَ الله - سبحانه - للحسناتِ والطاعاتِ آثارًا محبوبةً لذيذةً طيبةً، لذَّتها فوقَ لذَّةِ المعصيةِ بأضعافٍ مضاعفةٍ لا نسبةَ لها إليها، وجعلَ للسيئاتِ والمعاصي آلامًا وآثارًا مكروهةً وحزازاتٍ تُرْبِي على لذَّةِ تناوُلِها بأضعافٍ مضاعفةٍ»<sup>(٢)</sup>.

ولذا قال الحسن: «ما ضربتُ ببصري، ولا نطقتُ بلساني، ولا بطشتُ بيدي، ولا نهضتُ على قدمي، حتى أنظرُ! أعلى طاعةٍ أو على معصيةٍ؟ فإن كانت طاعةً تقدَّمتُ، وإن كانت معصيةً تأخَّرتُ»<sup>(٣)</sup>.

وعن الجَهْلِ والهوى، تتولَّدُ جملةٌ من الأحوالِ التي ذُكِرَتْ مُحذَّرًا منها في القرآنِ والسُّنَّةِ، كالضَّلَالِ، والغَيِّ، والعَمَرَةِ، والغَفْلَةِ، والنَّسيانِ، ونحو ذلك،

---

(١) «شفاء العليل» (ص ١٧١ ط دار الفكر).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص ٧٦).

فكلُّها أحوالٌ مذمومةٌ يغذيها الجهلُ، ويمدُّها سلطانُ الهوى بمدِّه، فإذا غلبت على النفسِ، فهي حينئذٍ أضحوكةٌ إبليسَ وسلوتهُ وألُوبتهُ، يتلَهَّى بها كما يصنعُ الصبيانُ بالكُرَّةِ، ولا عاصمَ إلا الله.

ومن هنا تكاثرت النصوصُ والآثارُ وكلماتُ أئمةِ الهدى في ذمِّ الهوى.

قال - تعالى -: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۖ ﴿٥٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥ - ١٦].

وقال - تعالى -: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَنبَغُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الفصص: ٥٠].

وقال - سبحانه -: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غَشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجن: ٢٣].

فهذه هي حقيقة الهوى، وهذا حكمه عند الله.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ؛ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضَلَّاتِ الْهَوَىٰ»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٢٠) من حديث أبي بَرْزَةَ الأسلمي، بسندٍ رجاله ثقات، إلا أنَّ الراوي عن أبي بَرْزَةَ علي بن الحكم - ومدار الحديث عليه - يُحتمل أنَّه لم يدركه، وصححه شيخنا الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٢).

وقال - عليه الصلاة والسلام - : «أَفْضَلُ الْجِهَادِ أَنْ تُجَاهِدَ نَفْسَكَ وَهُوَ أَكْ فِي ذَاتِ اللَّهِ - عز وجل -»<sup>(١)</sup>.

وقال النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ - رضي الله عنهما - على المنبر: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ مَصَالِي وَفُخُوحًا، وَإِنَّ مَصَالِي الشَّيْطَانِ وَفُخُوحَهُ: الْبَطْرُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ، وَالْفَخْرُ بِعَطَاءِ اللَّهِ، وَالْكِبْرِيَاءُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى فِي غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن مسعودٍ - رضي الله عنه - مُحَذِّرًا مِنَ الزَّمَانِ الَّذِي يَسْتَحْكُمُ فِيهِ الْهَوَى: «إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ فَقَهَاؤُهُ، قَلِيلٌ خُطْبَاؤُهُ، قَلِيلٌ سُؤَالُهُ، كَثِيرٌ مُعْطَوْهُ، الْعَمَلُ فِيهِ قَائِدٌ لِلْهَوَى، وَسَيَأْتِي مِنْ بَعْدِكُمْ زَمَانٌ قَلِيلٌ فَقَهَاؤُهُ، كَثِيرٌ خُطْبَاؤُهُ، كَثِيرٌ سُؤَالُهُ، قَلِيلٌ مُعْطَوْهُ، الْهَوَى فِيهِ قَائِدٌ لِلْعَمَلِ، اْعْلَمُوا أَنَّ حُسْنَ الْهَدْيِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَيْرٌ مِنْ بَعْضِ الْعَمَلِ»<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو حازم الأعرج: «قَاتِلْ هَوَاكَ أَشَدَّ مِمَّا تَقَاتِلُ عَدُوَّكَ»<sup>(٤)</sup>.

فالْهَوَى هُوَ مَيْلُ الطَّبْعِ إِلَى مَا يَلَائِمُّهُ، وَ«اعْلَمْ أَنَّ مُطْلَقَ الْهَوَى يَدْعُو إِلَى اللَّذَّةِ الْحَاضِرَةِ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِي عَاقِبَةٍ، وَيَحْتُّ عَلَى نِيلِ الشَّهَوَاتِ عَاجِلًا وَإِنْ كَانَتْ سَبِيلًا لِلْأَلَمِ وَالْأَذَى فِي الْعَاجِلِ، وَمَنْعَ لَذَاتٍ فِي الْآجِلِ، فَأَمَّا الْعَاقِلُ فَإِنَّهُ يَنْهَى نَفْسَهُ عَنْ لَذَّةِ تَعْقُبِ أَلَمٍ، وَشَهْوَةِ تَوَرُّثِ نَدَمٍ، وَكَفَى هَذَا الْقَدْرَ مَدْحًا لِلْعَقْلِ، وَذَمًّا لِلْهَوَى.

---

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٢/ ٢٤٩)، وَصَحَّحَهُ بِشَوَاهِدِ شَيْخِنَا الْأَلْبَانِيِّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (١٤٩٦).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» (٥٥٣) وَحَسَّنَهُ شَيْخُنَا الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - .

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» (٧٨٩)، وَحَسَّنَهُ شَيْخُنَا الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - .

(٤) «حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ» (٣/ ٢٣١).

أَلَا تَرَى أَنَّ الطُّفْلَ يُؤْثِرُ مَا يَهْوَى وَإِنْ أَدَّاهُ إِلَى التَّلَفِ! فَيَفْضُلُ الْعَاقِلُ عَلَيْهِ  
بِمَنْعِ نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ يَقَعُ التَّسَاوِي بَيْنَهُمَا فِي الْمَيْلِ بِالْهَوَى!

وبهذا القَدْرِ فَضِّلَ الْآدَمِيُّ عَلَى الْبَهَائِمِ، أَعْنِي مَلَكَهَ الْإِرَادَةَ، لِأَنَّ الْبَهَائِمَ  
وَاقِفَةٌ مَعَ طِبَاعِهَا لَا تَنْظُرُ لَهَا إِلَى عَاقِبَةٍ، وَلَا فَكَّرَ فِي مَالٍ، فَهِيَ تَتَنَاوَلُ مَا يَدْعُوهَا إِلَيْهِ  
الطَّبْعُ مِنَ الْغِذَاءِ إِذَا حَضَرَ، وَتَفْعَلُ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الرُّوثِ وَالْبَوْلِ أَيْ وَقْتِ اتَّفَقَ،  
وَالْآدَمِيُّ يَمْتَنِعُ عَنْ ذَلِكَ بِقَهْرِ عَقْلِهِ لَطَبْعِهِ.

وَإِذَا عَرَفَ الْعَاقِلُ أَنَّ الْهَوَى يَصِيرُ غَالِبًا، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْفَعَ كُلَّ حَادِثَةٍ  
إِلَى حَاكِمِ الْعَقْلِ، فَإِنَّهُ سَيُشِيرُ عَلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ الْآجِلَةِ، وَيَأْمُرُهُ عِنْدَ وَقُوعِ  
الشُّبْهَةِ بِاسْتِعْمَالِ الْأَحْوَطِ فِي كَفِّ الْهَوَى، إِلَى أَنْ يَتَيَقَّنَ السَّلَامَةَ مِنَ الشَّرِّ فِي  
الْعَاقِبَةِ<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإنَّ الْهَوَى يُعْمِي وَيُصِمُّ، وَصَاحِبُ الْهَوَى  
يَقْبَلُ مَا وَافَقَ هَوَاهُ بِلا حُجَّةٍ تُوجِبُ صِدْقَهُ، وَيَرُدُّ مَا خَالَفَ هَوَاهُ بِلا حُجَّةٍ  
تُوجِبُ رَدَّهُ»<sup>(٢)</sup>.

فنسأل الله - تعالى - أن يوفِّقَنَا لِمُخَالَفَةِ كُلِّ هَوَى عَلَى خِلَافِ مُرَادِهِ وَمُحِبُّوبِهِ،  
وَأَنْ يَكْتُبَ لَنَا السَّلَامَةَ مِنْ حَبَائِلِ الْأَهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ.

قال حكيم بن أبجر: سمعتُ ابن عيينَةَ يَتَمَثَّلُ:

إِذَا مَا رَأَيْتَ الْمَرْءَ يَفْتَادُهُ الْهَوَى      فَقَدْ ثَكَلَتْهُ عِنْدَ ذَاكَ ثَوَاكِيلُهُ  
وَقَدْ أَشْمَتَ الْأَعْدَاءَ جَهْلًا بِنَفْسِهِ      وَقَدْ وَجَدَتْ فِيهِ مَقَالًا عَوَاذِلُهُ

(١) «ذم الهوى» (ص ١٢ - ١٣).

(٢) «منهاج السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ» (٦/ ١٩٢).



ولَنْ يَنْزِعَ النَّفْسَ اللَّحُوحَ عَنْ الْهَوَى مِنْ النَّاسِ إِلَّا وَافِرُ الْعَقْلِ كَامِلُهُ<sup>(١)</sup>  
السبب الثالث - النفس:

قد سبق أن العلم والعقل عن الله ورسوله هما المنجاة، وأن الجهل والهوى هما المهلكة، فإذا اتصفت النفس بهذين الوصفين، فخلت من العلم، وحلّ فيها الجهل، وصار الهوى فيها قائدا للعمل، فهي النفس الأمارة بالسوء، التي تُوردُ صاحبها الموارد.

وقد جاء في الحديث بيان وجوب المحافظة على العقل، وهو محل العلم والفهم، فقال - عليه الصلاة والسلام - : «استحيوا من الله حقَّ الحياء»، قلنا: يا رسول الله! إِنَّا نَسْتَحْيِي والحمد لله. قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حقَّ الحياء: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكَرَ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

وما وعاه الرأس هو ما حواه من الخواص، وأهمها السَّمْعُ والبَصَرُ، وهما مداخل للعقل وجنود للقلب، فإما أن يأتيه بإدّة حياته إذا كان السَّمْعُ للخير، والعلم، والهدى، وكان البَصَرُ بَصَرَ اعتبارٍ واتِّعَاطٍ وتفكيرٍ، وإما أن يُدْخِلَ إلى القلب أضداد ذلك من مادّة مَرَضِهِ وهلاكِهِ، وبهذا لا تكونُ للنفس حركةٌ إلا إلى الشرِّ، وما رُسِمَ لها بالجهل والهوى من اللَّذَّاتِ العاجلة الزائفة.

قال شيخ الإسلام: «يقال: النفوس ثلاثة أنواع، وهي:

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٧٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٨)، وحسنه شيخنا الألباني - رحمه الله - .

النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ: التي يغلبُ عليها اتِّبَاعُ هَوَاهَا بِفِعْلِ الذُّنُوبِ  
وَالْمَعَاصِي.

وَالنَّفْسُ اللَّوَّامَةُ: وهي التي تُذْنِبُ وَتَتُوبُ، فَعَنْهَا خَيْرٌ وَشَرٌّ، لَكِنْ إِذَا فَعَلَتْ  
الشَّرَّ تَابَتْ وَأَنَابَتْ، فَتُسَمَّى (لَوَّامَةً) لِأَنَّهَا تَلُومُ صَاحِبَهَا عَلَى الذُّنُوبِ، وَلِأَنَّهَا  
تَتَلَوَّمُ، أَي: تَتَرَدَّدُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

وَالنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ: وهي التي تحبُّ الخيرَ والحَسَنَاتِ وَتُرِيدُهُ، وَتُبْغِضُ الشَّرَّ  
وَالسَّيِّئَاتِ وَتَكْرَهُ ذَلِكَ، وَقَدْ صَارَ ذَلِكَ لَهَا خُلُقًا وَعَادَةً وَمَلَكََةً، فَهَذِهِ صِفَاتُ  
وَأَحْوَالُ لَذَاتٍ وَاحِدَةٍ، وَإِلَّا فَالْنَّفْسُ الَّتِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ<sup>(١)</sup>.

فَالنَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، مَعَ الْجَهْلِ وَوَسْوَاسِ الْعَدُوِّ، هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي  
كِتَابِهِ حِكَايَةً عَنْ امْرَأَةٍ الْعَزِيزِ: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾  
[يوسف: ٥٣].

وهذه النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ هِيَ الَّتِي سَمَّيْتُهَا الظُّلْمَ وَالْجَهْلَ، وَهِيَ حَالُ كُلِّ  
نَفْسٍ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا الْإِيمَانُ، وَتَطْلُعَ عَلَيْهَا شَمْسُ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَتُشْرِقَ  
فِيهَا أَنْوَارُ الْهُدَايَةِ الْمُصْطَفَوِيَّةِ، قَالَ - تَعَالَى - عَنِ الْإِنْسَانِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا  
جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فَسُوءُ هَذِهِ النَّفْسِ مَتَوَلِّدٌ مِنْ نِكَاحِ الظُّلْمِ وَالْجَهْلِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ عَنْهُ الضَّلَالُ  
الْمُبِينُ، فَشَفَا اللَّهُ النَّفْسَ الْمُؤْمِنَةَ مِنْ ظُلْمِهَا بِتَرْكِهَا وَتَطْهِيرِهَا، وَدَاوَاهَا مِنْ جَهْلِهَا  
بِتَعْلِيمِهَا مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَأَرْسَلَ بِذَلِكَ خَاتَمَ رُسُلِهِ، وَسَيِّدَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ  
مِنْ خَلْقِهِ، فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٢٩٤).

وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا مُبِينًا ﴿٢﴾ [الجمعة: ٢].

قال ابن القيم - رحمه الله -:

«فإن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس، فالمواد الفاسدة كلها إليها تنصب، ثم تنبعث منها إلى الأعضاء، وأول ما تنال القلب، وقد كان رسول الله ﷺ يقول - في خطبة الحاجة -: «الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا» (١)» (٢).

وقال - رحمه الله -:

«وقد اتفق السالكون إلى الله - على اختلاف طريقتهم، وتباين سلوكهم - على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يدخل عليه - سبحانه - ولا يوصل إليه إلا بعد تركها، وإماتتها بمخالفتها، والظفر بها.

فإن الناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه؛ فملكته وأهلكته، وصار طوعاً لها تحت أوامرها! وقسم ظفروا بنفوسهم؛ فقهروها، فصارت طوعاً لهم، مُنْقَادَةً لأوامرهم، كما قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبيين إلى الظفر بأنفسهم، فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك.

قال - تعالى -: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَاتَّخَذَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَقَدْ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١].

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩٢)، وسنده منقطع؛ أبو عبيدة لم يسمع أباه ابن مسعود، والحديث صحيح وله طرق، وفي مطبوع كتاب ابن القيم بعد «نستعينه»: «ونستهديه»، وهذه لم تثبت في الحديث.

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢٤).

فالنَّفْسُ تَدْعُو إِلَى الطُّغْيَانِ وَإِثَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالرَّبُّ - تَعَالَى - يَدْعُو الْعَبْدَ إِلَى خَوْفِهِ وَنَهْيِ النَّفْسِ عَنِ الْهَوَى، وَالْقَلْبُ بَيْنَ الدَّاعِيَيْنِ، يَمِيلُ إِلَى هَذَا الدَّاعِي مَرَّةً وَإِلَى هَذَا مَرَّةً، وَهَذَا مَوْضِعُ الْمِحْنَةِ وَالْإِثْلَاءِ»<sup>(١)</sup>.

فَاللَّهُمَّ! أَظْفِرْنَا بِنُفُوسِنَا، وَثَبِّتْنَا عَلَى هَذَاكَ حَتَّى نَلْقَاكَ.

وَإِنِّي أَدْعُو نَفْسِي وَإِخْوَانِي، إِلَى تَأْمُلِ هَذَا الْفَصْلِ الْبَدِيعِ مِنْ «فَوَائِدِ» الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -، فَإِنَّ فِيهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - شِفَاءً لِلْمُسْتَسْلِمِينَ الَّذِينَ رَكَنُوا إِلَى ضَعْفِهِمْ، وَاسْتَحَالَتِ التَّوْبَةُ عَنْهُمْ أُمْنِيَّةً لَا يَحْطُونَ شِبْرًا وَاحِدًا إِلَى تَحْقِيقِهَا، مُعْتَذِرِينَ بِكَثْرَةِ الذُّنُوبِ، مُسْتَثْقِلِينَ النَّهْضَ مِنْ بَيْنِ رُكَامِهَا، وَاهْبِثَ الشَّيْطَانَ مِنْهُمْ - بِالْمَجَّانِ - خَصْلَةً وَدَلَّوْا ظَفِرَ بَهَا<sup>(٢)</sup>.

قال - رحمه الله :-

«أَلْقَى اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الشَّيْطَانِ وَبَيْنَ الْمَلَكِ، وَالْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْعَقْلِ وَبَيْنَ الْهَوَى، وَالْعَدَاوَةَ بَيْنَ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ وَبَيْنَ الْقَلْبِ، وَابْتَلَى الْعَبْدَ بِذَلِكَ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ، وَأَمَدَّ كُلَّ حَزْبٍ بِجُنُودٍ وَأَعْوَانٍ، فَلَا تَزَالُ الْحَرْبُ سِجَالًا

(١) «إِغَاثَةُ الْلَهْفَانِ» (١/ ١٢٥ - ١٢٦).

(٢) خَرَجَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «التَّوْبَةِ» (١٤٥) عَنْ جَعْفَرِ بْنِ بَرْقَانَ، قَالَ: قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ: كَيْفَ لَا يَسْتَهْيِي أَحَدُنَا أَنَّهُ لَا يَزَالُ مُتَبَرِّكًا إِلَى رَبِّهِ يَسْتَغْفِرُ مِنْ ذَنْبٍ، ثُمَّ يَعُودُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ، ثُمَّ يَعُودُ؟ قَالَ: قَدْ ذُكِرَ ذَلِكَ لِلْحَسَنِ؛ فَقَالَ: «وَدَّ الشَّيْطَانُ لَوْ ظَفَرَ مِنْكُمْ بِهِذِهِ، فَلَا تَمْلُؤُوا مِنَ الْاسْتِغْفَارِ».

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي «الزَّهْدِ» (١٦٠٩) عَنْ سَعِيدِ بْنِ إِيَاسٍ الْجَرِيرِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! الرَّجُلُ يَذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ، ثُمَّ يَذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ، ثُمَّ يَذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ، ثُمَّ يَذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ! حَتَّى مَتَى؟! قَالَ: «مَا أَعْلَمُ هَذَا إِلَّا مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ».

وَدُوْلًا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، إِلَى أَنْ يَسْتَوِيَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، وَيَكُونُ الْآخَرُ مَقْهُورًا مَعَهُ.

فَإِذَا كَانَتِ النَّوْبَةُ لِلْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَالْمَلِكِ، فَهَنَالِكَ السُّرُورُ وَالنَّعِيمُ وَاللَّذَّةُ، وَابْهَجَةُ وَالْفَرَحُ وَقَرَّةُ الْعَيْنِ، وَطِيبُ الْحَيَاةِ وَانْشِرَاحُ الصَّدْرِ وَالْفُوزُ بِالْغَنَائِمِ، وَإِذَا كَانَتِ النَّوْبَةُ لِلنَّفْسِ وَالْهَوَى وَالشَّيْطَانِ، فَهَنَالِكَ الْغُومُ وَالْهَمُومُ وَالْأَحْزَانُ، وَأَنْوَاعُ الْمَكَارِهِ وَضِيقُ الصَّدْرِ وَحَبْسُ الْمَلِكِ<sup>(١)</sup>.

فَمَا ظَنُّكَ بِمَلِكٍ اسْتَوَى عَلَيْهِ عَدُوُّهُ، فَأَنْزَلَهُ عَنْ سَرِيرِ مُلْكِهِ، وَأَسْرَهُ وَحَبَسَهُ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَزَائِنِهِ وَدَخَائِرِهِ وَخَدَمِهِ، وَصَيَّرَهَا لَهُ، وَمَعَ هَذَا! فَلَا يَتَحَرَّكُ الْمَلِكُ لَطَلَبِ ثَأْرِهِ، وَلَا يَسْتَغِيثُ بِمَنْ يُغِيثُهُ، وَلَا يَسْتَنْجِدُ بِمَنْ يُنْجِدُهُ، وَفَوْقَ هَذَا الْمَلِكِ مَلِكٌ قَاهِرٌ لَا يُقْهَرُ، وَغَالِبٌ لَا يُغْلَبُ، وَعَزِيزٌ لَا يُدْلُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ: إِنَّ اسْتَنْصَرْتَنِي نَصْرَتُكَ، وَإِنْ اسْتَعَنْتَ بِي أَغَشْتُكَ، وَإِنْ التَّجَأْتَ إِلَيَّ أَخَذْتُ بِثَأْرِكَ، وَإِنْ هَرَبْتَ إِلَيَّ وَأَوَيْتَ إِلَيَّ سَلَطْتُكَ عَلَى عَدُوِّكَ، وَجَعَلْتُهُ تَحْتَ أَسْرِكَ.

فَإِنْ قَالَ هَذَا الْمَلِكُ الْمَأْسُورُ: قَدْ شَدَّ عَدُوِّي وَثَاقِي، وَأَحْكَمَ رِبَاطِي، وَاسْتَوَثَّقَ مِنِّي بِالْقَيْدِ، وَمَنْعَنِي مِنَ التَّهَوُّصِ إِلَيْكَ، وَالْفِرَارِ إِلَيْكَ، وَالْمَسِيرِ إِلَى بَابِكَ، فَإِنْ أَرْسَلْتَ جُنْدًا مِنْ عِنْدِكَ يَحُلُّ وَثَاقِي، وَيُفْكُ قَيْدِي، وَيُخْرِجُنِي مِنْ حَبْسِهِ، أَمْكِنِّي أَنْ أُوَافِيَ بِابِّكَ، وَإِلَّا لَمْ يُمَكِّنِي مَفَارِقَةُ مُحَبِّسِي وَلَا كَسْرُ قَيْدِي.

فَإِنْ قَالَ ذَلِكَ احْتِجَاجًا عَلَى ذَلِكَ السُّلْطَانِ، وَدَفْعًا لِرِسَالَتِهِ، وَرِضَى بِمَا هُوَ فِيهِ عِنْدَ عَدُوِّهِ، خَلَاةُ السُّلْطَانِ الْأَعْظَمُ وَحَالَهُ، وَوَلَّاهُ مَا تَوَلَّى.

وَإِنْ قَالَ ذَلِكَ افْتِقَارًا إِلَيْهِ، وَإِظْهَارًا لِعَجْزِهِ وَذُلِّهِ، وَأَنَّهُ أَوْعَفُ وَأَعْجَزُ أَنْ

(١) وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: الْقَلْبُ.

يسير إليه بنفسه، ويخرج من حبسِ عدوّه ويتخلّص منه بحَوْلِهِ وقُوَّتِهِ، وأنَّ من تمامِ نعمةِ ذلك المَلِكِ عليه؛ كما أرسل إليه هذه الرِّسالةَ، أن يمدّه من جُنْدِهِ ومَمَالِيكِهِ بمن يُعينه على الحَلّاصِ، ويكسرُ بابَ محبسه، ويُفكِّ قيوده، فإن فعل به ذلك فقد أتمَّ إنعامه عليه، وإن تخلّى عنه فلم يظلمه، ولا منعه حقاً هو له، وأنَّ حمده وحكمته اقتضى منعه وتخلّيته في محبسه، ولا سيما إذا علم أنَّ الحبسَ حبسه، وأنَّ هذا العدو الذي حبسه مملوكٌ من مَمَالِيكِهِ، وعبدٌ من عبيده، ناصيته بيده، لا يتصرّف إلا بإذنه ومشيئته، فهو غير ملتبسٍ إليه، ولا خائفٍ منه، ولا معتقِدٍ أنَّ له شيئاً من الأمر، ولا بيده نفعٌ ولا ضررٌ، بل هو ناظرٌ إلى مالِكِهِ ومُتَوَلِّ أمرِهِ ومن ناصيته بيده، قد أفرّده بالخوفِ والرَّجاءِ، والتَّضرُّعِ إليه والالتجاءِ، والرَّغبةِ والرَّهبةِ.. فهناك تأتيه جُيُوشُ النَّصْرِ والظَّفَرِ»<sup>(١)</sup>.

فالحملُ على النَّفسِ لزمَّها عن المِيلِ إلى المعاصي فرض عينٍ لا خيار فيه، فإنَّ العطبَ وراءَ التَّفريطِ فيه، وينبغي لمن يُريدُ الإحسانَ إلى نفسه أن يعلو بهمتها، ويسوسها بالعلم، ويحارب هواها بالعقلِ النَّامي على الهدى، والحكمة التي فتقتها ليأن الكتاب والسنة.

قال ابن حزم - رحمه الله -:

«لا تبدّل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذاتِ الله - عز وجل -، في دعاءٍ إلى حقٍّ، وفي حماية الحريم، وفي دفعِ هوانٍ لم يوجبْه عليك خالقك - تعالى -، وفي نصرِ مظلوم، وبإذلِّ نفسه في عَرَضِ دُنْيَا، كبائعِ الياقوتِ بالحصي... العاقل لا يرى لنفسه ثَمَنًا إلا الجنة»<sup>(٢)</sup>.

(١) «الفوائد» (ص ٨٣ - ٨٤).

(٢) رسالة في «مداواة النفوس» (١/ ٣٣٨ - ضمن «رسائل ابن حزم»).

قال أبو عبيدة: فهذا هو الخُسرانُ والحَيَّةُ لِمَن بذلَ نفسه في حلالِ الدُّنيا، فكيفَ بمن جعلها مِطْيَته إلى حرامِها، بل: موبقاتها؟! فهل يستطيعُ لسانُ أن يعبرَ عن خسارته، أو يقدرُ خاطرٌ على تصوُّر حسرته؟!

ومُيُولُ النَّفْسِ في ذاتِها ليست منكراً! فَإِنَّ اللَّهَ رَكَّبَ في كُلِّ نفسٍ غريزَتَها وما تنجذبُ إليه ممَّا تشتهيهِ، مِنْ مُتَمَوِّلٍ، أو مَرَكُوبٍ، أو مَأْكُولٍ، أو مشروبٍ، أو منكوحٍ، فَإِنَّ تعاطيَ المُباحِ من ذلك من كمالِ الخَلْقَةِ، ومن رَسْمِ الأَدَمِيَّةِ، لكنَّ الشرَّ في قضاءِ الشهوةِ فيما لم يحلَّه الله، بل منعَ منه، فهذا هو العدوانُ، وهذا هو الذي يثيرُ الشيطانُ كوامِنَ النَّفْسِ لارتكابه، فالإنسانُ في عداوةٍ مع نفسه الأَمَّارة بالسُّوءِ أبداً، وفي حربٍ مع شيطانه طُراً.

قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلْهُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿المؤمنون: ٥ - ٧﴾، فبيَّنَ الحلالَ، وذكرَ أنَّ تجاوزَه إلى ما وراءَه عدوانٌ.

وقد سُئِلَ عُمَرُ عن قومٍ يشتهون المعاصي ولا يعملون بها، قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣] (١).

قال ابن القيم - رحمه الله - في بيان بعضِ صُورِ العدوانِ طاعةً لأمرةِ النَّفْسِ: «فالعُدَّوانُ في حقِّ الله، كما إذا تعدَّى ما أباحَ الله له من الوَطْءِ الحلالِ في الأزواجِ والمَمْلُوكاتِ إلى ما حُرِّمَ عليه من سِوَاهُمَا... وكذلك تعدَّى ما أُبِيحَ له من زوجته وأُمِّته إلى ما حُرِّمَ عليه منها، كوطئِها في حيضِها أو نفاسِها، أو في غيرِ مَوْضِعِ الحَرْثِ، أو في إِحْرَامٍ أَحَدِهِمَا أو صِيَامِهِ الْوَاجِبِ، ونحوِ ذلك.

(١) «فتح الباري» (١/ ٥٤) لابن رجب.

أو أُبَيِّحَ لَهُ نَظَرُهُ الْخُطْبَةَ وَالسَّوْمَ<sup>(١)</sup>، وَالشَّهَادَةَ وَالْمُعَامَلَةَ وَالْمُدَاوَاةَ،  
فَأُطْلِقَ عِنَانَ طَرْفِهِ فِي مِيَادِينِ مُحَاسِنِ الْمَنْظُورِ، وَأَسَامَ طَرْفِ نَازِلِهِ فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ  
وَالزُّهُورِ، فَتَعَدَّى الْمُبَاحَ إِلَى الْقَدْرِ الْمَحْظُورِ، وَحَامَ حَوْلَ الْحِمَى الْمَحْوَطِ  
الْمَحْجُورِ، فَصَارَ ذَا بَصَرٍ حَائِرٍ، وَقَلْبٍ عَنْ مَكَانِهِ طَائِرٍ.

أَرْسَلَ طَرْفَهُ رَائِدًا يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ، فَخَامَرَ عَلَيْهِ، وَأَفَامَ فِي تِلْكَ الْخِيَامِ، فَبَعَثَ  
الْقَلْبَ فِي آثَارِهِ، فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَهُوَ أَسِيرٌ يَحْجُلُ فِي قَيْودِهِ بَيْنَ تِلْكَ الْخِيَامِ، فَمَا  
أَقْلَعَتْ لِحَظَاتِ نَازِلِهِ حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا، وَمَا بَرَحَتْ تَنْوُشُهُ سُيُوفُ تِلْكَ  
الْجُفُونِ حَتَّى جَنَدَلَتْهُ تَجْدِيدًا، هَذَا خَطَرُ الْعُدْوَانِ، وَمَا أَمَامَهُ أَعْظَمُ وَأَخْطَرُ، وَهَذَا  
فَوْتُ الْحِرْمَانِ، وَمَا حُرْمَتُهُ مِنْ فَوَاتِ ثَوَابِ مَنْ غَضَّ طَرْفَهُ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَجَلٌ  
وَأَكْبَرُ.

سَافَرَ الطَّرْفُ فِي مَقَاوِزِ مُحَاسِنِ الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَرْبَحْ إِلَّا أَدَى السَّفَرِ،  
وَعَرَّرَ بِنَفْسِهِ فِي رُكُوبِ تِلْكَ الْبَيْدَاءِ، وَمَا عَرَفَ أَنَّ رَاكِبَهَا عَلَى أَعْظَمِ الْخَطَرِ، يَا لَهَا مِنْ  
سَفَرَةٍ لَمْ يَبْلُغِ الْمُسَافِرُ مِنْهَا مَا نَوَاهُ، وَلَمْ يَضَعْ فِيهَا عَنْ عَاتِقِهِ عَصَاهُ، حَتَّى قُطِعَ  
عَلَيْهِ فِيهَا الطَّرِيقُ، وَقَعَدَ لَهُ فِيهَا الرَّصْدُ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ وَمَضِيقٍ، لَا يَسْتَطِيعُ الرُّجُوعَ  
إِلَى وَطَنِهِ وَالْإِيَابِ، وَلَا لَهُ سَبِيلٌ إِلَى السُّرُورِ وَالذَّهَابِ، يَرَى هَجِيرَ الْهَاجِرَةِ مِنْ بَعِيدٍ  
فَيُظَنُّ بَرْدَ الشَّرَابِ، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾  
وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿[النور: ٣٩]، وَتَيَقَّنَ أَنَّهُ كَانَ مَغْرُورًا بِلَا مَعَ السَّرَابِ.

تَالله! مَا اسْتَوَتْ هَذِهِ الدَّلَّةُ وَتِلْكَ الدَّلَّةُ فِي الْقِيَمَةِ فَيَشْتَرِيهَا بِهَا الْعَارِفُ الْخَبِيرُ،  
وَلَا تَقَارَبَا فِي الْمَنْفَعَةِ فَيَتَحَيَّرَ بَيْنَهُمَا الْبَصِيرُ، وَلَكِنْ عَلَى الْعَيُونِ غِشَاوَةٌ فَلَا تُفَرِّقُ

(١) هذا في حقِّ الإمام.



بَيْنَ مَوَاطِنِ السَّلَامَةِ وَمَوَاضِعِ الْعُثُورِ، وَالْقُلُوبُ تَحْتَ أَغْطِيَةِ الْغَفَلَاتِ رَاقِدَةٌ  
فَوْقَ فَرْشِ الْغُرُورِ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾  
[الحج: ٤٦] (١).

قال أبو عبيدة: وقد عدل ربنا - وهو الحكم العدل - تعالى وتقدس - في قوله:  
﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءُ  
وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ  
أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١ - ١٠].

فأقسم - تعالى - أَحَدَ عَشَرَ قَسَمًا، على أَنَّ من زكَّى نفسه وطهرها بالعلم  
النَّافِعِ والعملِ الصالح فهو المخصوص بالفلاح، وأنَّ من دسَّاهَا وتركها وأهلها  
تنحدر مع الشهوات والأهواء فهو الخائبُ الخاسرُ، وقد ركب الله فيها قابليَّتها  
للأمرين، وجعل المحنة والابتلاء في سَوِّقِهَا إلى الآخر من السَّيْلَيْنِ، وبالله  
التوفيق.

#### السبب الرابع - الشيطان:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ  
أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ  
عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ  
حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَذَعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقال:  
﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا  
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال - تبارك وتعالى -: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

(١) «مدارج السالكين» (١/٣٦٨-٣٦٩).

إِلَّا إِنَّمَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا أَضِلَّهُمْ وَلَا هُمْ يَضِلُّونَ وَلَا أَهْدِيَهُمْ وَلَا أَمْنِيَهُمْ وَلَا أَمْنِيَهُمْ وَلَا أَمْنِيَهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ مَاذَا الْآنَ نَعْمَ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلْيَغْيِرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿النساء: ١١٧ - ١٢٠﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

ولا يرسل الشيطان سهماً إلى إنسانٍ إلا وهو يريد قلبه! لكنَّ اللعين أوتيَ جلدًا ونفسًا طويلاً للوصول إلى غايته في إغواء ابن آدم، ومساعدته عليه متنوِّعة، ومداخله عليه كثيرة، ومطامعه منه لا تُحصى.

\* \* \*

مطالبُ الشيطان من الإنسان:

وقد استنارت بصائرُ أهل العلم بهدى القرآن والسنة، فانفصلوا في تأملهم لمراتبِ مطامعه، وفي استقراءهم لدركاتِ شقاوته، عن أنَّها تنحصرُ في ستٍّ، لا يكلُّ ولا يملُّ عن أن يبدُلَ كلَّ ما في وسعه ليظفرَ بأحدها، ولا يتقلَّ من أعلاها - عنده - إلى أدناها إلاَّ عجزاً ويأساً.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - معدداً هذه الشرورَ:

«الشرُّ الأوَّلُ: شرُّ الكفرِ والشُّركِ ومعاداةِ الله ورسوله، فإذا ظفرَ بذلك من ابنِ آدمَ بردَ أُنْبُتُهُ، واستراحَ من تعبِهِ معه، وهو أوَّلُ ما يريدُ من العبدِ، فلا يزالُ به حتى يناله منه، فإذا نالَ ذلك، صيَّره من جنده وعسكره، واستنابَه على أمثاله وأشكاله، فصارَ من دعاةِ إبليسَ ونوَّابه، فإذا يئسَ منه من ذلك، وكانَ مِنْ سَبَقَ له الإسلامُ في بطنِ أمِّه، نقلَه إلى:

المرتبة الثانية من الشر: وهي البدعة، وهي أحبُّ إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأنَّ ضررها في نفس الدين، وهو ضررٌ مُتَعَدِّدٌ، وهي ذنبٌ لا يُتَابُ منه، وهي مخالفةٌ لدعوة الرُّسل، ودعاءٌ إلى خلافٍ ما جاؤوا به، وهي بابُ الكُفرِ والشرِّ، فإذا نالَ منه البدعةُ وجعلَه من أهلِها، بقيَ - أيضًا - نائبه وداعيًا من دُعَاتِهِ، فإنَّ أعجزَه من هذه المرتبة، وكان العبدُ بمنَّ سبقت له من الله موهبةُ السنَّةِ ومُعَادَاةُ أهلِ البدع والضَّلالِ، نقله إلى:

المرتبة الثالثة من الشر: وهي الكبائرُ على اختلافِ أنواعها، فهو أشدُّ حرصًا على أن يُوقِعَه فيها، ولا سيما إن كانَ عالمًا مُتَبَوِّعًا، فهو حريصٌ على ذلك، لِيُنْفَرَ النَّاسَ عنه، ثم يُشِيعُ من ذنوبه ومعاصيه في النَّاسِ، ويستتِيبُ منهم من يُشِيعُهَا ويُذِيعُهَا تَدِينًا وتَقَرُّبًا بِزَعْمِهِ إلى الله - تعالى - ! وهو نائبُ إبليسَ ولا يشعرُ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩]، هذا إذا أَحَبُّوا إِشَاعَتَهَا وَإِذَاعَتَهَا، فكيف إذا تَوَلَّوْا هُمْ إِشَاعَتَهَا وَإِذَاعَتَهَا؟! لا نصيحةٌ منهم، ولكن طاعةٌ لإبليسَ ونيابتهُ عنه، كلُّ ذلك لِيُنْفَرَ النَّاسَ عنه وعن الانتفاع به، وذنوبُ هذا، ولو بَلَغَتْ عَنَانَ السَّمَاءِ أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ من ذنوبِ هؤلاء، فَإِنَّهَا ظَلُمٌ مِنْهُ لِنَفْسِهِ، إِذَا اسْتَغْفَرَ اللَّهُ وَتَابَ إِلَيْهِ قَبْلَ اللَّهِ تَوْبَتَهُ، وَبَدَّلَ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، وَأَمَّا ذُنُوبُ أَوْلَئِكَ فَظُلْمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَتَّبَعُ لِعَوْرَتِهِمْ، وَقَصْدُ لَفْضِيحَتِهِمْ، وَاللَّهُ - سبحانه - بِالْمِرْصَادِ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ كَمَا إِنَّ الصُّدُورَ، وَدَسَائِسُ النُّفُوسِ.

فإن عَجَزَ الشَّيْطَانُ عن هذه المَرْتَبَةِ، نقله إلى:

المرتبة الرابعة: وهي الصَّغَائِرُ التي إذا اجتمعت فُرْبًا أَهْلَكَتْ صَاحِبَهَا، كما قال النبي ﷺ: «يَاكُمْ وَمَحْقَرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ قَوْمٍ نَزَلُوا بِقَلَاةٍ مِنْ

الأرض...» وذكر حديثاً معناه أَنَّ كُلَّ واحدٍ منهم جاءَ بِعُودٍ حَطَبٍ حتى أَوْقَدُوا ناراً عظيمةً، فَطَبَحُوا واشْتَوَوْا!!<sup>(١)</sup> ولا يزالُ يُسهَّلُ عليه أمرُ الصَّغَائِرِ حتى يستهينَ بها، فيكونُ صاحبُ الكبيرة الخائفُ منها أحسنَ حالاً منه!

فإن أَعجزَه العبدُ من هذه المرتبة، نَقَلَه إلى:

المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمُبَاحَاتِ التي لا ثوابَ فيها ولا عقابَ<sup>(٢)</sup>،

(١) الحديث الذي أشارَ إليه - رحمه الله - هو ما أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢) من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - مرفوعاً: «يَاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكُنَّهُ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لَهْنَ مَثَلًا: كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعَ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِئُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِئُ بِالْعُودِ، حَتَّى يَجْمَعُوا سَوَادًا، فَأَجْبَحُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»، والحديث حسنٌ لغيره.

قال السَّندِي في «حواشي مسند الإمام أحمد» (١/ ٦٤٧ - ط عوض الله): «قوله: (وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ) بفتح القاف المشددة؛ أي: صغائرها، (يُهْلِكُنَّهُ) إمَّا لأنَّ اعتيادها يؤدِّي إلى ارتكاب الكبائر، من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، فيكون الهلاك بالكبائر التي تؤدِّي إليها الصغائر، وإمَّا لأنَّ تكفير الصغائر عند اجتناب الكبائر جائزٌ لا واجب، كما ذكره كثيرٌ من أهل العلم، وإن كان ظاهرُ القرآن يقتضي خلافه، فبيِّنَ الحديثُ أنَّه إذا كَثُرْنَ يُخَافُ عدمُ المغفرة، وإمَّا لأنَّ اعتيادها يؤدِّي إلى قلةِ المبالاة بها وهو يوجب الهلاك، وإمَّا لأنَّ الإصرار على الصغيرة كبيرة، وهو محمل الحديث، والأقرب أنَّ الحديث يدلُّ على أنَّ الإصرار على نوع الصغيرة - أيضًا - كبيرة، وإن لم يصرَّ على صغيرة واحدة بعينها، وهذا هو ظاهر المثل المذكور، والاحتمالات الأخر لا توافقه كما لا يخفى. (صَنِيعَ الْقَوْمِ) فُسِّرَ في «النهاية» الصَنِيعُ بِالطَّعَامِ». اهـ

(٢) لأنَّ ما أباحه الله لا يعاقب بدخول النَّارِ فاعله، لكن يُكره الإكثار منه، مخافة أن تجرَّ إلى المحرمة، أو تقسِّي القلب، أو تجرَّ بشغلٍ عن الطاعات، أو تخرج إلى الاعتناء بتحصيل الدُّنيا ونحو ذلك، ولا ينجو منها إلَّا من تجنَّب الشهوات، ومن عَجَّلَتْ له طيِّباتُ =

بل عَقَابُهَا فَوَاتُ الثَّوَابِ الَّذِي ضَاعَ عَلَيْهِ بِاشْتِغَالِهِ بِهَا.

فَإِنْ أَعْجَزَهُ الْعَبْدُ مِنْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وَكَانَ حَافِظًا لَوْقَتِهِ، شَحِيحًا بِهِ، يَعْلَمُ مِقْدَارَ أَنْفَاسِهِ وَانْقِطَاعَهَا، وَمَا يَقَابِلُهَا مِنَ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ، نَقَلَهُ إِلَى:

المرتبة السادسة: وهو أَنْ يَشْغَلَهُ بِالْعَمَلِ الْمَفْضُولِ عَمَّا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، لِيُزِيحَ عَنْهُ الْفَضِيلَةَ، وَيَقْوِيَهُ ثَوَابُ الْعَمَلِ الْفَاضِلِ، فَيَأْمُرُهُ بِفِعْلِ الْخَيْرِ الْمَفْضُولِ وَيُحْضِرُهُ عَلَيْهِ، وَيُحَسِّنُهُ لَهُ إِذَا تَصَمَّنَ تَرَكَ مَا هُوَ أَفْضَلُ وَأَعْلَى مِنْهُ، وَقَلَّ مَنْ يَتَنَبَّهُ لِهَذَا مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّهُ إِذَا رَأَى فِيهِ دَاعِيًا قَوِيًّا وَمُحَرِّكًا إِلَى نَوْعٍ مِنَ الطَّاعَةِ، لَا يَشْكُ أَنَّ طَاعَةَ وَقُرْبَةً، فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا الدَّاعِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ! فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ! وَيَرَى أَنَّ هَذَا خَيْرٌ، فيقول: هَذَا الدَّاعِيَ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ مَعْدُورٌ، وَلَمْ يَصِلْ عِلْمُهُ إِلَى أَنَّ الشَّيْطَانَ يَأْمُرُ بِسَبْعِينَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ! إِمَّا لِيَتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى بَابٍ وَاحِدٍ مِنَ الشَّرِّ، وَإِمَّا لِيَقْوِيَ بِهَا خَيْرًا أَعْظَمَ مِنْ تِلْكَ السَّبْعِينَ بَابًا، وَأَجَلَ وَأَفْضَلَ!

وهذا لَا يَتَوَصَّلُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِنُورٍ مِنَ اللَّهِ يَقْذِفُهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، يَكُونُ سَبَبَهُ تَجَرِيدَ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ، وَشِدَّةَ عَنَائِيَّتِهِ بِمَرَاتِبِ الْأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّهِ وَأَحَبِّهَا إِلَيْهِ، وَأَرْضَاهَا لَهُ، وَأَنْفَعَهَا لِلْعَبْدِ، وَأَعَمَّهَا نَصِيحَةً لِلَّهِ - تَعَالَى - وَلِرَّسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ، وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ.

وَلَا يَعْرِفُ هَذَا إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ وَرَثَةِ الرَّسُولِ وَنُوَابِهِ فِي الْأُمَّةِ، وَخُلَفَائِهِ فِي الْأَرْضِ، وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ مُحْجُوبُونَ عَنْ ذَلِكَ فَلَا يَخْطُرُ بِقُلُوبِهِمْ، وَاللَّهُ - تَعَالَى - يَمُنُّ بِفَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

---

= شَهَوَاتِ الدُّنْيَا اقْتَحَمَ حِجَابَهَا، فَدَخَلَ فِيهَا، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ. اه قاله ابن رسلان الرملي في «شرح سنن أبي داود» (٣٣٨ / ١٨).

فإنَّ أَعْجَزَ الْعَبْدِ مِنْ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ السَّتِّ وَأَعْيَا عَلَيْهِ، سَلَّطَ عَلَيْهِ حِزْبَهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى... وَلَا يَقْتَرُ وَلَا يَنْبِي، فحِينَئِذٍ يَلْبَسُ الْمُؤْمِنُ لَأَمَّةَ الْحَرْبِ، وَلَا يَضَعُهَا عَنْهُ إِلَى الْمَوْتِ، وَمَتَى وَضَعَهَا أُسْرَ أَوْ أُصِيبَ، فَلَا يَزَالُ فِي جِهَادٍ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ»<sup>(١)</sup>.

فهذه مطامعُ اللَّعِينِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَقَانَا اللَّهُ شُرُورَهُ، مُسْتَعِيزِينَ بِرَبِّنَا مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

وله لتحقيقها وسائل ومكايد ومسالك، لا يركبُ في عادته الواحد منها منفرداً، وإنَّما يركبها مُتَنَاءً ومجموعةً، ليكونَ أبلغَ في الضَّرَرِ والنَّكَايَةِ، وأشدَّ في الإِضْلَالِ والغَوَايَةِ، فمنها:

#### ١ - تزيينُ الباطلِ:

قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقال - سبحانه -: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

فإذا وافقَ هذا التزيينُ جهلاً في النَّفْسِ، وغفلةً، وهوىً، فما مُرِوقُ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَةِ بِأَسْرَعَ مِنْ مُرِوقِ صَاحِبِهَا إِلَى الْبَاطِلِ.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «ومن مكايده: أَنَّهُ يَسْحَرُ الْعَقْلَ دَائِمًا حَتَّى يَكِيدَهُ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ سَحَرِهِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، فَيُزَيِّنُ لَهُ الْفِعْلَ الَّذِي يَضُرُّهُ، حَتَّى يُحَيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ لَهُ، وَيُنْفِرُهُ مِنَ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ أَنْفَعُ الْأَشْيَاءِ لَهُ، حَتَّى يُحَيِّلَ لَهُ أَنَّهُ يَضُرُّهُ!

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٩٩ - ٨٠٢).

فلا إله إلا الله! كم فُتن بهذا السّحر من إنسان! وكم حَال به بين القلبِ وبين الإسلام والإيمان والإحسان! وكم جَمَل الباطل وأبرَزَه في صورةٍ مُستَحْسَنَةٍ، وبَشَعَ الحقَّ وأخرَجَه في صورةٍ مُستَهْجَنَةٍ! وكم بهُرج من الزُّيُوفِ على النّاقِدين، وكم رَوَّج من الزَّغَلِ على العارفين!«<sup>(١)</sup>.

قال أبو حامد الغزالي: «اعلم أنّ الشيطانَ مسلَّطٌ على كلّ ناظرٍ»<sup>(٢)</sup>، ومشغوفٌ بتبليسِ الحقِّ وتغيطِيَتِه، ومصرٌّ- على الوفاءِ بقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، والتَّحَدُّرُ منه شديدٌ، ولا يَتَسَرَّرُ إِلَّا لِمَنْ هو في محلِّ استثنائه حيث قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٣]، جعلنا الله وإياك منهم، فعليك أن تأخذَ في نَظَرِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَاسِهِ حَذَرَكَ.

فإن قلت: كيف لي به مع ما أنا عليه من الضَّعْفِ؟ ومع ما هو عليه من التَّسَلُّطِ والتَّمَكُّنِ؟ حتى أنّه ليجري من ابن آدم مجرى الدَّمِ!

فاعلم أنّ العقلَ حزبٌ من أحزابِ الله - تعالى ذكرُه -، وجندٌ من جنوده، ما أنعم به عليك إِلَّا لتستعينَ به على أعدائه، ووجهُ الاستعانة أن تتفقَدَ بنورِ العقلِ وسراجَه الزَّاهِرِ مداخلَ الشَّيْطَانِ في النِّظَرِ، وتعلمَ أنّ حِصْنَ النِّظَرِ والدَّلِيلِ ما لم يَنْتَلِمْ رُكْنٌ من أركانه، لم يَجِدْ الشَّيْطَانُ مَدْخَلًا، فإنّه لا يدخلُ إِلَّا من الثُّلَمِ، فإذا أَبْصَرْتَ الثُّلَمَ بنورِ العقلِ وسَدَدْتَهَا وَأَحْكَمْتَ مَعَاقِلَهَا، انصرفَ الشَّيْطَانُ خَائِبًا خَاسِرًا، واهتديتَ إلى الحقِّ، ونلتَ بمعرفةِ الحقِّ درجةَ القُرْبِ من ربِّ العالمين»<sup>(٣)</sup>.

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٩٣ - ١٩٤).

(٢) المُراد: نظرُ العقل والقلب والفكر، لا نظر العين.

(٣) «محك النظر» (ص ٢٤٥).

## ٢ - دخوله على النَّفسِ من بابِ محبوباتها:

فإنَّه يصوِّرُ للنَّفسِ التي يَعْلَمُ منها المَيْلَ إلى أمرٍ، أنَّها تجدُّه في معصيةِ الله، وأنَّ طاعةَ الله تُبْعِدُها عنه، وتحرمُها منه، فذِئْدُنُ اللَّعِينِ التَّخِيلُ بأنَّ المعصيةَ جسرٌ إلى اللَّذَّةِ والسَّعادةِ، وأنَّ الطَّاعةَ قَنْطَرَةٌ إلى الشَّقَاءِ.

قال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبْعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]  
فهذه ظنُّوهُمْ التي هي من وحيه، والحقيقةُ التي تكذِّبُ هذا الظَّنَّ الشَّيطَانِيَّ ماثلةٌ قائمةٌ أمامهم حينَ نُطَقِهم بهذا الكلامِ: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

قال ابن عاشور: «فَحَسِبُوا أَنَّ الإسلامَ مُفْضٍ إلى اعتداءِ العَرَبِ عليهم، ظَنًّا بأنَّ حُرْمَتَهُمْ بَيْنَ العَرَبِ مَزِيَّةٌ وَنِعْمَةٌ أَسَدَّاهَا إِلَيْهِمْ قِبَالُ العَرَبِ!»<sup>(١)</sup>.

فهذا من جِهَةِ التَّنْفِيرِ عن الخَيْرِ بِتصويرِ عاقبته شَرًّا، وأمَّا من جِهَةِ استغلالِ محبوبِ النَّفسِ، فكالذي جرى على الأَبْوَيْنِ - عليهما السَّلَام -.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «... وهذا بابٌ كَيْدِهِ الأعْظَمُ الذي يدخل منه على ابن آدم؛ فإنه يجري منه مجرى الدم، حتى يَصَادِقَ نَفْسَهُ وَيَخَالِطُهَا، وَيَسْأَلُهَا عَمَّا تَحِبُّهُ وَتُؤَثِّرُهُ، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا البابِ.

وكذلك علِّمَ إخوانه وأولياءه من الإنس، إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضًا؛ أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونَه، فإنه باب لا يُخْذَلُ عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدودٌ، وهو عن طريق مقصده مسدود.

(١) «التحرير والتنوير» (٢٠/١٥٠).



فَشَامَ<sup>(١)</sup> عدُوَّ الله الأبوين، فأحسَّ منهما إيناسًا وركونًا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنَّه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمَهُمَا بالله إِنَّه لهما لمن الناصحين، وقال: ﴿مَا نَهَنُكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وكان عبد الله بن عباس يقرأها (مَلَكَيْنِ) - بكسر اللام -<sup>(٢)</sup>، ويقول: «لم يطمعَا أن يكونا من الملائكة، ولكن استشرفَا أن يكونا مَلَكَيْنِ، فأتاها من جهة المُلْكِ»، ويدلُّ على هذه القراءة قوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَتَدَامُ هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠] <sup>(٣)</sup>.

فهذان أمران شديدان الارتباط بالنفس، واكتمال تأثيرهما بمصاحبة الجهل والهوى واضح، فهذا أهمُّ ما على ابن آدم أن يحذره ويتنبه له، ويعصَّ بأضراسه على كلِّ سببٍ ووسيلةٍ تخلُّصه منه، وتعيُّنه عليه، وتُسندُه في مواجهته. مثالٌ عمليٌّ للمعاصي النَّاشئة عن كلِّ هذه الأسباب:

شهوة النساء المحرَّمة:

قال ابن المقفع:

«اعلم أن من أوقع الأمور في الدين، وأثَّهَها للجسد، وأتلفَها للسل، وأقتلَها للعقل، وأزراها للمروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار: الغرام بالنساء.

(١) أي: شَمَّهُمَا؛ بمعنى: اقترب من نفوسهما اقترب المستكشف المستطلع.

(٢) انظر: «معجم القراءات» (٢٠/٣) للخطيب.

(٣) «إغاثة اللفهان» (١٩٦/١ - ١٩٧).

وَمِنَ الْبَلَاءِ عَلَى الْمُغْرَمِ بِهِنَّ أَنَّهُ لَا يَنْفَكُ يَأْجُمُ<sup>(١)</sup> مَا عِنْدَهُ، وَتَطْمَحُ عَيْنَاهُ إِلَى مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ.

إِنَّمَا النِّسَاءُ أَشْبَاهُ، وَمَا يَتَزَيَّنُّ فِي الْعْيُونِ وَالْقُلُوبِ مِنْ فَضْلِ مَجْهُولَاتِهِنَّ عَلَى مَعْرُوفَاتِهِنَّ بَاطِلٌ وَخِدْعَةٌ، بَلْ كَثِيرٌ مَّا يَرْعَبُ عَنْهُ الرَّاغِبُ مِمَّا عِنْدَهُ، أَفْضَلُ مِمَّا تَتَوَقَّعُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْهُنَّ، وَإِنَّمَا الْمُتَرَعِّبُ عَمَّا فِي رَحْلِهِ مِنْهُنَّ إِلَى مَا فِي رِحَالِ النَّاسِ، كَالْمُتَرَعِّبِ عَنِ طَعَامِ بَيْتِهِ إِلَى مَا فِي بَيْوتِ النَّاسِ، بَلِ النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ أَشْبَهُ مِنَ الطَّعَامِ بِالطَّعَامِ، وَمَا فِي رِحَالِ النَّاسِ مِنَ الْأَطْعَمَةِ، أَشَدُّ تَفَاضُلًا وَتَفَاوُتًا مِمَّا فِي رِحَالِهِمْ مِنَ النِّسَاءِ.

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَا بَأْسَ بِلَبِّهِ وَرَأْيِهِ، يَرَى الْمَرْأَةَ مِنْ بَعِيدٍ مَتَلَفِّفَةً فِي ثِيَابِهَا، فَيَصَوِّرُ لَهَا فِي قَلْبِهِ الْحُسْنَ وَالْجَمَالَ، حَتَّى تَعْلَقَ بِهَا نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَا! وَلَا خَبَرَ مُخْبِرٍ! ثُمَّ لَعَلَّهُ يَهْجُمُ مِنْهَا عَلَى أَقْبَحِ الْقُبْحِ، وَأَدَمِّ الدَّمَامَةِ، فَلَا يَعِظُهُ ذَلِكَ! وَلَا يَقْطَعُهُ عَنْ أَمْثَالِهَا، وَلَا يَزَالُ مُشْغُوفًا بِهَا لَمْ يَذُقْ، حَتَّى لَوْ لَمْ يَبْقَ فِي الْأَرْضِ غَيْرُ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، لَظَنَّ لَهَا شَأْنًا غَيْرَ شَأْنِ مَا ذَاقَ، وَهَذَا هُوَ الْحُمُوقُ، وَالشَّقَاءُ، وَالسَّفَهَةُ<sup>(٢)</sup>.

وَهَذَا تَحْلِيلٌ عَقْلِيٌّ وَنَفْسِيٌّ صَادِقٌ، يَشْهَدُ لَهُ كُلُّ دَلِيلٍ وَفِكْرٍ صَحِيحٍ، وَتَوْيِيدُهُ كُلُّ تَجْرِبَةٍ وَخَبْرَةٍ، وَلَكِنْ هِيَاهُ! فَالاعتبارُ كرامةٌ مِنَ اللَّهِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ صَدَقَ فِي سَعْيِهِ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّهِ، وَيُحْرِمُهُ كُلُّ مَنْ اتَّبَعَ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ، وَجَارَى النَّفْسِ وَالْهَوَى.

(١) الْأَجْمُ: هُوَ الْإِعْرَاضُ عَنِ الشَّيْءِ مَعَ كَرَاهَتِهِ وَالنُّفْرَةَ مِنْهُ. «لسان العرب» مادة (أجم).

(٢) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص ١١٧-١١٨).

قال ابن الجوزي - رحمه الله - في «ذم الهوى»<sup>(١)</sup>:

«وَبَلَغَنِي عَنْ رَجُلٍ كَانَ بِبَغْدَادٍ يُقَالُ لَهُ صَالِحُ الْمُؤَذِّنِ، أَذَّنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً،  
وَكَانَ يُعْرَفُ بِالصَّلَاحِ، أَنَّهُ صَعِدَ يَوْمًا إِلَى الْمَنَارَةِ لِيُؤَذِّنَ، فَرَأَى بِنْتَ رَجُلٍ نَصْرَانِيٍّ  
كَانَ بَيْتُهُ إِلَى جَانِبِ الْمَسْجِدِ، فَافْتَتَنَ بِهَا، فَجَاءَ فَطَرَقَ الْبَابَ، فَقَالَتْ: مَنْ؟ فَقَالَ:  
أَنَا صَالِحُ الْمُؤَذِّنِ! فَفَتَحَتْ لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ ضَمَّهَا إِلَيْهِ!

فَقَالَتْ: أَنْتُمْ أَصْحَابُ الْأَمَانَاتِ! فَمَا هَذِهِ الْخِيَانَةُ؟! فَقَالَ: إِنَّ وَافَقْتَنِي عَلَى  
مَا أُرِيدُ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ، فَقَالَتْ: لَا، إِلَّا أَنْ تَتْرُكَ دِينَكَ! فَقَالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ  
وَمِمَّا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ!! ثُمَّ دَنَا إِلَيْهَا.

فَقَالَتْ: إِنَّمَا قُلْتَ هَذِهِ لَتَقْضِيَ غَرَضَكَ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى دِينِكَ، فَكُلْ مِنْ لَحْمِ  
الْخَنَزِيرِ، فَأَكَلَ! قَالَتْ: فَاشْرَبِ الْخَمْرَ، فَشَرِبَ!

فَلَمَّا دَبَّ الشَّرَابُ فِيهِ دَنَا إِلَيْهَا، فَدَخَلَتْ بَيْتًا وَأَغْلَقَتْ الْبَابَ، وَقَالَتْ: اصْعَدْ  
إِلَى السَّطْحِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَبِي زَوَّجَنِي مِنْكَ!

فَصَعِدَ فَسَقَطَ فَمَاتَ!

فَخَرَجَتْ فَلَفَّتَهُ فِي مِسْحٍ، فَجَاءَ أَبُوهَا، فَقَصَّصَتْ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، فَأَخْرَجَهُ فِي  
اللَّيْلِ فَرَمَاهُ فِي السَّكَّةِ، فَظَهَرَ حَدِيثُهُ، فَرُمِيَ فِي مَرْبَلَةٍ!.

وَلَا نَقُولُ إِلَّا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! اللَّهُمَّ! يَا مَقْلَبَ الْقُلُوبِ! ثَبَّتْ  
قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ.

فَمَاذَا تَرَاهُ كَانَ فَاعِلًا لَوْ ظَفَرَ بِهَا؟ إِلَّا مَا يَفْعَلُهُ كُلُّ مَنْ مَلَكَ بُضْعًا مُبَاحًا!  
فَهَلْ رَامَ أَمْرًا يَسْتَحِقُّ بَيْعَ الْجَنَّةِ - بِحُورِهَا وَأَنْهَارِهَا وَنَعِيمِهَا - لِأَجَلِهِ؟! وَيَسْتَبْدِلُهَا

(١) (ص ٤٥٩ - ٤٦٠).

بجهنم التي وقودها الناس والحجارة !

فمتى يعصي العبد إذن؟!

من المعلوم بالاستقراء، أنَّ المعصية تقع في لحظةٍ من الغفلة، فإذا كان الإنسان جاهلاً، فقد انطفأ المصباح الذي يُضيئ له الطريق، وإِما أن يكون ذلك لعدم العلم بالكلية، أو لنسيان المعلوم، وهي حال الغفلة.

فإذا كان كذلك، فإنه لا قائد للنفس إلا الهوى، وهي تميل معه بالجبلية والطبع، ويتولى الشيطان التحريك والتحريض والتزيين، فينعدُّ نوار المعصية عند ذلك، ولا عاصم من الله إلا من رحم.

والنَّجاة في علم يرتفع به الجهل، ويحكم به الهوى، ويُعرف به النَّافع من الضَّار، وفي استعانة بالله وذكرٍ له يُحرِّز العبدُ به نفسه من الشيطان.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «ومن علامات صحة القلب: أن لا يفتر عن ذكر ربِّه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره؛ إلا بمن يَدُلُّه عليه، ويُذكره به، ويذاكره بهذا الأمر»<sup>(١)</sup>.

لَمَّا قَاتَلَ عَلِيٌّ - رضي الله عنه - الخوارج وهم من شرٍّ من وطئ الحصار عصياناً وعُتُوًّا وافتراءً على الله، جعل يمشي بين قتلاهم ويقول: «بؤساً لكم! لقد صرَّكم من غرَّكم. فقالوا: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! ومن غرَّهم؟ قال: الشيطان، وأنفسُ بالسوء أَمَّارَةٌ، غَرَّتْهُمُ بِالْأَمَانِيِّ، وَزَيَّنَتْ لَهُمُ الْمَعَاصِي، وَنَبَّأَتْهُمْ أَنَّهُمْ ظَاهِرُونَ»<sup>(٢)</sup>.

وسياقي مزيد بيان لذلك - إن شاء الله -.

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١/ ١٢٠).

(٢) «الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ» (٧/ ٣٢٠).

والشاهد أنَّ الشيطانَ لا يعملُ وحده، بل إذا انفردَ بالعداوة، مع تحقُّقِ العبدِ بالعلمِ والإيمانِ، والاحترازِ منه بالإخلاصِ والذِّكْرِ والقرآنِ، فإنَّه لا يتجاوزُ ما وُصِفَ به في قول الحقِّ - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وذلك لأنَّ وسوسته عند المؤمن لا شيء، وقد فرَحَ النبيُّ ﷺ فرحًا عظيمًا عندما اشتكى إليه بعضُ صحابته ما يجده من الوسواس، مع أنَّ المُشتكى كان يظنُّ نفسه على خطرٍ عظيمٍ حدَّ الهلاك! (١)

وأخرج مسلم (١٣٣) من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن الوسوسة، قال: «تلك محضُ الإيَّان».

وبرقم (١٣٢) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: جاء ناسٌ من أصحابِ النبيِّ ﷺ فسألوه: إنَّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلَّم به، قال: «وقد جدَّتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريحُ الإيَّان».

فقد روى أحمد في «المسند» (٢) عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! إنِّي أحدث نفسي بالشيء، لأنَّ آخرَ من السماء أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّم به! قال: فقال النبيُّ ﷺ: «الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة».

وسبب الفرح بذلك، هو أنَّ النبيَّ ﷺ علم أنَّه لَمَّا لم يَقْدِرْ منهم على المعاصي الظاهرة على اللسانِ والجوارح، ارتدَّ خائبًا وانحسَرَ كيده في الوسوسة التي يوشِكُ أن يذهبَها الذِّكْرُ والقرآنُ، فلا يبقى له سلطانٌ على مؤمنٍ.

(١) انظر: لفتة حسنة في «خبايا النفوس.. أسئلة وكشف» (ص ١٥ - ٢٧) لعبد العزيز الحربي.

(٢) (٢٣٥/١)، وسنده صحيح.

ولأنَّ «استعظام هذا وشدة الخوف منه من النُّطق به، فضلاً عن اعتقاده،  
إنَّما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً، وانتفت عنه الرِّيبة والشكوك  
الباطلة.

وقيل: معناه: إنَّ الشيطان إنَّما يوسوس لمن أيس من إغوائه، فينكِّد عليه  
بالوسوسة لعجزه عن إغوائه، بخلاف الكافر، فإنَّه يأتيه كيف شاء»<sup>(١)</sup>.

ورحم الله أبا حازم الأعرج القائل: «وما إبليس؟! لقد عُصِيَ فما ضرَّ، ولقد  
أُطِيعَ فما نَفَعَ»<sup>(٢)</sup>.

الجزء من جنس العمل:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن المعلوم بما أَرَأَا الله من آياته في الآفاق  
وفي أنفسنا، وبما شهد به في كتابه؛ أنَّ المعاصي سببُ المصائب، فسيئاتُ المصائبِ  
والجزءُ هي من سيئات الأعمال، وأنَّ الطَّاعة سببُ النِّعمة، فإحسانُ العبدِ العملِ  
سببٌ لإحسانِ الله»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن القيم - رحمه الله -: «وقد دَلَّ العقلُ، والنقلُ، والفِطْرَةُ، وتجاربُ  
الأمم على اختلاف أجناسها ومِلَلِها ونِحَلِها، على أنَّ التقرُّب إلى ربِّ العالمين  
وطلب مرضاته، والبرَّ والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير،  
وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكلِّ شرٍّ، فما اسْتُجِلِبَتْ نِعَمُ الله واستُدْفِعَتْ  
نِقْمَةُ الله، بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه.

(١) - «شرح سنن أبي داود» (١٩ / ٣٧٢) لابن رسلان الرملي.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦ / ٩٩).

(٣) «الاستقامة» (٢ / ٢٣٤).

وقد رَتَّبَ الله - سبحانه - حصولَ الخيراتِ في الدُّنْيَا والآخرةِ وحصولَ السرورِ في الدُّنْيَا والآخرةِ في كتابه على الأعمالِ، ترتيبَ الجزاءِ على الشَّرْطِ، والمعلولِ على العلَّةِ، والمُسَبَّبِ على السَّبَبِ، وهذا في القرآن يزيد على ألفِ موضعٍ! فتارةً يَرْتَّبُ الحُكْمَ الحَبْرِيَّ الكَوْنِيَّ والأمرَ الشرعيَّ على الوَصْفِ المناسبِ له، كقوله - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقوله: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا ﴾ [المائدة: ٣٨] <sup>(١)</sup>.

وقال - رحمه الله -: «ولذلك كان الجزاء ماثلاً للعمل من جنسه في الخير والشر، فمن ستر مسلماً ستره الله، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن نكس عن مؤمن كربة من كُرب الدنيا نكس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن أقال نادماً أقاله الله عثرته يوم القيامة، ومن تتبّع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن ضارّ مسلماً ضارّ الله به، ومن شاقّ شاقّ الله عليه، ومن خذل مسلماً في موضع يجب نُصْرته فيه خذله الله في موضع يجب نصرته فيه، ومن سمّع الله به، والراحمون يرحمهم الرحمن، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، ومن أنفق أنفق عليه، ومن أوعى أوعى عليه <sup>(٢)</sup>، ومن عفا عن حقه عفا الله له عن حقه، ومن تجاوز تجاوز الله عنه، ومن استقصى استقصى الله عليه، فهذا شرع الله وقدره، ووحيه وثوابه وعقابه، كله قائمٌ بهذا الأصل» <sup>(٣)</sup>.

(١) «الجواب الكافي» (ص ٣٠ - ٣١).

(٢) (أوعى) أي: حفظ وجمع، والمعنى: لا تشحّ بالجمع والحفظ، فيشحّ عليك. انظر: «مطالع الأنوار» (٦/ ٢٧٧).

(٣) «إعلام الموقعين» (٢/ ٣٣٠ - ٣٣٣ بتحقيقي)، وانظر فيه تحريج الدليل لكل عبارة من =

وقال - رحمه الله - : «وقد جعل الله - سبحانه - أعمال البرِّ والفاجر مقتضياتٍ لآثارها في هذا العالم اقتضاءً لا بد منه، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سبباً لمنع الغيِّث من السماء، والقحط والجذب، وجعل ظلم المساكين، والبخس في المكايل والموازين، وتعدّي القويِّ على الضعيف سبباً لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استترحوها، ولا يعطفون إن استعطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم، فإن الله - سبحانه - بحكمته وعدله يُظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها، فتارةً بقحط وجذب، وتارةً بعدوٍّ، وتارةً بولاة جائرين، وتارةً بأمراض عامة، وتارةً بهُموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها، وتارةً بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارةً بتسليط الشياطين عليهم تؤرّضهم إلى أسباب العذاب أژا، لتحقّ عليهم الكلمة، وليصير كل منهم إلى ما خُلق له.

والعقل يُسيّر بصيرته بين أقطار العالم، فيشاهده، وينظر مواقع عدل الله وحكمته، وحينئذ يتبيّن له أنّ الرُّسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البوار صائرون، والله بالغ أمره، لا مُعقّب لحكمه، ولا رادّ لأمره.. وبالله التوفيق»<sup>(١)</sup>.

قال الفضيل بن عياض: «أصلح ما أكون أفقر ما أكون، وإني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلقٍ حمّاري وخادمي»<sup>(٢)</sup>.

---

= هذه العبارات، فإنّ معظمها ألفاظٌ لأحاديث نبويّة.

(١) «زاد المعاد» (٤/٣٦٣ - ٣٦٤).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/١٠٩).



ماذا نخسر بالانحراف؟

إذا ضيّعت الاستقامة؛ فلله سُنن، وقد قصّ علينا قصصًا، بل قد أنزل - سبحانه وتعالى - إلينا أحسن القصص، وأرادها أن تكون مثالًا ومعياريًا وميزانًا نرذُّ الأمور إليها، كما قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]؛ لأنَّ علم الله يشمل الماضي والواقع والمستقبل، فكلُّ ما نحتاجه ضرب الله لنا الأمثال له، وما من أمة من الأمم السابقة إلا وقعت في معصية، وضيّعت ما يحبُّه الله من استقامتها على أمره ومُرادِهِ.

وقلّة الاعتبار مشكلة، وعدم الاتّعاظ يوقعُ الأمّة في أزمةٍ كبيرة، وهذا هو الحاصل، لقد كان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يقول: «مِنْ أَكْبَرِ الذَّنْبِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: اتَّقِ اللَّهَ! فَيَقُولُ: عَلَيْكَ بِنَفْسِكَ»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) أخرجه الديّنوري في «المجالسة» (٢٦١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٣/٦) رقم (٨٢٤٦)، وسنده صحيح.

## مع السنن الإلهية في المجتمعات

لقد ورد لفظ (سُنَّة) مُضافاً إلى الله - تبارك وتعالى - في القرآن الكريم خير الكلام مراراً، وورد ذكره مفرداً ومجموعاً كذلك، ومعظم ما ورد هذا اللفظ في التعبير عنه هو بيان العادة المألوفة والمثال المسلول في معاملة الله - عز وجل - للأمم والشُعوب في حال الطاعة والمعصية، والإقبال على شرعه والإدبار عنه، وتوقير رُسُلِهِ أو مخالفتهم وإهانتهم.

وهذا البيان جاء في كتاب الله - تعالى - شافياً كافياً، ينتفع به ذوو القلوب السليمة، وقد تكرر التذكير بسُنَّةِ الله - تعالى - في الأمم والشُعوب على نحو يقطع العذر، ويشيد ببيان الحجّة الربّانية قائماً في النفوس أتم قيام وأمتنه.

قال - تعالى -: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [١٣٨] هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ [آل عمران: ١٣٧ - ١٣٨].

وقال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَ الَّذِي فِيهِ كِبَرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيُثَوِّبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٦].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال - تعالى :- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠ - ١٣].

وقال: ﴿وَلِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦ - ٧٧].

وقال: ﴿لَنْ تَرِيَنَّهُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لِنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦١﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا ﴿٦٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢].

وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٣].

وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ. وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٣ - ٨٥].

وقال - سبحانه :- ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢ - ٢٣].

وغير ذلك مما ورد في ذات المعنى لكن لم يُصرَّح فيه بلفظ السُّنَّة، وإنما صرَّح فيه بالإرشاد إلى الاعتبار بالحوادث السابقة، وقصص الماضين، والتنبيه على أسباب خراب الديار وتشتت الجماعات، والإشارة إلى أسباب التمكين، والنصر، والغلبة، والهزيمة، والذل، ونحو ذلك.

فمن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۚ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۚ وَلَوْ أَنَّ كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [طه: ١٢٧-١٢٩].

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقوله: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۚ ﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۚ وَسُبْحَنَ ٱللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرْءِ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥-١٠٩].

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَآجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۚ ﴾ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ

وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ كَانَ عِاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا الشُّوْءُ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾ [الروم: ٨ - ١٠].

وقوله - تعالى -: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ ﴿٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٤﴾ [ق: ٣٦ - ٣٧].

فهذه جملة من سننه - تبارك وتعالى - في الناس، شعوبًا وأفرادًا، بالنسبة إلى موقفهم من الوحي المبارك المنزل، وبيان لما قد يحل بهم بناءً على ذلك الموقف إيجابًا أو سلبيًا، لهم أو عليهم.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - بعد أن سرد جملة من هذه السنن الواردة في القرآن:

«وهذه السنن كلها سنن تتعلّق بدينه، وأمره ونهيّه، ووعدّه ووعدّه، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعيّة كسننّه في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات، فإنّ هذه السنن ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحكم»<sup>(١)</sup>.

ويقول العلامة محمد رشيد رضا: «إنّ إرشاد الله إيانا إلى أنّ له في خلقه سننًا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدوّنة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبيّنون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بيّنها العلماء بالتفصيل عملاً بإرشاده،

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٥٢ - ط محمد رشاد سالم).

كالتوحيد والأصول والفقه، والعلم بسُنَنِ الله - تعالى - من أهم العلوم وأنفعها»<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطِّراد فعله وسُنَّته لم يصحَّ الاعتبارُ بها، والاعتبارُ إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن، وهي كثيرة»<sup>(٢)</sup>.

حتى قال الإمام البيهقي - رحمه الله -: «لا توجدُ حادثةٌ لم يحدث مثلاًها من قبل»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن الأثير: «إنَّه لا يحدثُ أمرٌ؛ إلَّا تقدَّم هو أو نظيره»<sup>(٤)</sup>.

ومَّا ينبغي أن يُعلم أنَّ الشرَّ والخير باقيان، ويتدافعان، وفق سنة الله - عز وجل - لا تتخلف، يدركها أصحابُ البصيرة، ويستحيل في حقِّهم انتظار النَّصر في وقت الهزيمة، والعكس، وإيَّاكَ أن تظنَّ أنَّ خيرًا أو شرًّا يحصل في الكون ولم يكن له سلفٌ، فالذي يختلفُ هو الأسماء والوسائل فحسب، ويستدعي هذا بيانَ خصائص (السُّنن)، فأقول وبالله - سبحانه وتعالى - أصولٌ وأجولُ:

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ١١٤).

(٢) «جامع الرسائل» (١/ ٥٥).

(٣) «الإعلان بالتوخيخ» (ص ٣٣)، وإن قامت القرائن على عدم حدوثها، فلم يفصل فيها النبي ﷺ، كقوله: «لا يصلينَّ أحدُكم العصرَ إلَّا في بني قريظة»، فلم يبيِّن لنا الصَّواب من صنيع الفرقتين: التي صلَّت العصرَ بعد فواتِ وقتها في بني قريظة، والتي صلَّت العصرَ في وقتها في غير بني قريظة، فانظر التفصيل في «شرح على الورقات» (ص ٦٦١ - ٦٦٥).

(٤) «الكامل في التاريخ» (١/ ٨).

## من خصائص السنن الإلهية<sup>(١)</sup>:

١ - الربانيّة: فهي لله ومن الله وحده لا شريك له، خلقاً وإيجاداً، وتقديرًا وتدبيرًا، وابتداءً وعاقبةً، ليس لأحد أن يُجرِّبها ولا أن يخرج عنها أصلًا، ولهذا جاء في كتاب الله إضافتها إلى الله، فقال في أكثر من موضع: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾، وأمّا إضافتها إلى غير الله - أحيانًا - كما في قوله - تعالى -: ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ فهو باعتبار تعلُّقها بهم وجريانها عليهم، قال ابن عاشور: «وإضافتها إلى الأولين باعتبار تعلُّقها بهم، وإنّما هي سُنَّةُ اللَّهِ فيهم... والإضافة لأدنى مُلَابَسَةٍ»<sup>(٢)</sup>.

٢ - العمومُ والشُّمول: تتميز هذه السننُ بالعمومِ والشُّمول؛ فهي تنطبق على النَّاسِ جميعًا، دونَ تمييزٍ أو استثناء، وبلا محاباة، فالجزاءُ فيها من جنس العمل، والنتائجُ بمقدّماتِها، والمُسَبَّبُ بالسَّبَبِ، والمشروطُ بالشَّرْطِ، بغضِّ النَّظَرِ عن الدِّينِ، والجنسِ، واللَّونِ، والأصلِ، فالكلُّ في هذا الميزان سواء، كما قال - تعالى -: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، و(مَنْ) اسمٌ موصولٌ دالٌّ على استغراقِ كلِّ ما يدخلُ في معناه، فأثِمًا مجتمِعِ عصى أو انحرف أو ضلَّ، لَقِيَ جزاءَ ذلك، ولو كان أظْهَرَ الأُمَمِ! قال القرطبي: «وقال الجمهور: لفظُ الآيةِ عامٌّ، والكافرُ والمؤمنُ مُجَاوِزٌ بِعَمَلِهِ السُّوءِ، فأَمَّا مجازاةُ الكافرِ فَالنَّارُ؛ لأنَّ كفره أَوْبَقَهُ، وأمَّا المؤمنُ فَبِنِكَبَاتِ الدُّنْيَا»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) انظر: «السنن الكونية والإجتماعية في القرآن الكريم» (ص ١٨ وما بعدها) لتوفيق بن أحمد الغلبزوري.

(٢) «التحرير والتنوير» (٢٥ / ١٤).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٣٩٦ / ٥).

٣ - الثبات والاستمرار: أي أنها لا تتغير، ولا تبدل، ولا تتحول، فكل ذلك منفى عنها كما جاء في الآيات، ومعنى تبديلها: تغير مقتضاها في حق من استحق جريانها عليه، فلن تصبح عاقبة الموحد الصابر الخذلان، ولن تكون عاقبة المشرك الكافر الظالم النصر، وأمّا معنى تحويلها: أن يجري حكمها على غير مستحقها ويُعافى من ذلك من قام به سبب وقوعها عليه، فلا يكون شيء من ذلك<sup>(١)</sup>، وهي تجري على الآخرين كما جرت على الأولين، وتعمل في عصر سُفِنَ الفضاء عملها في عصر سفينة الصحراء<sup>(٢)</sup>.

٤ - الاطراد: أي التكرار والتتابع على نهج واحد وطريقة واحدة لا تختلف ولا تتخلف؛ كلما وُجدت الأسباب، وتوفرت الشروط، وانتفت الموانع، ولولا الاطراد لم يصح الاعتبار، والاطراد دليل على أن «من مقتضى حكمة الله - تعالى - أن يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء متماثل لا بقضاء مخالف، فإذا كان قد نصر المؤمنين لأنهم مؤمنون، كان هذا موجباً لنصرهم حيث وُجد هذا الوصف، بخلاف ما إذا عصوا ونقضوا إيمانهم»<sup>(٣)</sup>.

فعلينا إذا أردنا أن نفهم جيداً موضوع آثار الذنوب والمعاصي، أن نستحضر في أذهاننا هذه الخصائص، لا سيما في الكلام على قضية التغير الآتية.  
من سنن الله الكونية: (سنة التغير):

في كتاب الله - تبارك وتعالى - آيتان؛ خاسر من لم يجعلهما نُصَبَ عينيه في

(١) انظر: «جامع الرسائل» (١/ ٥٥) لابن تيمية.

(٢) هي الجمل.

(٣) «جامع الرسائل» (١/ ٥٤) لابن تيمية.



هذا الزَّمان خاصَّة، وإن كان المُعرَّض عن كتاب الله في كلِّ مكانٍ أو زمانٍ خاسرٌ، لكن ثَمَّة بعض المفاهيم التي يكون العلم بها والعمل بها وفقه حقيقتها هو واجب الوقت.

الأُمَّة الإسلاميَّة اليوم ذليلة، لكنَّها ذلَّت بعد قرونٍ من العزَّة.  
والأُمَّة الإسلاميَّة اليوم ضعيفة، لكنَّها ضُعُفَت بعد قرونٍ من القوَّة.  
والأُمَّة الإسلاميَّة اليوم متفرِّقة، لكنَّها تفرَّقت بعد قرونٍ من الاجتماع.  
وهكذا، فكلُّ نقيصةٍ ترغبُ الأُمَّة الإسلاميَّة اليوم في التخلُّص منها، كانت مُبرَّأةً منها فيما مضى، وهي ترغبُ في العودة إلى العزِّ والمجد، يوم أن أظهر الله دين الإسلام على الدِّين كلِّه، وأكمل للمسلمين الدِّين حتى حسدهم أهلُ الملل وشعوب الأرض.

فما الذي جرى لنخسر ذلك؟ وكيف كان ما كان من الانتكاسة؟

قال - تعالى -: ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]؛ هذه الآية الأولى.

وفيها بيان أن النِّعمَ يرفعها الله عن عباده عقوبةً ومقتاً لهم على تغيُّر نفوسهم بالكفر والشُّرك والعصيان والابتداع والميل إلى الشرور والآثام، ويحرمُ - تعالى - الشُّعوبَ والأفراد من الرِّغد وطيب العيش بذنْبٍ يرتكبونه، وهذا يصدِّقه قوله - تعالى -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله - تعالى -: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْنِهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿الشورى: ٣٠﴾، وغير ذلك من النصوص التي في هذا المعنى.

والآية الثانية قوله - تعالى - (١): ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، فهذه أعم في معناها من الأولى؛ لأنَّ الآية الأولى خاصَّة في رفع النِّعمة، وهذه عامَّة في أنَّ كلَّ تغيير في الحال لا يكون إلا مشروطًا بتغيُّر النَّفس، سواء كان ذلك إلى الشرِّ أو إلى الخير، فالله لا يقضي بشيء من ذلك عبثًا، ولا بمحض المشيئة، بل لا يكون ذلك إلا على ما يقتضيه عدله وحكمته، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

قال العلامة محمَّد الأمين الشنقيطي - رحمه الله -: «وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يَصْدُقُ بأن يكون التغيير من بعضهم؛ كما وقع يوم أحد بتغيير الرُّماة ما بأنفسِهِمْ، فعَمَّتِ الْبَلِيَّةُ الْجَمِيعَ، وقد سئل ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الْخَبَثُ» (٢)، والله - تعالى - أعلم» (٣).

وقال ابن القيم - رحمه الله -: «فأخبر الله - تعالى - أنه لا يغيِّر نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغيِّر ما بنفسه، فيغيِّر طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غَيَّرَ غَيْرَ عَلَيْهِ، جزاءً وفاقًا، وما ربُّك بظلام للعبيد، فإن غَيَّرَ المعصية بالطاعة غَيَّرَ الله عليه العقوبة بالعافية، والذُّلُّ بالعِزُّ» (٤).

(١) ذكرت تفصيلًا في شرحها ودلالاتها في كتابي «ضوابط الإصلاح»، والله الموفق.

(٢) متفقٌ عليه، من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش - رضي الله عنها - .

(٣) «أضواء البيان» (٣/ ١١٥).

(٤) «الجواب الكافي» (ص ١٨٠).

قال ابن عطية: «ومعنى هذه الآية الإخبار بأن الله - عز وجل - إذا أنعم على قوم نعمة، فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم، بأن يغيروا حالهم التي تُراد وتَحْسُنُ منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم؛ غير الله نعمته عليهم بنقمتهم منهم، ومثال هذا: نعمة الله على قريش بمحمد ﷺ، فكفروا وغيروا ما كان يجب أن يكونوا عليه، فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار، وأحل بهم عقوبته» (١).

وهذه السنة الإلهية قائمة وجارية على الجميع، ولا تُحاي أحدًا، كما هي مُعلنة في قوله - تعالى - : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨].

فتأمل كيف جعل عودَه - تعالى - إلى ما يسوؤهم من العذاب مشروطًا ومُسببًا عن عودتهم إلى المعصية، هذا مع قوله - سبحانه - قبلها: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

\* \* \*

## نظرات في حقائق وحوادث

\* حكاية سبأ:

انظر معي إلى هذا التطبيق العملي، ولنأخذ أُمَّة من الأمم، ذكر ربنا قصتها، فيقول - سبحانه -: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧].

(سبأ): اسم مكان أو اسم تلك الأمة، وهما استعما لان صحيحان لهذا الاسم<sup>(١)</sup>.

(١) وكلا المعنيين وارد في كلام الله - تبارك وتعالى -، فمن استعملها في الدلالة على المكان قوله - تعالى - في قصة هدهد سليمان - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَحِثُّكَ مِنْ سَبَإٍ بِئْسَ يَفِينٌ﴾ [النمل: ٢٢]، ومن استعملها للدلالة على الأمة قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ [سبأ: ١٥].

والأصل في (سبأ) أنه اسم رجل، فقد أخرج الترمذي (٣٢٢٢) عن فروة بن مُسيك الغطفاني: أن رجلاً سأل النبي ﷺ: ما سبأ؟ أرض أم امرأة؟ قال: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجلٌ ولد عشرة من العرب، فتيا من منهم ستّة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين =

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾، وهناك قراءة متواترة فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ بالجمع<sup>(١)</sup>.

قال المدققون من أهل التفسير: لماذا ذُكر مسكنهم ولم تُذكر بلادهم؟ ولم يقل: ديارهم؟ قالوا: لشدة الرخاء، كان لكل بيت في أرض سبأ جنتان، إحداها عن يمينه والأخرى عن يساره، فالجنان لا تخصُّ البلد فقط، وإنما تخصُّ سكن كل واحد منهم، وذلك لوفرة الرغد الذي كانوا فيه، فالتعبير بذكر المساكن أخصُّ وأبلغ.

فما المطلوب؟ المطلوب: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ كلوا من رزق الله وأدوا حقَّه - عز وجل - في هذه النعمة التي ترتعون فيها.

﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ التنكير للتفخيم، قال المؤرخون ومن طوَّل في تفسيره: كانت المرأة إذا حملت زنبيلًا - أي: إناء - فوضعت على رأسها وطافت تحت جنة بيتها؛ امتلأ من جميع أصناف الفاكهة من غير قطفٍ بالبنان ولا هزٍّ للأغصان، من شدة الرغد والنَّعيم، وكان الرجل الغريب إذا جاء إلى سبأ وكان على ملابسه القمَل؛ مات القمَل من عليل هواء تلك البلدة وطيب جوِّها.

---

= تشاءموا: فلحُم وجُذام وغَسَّان وعاملة، وأمَّا الذين تيامنوا: فالأزد والأشعرين وحمير ومَذْحِجٌ وأنْهَارٌ وكندة. فقال رجلٌ: يا رسول الله! وما أنهار؟ قال: «الذين منهم خَنَعَم وبَحِيلَة».

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ»، وقال شيخنا الألباني - رحمه الله - : حسنٌ صحيحٌ.

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وغيرهم، انظر: «معجم القراءات» (٣٥٢/٧).

﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أي: عن الحقِّ وما هداهم الله إليه بوساطة أنبيائه ورسله الكرام، وكلمة ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ تدلُّ بدلالة اللُّزوم على أَنَّ الله - تعالى - أرسل الله لهم الرسل، وبَيَّن لهم ما يحبُّ ويرضى، وما لا يحبُّ ولا يرضى، لكنَّ الله - تعالى - ذكر النَّتيجة ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ لنستدلَّ بها على أَنَّ الدَّعوة وإرسال الرسل تَمَّت وحصلت، لكنَّ القرآن ليس من أساليبه التطويل والإطناب والإسهاب في كلِّ مقام، وإن أوجز فللتنبية، ليذهب الذَّهن كلَّ مذهبٍ في الإعراض؛ نوعاً وحجماً وكيفيَّة، معصيةً وابتداعاً، في العقائد والأخلاق ومكارم الأفعال، فهذا الإيجاز في الذُّروة من الفصاحة والبلاغة لأنَّ المقام مقام تنبيه على أثر الذنب في الأمة والشعب، فكان ذكر الإعراض الذي تسبَّب في هذا الأثر هو الظاهر البارز، لذا فلك أن تضع مكان العقوبة التي عوقبت بها سبأ آية عقوبةٍ أخرى تراها بعينك لآية أمةٍ مُعرضة في هذا الزمن وما سيأتي من الأزمنة، فهذه إذن سنَّة لا تتخلف إلى قيام السَّاعة ولا تبدل.

هذا السِّياق القرآنيُّ الكريم يجعلنا ندرك أَنَّ الإعراض عن الحقِّ في الأمم والشُّعوب ذنبٌ عامٌّ، وجريمةٌ عامَّةٌ، ثمرتها العقوبة العامَّة، وتلك العقوبة كانت على سبأ ﴿ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ الذي ذكره الله وقصَّ علينا خبره، وهي على غير سبأ: يهود وأمريكان وروافض، وفق قانون المدافعة الذي له ملاحظه وخصائصه في القرآن، وقد تكون العقوبة آيات كونيَّة مثل: السُّيول والزلازل، فهذه العقوبات لها وسائل تتغير وفق حكمة الله العظيمة.

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ قال أهل العلم: العرب في تلك الحقبة كانوا يسمون السيول كلَّ سيلٍ باسمه، ف﴿ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ إما أنه اسم لذلك السيل،

وإما أنه صفة لذاك السيل، و﴿الْعَرِم﴾ السيل الشديد.

﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَبْلِهِمْ جَنْبَيْنِ ذَوَاقٍ أَكَلِ خَمْطٍ وَاقِلٍ وَشَقِيٍّ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾  
قالوا: انقلب حال أشجارهم إلى ما لا فائدة فيه، وقد قيل: إِنَّ (الْخَمْط) هو الأراك  
أو نوعٌ من الأراك له حَمْلٌ يُؤْكَل، وقيل: كُلُّ شَجَرَةٍ تَغَيَّرَتْ ثَمَرَتُهَا إِلَى حَالٍ  
لَا يُرْغَب فِيهَا وَلَا تُشْتَهَى فِيهَا (خَمْط)، كما ذهب إليه بعض أهل اللغة، و(الْأَثَل):  
هو الشجر الذي لَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ إِلَّا الْخَشَبُ، كما قاله جماعةٌ من أهل اللغة والتفسير  
- أيضًا -، وَأَمَّا (السِّدْر): فهو الشجر المعروف عند أكثر الناس، وهو النَّبَق، وله - كما  
هو معلومٌ - ثمرةٌ صغيرةٌ شحيحةٌ لَا تُشْبِعُ أَحَدًا، ومع ذلك فهذا السِّدْر وصفه  
الله - عز وجل - بقوله: ﴿وَشَقِيٍّ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، ففيها تبعيضٌ وتقليلٌ.

إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! ونعوذ بالله من الحُورِ بعد الكُور! فَلِمَ يَا رَبَّنَا فعلتَ  
هذا بهم؟ عَلَّمْنَا - لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ - لَعَلَّنَا نَنْتَفِعُ وَنَفْقَهُ! فهم أهل ثراء، والنعمة  
باديةٌ عليهم أفرادًا ومجموعات، سواء في جنان بيوتهم، أو طريقة معاشهم، أو  
نوع طعامهم، أو أشكال رَكوبهم، أو مِيزَانِيَّاتِ دولهم، أو الخيرات التي تُجلب إلى  
بلادهم.

قال ربُّنا - جَلَّ فِي عُلَاه -: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ﴾  
أي: ذلك الذي سمعتَ من فعلنا بهم، هو جزاؤنا لهم على كفرهم، فقوله  
- تعالى - ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ الباء فيه للسَّبَبِيَّةِ والمقابلة، ولكي تكتمل دواعي الحذر  
والانتعاظ والاعتبار؛ جاء الفعل المضارع ﴿نُجْزِي﴾ الذي يفيد الاستمرارية والدوام  
والتكرار، فحيثما وُجد هذا السبب، وُجدت المُجَازاة بهذه العقوبة.

ثم ذكر الله - تعالى - نعمةً أخرى كان منَّ بها عليهم، وفقدوها بسبب  
إجرامهم وإعراضهم، قال - سبحانه -: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا

فِيهَا قُرَى ظَهْرَةٌ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿سبأ: ١٨﴾.

قال ابن كثير - رحمه الله -: «يذكر - تعالى - ما كانوا فيه من الغبطة والنعمة، والعيش الهنيئ الرغيد، والبلاد الرخيّة، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إنّ مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا، ويقل في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم»<sup>(١)</sup>.

فتأمل! هذه النعم الجليلة، والخير العميم، والأمن التام، وكفاية الحاجات، لكنهم بدلًا من أن يتفرّغوا لشكرها وإلى الإقرار لله بإحسانه ومنّته، سئموها وملّوها وبطّروها؛ قال - تعالى -: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [سبأ: ١٩].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «وذلك أنهم بطّروا هذه النعمة، كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد، وأحبّوا مفارزَ ومَهَامَةَ يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرّور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنْ وسلوى، وما يشتهون من مأكّل ومشارب وملابس مرتفعة»<sup>(٢)</sup>.

فما الذي آلت إليه حالهم بعد أن أُخرجوا من ديارهم وخربت دورهم بما كسبت أيديهم؟

قال - تعالى -: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ وهذه حقيقة؛ فإنّ العرب صارت

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٥٠٨ - ٥٠٩).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٥٠٩).



تقول عن كل جماعة تفرقت بعد اجتماعها، وذلت بعد عزّها: (تفرّقوا أيادي سبأ)، و(الأيادي) هنا بمعنى: النفوس؛ أي: تشتّت نفوسهم وتفرّقوا كما تفرّق سبأ بعد أن عاقبهم الله بالسّيل.

﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ والمعنى العام: استحكمت العقوبة، وتحقّق الهلاك، وبلغ بهم الغاية، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

قال ابن كثير - رحمه الله -: «أي: إن في هذا الذي حلّ بهؤلاء من النعمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية - عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام - عبرة ودلالة لكل عبد صبور على المصائب، شكور على النعم»<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وليس على العبد أضرّ من ملكه لينعم الله، فإنّه لا يراها نعمة ولا يشكره عليها، ولا يفرح بها، بل يسخطها ويشكوها، ويعدّها مصيبة! هذا وهي من أعظم نعم الله عليه، فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم، ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه، وهم مجتهدون في دفعها وردّها جهلاً وظلماً.

فكم سعت إلى أحدهم من نعمة وهو ساعٍ في ردّها بجُهدِه! وكم وصلت إليه وهو ساعٍ في دفعها وزواها بظلمه وجهله! قال - تعالى -: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمَّ يَكُ مُغْتَبَرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥١٢/٦).

فليس للنعم أعدى من نفس العبد، فهو مع عدوه ظهيرٌ على نفسه، فعدوه  
 يطرح النار في نعيمه وهو ينفخ فيها! فهو الذي مكّنه من طرح النار، ثم أعانه بالنفخ،  
 فإذا اشتدّ ضررُهما؛ استغاث من الحريق! وكان غايته معاتبة الأقدار.  
 وعاجزُ الرأي مضياغٌ لفرصته حتى إذا فات أمرُ عاتب القدر<sup>(١)</sup>

\* \* \*

### \* حكاية قارون:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَايَنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ  
 مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾  
 وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا  
 أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الفصل: ٧٦ -  
 .[٧٧]

قال الله في وصف مفاتيح كنوز قارون: ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ مع  
 أن النوء هو التعب الشديد الذي يعتري الإنسان عندما يؤدي عملاً شاقاً جداً،  
 فهل تنوء المفاتيح؟! الجواب: لا؛ وإنما العصبة أولو القوة هم الذين ينوؤون  
 بحمل المفاتيح!

وهذا - على الصحيح - من لطائف أساليب القرآن، وهو استعمال (التشبيه  
 المقلوب)، بجعل المُشَبَّه به مُشَبَّهاً، والعكس بالعكس.

كما أنك إذا أردت بيان شجاعة رجل تقول: فلان كالأسد، لكنه يكون

(١) «الفوائد» (ص ٢٦٣ - ٢٦٤).

غايةً في المبالغة إذا قلتَ: الأسدُ كفلانٍ! لأنَّكَ كأنَّها تجعلُ ذلك الشُّجاع هو معيارُ الشُّجاعةِ وأعلى من يتَّصفُ بها، وغايةُ الأسد أن يتشَبَّه به، فلذلك يسمُّونه: تشبيهاً مقلوباً.

وهنا جعلَ الفعلَ كأنَّه للمفاتيح لا للرِّجال، مع أنَّ الأصلَ العكس، فكأنَّ المفاتيح هي التي تحملهم وتَقْوَى عليهم؛ كقولهم: (نَاءٌ به الحملُ) إذا مَالَ به حالُ كونه فوق طاقته.

وفي هذا كنايةٌ عن كثرةِ المفاتيح وثقلها وشدَّتْها، وهو كنايةٌ عن كثرةِ الخِزائن وتعدُّدِ الكنوز، وكلُّ ذلك كنايةٌ عن وفرةِ المال وكثرةِ العَرَضِ وأَسْوَاعِ المَتَاعِ، ولا ريبَ أنَّه كان على حالةٍ عظيمةٍ من الغنى والتَّرفِ والتَّعَمُّ، وإن كان الكلام في تفاصيلها لا فائدة فيه ولا طائل تحته.

قال ابن عاشور: «وقد أَكْثَرَ الْقُصَّاصُ مِنْ وَصَفِ بَذَخَةِ قَارُونَ وَعَظَمَتِهِ مَا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ بَرَهَانٍ، وَتَلَقَّفَهُ الْمُفَسِّرُونَ، حَاشَا ابْنَ عَطِيَّةٍ»<sup>(١)</sup>.

وقد كان من صنيعِ قارون أنَّه بغى على قومه، وفي التعريفِ به بأنَّه من قوم موسى دون نسبته إلى عموم بني إسرائيل؛ إلماحٌ إلى أنَّ له بموسى - عليه السلام - اختصاصٌ وقِربة، وفي ذكر بغية - مع غرابة بغية الإنسان على ذوي قرابته - تعريضٌ ببعضِ المشركين من قرابةِ النبي ﷺ الذين آذوه وهم على الشُّرك، أفاده ابن عاشور<sup>(٢)</sup>.

فوعظه الصالحون من قومه بأن لا يفرح، والمراد بـ (الفرح): البَطَرُ والكِبَرَاءُ،

(١) «التحرير والتنوير» (١٧٥ / ٢٠).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٧٦ / ٢٠).

ووجهوه مشفقين عليه بأن يرفعى نِعَمَ الله عليه، ويستعين بها على طاعته، وليستمتع بها مع ذلك في حدود المباح، ويؤدّي بها حقوق أهله وأرحامه، ويقضي بها ما لا بدّ منه، ويُحسن إلى النَّاس كما أحسن الله إليه، وذلك بترك البغي والفساد.

قال - تعالى -: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَبِيتُ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونٌ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنِ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلَحْهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿[القصص: ٧٨-٨١].

فلم يردَّ الفضل إلى الله، ولم يقرّر الله بنعمته عليه، وظنَّ أنَّ ماله يمنعه أو يجعل له حظوةً عند الله، ونسي أنَّ الأموال والأولاد لا تقرب إلى الله زلفى، وغفل عن مصارع الذين كانت نعمة الله عليهم أعظم، وما في أيديهم أضخم، وكانت عاقبتهم الهلاك لَمَّا سلكوا سبيلَ الجحود والبَطَر والكبرياء.

فكانت عاقبةُ قارونَ أنَّ خسفَ الله به وبداره الأرض، فُسِّلَبَ النِّعْمَةُ وأُبدِلَ بها عذاباً أليماً، ونَقَمَةٌ مُّقِيمةٌ، ولعذابُ الآخرة أشدُّ وأخزى وأُنكى.

وقد خرَّجَ اللالكائي عن حمَّاد بن زيد - رحمه الله - قال: «جعل رجلٌ لرجلٍ جُعْلاً على أن يعبرَ نهراً، قال: فعبر، حتى إذا قَرَّبَ من الشطِّ فقال: عبرتُ والله! فقال له الرجل: قُلْ ما شاء الله، قال: شاء أو لم يَشَأْ!! قال: فأخَذَتْهُ الْأَرْضُ» (١).

(١) «شرح أصول الاعتقاد» (٤/٧٢٦) رقم (١٣٣٩).

وقال ابن قتيبة: «قال المدائني: ركب يزيد بن نهشل النهشلي بعيراً، وقال: اللهم! إِنَّكَ قُلْتَ: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]، وإني لبعيري هذا لمُقرِّن!! فَفَرَّ به فَطَرَحَهُ! وبقيت رجله في الغرَز، فجعل يضرب برأسه كلَّ حَجَرٍ ومَدَرٍ حتى مات»<sup>(١)</sup>.

لأنَّ معنى (مُقرنين): مُطيقين، والله يؤدِّبنا عند استمتاعنا بنعمة المَرْكوب بأن نردَّ الفضلَ إليه، لأنَّ تلك الدَّوابَّ لم يكن أحدٌ ليرَوْضُها ويسخِّرُها للركوب لولا أنَّ الله - تعالى - تفضَّل علينا بذلك، ومن زعم قُدْرَتَه على ترويض البعير الضَّخمِ بذكائه وقُدْرَتِهِ، فليفسِّر لنفسه عجزه عن ترويض عَقْرَبٍ هي أصغرُّ من أُذُنِ البعير!

فنسأل الله العافية من مثل هذه الظُّنون الخسيسةِ برَبَّنَا - تبارك وتعالى -، ونعوذ بوجهه الكريم من مَصارعِ الجاحدين والمتكبرين.

ويحمل جمعٌ من أهل العلمِ قوله - عليه الصلاة والسلام -: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي، قَدْ أَعْجَبَتْهُ جَمَّتُهُ وَبُرْدَاهُ، إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»<sup>(٢)</sup>، على قارون هذا.

وعلى كلِّ حالٍ، تظهرُ هنا النُّكْتَةُ في حديث سيِّد الاستغفار، وفيه: «أَبْوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبْوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»<sup>(٣)</sup>.

(١) «عيون الأخبار» (٧١ / ٢).

(٢) رواه مسلم (٢٠٨٨).

(٣) رواه البخاري (٦٣٠٦).

قال ابن أبي جمرة: «جمع ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحقُّ له أنَّهُ يسمَّى (سيدَّ الاستغفار)؛ ففيه: إضافة النعماء إلى موجدِها، وإضافة الذَّنْبِ إلى نفسه، ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنَّه لا يقدر أحدٌ على ذلك إلا هو»<sup>(١)</sup>.

فنعوذ بالله من الجحد والكبرياء، ونسأل الله أن يوفّقنا إلى التوبة والاستغفار دومًا.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وقال بعضهم: رأيتُ في الطَّوَافِ رجُلًا بين يديه شاكريةٌ يمنعون النَّاسَ لأجلِه عن الطَّوَافِ، ثمَّ رأيتُه بعدَ ذلك بمُدَّةٍ على جسر بغداد يسألُ شيئًا! فتعجَّبتُ منه! فقال لي: إني تكبَّرتُ في موضعٍ يتواضعُ النَّاسُ فيه، فابتلاني الله بالذلِّ في موضعٍ يترَفِّعُ النَّاسُ فيه»<sup>(٢)</sup>.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: «وليحذرْ كُلَّ الحَذَرِ من طغيان (أنا)، و(لي)، و(عندي)، فإنَّ هذه الألفاظَ الثلاثةَ ابتلي بها إبليسُ، وفرعون، وقارون؛ ف﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ لإبليس، و﴿لِي مُلْكٌ مِصْرَ﴾ لفرعون، و﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ لقارون.

وأحسنُ ما وُضِعَتْ (أنا) في قول العبد: أنا العبدُ المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترف... ونحوه، و(لي) في قوله: لي الذَّنْبُ، ولي الجُرم، ولي المَسْكَنَةُ، ولي الفقرُ والذل، و(عندي) في قوله: «اغفرْ لي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ

(١) «بهجة النفوس» (٤/ ١٩٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣١).

ذَلِكَ عِنْدِي»<sup>(١)</sup>»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

\* حادثة قرية ذكرها الله:

قال - تعالى -: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

علماء الأصول يقولون: النكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق؛ بمعنى: أن القرية المذكورة في الآية ليست قرية بعينها يقتصر الحكم عليها ويختص بها، لذلك لم يكن مهمًا تعيينها ومعرفة من هي هذه القرية بالضبط؛ لأنَّ المذكور في الآية بشأنها سنة لله لا تتخلف، تشمل قرى مضت وقرى ستأتي.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ تعيش في أمن وأمان  
﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ تعيش في رغد ورفاهية  
لكنها لم تؤدِّ حق الله، ولم تشكر النعمة.

(١) روى مسلم في صحيحه (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطِيئَتِي وَعَمْدِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

(٢) «زاد المعاد» (٢/ ٤٧٥).

فما المطلوب ممن كان هذا حاله، فردًا كان أو مجتمعًا أو أمةً؟

المطلوب أن تشكر النعمة.

كيف يكون شكر النعمة؟

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] اتركوا العبث، واعملوا بالطاعات،

وحافظوا على النعمة.

﴿فَكَفَرْتَ بِاتِّعَمِ اللَّهِ﴾ فما السُّنَّةُ الرِّبَانِيَّةُ في مثلها؟

قال - تعالى -: ﴿فَإَذَقَهَا﴾ الفاء حرف عطفٍ فائدته ومعناه: الترتيب

والتعقيب المباشر، ﴿فَإَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾،

فمتى كفرت بأنعم الله - بغضّ النظر أين هي، ومن الذي يعيش فيها - فلا بدّ أن

تذوق لباس الجوع أولاً، فيذهب عنها الرغد، فإن لم تستيقظ ولم تتب ولم ترجع؛

فلا بدّ أن يتبع الجوع الخوف.

متى حصلت ذنوب في الأمة فقدت مقومًا من مقومات الأمن، فتكثر

الجرائم، ويحلُّ الهلع والخوف والقلق، والله - عز وجل - لم يقل: (فأذاقها لباس

الجوع ولباس الخوف)، بل قال: ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾، لتلازمها ولقرب

بعضهما من بعض.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في «مجموع الفتاوى» (١٠٩ / ٧) -

(١١١) ردُّ على من زعم أنَّ لفظ (الدُّوق) و(اللِّباس) ليست حقيقيَّة، وإنَّما هي

استعارة! فقال - رحمه الله - موجِّهاً دقَّةَ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ فِي الْآيَةِ:

«فَلَفْظُ (الدُّوق) يَسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ مَا يَحْسُّ بِهِ وَيَجِدُ السَّهْمَ أَوْ لَذَّتَهُ، فَدَعَا

الْمَدَّعِي اخْتِصَاصَ لَفْظِ (الدُّوق) بِمَا يَكُونُ بِالْفَمِ تَحْكُمٌ مِنْهُ، لَكِنْ ذَاكَ مُقَيَّدٌ، فَيَقَالُ:



ذقتُ الطَّعامَ وذقتُ هذا الشَّرَابَ؛ فيكون معه من القيودِ ما يدلُّ على أنَّه ذوقٌ بالقمِّ، وإذا كان الذَّوقُ مستعملًا فيما يحسُّه الإنسانُ بباطنه أو بظاهره؛ حتى الماء الحميم، يقال: ذاقه، فالشَّرَابُ إذا كان باردًا أو حارًّا يُقال: ذقتُ حرَّه وبرده.

وأما لفظُ (اللِّباس) فهو مستعملٌ في كلِّ ما يغشى الإنسانَ ويلتبسُ به، قال - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا﴾ [النِّبَأ: ١٠]، وقال: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ومنه يُقال: (لَبَسَ الحقُّ بالباطل) إذا خلطه به حتى غشيه فلم يَتَمَيَّزْ.

فالجوعُ الذي يشملُ أَلَمُه جميعَ الجائعِ؛ نفسه وبدنه، وكذلك الخوفُ الذي يلبسُ البدنَ، فلو قيل: (فأذاقها الله الجوعَ والخوفَ)؛ لم يدلَّ ذلك على أنَّه شاملٌ لجميعِ أجزاءِ الجائعِ، بخلافِ ما إذا قيل: ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾، ولو قال: (فألَبَسهم) لم يكن فيه ما يدلُّ على أنَّهم ذاقوا ما يؤلِّمهم إلا بالعقلِ من حيث إنَّه يعرفُ أنَّ الجائعَ الخائفَ يالَمُ، بخلافِ لفظِ ذَوْقِ الجوعِ والخوفِ؛ فإنَّ هذا اللفظُ يدلُّ على الإحساسِ بالمؤلِّمِ، وإذا أُضيفَ إلى المُلْدِّ؛ دلَّ على الإحساسِ به.».

وقال في «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٣٣٤) موضِّحًا مُرادَه، مبيِّنًا في مقابله ذَوْقَ أهلِ الإيمان:

«قال - تعالى -: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾، فجعلَ الخوفَ والجوعَ مَذُوقًا؛ وأُضيفَ إليهما اللَّبَاسُ لِيُشْعِرَ أَنَّهُ لِبَسُ الجائعِ والخائفِ فَشَمَلَهُ وأحاطَ به إحاطةُ اللباسِ باللَّباسِ؛ بخلافِ من كان الالَمُ لا يستوعبُ مشاعره، بل يَخْتَصُّ ببعضِ المواضعِ، وقال - تعالى -: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقال - تعالى -: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]،

وقال - تعالى -: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، وقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ [الدخان: ٥٦]، وقال - تعالى -: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ❶ ﴿إِلَّا حِمِيمًا وَّعَسَافًا﴾ [النبا: ٢٤ - ٢٥]، وقال: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وقد قال النبي ﷺ: «ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ باللهِ ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمدٍ نبيًّا»<sup>(١)</sup>، فاستعمالُ لفظِ (الدَّوق) في إدراكِ الملائمِ والمُنَافِرِ كثيرٌ.

وقال النبي ﷺ «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمانِ»<sup>(٢)</sup> فوجودُ المؤمنِ حلاوةَ الإيمانِ في قلبه، وذوقُ طعمِ الإيمانِ أمرٌ يعرفُه من حصلَ له هذا الوجدُ، وهذا الذَّوقُ أصحابُه فيه يتفاوتون، فالذي يحصلُ لأهلِ الإيمانِ عندَ تجريدِ توحيدِ قلوبهم إلى الله، وإقبالهم عليه دونَ ما سواه، بحيث يكونون حنفاء له مخلصين له الدين، لا يحبُّون شيئًا إلا له، ولا يتوكلُّون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له، ولا يسألون إلا إيَّاه، ولا يرجون إلا إيَّاه، ولا يخافون إلا إيَّاه، يعبدونه ويستعينون له وبه، بحيث يكونون عند الحقِّ بلا خَلْقٍ، وعند الخَلْقِ بلا هوى؛ قد فئت عنهم إرادةُ ما سواه بإرادته، ومحبةُ ما سواه بمحبته، وخوفُ ما سواه بخوفه، ورجاءُ ما سواه برجائه، ودعاءُ ما سواه بدعائه، هو أمرٌ لا يعرفُه بالذَّوقِ والوجدِ إلَّا من له نصيبٌ، وما من مؤمنٍ إلَّا له منه نصيبٌ.

وهذا هو حقيقةُ الإسلامِ الذي بعثَ اللهُ به الرُّسُلَ، وأنزلَ به الكُتُبَ، وهو قُطْبُ القرآنِ الذي تدور عليه رحاه، والله - سبحانه - أعلم<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه مسلم (٣٤).

(٢) رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣).

(٣) وقال الزَّبيدي في «تاج العروس» (٣٢٧/٢٥): «فَتَأْمَلْ! كَيْفَ جَمَعَ الذَّوقَ وَاللَّبَاسَ =

وقال - رحمه الله - في «مجموع الفتاوى» (٤٧٣ / ٢٠ - ٤٧٤):

«ثمَّ الجوع والخوف إذا لَبَسَ البدنَ كانَ أعظمَ في الألم، بخلاف القليلِ منه، فإذا قال: ﴿فَإِذَا قَهَّ اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ فَإِنَّهُ لم يكن يدل على لبسه لصاحبه وإحاطته به، فهذه المعاني تدلُّ عليها هذه الألفاظُ دونَ ما إذا قيل: جاعت وخافت؛ فَإِنَّهُ يدلُّ على جنسٍ، لا على عِظَمِ كَيْفِيَّتِهِ وَكَمِّيَّتِهِ، فهذا من كمال البيان، والجميع إِنَّمَا استعمل فيه اللَّفْظَ في معناه المعروف في اللغة؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: (ذَوَّقْ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) ليس هو ذوقُ الطَّعامِ، وَذَوَّقْ الجوعَ ليس هو ذوقُ لباسِ الجوع.

ولهذا كان تحريراً هذا البابِ هو من علم البيان الذي يعرف به الإنسان بعضَ قَدْرِ القرآن، وليس في القرآن لفظٌ إِلَّا مقرونٌ بما يبيِّنُ به المراد.

قال أبو عبيدة: وبلاغة هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ تتجلى في سياق ذِكْرِ (قرية) في الآية، وهي نكرة في سياق الإثبات، التي تفيد الإطلاق، فهذه سنة عامة مطلقة تشمل كل قرية، فَإِنَّ الجوع والخوف يشملهما ويلفُّ أهلها دون استثناء، فهي إذن سنة كونيَّة ثابتة، من غير غَيْرٍ له، ومن شابَّ العَمَلَ وَخَلَطَ خَيْرَهُ بِشَرِّهِ شِيبَ له العطاء وَخُلِطَ عليه، جزاءً وفاقاً، ولا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً.

فعلى العاقل أن لا يغيب عنه قول الله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ [فاطر: ٢ - ٣]، فالله هو الخالق والرازق، وهو الذي بيده الملك والحكم والتصرف

---

= حَتَّى يَدُلَّ على مُبَاشَرَةِ الذَّوْقِ وإِحَاطَتِهِ وَشُمُولِهِ، فَأَفَادَ الإِخْبَارُ عَنْ إِذَاقَتِهِ أَنَّهُ وَقَعَ مُبَاشَرٌ غَيْرٌ مُتَنَتِّرٌ، فَإِنَّ الْخَوْفَ قَدْ يُتَوَقَّعُ وَلَا يُبَاشَرُ، وَأَفَادَ الإِخْبَارُ عَنْ لِبَاسِهِ أَنَّهُ مُحِيطٌ شَامِلٌ كَاللِّبَاسِ لِلْبَدَنِ. اهـ

والتدبير، يُنعم ويعطي، ولا أحد يعطي عطاءه، كما قال - تعالى -: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

لكنّه - تعالى - إذا استحقَّ الخلقُ نِقْمَتَه وسَلَبَ نِعَمِه عنهم؛ فهو ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣] أي: شديدُ القُوَّة، فـ ﴿الْمِحَالُ﴾ هو القُوَّة والبأسُ والمَكْرُ بالحقِّ، وهو من (الحَوْل) الذي فيه معنى التحوُّل من حالٍ إلى حالٍ، فإذا قضى بتحوُّل حالِ النَّاسِ من عافيةٍ إلى بلاءٍ لذنوبٍ اقترفوها، وإعراضٍ ارتكبهوه، كان التحوُّلُ شديداً، نسأل الله أن يلطِّفَ بنا ويعاملنا برحمته.

\* \* \*

## ذنوب الأقسام السابقة

لقد قصَّ الله - تعالى - علينا في سورة العنكبوت أطرافاً ونُتفاً من خبر قوم إبراهيم، وقوم لوط، ومدَّين، وقارون وفرعون وهامان، وذكر إعراضهم عن الرُّسل وعن الهدى، وما عاقبهم به، فقال - تعالى -: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

«فمَّا ينبغي أن يُعلم أنَّ الذُّنُوبَ والمعاصي تضرُّ ولا بدَّ، وأنَّ ضرَّها في القلوبِ كضرِّ السُّموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضَّرر، وهل في الدُّنيا والآخرة شرٌّ وداءٌ إلَّا وسببه الذنوب والمعاصي؟

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسَخَ ظاهره وباطنه، فجعلت صورته أقبح صورةٍ وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدِّلَ بالقُرْب بُعْدًا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظى، وبالإيمان

كفراً، وبمخاللة الوليِّ الحميد أعظمَ عداوةٍ ومُشاقَّة، وبزَجَلِ التَّسْبِيحِ والتَّقْدِيسِ  
والتَّهْلِيلِ، زَجَلَ الكُفْرِ والشُّرْكِ والكُذْبِ والزُّورِ والفُحْشِ، ولبَّاسِ الإيْمَانِ لبَّاسَ  
الكُفْرِ والفسوقِ والعُصْيَانِ؟ فهانِ على الله غايةُ الهوانِ، وسقطَ من عينه غايةُ  
السُّقُوطِ، وحلَّ عليه غضبُ الرَّبِّ - تعالى - فأهواه، ومقَّتَه أكبرَ المقَتِّ فأزْدَاه،  
فصارَ قَوَّادًا لكلِّ فاسقٍ ومجرمٍ، رضيَ لنفسه بالقيادة بعد تلك العِبادَةِ والسيادة،  
فعيادًا بك اللهم! من مخالفةِ أمرك، وارتكابِ نهيك.

وما الذي أغرقَ أهلَ الأرضِ كلَّهم، حتى علا الماءُ فوقَ رؤوسِ الجبالِ؟  
وما الذي سلَّطَ الرِّيحَ العقيمَ على قومٍ عادٍ، حتى ألقَتْهم موتى على وجهِ  
الأرضِ كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاوية، ودمَّرتَ ما مرَّت عليه من ديارهم وحروثهم  
وزروعهم ودوابِّهم، حتى صاروا عبرةً للأممِ إلى يومِ القيامة؟

وما الذي أرسلَ على قومِ ثمودَ الصيحةَ حتى قطَّعت قلوبهم في أجوافهم  
وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفعَ قرى اللُّوطِيَّةِ حتى سمعت الملائكةُ نَبِيحَ كلابهم، ثمَّ قلبَهَا  
عليهم فجعلَ عاليَهَا سافلَهَا، فأهلكهم جميعًا، ثمَّ أتبعهم حجارةً من السماءِ أمطرَهَا  
عليهم؟ فجمعَ عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أُمَّةٍ غيرهم، ولإخوانهم أمثالها،  
وما هي من الظَّالِمِينَ ببيعدٍ.

وما الذي أرسلَ على قومِ شعيبٍ سحابَ العذابِ كالظُّلُمِ، فلَمَّا صارَ فوقَ  
رؤوسهم أمطرَ عليهم نارًا تَلْظَى؟

وما الذي أغرقَ فرعونَ وقومَه في البحرِ، ثمَّ نُقِلَتْ أرواحُهم إلى جهنَّمَ؟  
فالْأجْسَادُ لِلْغَرَقِ، والأرواحُ لِلْحَرَقِ.

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوباتِ ودمَّرَهَا تدميرًا؟

وما الذي أهلك قوم صاحب (يس) بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأسٍ شديدٍ، فجاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وقتلوا الرِّجَالَ وسَبَّوْا الذَّراري والنساء، وأحرقوا الدِّيَارَ، وَهَبُّوا الأَمْوَالَ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ عَلَيْهِمْ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَأَهْلَكُوا مَا قَدَّرُوا عَلَيْهِ وَتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتَبِيرًا؟

وما الَّذِي سَلَّطَ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعَ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَاتِ؟ مَرَّةً بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَخَرَابِ الْبِلَادِ، وَمَرَّةً بِجَوْرِ الْمُلُوكِ، وَمَرَّةً بِمَسْخِهِمْ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ، وَآخِرُ ذَلِكَ أَقْسَمَ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ»<sup>(١)</sup>.

فَنَسْأَلُ اللَّهَ رَبَّنَا أَنْ يِعَافِينَا، وَيَعْفُو عَنَّا، وَأَنْ يِعَامِلَنَا بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ.



---

(١) «الجواب الكافي» (ص ٩٨ - ١٠١).

## الذَّنبُ عَثْرَةٌ فِي الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ

إياك أن تظنَّ أنَّك إن أذنبت فاستغفرت وقُبِلت توبتك، أنَّك بقيت بعد ذنبك بمنزلتك قبل ذنبك! تذكروا معي أولي العزم من الرُّسل - صلوات الله عليهم - إذا اشتدَّت أحوال الحشر على النَّاسِ، واشتدَّ الهول، فيأتي النَّاسُ إلى الأنبياء يطلبون منهم أن يشفعوا لهم عند ربهم بأن يعجِّل الحساب، كلُّ نبيٍّ في ذلك المقام يذكر ذنبه؛ كما أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «... فيقول بعض النَّاس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض النَّاس لبعض: اتُّوا آدم.

فيأتون آدم فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إنَّ ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى الأرض، وسَمَّاك الله: عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟



فيقول لهم: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام.

فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبيُّ الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله - وذكر كذِّباته -، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى عليه السلام، فيقولون: يا موسى! أنت رسول الله، فضلك الله برسالاته وبتكليمه على النَّاس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى عليه السلام: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلتُ نفسًا لم أُؤمرْ بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى عيسى عليه السلام.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى! أنت رسول الله، وكلمت النَّاس في المهد، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى عليه السلام: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر له ذنبًا -، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد عليه السلام.

فيأتوني فيقولون: يا محمد! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلقُ فأتِي تحت العرش فأقعُ ساجدًا لربي، ثم يفتح الله عليَّ ويلهمني من محامده وحُسنِ الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحدٍ قبلي، ثمَّ يقال: يا محمد: ارفع

رأسك، سَلْ تُعْطَهُ، اشْفَعْ تُشَفِّعْ.

فأرفع رأسي فأقول: يا ربَّ! أمتي أمتي. فيقال: يا مُحَمَّد! أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ أَمَّتَكَ مِنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ، مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ...» الحديث.

فأثر الذَّنْبِ لم يذهب، وإن تاب الله - عز وجل - على صاحبه، ومنزلة من أذنب ليست بمنزلة المُعَافَى، وهذا تقديرٌ جرى على الأنبياء كما ترى، فلا يَغْرِيَنَّكَ الشيطان فيقول لك: هذا ذَنْبٌ، ولا عليك منه، فإنَّ التوبة تُذهِبُهُ.

بل عقد ابن القيم - رحمه الله - فصلاً بديعاً في «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٤ وما بعدها)، قارَنَ فيه بين الذي لم يعصِ الله - عز وجل - البتَّةَ، وبين الذي عصاه ثُمَّ تاب؛ أيُّهما أفضل؟ وذكر أنَّ النَّاسَ اختلفوا في ذلك على قولين، لكن الذي يعيننا سرُّه لحجج الطَّائفة التي فضَّلت حالَ من سَلِمَ مِنَ الذَّنْبِ، فقال:

«هل المطيع الذي لم يعصِ خيراً من العاصي الذي تاب إلى الله توبة نصوحاً؟ أو هذا التائب أفضل منه؟

اختلف في ذلك، فطائفة رجَّحت من لم يعصِ على من عصى وتاب توبةً نصوحاً، واحتجُّوا بوجوه:

أحدها: أنَّ أكملَ الخلقِ وأفضلَهم: أطوعُهم لله، وهذا الذي لم يعصِ أطوعُ، فيكون أفضل.

الثاني: أنَّ في زمن اشتغال العاصي بمعصيته، يسبِّقُه المطيعُ عدَّةَ مراحل إلى فوق، فتكون درجته أعلى من درجته، وغايته أنَّه إذا تاب استقبل سَيَرَه ليلحقه، وذلك في سَيَرٍ آخر، فأنَّى له بلحاظه؟ فهما بمنزلة رجلين مشترَكَيْن في الكسبِ، كلُّما كسب أحدهما شيئاً كسب الآخر مثله، فعَمَدَ أحدهما إلى كسبه فأضاعه، وأمسك

عن الكسب المُستأنف، والآخر مُجْدِّ في الكسب، فإذا أدركته حمية المنافسة وعادَ إلى الكسب؛ وجد صاحبه قد كسب في تلك المدة شيئاً كثيراً، فلا يكسب شيئاً إلا كسب صاحبه نظيره، فأنتى له بمساواته.

الثالث: أن غاية التوبة أن تحو عن هذا سيئاته، ويصير بمنزلة من لم يعملها، فيكون سعيه في مدة المعصية لا له ولا عليه، فأين هذا السعي من سعي من هو كاسبٌ رابحٌ؟

الرابع: أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره، ففي مدة اشتغال هذا بالذنوب، كان حظُّه المقت، وحظُّ المطيع الرضا، فالله لم يزل عنه راضياً، ولا ريب أن هذا خيرٌ ممن كان الله راضياً عنه ثم مَقَّتَه ثم رضي عنه، فإن الرضا المستمر خيرٌ من الذي تخلَّله المقت.

الخامس: أن الذنب بمنزلة شرب السم، والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هي الصِّحة والعافية، وصحةٌ وعافيةٌ مستمرة خيرٌ من صحةٍ تخلَّلها مرضٌ وشربٌ سُمٍّ أفاق منه، وربما أدبَا به إلى التلف أو المَرَضِ أبداً.

السادس: أن العاصي على خطر شديد، فإنه دائرٌ بين ثلاثة أشياء، أحدها: العطبُّ والهلاك بشرب السم، الثاني: النقصان من القوة وضعفها إن سَلِمَ من الهلاك، والثالث: عودُ قوته إليه كما كانت أو خيراً منها؛ وهذا بعيدٌ، والأكثرُ إنما هو القسمان الأولان، ولعلَّ الثالث نادرٌ جدًّا، فهو على يقينٍ من ضرر السم، وعلى رجاءٍ من حصول العافية، بخلاف من لم يتناول ذلك.

السابع: أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطاً حصيناً، لا يجدُ الأعداءُ إليه سبيلاً، فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته في زيادةٍ ونموٍّ أبداً، والعاصي قد فتح

فيه ثَغْرًا، وثَلَمَ فيه ثُلْمَةً، ومَكَّنَ منه السُّرَّاقَ والأعداءَ فدخلوا فعاثوا فيه يمينًا وشمالًا، أفسدوا أغصانه، وخربوا حيطانه، وقطعوا ثمراته، وأحرقوا في نواحيه، وقطعوا ماءه، ونَقَضُوا سَقِيَّه، فمتى يرجعُ هذا إلى حاله الأول؟! فإذا تَدَارَكَ قِيَمُه ولمْ شَعَثَه، وأصلَحَ ما فسدَ منه، وفتحَ طُرُقَ مائِه، وعَمَّرَ ما خربَ منه، فإنه إمَّا أن يعودَ كما كان، أو أنقصَ، أو خيرًا، ولكن لا يلحقُ بستانِ صاحبه الذي لم يزلْ على نَصَارَتِه وحُسْنِه، بل في زيادةٍ ونُمُوٍّ وتضاعفٍ ثَمَرَةٍ وكثرةٍ غَرَسٍ.

الثامن: أن طَمَعَ العدوُّ في هذا العاصي إنَّما كان لضعفِ علمِه وضعفِ عزيمته، ولذلك يسمَّى: جاهلاً، قال قتادة: «أجمع أصحابُ رسول الله ﷺ على أن كلَّ ما عُصِيَ الله به فهو (جهالة)»<sup>(١)</sup>.

وكذلك قال الله - تعالى - في حق آدم: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، وقال في حق غيره: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأمَّا من قَوَّيَتْ عزيمته وكَمَّلَ علمه وقَوَّيَ إيمانه؛ لم يطمع فيه عدُوُّه، وكان أفضل.

التاسع: أن المعصية لا بُدَّ أن تؤثرَ أثرًا سيئًا ولا بُدَّ؛ إمَّا هلاكًا كليًّا، وإمَّا خسرانًا وعقابًا يَعْقُبُه إمَّا عَفْوٌ ودخولُ الجنة، وإمَّا نَقْصُ درجة، وإمَّا حُودُ مصباحِ الإيمان، وعملُ التَّائِبِ في رفعِ هذه الآثارِ والتكفير، وعملُ المطيعِ في الزيادةِ ورفعِ الدَّرَجَاتِ، ولهذا كان قيامُ الليلِ نافلةً للنبي ﷺ خاصة، فإنه يعملُ في زيادةِ الدَّرَجَاتِ، وغيره يعملُ في تكفيرِ السيئات، وأين هذا من هذا؟!

العاشر: أن المقبلَ على الله المطيعَ له يسيرُ بِجُمْلَةِ أعماله، وكلِّما زادت طاعاته وأعماله ازدادَ كَسْبُهُ بها وعَظُمَ، وهو بمنزلة من سافرَ فَكَسَبَ عشرةَ أضعافٍ رأسٍ

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٨٩).

ماله، فسافر ثانياً برأسِ ماله الأولِ وكَسِبِه؛ فَكَسَبَ عشرةَ أضعافه - أيضاً -، فسافر ثالثاً - أيضاً - بهذا المالِ كُلِّه، وكان ربحُه كذلك، وهَلُمَّ جَرًّا، فإذا فُتِرَ عن السَّفَرِ في آخِرِ أمرِه مرَّةً واحدةً؛ فاتَه من الرِّبْحِ بقَدَرِ جميعِ ما رَیَحَ أو أكثرَ منه.

وهذا معنى قول الجُنَيْد - رحمه الله -: «لو أقبلَ صادقٌ على الله ألفَ عامٍ، ثمَّ أعرَضَ عنه لحظةً واحدةً؛ كان ما فاتَه أكثرُ ممَّا نالَه»، وهو صحيحٌ بهذا المعنى، فإنَّه قد فاتَه في مدَّةِ الإعراضِ ربحُ تلكَ الأعمالِ كُلِّها، وهو أزيدُ من الرِّبْحِ المتقدِّمِ، فإذا كان هذا حالُ من أعرَضَ؛ فكيف من عصى وأذنب؟! وفي هذا الوجه كفايةٌ.

فالشاهد أنَّ الذنبَ له أثرٌ، وهذه الآثارُ الدَّقيقة على القلوب والنُّفوس والأعمال والعواقب، تصيبُ من أذنب وتاب من ذنبه توبةً نصوحًا، فليت شعري! ماذا يفعلُ المصْرُون والذين لم تخطر التوبة لهم ببالٍ قطُّ؟! فالسلامة من عواقب الذنوب ليست مضمونة حتى مع التوبة.

بل سيَتَّضح لك أيُّها الغافل وأيُّها العاصي أنَّ له أثرًا على قوَّة بدنك، وعلى رزقك، وعلى ولدك، فقد تُحرم الولد، وقد تُحرم الرزق، وقد جاء التصريح بهذا في بعض النصوص من كتاب ربنا وأحاديث نبينا ﷺ، يقول الله - عز وجل -: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

فقد بيَّنت هذه الآية أنَّ الاستغفار علاجٌ للجذب، والفقر، والعقم، وأنَّه سببٌ لحصول النِّعيم الوافر الطَّيب.

قال الربيع بن خثيم: «داءُ البدَنِ الذُّنوب، ودواؤها الاستغفار، وشفائها

أن لا تعود في الذنب»<sup>(١)</sup>.

وروي عن الربيع بن صبيح: أن رجلاً أتى الحسنَ وشكا إليه الجذَبَ، فقال له: استغفر الله - تعالى -، وأتاه آخر فشكا إليه الفقر، فقال له: استغفر الله - تعالى -، وأتاه آخر فقال: ادْعُ الله - سبحانه - أن يرزقني ابناً، فقال له: استغفر الله - تعالى -، وأتاه آخر فشكا إليه جفاف بساتينه، فقال له: استغفر الله - تعالى -.

فقلنا: أذاك رجالٌ يشكون ألواناً ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلهم بالاستغفار! فقال: ما قلتُ من نفسي شيئاً، إنما اعتبرتُ قولَ الله - عز وجل - حكايةً عن نبيِّه نوحٍ - عليه الصلاة والسلام - أنه قال لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ...﴾ الآية [نوح: ١٠]<sup>(٢)</sup>.

بل يُروى عن أبي بكرٍ - رضي الله - تعالى - عنه - أنه أتى بغرابٍ وافِرِ الجناحين، أي أن الذي أتى به تمكّن منه من غير علّة فيه، فقال: «ما صيدَ من صيْدٍ، ولا عُصِدَ من شجرٍ، إلّا بما ضيّعتُ من التسبيح»<sup>(٣)</sup>.

وبالفعل؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ أخبرنا أن نوحاً - عليه الصلاة والسلام - أوصى ابنه بقوله: «...أَمُرْكُ بِ (لا إله إلا الله)، فإنَّ السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كِفّة، ووضعت (لا إله إلا الله) في كِفّة، رجحت بهنَّ (لا إله إلا الله)،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنّف» (١٤ / ١٥)، والدينوري في «المجالسة» (٩٢٥) ويُنظر تعليلي عليه.

(٢) انظر: «روح المعاني» (٧٣ / ٢٩).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنّف» (١٣ / ٢٦٢)، وإسناده ضعيف لانقطاعه.

ولو أنّ السماوات السَّبع والأرضين السَّبع كُنَّ حلقةً مبهمَةً؛ قصمتَهُنَّ (لا إله إلا الله) و(سبحان الله وبحمده)، فإنَّها صلاةٌ كلِّ شيءٍ، وبها يُرزق الخلق»<sup>(١)</sup>.



---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٩/٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٨)، وسنده صحيح.

## كيف ينسى الإنسان ربه؟

«من عقوبات الذُّنوب أنَّها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيَجِد المُذنب نفسه مُستَوْحِشًا، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبينه وبين الخلق، وكلَّما كُثرت الذُّنوب اشتدَّت الوحشة»<sup>(١)</sup>.

الذنب خطير على الأفراد، وللسيِّئة أخوات، وللذنب أشباه، وأخطر ما يمكن أن يترتب على الذنب أثره على قلب الإنسان بأن يحرفه، ويُفقد ميزانه، وأن يقع في المحذور، جاء ذلك في أكثر من آية؛ كقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، فهذا أخطر ما يمكن أن يقع في أفراد هذه الأمة، كما نرى من الشواهد، وكما نرى عند كثير من الناس.

قال أهل التفسير: ينسى الإنسان نفسه بأن يذنب الذنب فلا يستحي ولا ينكسر، وأن يذنب الإنسان الذنب ولا يبالي ولا يشعر به، ثم قال الله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ حصل فسقهم هذا بالذنب، فالذنب يجر إلى ذنب، والسيئة تجر إلى السيئة، حتى يصل الحال - والعياذ بالله - كما قال الله عن بني إسرائيل:

(١) «الداء والدواء» (ص ٧٥).



﴿وَأَحْطَطْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١]، فإذا أصبح حاله هكذا، تثقل عليه العبادة والطاعة، وينقطع عن الصلة برب السماء والأرض، ويترك حتى يُخْذَل - والعياذ بالله تعالى -، ثمَّ كلما أراد النهوض من مصيبيته أركس فيها، هذا أسوأ أثر من آثار الذنوب.

وهذه قضية نالت نصيبها من النصوص الشرعية والآثار، ومن تأصيل أهل العلم وعنايتهم، لأنَّ الذَّنْبَ إذا وقع، فوَفَّقَ العبدُ بعده إلى الانكسارِ والتَّوْبَةِ، فقد يجتني من زلَّته خيراً عظيماً يُعْطَى على حُسْنِ عاقِبته، وإن رَكَنَ إلى غفلته ورضي بخطيئته، كانَ ذلك الذَّنْبُ أَوَّلَ الشُّؤْمِ، وباكورة البوارِ والويلِ والثُّبُورِ والهلاكِ.

وقد جاء هذا المعنى كثيراً جداً في كتابِ الله - تعالى -، كقوله - سبحانه -: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [حمد: ١]، وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِإِنِّي رَسُولٌ لِّإِلَهِكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جَحَلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧]، وغير هذا كثير.

فهني جميعاً كما ترى، ذنوبٌ ولَدَتْهَا ذنوبٌ، ومعاصٍ أَرْضَعَتْهَا معاصٍ،

وأشأم ما في الذَّنْبِ أَنَّ صِغَارَهُ تَلِدُ كِبَارَهُ وليس العكس، فتأمل ما في آيات سورة التَّوْبَةِ المذكورة في آخر سياق الآيات؛ كيف عاهدوا الله، ثُمَّ نَقَضُوا الْعَهْدَ وانسلخوا منه، ونقض العهد من سلوكيّات المنافقين وعلاماتهم الظَّاهِرة، لكن الأمر لم يقف على الظاهر في صورة المعصية فقط، وإنَّما كانت تلك البداية فقط، ثُمَّ أعقَبَهُمُ اللهُ به نفاقاً في قلوبِهِم، فأبْدَلُوا بِصُورَةِ النِّفَاقِ حَقِيقَتَهُ وَسَوَادَهُ وَقُبْحَهُ.

قال السَّعْدِيُّ: «الذَّنْبُ الْوَاحِدُ يَسْتَتَبِعُ ذُنُوبًا مُتَعَدِّدَةً، وَلَا يَتِمُّ لِفَاعِلِهِ إِلَّا بَعْدَ جَرَائِمٍ، فإِخْوَةُ يُوسُفَ لَمَّا أَرَادُوا التَّفْرِيقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ احْتَالُوا لِذَلِكَ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْحِيلِ، وَكَذَبُوا عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وَزَوَّرُوا عَلَى أَبِيهِمْ فِي الْقَمِيصِ وَالْدَّمِ الَّذِي فِيهِ، وَفِي إِيْتَانِهِمْ عِشَاءً يَبْكُونُ، وَلَا تَسْتَبْعِدُ أَنَّهُ قَدْ كَثُرَ الْبَحْثُ فِيهَا فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ، بَلْ لَعَلَّ ذَلِكَ اتَّصَلَ إِلَى أَنْ اجْتَمَعُوا بِيُوسُفَ، وَكَلَّمَا صَارَ الْبَحْثُ حَصَلَ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْكَذِبِ، وَالْإِفْتِرَاءِ مَا حَصَلَ، وَهَذَا شَوْمُ الذَّنْبِ، وَآثَارُهُ التَّابِعَةُ وَالسَّابِقَةُ وَالْإِلَاحِقَةُ»<sup>(١)</sup>.

ولولا أَنَّهُمْ - رضي الله عنهم - تابوا بعد ذلك وألْحَوْا عَلَى اللَّهِ فِي طَلَبِ الْمَغْفِرَةِ، وَعَلَى أَخِيهِمْ وَوَالِدِهِمْ فِي الْمُسَامَحَةِ، وَتَحَلَّلُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، لَمَّا كَانَ ذَلِكَ يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، لَكِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - وَفَّقَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِصْلَاحِ، وَالْعِبْرَةُ بِكَمَالِ النِّهَايَاتِ، لَا بِنَقْصِ الْبَدَايَاتِ.

وقال أَبُو حَامِدٍ: «مِنْ شَوْمِ الذَّنْبِ فِي الدُّنْيَا - عَلَى الْجُمْلَةِ - أَنْ يُكْسِبَ مَا بَعْدَهُ صِفَتَهُ، فَإِنْ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ كَانَ عَقُوبَةً لَهُ، وَيُحْرَمَ جَمِيلَ الرِّزْقِ حَتَّى يَتَضَاعَفَ شَقَاؤُهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ كَانَتْ اسْتِدْرَاجًا لَهُ، وَيُحْرَمُ جَمِيلَ الشُّكْرِ حَتَّى يُعَاقَبَ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٤٠٧).

على كُفْرَانِهِ، وَأَمَّا الْمُطِيعُ فَمِنْ بَرَكَةِ طَاعَتِهِ أَنْ تَكُونَ كُلُّ نِعْمَةٍ فِي حَقِّهِ جَزَاءً عَلَى طَاعَتِهِ، وَيُوقَقُ لَشُكْرِهَا، وَكُلُّ بَلِيَّةٍ كَفَّارَةٌ لَذَنْبِهِ، وَزِيَادَةٌ فِي دَرَجَاتِهِ»<sup>(١)</sup>.

قال الحسن: «من عمل حسنة وإن صغرَتْ أَوْرَثَتْهُ نورا في قلبه، وقوة في عمله، وإن عمل سيئة وإن صغرَتْ فاحتقرَهَا، أَوْرَثَتْهُ ظُلما في قلبه، وَضَعُفًا في عَمَلِهِ»<sup>(٢)</sup>.

وكان عروة بن الزبير يقول: «إذا رأيتَ الرجل يعمل الحسنة فاعلم أن لها عنده أخوات، فإنَّ الحسنة تدلُّ على أختها، وإذا رأيتَه يعمل السيئة فاعلم أن لها عنده أخوات، فإنَّ السيئة تدلُّ على أختها»<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو الحسين المُرِّين: «الذنبُ بعدَ الذنبِ عقوبةُ الذنبِ، والحسنةُ بعدَ الحسنةِ ثوابُ الحسنةِ»<sup>(٤)</sup>.

ويظهر لأصحاب البصيرة أن الذنوب الكبيرة - من التورُّط في إزهاق النفوس وقتل الشعوب - لا تصدر إلا ممن كثرت ذنوبهم وتراكمت واشتدَّت، فأصبحوا في ظلماتٍ يتخبَّطون، والأدهى والأمرُّ ظنُّهم أنَّهم يحسنون صنعا! ومن العبارات التي اشتهرت نسبتها إلى غير واحدٍ من السَّلف؛ قولهم: «المعاصي بريد الكفر»<sup>(٥)</sup>، أي: الموصلةُ إليه.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤ / ٥٤).

(٢) «شعب الإيمان» (٣٨٣ / ٩) رقم (٦٨٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٤٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٧٧ / ٢)، وهو صحيح.

(٤) المرجع السابق (٣٨٤ / ٩) رقم (٦٨٢٩).

(٥) المرجع السابق (٣٨٤ / ٩) رقم (٦٨٣١)، عن أبي حفص، وهو عمرو بن سلمة =

وهذا المعنى مشهودٌ له في القرآن في مواضع؛ منها قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا  
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ  
لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

فالبدايةُ ببعضِ سوءِ الأدبِ مع الرسول ﷺ، وخروجٍ عن السَّمْتِ اللائقِ  
به في توقيره واحترام مقامه، لكن الله خَوَّفَ بأنَّ ذلك مُفْضٍ في آخر أمره إلى حُبُوطِ  
العمل، ولا يحبط العملُ كُلُّهُ إلا بالكفر، نسأل الله السلامة.

قال ابن عطية: «وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنْ تَأْتُمُوا، وَيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَى  
الْوَحْشَةِ فِي نَفُوسِكُمْ، فَلَا تَزَالِ مَعْتَقِدَاتُكُمْ تَتَجَرَّدُ الْقَهْقَرَى، حَتَّى يُوَوَّلَ ذَلِكَ إِلَى  
الْكُفْرِ، فَتَحْبَطَ الْأَعْمَالُ حَقِيقَةً، وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّهَا مُحَاطَبَةٌ لِفُضْلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ  
لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ احْتِقَارًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَقَالُ لِمُنَافِقٍ يَعْمَلُ ذَلِكَ جَرَأَةً: (وَأَنْتَ  
لَا تَشْعُرُ)! لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَمَلٌ يَعْتَقِدُهُ هُوَ عَمَلًا»<sup>(١)</sup>.

ونقله ابن عاشور، وبيَّن وجهه بقوله: «لأنَّ عدمَ الانتِهَاءِ عن سوءِ الأدبِ  
مع الرسول ﷺ يُعَوِّدُ النَّفْسَ بِالْإِسْرَاسِ فِيهِ، فَلَا تَزَالِ تَزْدَادُ مِنْهُ وَيَنْقُصُ تَوْقِيرُ  
الرسول ﷺ من النفس، وتَتَوَلَّى مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَشَدِّ مِنْهُ، حَتَّى يُوَوَّلَ إِلَى عَدَمِ  
الْإِكْتِرَافِ بِالتَّأْدِبِ مَعَهُ، وَذَلِكَ كُفْرٌ».

وهذا معنى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، لأنَّ الْمُتَتَقِلَّ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَسْوَأَ لَا يَشْعُرُ  
بأنَّه أَخِذٌ فِي التَّمَلُّيِّ مِنَ السُّوءِ، بِحُكْمِ التَّعَوُّدِ بِالشَّيْءِ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى تَغْمِرَهُ

= النيسابوري (ت ٢٦٤هـ) كما في «السَّيَر» (١٢/٥١٣).

(١) «المحرر الوجيز» (١٢٨/٥).

المعاصي، وربّما كان آخرُها الكفر، حين تضرى النَّفسُ بالإقدام على ذلك»<sup>(١)</sup>.  
«فإنَّ ذلك إذا اجتراً الإنسانُ عليه استخفَّ به، وإذا استخفَّ به واطبَّ عليه، وإذا واطبَّ عليه أوْشَكَ أنْ يَسْتَخِفَّ بالمُخَاطَبِ، فيكفرُ وهو لا يشعر»،  
قاله البقاعي<sup>(٢)</sup> - رحمه الله -.

وكذلك تفعلُ البدع، وهي أسرعُ توليداً لِمَا بعدها وأكثرُ تطوُّراً وأبعدُ مدًى في التضخُّمِ واتساعِ الضَّلال، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «وإذا أَصَرَ على ترك ما أُمِرَ به من السُّنَّةِ وفعل ما نُهِيَ عنه، فقد يُعَاقَبُ بسلبِ فعلِ الواجبات، حتى قد يصير فاسقاً أو داعياً إلى بدعة، وإنْ أَصَرَ على الكبائرِ فَقَدْ يُخَافُ عليه أنْ يُسَلَبَ الإِيانَ، فإنَّ البدعَ لا تزالُ تُخْرِجُ الإنسانَ من صغيرٍ إلى كبيرٍ حتى تُخْرِجَهُ إلى الإلحادِ والزندقَةِ، كما وقع هذا لغير واحدٍ»<sup>(٣)</sup>.



(١) «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٢١ - ٢٢٢).

(٢) «نظم الدرر» (٧/ ٢٢٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٠٦)، وقال - رحمه الله - في «الفتاوى» (٢/ ٢٣٠): «والبدع دُهْلِيزُ الكُفْرِ والنِّفاقِ».

## فوائد في أسماء الذنب، ومرادفاته، والفروق بين مراتبه

الأفعال والأقوال والاعتقادات المرفوضة شرعاً، المذمومة في الكتاب والسنة، جاء ذكرها بأسماء متعددة، وأوصاف كثيرة، يحسن الوقوف على معاني ما يتيسر إيراده منها، وهذا مبحث دقيق، لأنه يتعلق باستقراء استعمال الألفاظ استعمالاً خاصاً في عُرف الشرع المطهر، فنوردُ منه هنا أطرافاً موجزةً، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق، سائلين الله العافية من كل الذنوب، دقيقتها وجليلها، وظاهرها وباطنِها.

فمن ذلك:

الذنب والمعصية: والفرق بينهما أن المعصية يُنبئ اسمُها عن كونها منهياً عنها، فإذا قيل: عصي فلان، فالمعنى أنه قد وقع منه ما يحرم عليه أو يُكره منه، والذنب يُنبئ عن استحقاق فاعله العقاب، ففيه معنى يختص به<sup>(١)</sup>.

وأما الذنب والإثم: ف«الإثم: الذنب الذي يستحق العقوبة عليه، ولا يصح أن يوصف به إلا المجرم، وبين الإثم والذنب فرقٌ من حيث إنَّ الذنب مُطلق الجرم عمداً كان أو سهواً، بخلاف الإثم فإنه ما يستحق فاعله العقاب،

(١) انظر: «الفروق اللغوية» (ص ٤٠٢) لأبي هلال العسكري.

فيختص بها يكون عمداً»<sup>(١)</sup>.

الذنب والوزر: والفرق بينهما «أنَّ الوزَرَ يفيدُ أَنَّهُ يُثْقَلُ صاحبه، وأصله الثقل، ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾» [الشرح: ٢ - ٣]، وقال - تعالى -: ﴿حَتَّى نَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤] أي: أثقالها؛ يعني: السلاح»<sup>(٢)</sup>.  
وأما الفرق بين الإثم والجُرم: فهو «أنَّ الذَّنْبَ ما يتبعه الذَّمُّ، أو ما يُتَّبَعُ عليه العبدُ من قبيحٍ فعليه... والأصلُ في الذَّنْبِ: الرَّذْلُ من الفعل... والجُرمُ ما يُنْقَطَعُ به عن الواجب، وذلك أنَّ أصله في اللُّغَةِ الْقَطْعُ، ومنه قيل للصَّرامِ: الجُرامُ؛ وهو قَطْعُ الثَّمَرِ»<sup>(٣)</sup>.

ومن ذلك: الإثم والعدوان؛ «وكلُّ منهما إذا أُفْرِدَ تَضَمَّنَ الآخرَ، فكلُّ إثمٍ عدوانٌ، إذ هو فعلٌ ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر الله به، فهو عدوانٌ على أمره ونهيه، وكل عدوانٍ إثمٌ، فإنَّه يأثمُ به صاحبه.

ولكن عند اقترانها فهما شيئان بحسبِ مُتَعَلِّقِيهَا وَوَصْفِيهَا، فالإثم ما كان محرَّماً الجَنَسِ، كالكَذِبِ والزَّنا وشرب الخمر ونحو ذلك، والعدوان ما كان محرَّماً القَدْرِ والزيادة، فالعدوانُ تَعَدِّي ما أُبِيحَ منه إلى القَدْرِ المُحَرَّمِ، والزيادة كالاعتداء في أَخِذِ الْحَقِّ مِمَّنْ هو عليه، إمَّا بأنْ يَتَعَدَّى على ماله أو بدنه أو عِرْضِهِ، فإذا غَضِبَهُ خَشَبَةً لم يَرْضَ عَوْضَهَا إِلَّا دارَه، وإذا أَتْلَفَ عليه شيئاً أَتْلَفَ عليه أَضْعافَه، وإذا

---

(١) «فرائد اللغة في الفروق» (٩٦/٥ - ٩٧).

(٢) «الفروق اللغوية» (ص ٤١٠).

(٣) «الفروق اللغوية» (ص ٤١٠)، وانظر: «بهجة الخاطر ونزهة الناظر» (ص ٥٧).

قال فيه كلمة قال فيه أضعافها، فهذا كله عدوانٌ وتعدُّ للعدل<sup>(١)</sup>.

والفرق بين الأثيم والآثم: أن الآثم فاعلُ الإثم، والأثيم هو المتهادي في الإثم، الغارق فيه<sup>(٢)</sup>.

وأما الفرق بين الإثم والخطيئة: فإنَّ الإثم ما كان عن عمدٍ خاصَّة، وأما الخطيئة فهي أعمُّ من أن تكون عن عمدٍ أو خطأ<sup>(٣)</sup>.

وأما المعصية والبدعة، فبينهما فروقٌ يمكن إجمالها في الآتي<sup>(٤)</sup>:

١ - تنفردُ المعصية بأنَّ مستندَ النهي عنها - غالبًا - الأدلة الخاصَّة، من نصوص الوحي أو الإجماع أو القياس، بخلاف البدعة، فإنَّ مستندَ النهي عنها - غالبًا - هو الأدلة العامَّة، ومقاصد الشريعة، وعموم قوله ﷺ: «كلُّ بدعة ضلالة».

٢ - تنفرد البدعة بكونها مضاهيةً للمشروع، إذ هي تُضاف إلى الدين، وتُلحق به، بخلاف المعصية فإنَّها مخالفة المشروع، إذ هي خارجةٌ عن الدين، غير منسوبةٍ إليه، اللهمَّ إلاَّ إن فعلت هذه المعصية على وجه التقرب، فيجتمع فيها - من وجهين مختلفين - أنَّها معصيةٌ وبدعةٌ في آنٍ واحدٍ.

٣ - تنفرد البدعة بكونها جرمًا عظيمًا بالنسبة إلى مجاوزة حدود الله بالشرع، إذ حاصلُها مخالفةٌ في اعتقاد كمال الشريعة، ورميٌ للشرع بالنقص والاستدراك،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٣٦٨).

(٢) انظر: «الفروق اللغوية» (ص ٤٠٩).

(٣) انظر: «بهجة الخاطر ونزهة الناظر» (ص ١٧٥).

(٤) «إدمان الطروق لمعرفة الفروق» (ص ٢٦٩ - ٢٧٠).



وأنها لم تكتمل بعد، بخلاف سائر المعاصي، فإنها لا تعود على الشريعة بتنقيصٍ ولا غَضٍّ من جانبها، بل صاحب المعصية متنصِّلٌ منها، مقرٌّ بمخالفتِهِ لحُكْمِهَا.

٤ - تنفرد المعصية بكونها جُرمًا عظيمًا بالنسبة إلى مجاوزة حدود الله بالانتهاك، إذ حاصلها عدم توقير الله في النفوس بترك الانقياد لشرعه ودينه، وكما قيل: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى مَنْ عصيتَ»، بخلاف البدعة، فإنَّ صاحبها أنَّه موقَّرٌ لله، معظَّمٌ لشرعه ودينه، ويعتقد أنَّه قريبٌ من ربِّه وأنَّه ممثِّلٌ لأمره، ولهذا كان السَّلف يقبلون رواية المبتدع إذا لم يكن داعيةً إلى بدعته، ولم يكن ممَّنْ يستحلُّ الكذب، بخلاف من يقترف المعاصي فإنَّه فاسق، ساقط العدالة، مردود الرواية باتفاق.

٥ - ولأجل ذلك - أيضًا - فإنَّ المعصية تنفرد بأنَّ صاحبها قد يحدث نفسه بالتَّوبة والرَّجوع، بخلاف المبتدع؛ فإنَّه لا يزداد إلا إصرارًا على بدعته لكونه يرى عمله قربةً، خاصة أرباب البدع الكبرى، كما قال - تعالى -: ﴿أَفَنَنْتِ لَهُمْ سُوءَ عَمَلِهِمْ فَرَمَاهُمْ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقد قال سفيان الثوري: «البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية، لأنَّ المعصية يُتابُ منها والبدع لا يُتاب منها».

ومَّا يحسُنُ إيراده كذلك: الفرق بين الزَّلَّةِ والمعصية والكبيرة، ومَّا قيل فيه: أنَّ «المعصية فعلٌ محرَّم يقع المرء عليه عن قصدٍ فعلٍ الحرام مع العلم في حرِّمته، بخلاف الزَّلَّةِ، فإنَّها فعلٌ محرَّم يقع المرء عليه عن قصدٍ فعلٍ الحلال، وقد تسمَّى الزَّلَّةُ معصيةً مجازًا، وفي الزَّلَّةِ يوجد قصدُ الفعلِ لا قصدُ العصيان، فهي مأخوذةٌ من قولهم: زلَّ الرجل في الطَّين، ولم يوجد القصدُ إلى الوقوع بل القصدُ إلى المشي في الطَّريق... والكبيرة ما كان حرامًا محضًا شرع عليها عقوبةٌ محضةٌ

بنص قاطع في الدنيا والآخرة»<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك: المحظور والحرام؛ فالمحظور ما نهى عنه ناهٍ، وإن كان في نفسه قد يكون حسناً أو فيه ما يستحسن، أمّا الحرام فلا يكون إلّا قبيحاً في نفسه، فكلّ حرام محظورٌ، وليس كلّ محظورٍ حراماً.

والمحظورات في الشرع كلّها قبيحةٌ، لكون الشارع قد دلّ الدليل على أنّه لا يحظر إلّا القبيح<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك: الطغيان والعُتُو؛ والفرق بينهما «أنّ الطغيان مجاوزة الحدّ في المكروه مع غلبة وقهرٍ، ومنه قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ الآية [الحاقة: ١١]، يُقال: طغى الماء، إذا جاوز الحدّ في الظلم، والعُتُو: المبالغة في المكروه، فهو دون الطغيان، ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، قالوا: كلّ مُبالغٍ في كِبَرٍ أو كُفْرٍ أو فسادٍ فقد عَتَا فيه، ومنه قوله - تعالى -: ﴿بِرِيحٍ صَارَ صَرِيرٍ عَاتِيَةً﴾ [الحاقة: ٦] أي: مبالغة في الشدة»<sup>(٣)</sup>.

ومنه: الفُسق والخروج؛ والفرق بينهما أنّ الفُسق هو الخروج المَكْرُوه، ولذا سُمِّيَ الخارج عن طاعة الله بكبيرة (فاسقاً)، ومنه يُقال للفأرة: (الفُؤَيْسِق) لأنّها تخرج من جحرها للإفساد، ويُقال: فسقت الرُّطبة، إذا خرجت من قشرها، لأنّ ذلك فسادٌ لها.

أمّا الخروج، فمنه مذمومٌ ومنه محمود، فمن المحمود الخروج عن طاعة

(١) «فرائد اللغة في الفروق» (١١٤/٥).

(٢) انظر: «الفروق اللغوية» (ص ٤٠٢).

(٣) «الفروق اللغوية» (ص ٤٠٣) لأبي هلال العسكري.

الشیطان، ومن المذموم الخروج عن طاعة الله، وهو في صورته المذمومة يساوي الفسق<sup>(١)</sup>.

ومنه: «الفرق بين الفسق والفجور: أنَّ الفسق هو الخروج من طاعة الله بكبيرة، والفجور: الانبعاث في المعاصي والتوسع فيها، وأصله من قولك (أَفْجَرْتُ السَّكْرَ) إذا خَرَقْتَ فيها خرقاً واسعاً فانبعث الماء كلُّ منبَعثٍ، فلا يقال لصاحب الصغيرة فاجرٌ، كما لا يقال لمن خرق في السَّكْرِ خرقاً صغيراً أنه قد فَجَرَ السَّكْرَ، ثمَّ كثر استعمال الفجور حتى خُصَّ بالزَّنا واللواط وما أشبه ذلك»<sup>(٢)</sup>.

ومنها: «الفرق بين الجور والظلم: أنَّ الجور خلاف الاستقامة في الحكم، وفي السيرة السلطانية تقول: جَارَ الحَاكِمُ في حُكْمِهِ، والسُّلْطَانُ في سيرته، إذا فارق الاستقامة في ذلك، والظُّلْمُ ضَرَرٌ لَا يُسْتَحَقُّ، وَلَا يُعْقَبُ عَوْضًا، سواء كان من سلطانٍ أو حاكمٍ أو غيرهما، ألا ترى أنَّ خيانة الدَّانِقِ والدَّرْهَمِ تسمَّى ظلمًا ولا تسمَّى جورًا، فإنَّ أَخَذَ ذلك على وجه القَهْرِ أو المِيلِ سُمِّيَ جَوْرًا، وهذا واضحٌ»<sup>(٣)</sup>.



---

(١) انظر: «الفروق اللغوية» (ص ٤٠٤).

(٢) «الفروق اللغوية» (ص ٤٠٥).

(٣) «الفروق اللغوية» (ص ٤٠٦).

## أثر الذنوب على الإيمان

خطابُ الله - تعالى - لك أخي في الله، الذي يتضمَّنُ أمراً أو نهياً أو إرشاداً، أو تعليمًا وإخبارًا لك بعقيدةٍ تعتقدها، كُله تكليفٌ لك يتوجَّه إلى واحدةٍ من جهاتٍ ثلاث: القلب، أو اللسان، أو الجوارح.

والعبودية - في الواقع - تدورُّ على خمسةَ عَشَرَ محورًا، أو خمسَ عشرةَ قاعدةً، هي: أنَّ خطابَ الله - تعالى - يتوجَّه إلى واحدٍ من هذه الأركان الثلاثة: القلب واللسان والجوارح، وكلُّ خطابٍ لله قد يدلُّ على واجبٍ، أو مستحبٍّ، أو مباحٍ، أو مكروهٍ، أو حرامٍ، فهذه أحكامٌ خمسةٌ، تجري على كلِّ واحدٍ من الأركان أو المتعلَّقات الثلاث، فالمجموعُ خمسةَ عشرَ.

وقد عرَّفَ أئمة الإسلام الإيمانَ بعباراتٍ كثيرةٍ كلُّها ترجعُ إلى هذه الحقيقة، وتبيِّنُها، وتدلُّ عليها، كما أنَّهم علِّمُوا من القرآن والسُّنة وعَلِّمُونَا - أيضًا - أنَّ الإيمانَ ليس شيئًا واحدًا، بل يزيدُ وينقصُ ويتقلَّب، فليس من عصي كمن أطاع، ولا من اتَّبَعَ كمن ابتدَعَ، ولا من أدَّى العبادة مع الاستئصالِ كمن أدَّاها مع المحبة والإقبال، ولا مَنْ أدَّى الصلاة بأركانها وسُنَنِها ومستحباتها كمن هو بالكادِ يؤدِّي فرائضها، فالله لا يظلمُ مثقالَ ذرَّة، ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

لذا فعلى كلِّ من يريد السَّعادة في الدنيا والآخرة، أن يكون مدرِّكًا، وعارفًا

بحقيقة الإيمان الذي يرضاه الله، وتحصلُ به النِّجاة، فهذا - والله! - خيرٌ له من أن يدَّعي دعاوى لا فائدة منها ولا طائل تحتها، بل لا يأتي منها إلا الضرر، ولا يعقبها إلا الندم.

قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول (لا إله إلا الله)، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»<sup>(١)</sup>.

فبيّن ﷺ في هذا الحديث نماذج من شعب الإيمان، وأورد أمثلة ونماذج تنمُّ عن المطالب التي وراءها، فقول (لا إله إلا الله) قولٌ باللسان<sup>(٢)</sup>، وإماطة الأذى عن الطريق فعلٌ بالجوارح، والحياء من أعمال القلب، فاكتملت بهذا التعليم النبوي صورة الإيمان المطلوب.

وسرُّ ذكر الحياء دون غيره للإشارة إلى أنه لا يأتي إلا بخير، وأن جميع الخصال بها فيها أولها وآخرها قائمة على الحياء، فلو لا استحياء العبد واعتقاده بمقابلة ربه لما نطق بالشهادة، ولو لا الحياء من كشف عورات المسلمين لما أماط

---

(١) رواه مسلم (٣٥).

(٢) وليس المقصود أنها قولٌ مجردٌ عن التصديق والاعتقاد! فإنها إذا كانت كذلك فليس لها عند الله معنى؛ لأنَّ المسلم إذا قالها - أو قالها من يريد الإسلام - فإنه يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله)، فهو يشهدُ بها شهادةً ولا يلفظها لفظاً فقط، ومعنى (أشهد) هنا: أقولُ بلساني خبراً عمّا في جنّاتي وقلبي، فهي إخبارٌ باللسان عن حقيقة الاعتقاد الذي في القلب، والإخبارُ عمّا في القلب لا يكونُ باللسان فقط، بل إنّ أعمال الجوارح - أيضاً - تكونُ شهادة؛ كما قال - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧].

الأذى عن الطريق، فـ«الحَيِّ يُخَافُ فَضِيحَةَ الدُّنْيَا وَعَقُوبَةَ الْآخِرَةِ، فَيَنْزَجِرُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَيُمَثِّلُ الطَّاعَاتِ كُلَّهَا بِكَثْرَةِ حَيَاتِهِ، وَجُعِلَ الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ تَخَلُّقًا وَاكْتِسَابًا كَسَائِرِ أَعْمَالِ الْبِرِّ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيزَةً، لَكِنْ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى قَانُونِ الشَّرْعِ يَحْتَاجُ اكْتِسَابَ وَنِيَّةً، فَهُوَ مِنْ كِمَالِ الْإِيمَانِ، وَبَاعَثُ عَلَى أَفْعَالِ الْخَيْرِ»<sup>(١)</sup>.

«وَقَدْ يُفْرِطُ الْحَيَاءُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، فَيَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ لَا يُوَاجِهَ أَحَدًا بِالْحَقِّ، وَيَتْرَكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى الْمَدَاهِنَةِ فِي الْحَقِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ نَمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي الْعَادَةِ، وَكُلُّ هَذَا الْحَيَاءِ مَذْمُومٌ وَيَحْرَمُ اسْتِعْمَالُهُ، وَيَجِبُ الْانْكَفَافُ عَنْهُ، وَهَذَا الْحَيَاءُ لَيْسَ بِحَيَاءٍ حَقِيقَةً، وَهُوَ أَحَقُّ بِاسْمِ الْخَوَرِ وَالْجُبْنِ وَالْعُجْزِ وَالْمَهَانَةِ»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم - رحمه الله -:

«وَهُوَ حَقِيقَةٌ مَرَكَبَةٌ مِنْ مَعْرِفَةٍ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عِلْمًا، وَالتَّصَدِيقُ بِهِ عَقْدًا، وَالْإِقْرَارُ بِهِ نُطْقًا، وَالْانْقِيَادُ لَهُ مَحَبَّةٌ وَخُضُوعًا، وَالْعَمَلُ بِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَتَنْفِيزُهُ وَالِدَعْوَةُ إِلَيْهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، وَكِمَالُهُ فِي الْحُبِّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضِ فِي اللَّهِ، وَالْعَطَاءِ لِلَّهِ وَالْمَنْعِ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَحْدَهُ إِلَهُهُ وَمَعْبُودَهُ، وَالطَّرِيقُ إِلَيْهِ تَجْرِيدُ مُتَابَعَةِ رَسُولِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَتَغْمِيزُ عَيْنِ الْقَلْبِ عَنِ الِاتِّفَاتِ إِلَى سِوَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ»<sup>(٣)</sup>.

(١) «شرح سنن أبي داود» (١٨ / ٤٥٧) لابن رسلان الرملي.

(٢) المرجع السابق (١٨ / ٤٥٩).

(٣) «الفوائد» (ص ١٥٦).

ومن هنا كثرت عبارات السلف الصالح في الإخبار عن حقيقة الإيمان بأنه قول وعمل واعتقاد، وفي بيان أن المعاصي تضر به، سواء وقعت من الجوارح أو اللسان أو القلب.

قال الصديق الأكبر أبو بكر - رضي الله عنه -: «إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب الإيمان»<sup>(١)</sup> أي: يضادّه ويخالفه مخالفة شديدة.

وقال الفاروق الأكبر عمر - رضي الله عنه -: «ليمت يهودياً أو نصرانياً - يقولها ثلاث مرّات - رجل مات ولم يحجّ، وجد لذلك سعة، وخُلّيت سبيله...»<sup>(٢)</sup>.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «خمس أحفظوهنّ، لو ركبتم الإبل لأنصتتموها قبل أن تذرّكوهنّ: لا يخاف العبد إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربّه، ولا يستحيي جاهل أن يسأل، ولا يستحيي عالم أن لم يعلم أن يقول: الله أعلم، والصبر من الإنسان بموضع الرأس من الجسد، إذا قطع الرأس يبس ما في الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له»<sup>(٣)</sup>.

وقال حذيفة بن اليمان - رضي الله عنهما -: «الإسلام ثمانية أسهم: فالإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، وصوم رمضان سهم، والحج سهم، والجهاد سهم».

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٧٣٦)، وسنده صحيح.

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣٣٤ / ٤) رقم (٨٤٤٤)، وسنده حسن.

(٣) رواه معمر بن راشد في «جامعه» رقم (٢١٠٣١) في ذيل «مُصنّف عبد الرزاق»، وسنده

سَهْمٌ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ سَهْمٌ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ سَهْمٌ، وَقَدْ خَابَ مَنْ لَا سَهْمَ لَهُ»<sup>(١)</sup>.

وقال سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -: «الْمُؤْمِنُ يُطَبِّعُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا، إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ»<sup>(٢)</sup>.

وقال الحسن البصري: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ، إِنَّ الْإِيمَانَ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ»<sup>(٣)</sup>.

وقال سعيد بن جبير: «لَا يُقْبَلُ قَوْلٌ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا بِقَوْلٍ، وَلَا يُقْبَلُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلَا يُقْبَلُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ مُوَافِقَةٍ لِلنِّيَّةِ»<sup>(٤)</sup>.

وقال عبيد بن عمير: «مَنْ صَدَّقَ الْإِيمَانَ وَبَرَّهُ؛ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، وَمَنْ صَدَّقَ الْإِيمَانَ وَبَرَّهُ أَنْ يَخْلُوَ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ»<sup>(٥)</sup> فَيَدْعُهَا، لَا يَدْعُهَا إِلَّا لِلَّهِ»<sup>(٦)</sup>.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩ / ١٠) رقم (٧١٧٩)، وابن أبي شيبه في «مصنفه» (٣٥٢ / ٥)، وسنده صحيح.

(٢) رواه ابن أبي شيبه في «المصنف» (١٨ / ١١)، وسنده صحيح، وهو صحيحٌ بلفظٍ مُقَارِبٍ عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أيضًا.

(٣) رواه ابن أبي شيبه في «المصنف» (٢٢ / ١١).

(٤) خرَّجه اللَّالِكَايِيُّ فِي «شرح أصول الاعتقاد» (٦٣ / ١ - ٦٤) رقم (٢٠).

(٥) المقصود: مَنْ سَاقَهُ الْقَدَرُ إِلَى الْخُلُوعِ، لَا مَنْ سَعَى إِلَيْهَا، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ مُحْمُودًا عَلَى ذَلِكَ بَلْ مَذْمُومًا، وَكَانَ حَرَصُهُ عَلَى الْخُلُوعِ مِنْ اتِّبَاعِ خَطَوَاتِ الشَّيْطَانِ لَا مِنْ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ!

(٦) رواه ابن أبي شيبه في «المصنف» (٤٣٩ / ١٣).



وقال زيد بن أسلم: «لا بُدَّ لأهلِ هذا الدِّينِ من أربعٍ: دخولٌ في دعوة الإسلام، ولا بُدَّ من الإيمان، وتصديقُ بالله والمرسلين أولهم وآخرهم، وبالجنة والنَّار، والبعثُ بعد الموت، ولا بُدَّ من أن تعملَ عملاً تُصدِّقُ به إيمانك، ولا بُدَّ من أن تعلمَ علماً تُحسِّنُ به عملك، ثم قرأ: ﴿وَلِيْلِي لَغْفَارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]»<sup>(١)</sup>.

وقال بلال بن سعد: «عباد الرحمن! إنَّ العبدَ ليقولُ قولَ مؤمنٍ، فلا يدَّعه اللهُ وقوله حتى ينظرَ في عمله، وإنْ كانَ قوله قولَ مؤمنٍ، وعمله عملَ مؤمنٍ، لم يدَّعه اللهُ حتى ينظرَ في ورعه، فإنْ كانَ قوله قولَ مؤمنٍ، وعمله عملَ مؤمنٍ، وورعه ورعَ مؤمنٍ، لم يدَّعه اللهُ حتى ينظرَ ما نوى به، فإنْ صلحتِ النيَّةُ فبالحرِيِّ أنْ يصلحَ دونه، المؤمن يقولُ قولاً يُتبعُ قوله عمله، والمُنافق يقولُ بما يَعْرِفُ، ويعملُ بما يُنكرُ»<sup>(٢)</sup>.

وقال إبراهيم التيمي: «ما عَرَضْتُ قولي على عملي، إلَّا خشيتُ أن أكونَ مُكذِّباً!»<sup>(٣)</sup>.

وما جاء عن أئمة الهدى والدِّين في بيان حقيقة الإيمان لا تسعه آلاف الصفحات، وإنَّها المقصودُ انتقاء نُتفٍ تُنبئُ عمَّا وراءها.

فليت شعري! على أيِّ شيءٍ يعتمدُ أصحابُ دعوى (بياض القلب)! الذين يزعمون أنَّ الإيمانَ هو ما كان في القلبِ فقط، وأنَّه بذلك كاملُ الإيمان، ولا يَقْنَعُ

(١) رواه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (٣٦).

(٢) رواه البيهقي في «شُعَبُ الإيمان» (٩/ ١٨٢ - ١٨٣) رقم (٦٤٦٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (١٣/ ٤٣١).

بذلك حتى يُفْضَلَ نفسه على العاملين.

وإنَّما غَرَّ المسكينَ نجاحُهُ في وظيفَتِهِ، وصلاحُ دُنيائِهِ، ومكانتُهُ في قومِهِ، وشرفُهُ في أهلِهِ، وكونُهُ محبوبًا بين أقرانه وأصدقائه وأصحابِهِ، فظنَّ أَنَّهُ لا يضرُّهُ مع ذلك أن يزيي، أو يكذب، أو يذهب، أو يشرب الخمرَ، أو يشهد الزورَ، أو يسفك الدَّم الحرامَ، أو ينتهك الحُرِّماتِ بالعدوانِ أو النَّظَرِ، ويرى مع كلِّ ذلك أن تصديقه بأنَّ له ربًّا يكفيه ويُنجِيهِ! ثمَّ لا صلاةَ ولا صيامَ ولا زكاةَ ولا غيرَ ذلك ممَّا أمرَ الله به ورسولُهُ.

وغَرَّ المسكينَةَ الثَّناءُ على جَمالِها، وطاش بعقلِها الإعجابُ بشيائِها وزينَتِها، وأعمَّها لَمَعُ حُلِيِّها، فانطلقت لا تتحاشى من تكشُّفٍ، ولا تبرُّجٍ، ولا تَهْتِكٍ، ولا مُحالَطَةٍ للأجانبِ، ولا خَلوةٍ بهم، بل الرَّقْصُ والتَّكْسُّرُ والتَّلَوِّيُّ والتَّمايُلُ أمامَهُم على نحوٍ يحرِّمُهُ اللهُ أمامَ الوالِدَيْنِ، بل أمامَ النِّساءِ، بل قد تزيدُ على ذلك اللَّمَسَ والهُمَسَ، بل ما هو فوقَهُ من الفاحشَةِ ومقدِّماتِها! ما كانَ لها ربًّا شرَعَ لها ولأمثالِها سِتْرًا وعَقافًا، ولا كانَ لها نبيًّا سَنَّ لها ولأمثالِها فضيلَةً وحِياءً! وكلُّ ذلك مصحوبٌ بدعوى (بياضِ القلب).

فيا يَبِضُّ القلوبِ! تصدِّقونَ أنفُسَكُم التي غَرَّتْكُم، وشياطينَكُم التي أغَوَتْكُم؟ أم تصدِّقونَ رسولَكُم الذي أرسلَهُ اللهُ لرحمتِكُم وهدايَتِكُم ونَجاتِكُم؟ قال حذيفةُ بن اليمان - رضي اللهُ عنهما -، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «تُعَرِّضُ الفِتَنُ على القلوبِ كالْحَصِيرِ؛ عودًا عودًا، فأَيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِبَتْ فيه نُكْتَةٌ سوداءٌ، وأَيُّ قلبٍ أنْكَرَها نُكِبَتْ فيه نُكْتَةٌ بيضاءٌ، حتى تصيرَ على قَلْبَيْنِ، على أبيضَ مثلِ الصِّفا، فلا تضرُّهُ فتنةٌ ما دامت السَّمَوَاتُ والأَرْضُ، والآخِرُ أَسودُ

مَرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَحِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»<sup>(١)</sup>.

فها هو نبيُّكم يخبرُكم يا عبادَ الله! أنَّ من اجتنَبَ الفِتَنَ وَتَرَكَ المعاصي، وعودَ نفسه ذلك، فإنَّ الله يُعِينُ قلبه وَيُسِنْدُهُ حتى تصيرَ النَّجاةُ من الفِتْنَةِ وَحِبَائِلِ الشَّيْطَانِ عادةً له، لأنَّ قلبه سَاعَتِئذٍ فِي ثَبَاتِهِ أَمَامَ الوَسَاوِسِ وَصَلَابَتِهِ أَمَامَ البَاطِلِ كَالصَّفَا؛ أي: كَالصَّخْرَةِ الْمَلْسَاءِ الْبَيْضَاءِ، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ أَبَدًا حَتَّى يَلْقَى اللهُ بِهَذَا الْقَلْبِ السَّلِيمِ الْأَبْيَضِ، الَّذِي بَيَّضَتْهُ الطَّاعَةُ وَالتَّقْوَى.

وَأَمَّا مَنْ ارْتَكَبَ المعاصي، وَانْسَاقَ مع الفِتَنِ، وَانْتَمَعَ مع الشَّهَوَاتِ، وَتَقَلَّبَ عَلَى ظَهْرِهِ وَبَطْنِهِ فِي الْمَوَبَقَاتِ، فَأَتَى لَهُ أَنْ يَدَّعِيَ بَيَاضَ قَلْبِهِ! وَالرَّسُولُ ﷺ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِسَوَادِ قَلْبِهِ، فَقَلْبُهُ أَسْوَدُ مَرْبَادًّا، وَهُوَ لَوْ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْغُبَرَةِ، فَهُوَ أَسْوَدُ مُغْبَرٍّ كَلَوْنٍ مُعْظَمِ النَّعَامِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسْمِي النَّعَامَةَ (رَبْدَاءً).

لَكِنَّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُخَيَّفَ حَقًّا، هُوَ الْوَصْفُ الْآخَرُ مِنْ أَوْصَافِ هَذَا الْقَلْبِ الْأَسْوَدِ! فَاسْمَعُوا يَا بَيَّضَ الْقُلُوبِ وَتَأَمَّلُوا!

فَإِنَّ هَذَا الْقَلْبَ كَالْكُوزِ مُجَحِّيًا؛ أَي: كَالْإِبْرِيْقِ الْمَقْلُوبِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّكَ سَكَبْتَ الْبَحْرَ عَلَى إِبْرِيْقٍ مَقْلُوبٍ، هَلْ كَانَتْ تَدْخُلُهُ قَطْرَةً؟ هَلْ كَانَ يَنْتَفِعُ مِنَ الْبَحْرِ الْخِضَمُّ وَلَوْ بِمِثْلِ عَرَقِ النَّدَى؟ كَلَّا وَاللَّهِ! فَكَذَلِكَ هَذِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ تَقَلُّبِهَا فِي الْفِتَنِ وَالْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ، لَا تَعْلُقُ بِهَا حِكْمَةً، وَلَا يَدْخُلُهَا خَيْرٌ، وَلَا تَكْتَسِبُ فَضِيلَةً، إِلَّا مَا أُشْرِبَتْ مِنَ الْهَوَى!

(١) رواه مسلم (١٤٤).

أَفَرَأَيْتُمْ أَتَيْهَا الْمَسَاكِينَ! مَوَازِينَكُمْ وَفَلَسَفَاتِكُمْ الَّتِي بِهَا تَصَوِّبُونَ وَتُحْطِّتُونَ، وَتُخَفِّضُونَ وَتَرْفَعُونَ، وَتُقَدِّمُونَ وَتُؤَخِّرُونَ؟ فَإِنَّهَا لَيْسَ لَهَا اسْمٌ إِلَّا (الهُوَى)، الَّذِي مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ إِلَّا مَذْمُومًا مَحْدُورًا بَغِيضًا، كَمَا سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»<sup>(١)</sup>.

فَهُؤُلَاءِ عَمَدُوا إِلَى صُورِهِمْ وَظَوَاهِرِهِمْ فَجَمَّلُوهَا وَزَيَّنُوهَا إِلَى حَدِّ الْجَنُونِ وَالْهُوسِ! وَإِلَى أَمْوَالِهِمْ فَاسْتَكْثَرُوا مِنْهَا وَتَنَافَسُوا فِي جَمْعِهَا حَتَّى قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ، وَأَمَّا أَعْمَالُهُمْ الَّتِي يَنْظُرُ رَبُّهُمْ إِلَيْهَا فَلَمْ يَسْأَلُوا فِيهَا عَمَّا يَرْضَاهُ وَلَا عَمَّا يُسِخِطُهُ، وَأَمَّا قُلُوبُهُمْ فَكَذَبُوا فِيهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَادَّعَوْا سَلَامَتَهَا، ثُمَّ أَرَادُوا أَنْ يَرَاهَا رَبُّهُمْ كَمَا يَرَوْنَهَا! فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

قال ابن القيم - رحمه الله -:

«الْإِيمَانُ لَهُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، وَظَاهِرُهُ قَوْلُ اللِّسَانِ وَعَمَلُ الْجَوَارِحِ، وَبَاطِنُهُ تَصَدِيقُ الْقَلْبِ وَانْقِيَادُهُ وَمَحَبَّتُهُ، فَلَا يَنْفَعُ ظَاهِرٌ لَا بَاطِنَ لَهُ، وَإِنْ حَقَّنَ بِهِ الدِّمَاءَ وَعَصَمَ بِهِ السَّالَ وَالذُّرِّيَّةَ، وَلَا يَجْزِي بَاطِنٌ لَا ظَاهَرَ لَهُ، إِلَّا إِذَا تَعَدَّرَ بَعْجَزٍ أَوْ إِكْرَاهٍ وَخَوْفٍ هَلَاكِ».

فَتَخَلَّفُ الْعَمَلُ ظَاهِرًا مَعَ عَدَمِ السَّانِعِ دَلِيلٌ عَلَى فُسَادِ الْبَاطِنِ وَخُلُوهٍ مِنَ الْإِيمَانِ، وَنَقْصُهُ دَلِيلٌ نَقْصِهِ، وَقُوَّتُهُ دَلِيلُ قُوَّتِهِ.

فَالْإِيمَانُ قَلْبُ الْإِسْلَامِ وَوُجْهُهُ، وَالْيَقِينُ قَلْبُ الْإِيمَانِ وَوُجْهُهُ، وَكُلُّ عِلْمٍ

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤/٣٤).

وَعَمَلٍ لَا يَزِيدُ الْإِيمَانَ وَالْيَقِينَ قُوَّةً فَمَذْخُولٌ، وَكُلُّ إِيْمَانٍ لَا يَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ فَمَذْخُولٌ» (١).

فَتَبَجَّحُوا بِالسَّنِيَّتِكُمْ وَأَطْلِقُوهَا الْيَوْمَ تَنَافُحُ عَنْ جَوَارِحِكُمْ! فَإِنَّ لَهَا يَوْمًا تُسْأَلُ فِيهِ! وَتَقُومُ الْجَوَارِحُ الَّتِي اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا تَشْهَدُ عَلَيْكُمْ وَتَبَثُّ إِلَى اللَّهِ شِكَاوَهَا وَمُظْلَمِيَّتَهَا أَنْ رُكِّبَتْ عَلَى أَجْسَادِكُمْ أَثْيَا الْمَسَاكِينِ! ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٠) وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٣﴾ أَصَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ [يس: ٦٠ - ٦٥].

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا لِمَ جُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْ تُم عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوِيُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ٢٠ - ٢٣].

وهذا المذهبُ الباطلُ الذي أشرنا إليه هو في الحقيقة مذهبُ المرجئة، وهي طائفةٌ مبتدعةٌ ضالَّةٌ خارجةٌ عن الكتابِ والسُّنة، أكثرُها ضلالاً مَنْ قال: الإيمانُ هو معرفة القلب، ولا يضرُّ مع الإيمانِ ذنبٌ!

قال الحافظُ ابن حجر: «والمرجئة - بضم الميم، وكسر الجيم بعدها ياء مهموزة، ويجوز تشديدها بلا همز - تُسبَّوْا إلى الإرجاء، وهو التأخير، لأنَّهم أُخِّرُوا

الأعمال عن الإيمان، فقالوا: الإيمان هو التصديق بالقلب فقط! ولم يشترط جمهورهم النطق، وجعلوا للعصاة اسم الإيمان على الكمال، وقالوا: لا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ أصلاً! ومقالاتهم مشهورةٌ في كتب الأصول»<sup>(١)</sup>.

### التصوص الدالة على أنَّ الذنوب تُنقص الإيمان

قلتُ: فكيف يصنع هؤلاء، وكيف تصنع نُسخَتُهم المعاصرة - التي أشرنا إليها - بقول الرسول ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يتهبُّ هُبَّةً ذاتَ شَرَفٍ يرفعُ النَّاسُ إليه فيها أبصارَهُم وهو مؤمن»<sup>(٢)</sup>؟!

وقد اختصر الإمام النووي - رحمه الله - في تبويبه معنى هذا الحديث اختصاراً جميلاً، فقال: «بابُ بيانِ نقصانِ الإيمانِ بالمعاصي، ونفيه عن التلبسِ بالمعصية، على إرادة نفي كماله».

بمعنى: أنَّ هذا الحديث دليلٌ عظيمٌ على أنَّ من ارتكبَ هذه المعاصي فقد نقصَ إيمانهُ نقصاً عظيماً حتى كادَ يزولُ ويذهب، ولم يبقَ معه منه إلاَّ أقلُّ القليل. وكيف يصنعون بقوله ﷺ: «والله! لا يؤمن، والله! لا يؤمن، والله! لا يؤمن»، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمنُ جارهُ بوائِقَهُ»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١١٠).

(٢) رواه مسلم (٥٧)، ومعنى «يتهبُّ هُبَّةً ذاتَ شَرَفٍ»: يختلسُ ما لا عظيماً، يطمعُ النَّاسُ في مثله ويتشوّفون إليه، كما أكَّدَ على هذا المعنى بعد ذلك بقوله: «يرفعُ النَّاسُ إليه فيها أبصارَهُم». انظر: «النهاية» (٥/ ١٣٣).

(٣) رواه البخاري (٦٠١٦).

فها هو سوء الجوار، وهو عدم رعاية العشرة الحسنة للجار وهو مخلوق  
مثلك، يُنقص الإيمان هذا النقص، فكيف بحق الخالق؟!

وكيف يصنعون بقوله ﷺ: «سبأ المسلم فُسوقٌ، وقَتاله كُفْرٌ»<sup>(١)</sup>؟!

وبقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ قَيْدَ الْفَتْكِ، لَا يَفْتَكُ مُؤْمِنٌ»<sup>(٢)</sup>؟!

الفتك هو الغدر، وهو «أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ وَهُوَ غَارٌ غَافِلٌ، فَيَشُدُّ عَلَيْهِ  
فَيَقْتُلُهُ»<sup>(٣)</sup>، والإيمان يقيّد المؤمن عن فعل ذلك، ويمنعه منه، فمن فعله لم يكن  
مؤمنًا كامل الإيمان، بل نقص إيمانه بهذه الجريمة.

قال المنذري: «أَيُّ: أَنَّ الْإِيمَانَ يَمْنَعُ مِنَ الْقَتْلِ، كَمَا يَمْنَعُ الْقَيْدُ عَنِ التَّصَرُّفِ،  
فَكَأَنَّهُ جَعَلَ الْفَتْكَ مَقِيدًا»<sup>(٤)</sup>.

والشاهد أن مذهب المرجئة الذين يقولون: لا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ! مذمومٌ  
جداً، قد حكم القرآن والسنة بطلانه وانحرافه، وبذلك حكم عليه السلفُ  
الصالح، وأئمة الهدى من بعدهم، وكلُّ من اتَّبَعَهُمْ بإحسانٍ.

قال إبراهيم النخعي: «لَفِتْنَةُ الْمُرْجِئَةِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخَوْفٌ عِنْدِي مِنْ فِتْنَةِ  
الْأَزَارِقَةِ»<sup>(٥)</sup>.

---

(١) رواه البخاري (٤٨).

(٢) رواه أحمد (١/١٦٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٦٧٦، ٩٦٧٧)، وابن أبي شيبة  
(١٥/١٢٣، ٢٧٩)، وسنده صحيح.

(٣) «النهاية» (٣/٤٠٩)، و«مختصر سنن أبي داود» (٨٣/٤) للمنذري.

(٤) «مختصر سنن أبي داود» (٨٣/٤).

(٥) رواه الحلال في «السنة» (٣/٥٦٢ - ٥٦٣) رقم (٩٥١)، والأزارقة: أتباع نافع بن =

وقال: «تَرَكْتُ الْمُرْجِئَةَ الدِّينَ أَرْقَى مِنْ ثَوْبِ سَابِرِيٍّ»<sup>(١)</sup>.

وقال سفيان بن عيينة: «دِينٌ مُحَدَّثٌ دِينُ الْإِرْجَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال الأوزاعي: كان يحيى وقتادة يقولان: «ليس من الأهواء شيءٌ أخوفٌ عندهم على الأمة من الإرجاء»<sup>(٣)</sup>.

وقال سعيد بن جبير: «مَثَلُ الْمُرْجِئَةِ مَثَلُ الصَّابِئِينَ»<sup>(٤)</sup>.

وقال شريك - وذكر المرجئة -: «هم أخبث قوم، وحسبك الرافضة خُبْنًا، ولكنَّ المرجئة يكذبون الله»<sup>(٥)</sup><sup>(٦)</sup>.

ودخل محمد بن يوسف على سفيان الثوري - رحمه الله - وهو يقلِّبُ

---

= الأزرَق، فرقة من عتاة وغلاة الخوارج، لا بارك الله فيهم ولا في أتباعهم.

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٠٦١ / ٥) رقم (١٨٠٧).

قال القاضي في «مشارق الأنوار» (٢ / ٢٠٤): «قال ابن دريد: ثوبٌ سابريٌّ: رقيقٌ، وكلُّ رقيقٍ سابريٌّ، والسابريُّ من الذُّرُوعِ الرقيقة السَّهْلَةِ، وأصله سابورِيٌّ، منسوبٌ إلى سابور، فنقلَ عليهم فقالوا: سابريٌّ، قال ابن مكي: السابريُّ من الثياب: الرقيقُ الذي لا يسُّه بينَ العاري والمُكْتَسِي».

(٢) رواه الخلال في «السُّنَّة» (٥٦٣ / ٣) رقم (٩٥٢).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» (٣١٨ / ١) رقم (٦٤١).

(٤) رواه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٠٦٣ / ٥) رقم (١٨١٣).

(٥) قلت: كلاهما مُكْذَّبٌ والله! لكن المرجئة كذبوا بما في كتابه وسنة رسوله ﷺ، والرافضة زادوا على ذلك أن اختلقوا دينًا آخرَ فنسبوه إليه، وسمَّوه (الإسلام)! واتخذوا اثني عشرَ نبياً معصوماً بعد نبيِّه! نسأل الله العافية.

(٦) رواه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٠٦٦ / ٥) رقم (١٨٢٤).



المصحف؛ فقال: «ما أحد أبعد منه من المرجئة»<sup>(١)</sup>.

فمختصر القول أن الإيمان يزيد بالطاعة حتى يكتمل، إذا اكتمل للعبد أداء كل المطالب الشرعية الظاهرة والباطنة، كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وينقص بالمعصية، ويتناقص بالذنوب حتى يكاد يزول، بل يزول بالكلية إذا ارتكب الإنسان ما ينقصه ويضاده من جميع الوجوه سواء بالأقوال أو الأعمال، كأن يشرك بالله، أو يححد ألوهيته وربوبيته، أو يسبه أو يسب دينه أو رسوله ﷺ، أو يسجد لصنم، أو يلقي القرآن الكريم في القاذورات، وما شابهه.

وما أجمل عبارة الإمام ابن بطّة العُكْبَرِي في «الإبانة الصغرى» (ص ١١٧ وما بعدها)، إذ يقول:

«ونحن الآن ذاكرون شرح السنة ووصفها وما هي في نفسها، وما الذي إذا تمسك به العبد ودان الله به سمي بها، واستحق الدخول في جملة أهلها، وما إن خالفه أو شيئاً منه، دخل في جملة من عبثه، وذكرناه، وحذرنا منه من أهل البدع والزيف، مما أجمع على شرحنا له أهل الإسلام، وسائر الأمة منذ بعث الله نبيه ﷺ إلى وقتنا هذا.

فأول ما نبدأ بذكره من ذلك: ذكر ما افترض الله - عز وجل - على عباده، وبعث به رسوله ﷺ، وأنزل فيه كتابه، وهو الإيمان بالله - عز وجل -.

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٠٦٧/٥) رقم (١٨٢٩).

ومعناه: التصديق بما قاله، وأمر به، وافترضه، ونهى عنه، من كل ما جاء به الرُّسُل من عنده، ونزلت فيه الكُتُب، وبذلك أرسل المرسلين، فقال - عز وجل -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والتَّصْدِيقُ بذلك: قولٌ باللسان، وتَصْدِيقٌ بالجان، وعَمَلٌ بالأركان، يزيدُه كثرةُ العمل والقول بالإحسان، وله أوَّلٌ وبدايةٌ، ثمَّ ارتقاءٌ وزيادةٌ بلا نهاية.

ومن زعم أنَّ الإيمانَ في القلبِ فقط، لا تزيده طاعةٌ ولا تُنقصه معصية، فيُطرحُ عليه السؤال الذي طرحه الإمامُ وكيعُ بن الجراح - رحمه الله -: «تري إيمانَ الحجاجِ مثلَ إيمانِ أبي بكرٍ وعُمَر - رحمهما الله -؟!»<sup>(١)</sup>.

وهذا المعنى هو عينُ ما وضَّحه شيخنا الإمامُ الألباني - رحمه الله -، فقال: «لهذا أنا أقول اليوم، لا فائدة مطلقاً من تكتيل المسلمين ومن تجميعهم على تركهم في ضلالهم، في بُعدهم عن فهم هذه الكلمة الطيبة<sup>(٢)</sup>، وذلك لا يفيدهم في الدنيا قبل الآخرة، نحن نعلمُ جميعاً أنَّ قولَ النبي ﷺ: «من مات وهو يشهد أنَّ لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه، حرَّم الله بدنه على النار»، وفي أحاديث أخرى: «دخل الجنة»<sup>(٣)</sup>، فلا يمكنُ ضمانُ دخولِ الجنة، ولو بعد لأيٍّ، ولو بعد عذابٍ يمسُّ القائل والمُعْتَقَد الاعتقادَ الصحيح لهذه الكلمة، فإنَّ هذا قد يعاقب بناءً على ما

(١) رواه الخلال في «السُّنَّة» (٥٨٨/٣) رقم (١٠٣٠).

(٢) أي: لا إله إلا الله.

(٣) أخرجه شيخنا الألباني في «الصحيحة» برقم (١٣١٤).

ارتكب واجترَحَ من المعاصي والآثام، ولكن سيكون مصيره دخول الجنة.

وعلى العكس من ذلك، من قال هذه الكلمة الطيبة بلسانه وكمًا يدخل الإيمان إلى قلبه، فذلك لا يُفيدُه شيئًا في الآخرة، قد يفيدُه في الدنيا النجاة من القتال ومن القتل، أمّا في الآخرة فلا يفيدُه شيئًا، إلا إذا قالها فاهمًا لمعناها أوّلاً، ومعتقداً لهذا المعنى، لأنّ الفهمَ والمعرفةَ وحدها لا يكفي، إلا إذا اقترنا مع الفهم والإيمان بهذا المفهوم.

وهذه النقطة أظنُّ أنّ كثيراً من الناس عنها غافلون، وهي: لا يلزم من الفهم الإيمان، لا بدّ أن يقترن كلّ من الأمرين مع الآخر حتى يكون مؤمناً، ذلك لأنكم تعلمون - إن شاء الله - أنّ كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يعرفون أنّ محمداً - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - رسولٌ صادقٌ فيما يدّعيه من الرسالة والنبوة، ولكن مع ذلك؛ أي: مع هذه المعرفة التي شهد لهم بها ربنا - تبارك وتعالى - حين قال: ﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ومع ذلك فهذه المعرفة ما أغنتهم شيئاً، لماذا؟ لأنهم لم يصدّقوه فيما عرفوا منه من ادعائه النبوة والرسالة.

ولذلك الإيمان يسبقه المعرفة، ولا تكفي وحدها، لا بدّ أن يقترن معها الإيمان، فإذا قال المسلم: (لا إله إلا الله) بلسانه، فعليه أن يضمَّ إلى ذلك معرفةً معنى هذه الكلمة بإيجازٍ ثمَّ بالتفصيل، فإذا عرفَ وصدّقَ وآمنَ فهو الذي يصدّقُ عليه تلك الأحاديث التي ذكرتُ بعضها آنفاً، ومنها قوله - عليه الصلاة والسلام - مشيراً إلى شيءٍ من التفصيل الذي ذكرته آنفاً، ألا وهو قوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «من قال لا إله إلا الله، نفعتُهُ يوماً من دهره»<sup>(١)</sup>؛ أي:

---

(١) أخرجه شيخنا الألباني في «الصحيحة» برقم (١٩٣٢).

كانت هذه الكلمة الطيبة بعد معرفة معناها - وهذا أكرره لكي ترسخ في الأذهان - بعد معرفة معناها والإيمان بهذا المعنى الصحيح، ولكنه قد لا يكون قام بمقتضياتها وبلوازمها من العمل الصالح والانتفاء عن المعاصي، فقد يدخل النار كجزاء لما فعل وارتكب من معاصي وأخلَّ ببعض الواجبات، ثم تنجيه هذه الكلمة الطيبة، هذا معنى قوله - عليه السلام -: «من قال لا إله إلا الله، نفَعَتْهُ يومًا من دهره»، أمّا من قالها بلسانه ولم يفقه معناها، أو فقه معناها ولكنه لم يؤمن بهذا المعنى، فهذا لا ينفعه قوله: (لا إله إلا الله) إلّا هنا في العاجلة، وليس في الآجلة»<sup>(١)</sup>.




---

(١) من شريط (التوحيد أولاً يا دعاة الإسلام).

## أثر الذنوب على طلب العلم

إنَّ من عجائب أقدارِ الله - تعالى - وألوانِ حكمته وعزَّته، ملابسةَ المعاصي ممَّن أوتي علمًا كافيًا ليردَّعه عنها، ويصِّره بعواقبها، ويزجره عن الوقوع في شرك الشيطان، لا سيما إذا انضمَّ إلى ذلك أن يكون طالبٌ علمٍ يدعو إلى الله، وله في ذلك بلاءٌ حسنٌ، ونفعٌ للخلق، بل قد يكونُ تاب على يديه العصاة، وآمن الكُفَّار، وأقرَّ الجاحد، وثابَّ إلى رُشدِه المارق، ثمَّ هو مع ذلك لا يقدرُ على منع نفسه من ذنوب الخلوات، ومعاقرة السيئات!

وليس المقصودُ لَمَ الذنوبِ التي لا يسلمُ منها أحدٌ، وإنَّما الإدمانُ على الذنوب واعتيادُها، والإصرارُ عليها وتكرارها، فإنَّ هذا خطرُه عظيم، وأوَّل ما يُهدِّدُ به المتلبِّسُ به سَلْبُ العلم، وفسادُ العقل، وأن يُردَّ إلى دركاتِ السُّفهاء والحمقى وضيَعافِ العقول، ولا يجتني - ساعتئذٍ - من علمِه سوى الخسران.

قال سفيان الثوري - رحمه الله -: «إنَّما يُطلب الحديثُ ليُتَّقَى به الله - عز وجل -، فلذلك فُضِّل على غيره من العلوم، ولولا ذلك كان كسائر الأشياء»<sup>(١)</sup>.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١١٥٢، ١١٥٩) وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٣٦٢ / ٦) وسنده حسن.

قال ابن القيم - رحمه الله - :

«فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار؛ ويتخلف العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة، ويبعث ساهياً غافلاً لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أهبة؟!

قيل: هذا - لعمر الله! - سؤال صحيح، واردٌ على أكثر هذا الخلق، واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء.

وهذا التخلف له عدة أسباب:

أحدها: ضعف العلم، ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقله من أفسد الأقوال وأبطلها، وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يرّيه إحياء الموتى عياناً، بعد علمه بقدرة الرب على ذلك، ليزداد طمأنينةً ويصير المعلوم عيياً شهادةً، وقد روى أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس الخبر كالمُعَايَنَةِ»<sup>(١)</sup>.

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره، أو غيبته عن القلب كثيراً من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحُب العاجلة، ورخص التأويل<sup>(٢)</sup>، وإلف

---

(١) رواه أحمد (٢١٥/١) عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -، وسنده صحيح.

(٢) وجدت هذا عند عدد من طلبة العلم المعروفين؛ يتوسعون في الأخبار، ويكثرون من المجاملات، ويحرصون على اللباقة التي مآلها إلى عدم كياسة، وفيها توسيع للطعن بأهل الفضل والعلم، والوقوع في المخالفات، وإن روجعوا؛ فالعبارات فضفاضة، والتأويلات واسعة، وكأنهم ينسون أن المطلع عليهم يعلم السر وأخفى!

الْعَوَائِدُ؛ فَهُنَاكَ لَا يُمَسِّكُ الْإِيْمَانَ فِي الْقَلْبِ إِلَّا الَّذِي يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
أَنْ تَزُولَا.

وبهذا السَّبَبِ يَتَفَاوَتُ النَّاسُ فِي الْإِيْمَانِ وَالْأَعْمَالِ، حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى أَدْنَى  
أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْقَلْبِ، وَجَمَاعُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ يَرْجِعُ إِلَى ضَعْفِ الْبَصِيرَةِ  
وَالصَّبْرِ، وَلِهَذَا مَدَحَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - أَهْلَ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً فِي الدِّينِ،  
فَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا  
يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] <sup>(١)</sup>.

فَإِذَا ذَهَبَتِ الْبَصِيرَةُ، وَضَعُفَ النَّظَرُ فِي الْعَوَاقِبِ، وَكَلَّتْ سَيْقَانُ الصَّبْرِ عَنْ  
حَمْلِ صَاحِبِهَا، فَلَا يَكُونُ الْعِلْمُ - سَاعَتِيذٍ - عَاصِمًا، وَإِنَّمَا يَكُونُ جِنَايَةً عَلَى حَامِلِهِ،  
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

الْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِي إِفْضَاءِ الْمَعَاصِي إِلَى سَلْبِ الْعِلْمِ:

قَالَ الزُّهْرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «إِنَّ لِلْعِلْمِ غَوَائِلَ، فَمِنْ غَوَائِلِهِ: أَنْ يَتْرُكَ الْعَالِمَ  
حَتَّى يُذْهَبَ بِعِلْمِهِ، وَمِنْ غَوَائِلِهِ: النِّسْيَانُ، وَمِنْ غَوَائِلِهِ: الْكَذِبُ فِيهِ؛ وَهُوَ شَرُّ  
غَوَائِلِهِ» <sup>(٢)</sup>.

عَنْ ابْنِ وَهْبٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ وَغَيْرُهُ أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ، قَالَ لِكَعْبٍ:  
مَا يَنْفِي الْعِلْمَ عَنْ صُدُورِ الْعِلْمَاءِ بَعْدَ أَنْ يَعْلَمُوهُ؟ قَالَ: «الطَّمَعُ» <sup>(٣)</sup>.

(١) «الجواب الكافي» (ص ٨٣ - ٨٥).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢١٣).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٣٢٢).

وقال الحسن بن صالح: «إِنَّكَ لَا تَفْقَهُ حَتَّى لَا تُبَالِي فِي يَدَيَّ مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا»<sup>(١)</sup>.

فجعلَ الاهتمامَ بالدُّنْيَا وصرفَ القلبِ إليها من موانعِ الفقه، والحوائلِ بينه وبين القلب، ومن غوائلِ العلمِ التي أشارَ إليها الإمامُ الزُّهريُّ - رحمه الله - .  
ولا ريبَ أنَّ المعاصي الصريحةَ ومبارزةَ الله - تعالى - بها هي مهالكُ العلمِ، ومقابرُ الإرادة، ومَهَاوِي الْوَرَعِ والفضائلِ.

قال عليُّ بنُ خَشْرَمٍ: رَأَيْتُ وَكَيْعًا، وَمَا رَأَيْتُ بِيَدِهِ كِتَابًا قَطُّ! إِنَّمَا هُوَ حَفِظٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ أَدْوِيَةِ الْحَفِظِ؛ فَقَالَ: إِنْ عَلَّمْتُكَ الدَّوَاءَ؛ اسْتَعْمَلْتَهُ؟ قُلْتُ: إِي وَاللَّهِ! قَالَ: «تَرَكُ الْمَعَاصِي، مَا جَرَّبْتُ مِثْلَهُ لِلْحَفِظِ»<sup>(٢)</sup>.

قلت: نعم؛ ودواء الحفظ في:

- سؤال الله من فضله، والتقرب إليه بالطاعة.
- وفي إدامة النظر وتكرار قراءة الكتاب الواحد.
- وفي مذاكرة ومراجعة أهل العلم والمعرفة به.
- وقد قيل: مذاكرة حاذق في الفن ساعة أنفع من المطالعة ساعات، بل أيام.
- وقال عليُّ بنُ المَدِينِيِّ: لَمَّا وَدَّعْتُ سَفِيَانًا قَالَ: «أَمَّا إِنَّكَ سَتُبْتَكَ بِهَذَا الْأَمْرِ، وَإِنَّ النَّاسَ سَيَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَلْتَحْسُنْ نِيَّتَكَ فِيهِ»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/٣٤٢).

(٢) «تهذيب الكمال» (٣٠/٤٨٠).

(٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/٢٥٧).



وقال يحيى بن يحيى: سأل رجل مالك بن أنس: يا أبا عبد الله! هل يصلح لهذا الحفظ شيء؟ قال: «إن كان يصلح له شيء؛ فترك المعاصي»<sup>(١)</sup>.

ولذا قال مالك - رحمه الله - للشافعي في أول لقاء بينهما، وكان الشافعي في منزلة التلميذ له: «إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية»<sup>(٢)</sup>.

وقد عدَّ العلامة أبو حامد الغزالي - رحمه الله - الحجب المانعة من إشراق أنوار القرآن على القلب، والحائلة بينه وبين سطوع شمس الهداية عليه، فجعل ثالثها ما يصيب القلب من صداد الشهوات، فقال:

«أن يكون مُصرّاً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالحبث على المرأة فيمنع جليته الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حجب الأكثرون.

وكلما كانت الشهوات أشد تراكمًا، كلما كانت معاني الكلام أشد احتجابًا، وكلما خفَّ عن القلب أثقال الدنيا؛ قُرب تجلّي المعنى فيه، فالقلب مثل المرأة، والشهوات مثل الصدا، ومعاني القرآن مثل الصور التي تراءى في المرأة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات، مثل تصقيل الجلاء للمرأة»<sup>(٣)</sup>.

والذي لا نشك فيه تجاه علوم السلف الصالح كلها أنّها من مشكاة القرآن والسنة.

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/٢٥٨).

(٢) رواه البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/١٠٣ - ١٠٤).

(٣) «إحياء علوم الدين» (١/٢٨٤).

فقد جاء عن الضحَّاك بن مزاحم - رحمه الله - أنه قال: «ما نعلمُ أحدًا حَفِظَ القرآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ إِلَّا بَذَنِبَ»، ثُمَّ قرَأ: ﴿وَمَا أَصْبَحَ مِنْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] ثُمَّ قال: «وأيُّ مصيبةٍ أعظمُ من نسيانِ القرآنِ؟!»<sup>(١)</sup>.

وهذه الآثار تشهدُ لها عُموماتٌ كثيرةٌ من كتاب الله - تعالى -؛ كقوله - سبحانه - : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وقوله - تعالى - : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله - تبارك اسمه - : ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، ونحو ذلك من الآيات.

بل قد حفظَ لنا تاريخُ أئمتنا عنهم أنهم طبَّقوا هذا النظرَ الجليلَ في الرِّبْطِ بين (التقوى) و(سلامة العلم) تطبيقًا عمليًّا في إرشاداتهم ودلائلهم على أهل الخير، فقد روى المروزي - رحمه الله - في كتاب «الورع» عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه قيل له: مَنْ نَسَأَ بعدك؟ قال: سَلْ عبد الوهَّابَ الوراق. فقيل: ليس له اتِّسَاعٌ في العلم! فقال أبو عبد الله: «إنَّه رجلٌ صالحٌ، مثله يُوفَّقُ لإصابةِ الحقِّ»<sup>(٢)</sup>.

قلتُ: وهذا من تمام رعايةِ قوله - تعالى - : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ في النَّفْسِ وفي الغير.

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٢٧٩ / ١٠)، وابن أبي شيبة في «المصنَّف» (٤٧٨ / ١٠)، والبيهقي في «شُعَب الإيمان» (٣٣٤ / ٢) رقم (١٩٦٥).

(٢) «الورع» (ص ٥).

وقال الحسن البصري - أيضاً - : «عقوبة العالم موت القلب». قيل له: وما موت القلب؟ قال: «طلب الدنيا بعمل الآخرة»<sup>(١)</sup>.

وقال - رحمه الله - : «مَنْ أفرطَ في حُبِّ الدُّنيا ذهبَ خوفُ الآخرةِ من قلبه، ومن ازدادَ علماً ثمَّ ازدادَ على الدُّنيا حرصاً، لم يزد من الله إلا بُغْضاً، ولم يزد من الدنيا إلا بُعْداً»<sup>(٢)</sup>.

فهذا جزاء حامل العلم الفاسق، يطمس الله على قلبه حتى ينسى من العلم روحه وحياته والمقصد الذي من أجله يُطلب، وهو النجاة في الآخرة، فيرتكس في فتنه ومعصيته حتى ييذل علمه في مقابل متاع الدنيا ومحقرات نزواتها وشهواتها.

ومن عظيم العبر التي قصّها علينا ربنا - تبارك وتعالى -؛ خبر الذي آتاه الله العلم فنبذه وراء ظهره، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه.

قال - تعالى - : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا فَٱتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْفَٰوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ ءَخَلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَٱمْلَأْهُ مِمَّا يَلْتَمِسُ ۖ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن مَّحِمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا فَٱقْصُصْ ٱلْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

فتأمل! كيف تردى هذا الذي كان عالماً مليئاً في دركات الرذيلة، وسدت دونه مداخل الطاعة ومسالك الفضيلة، فأخلد إلى أرض البطالة، لَمَّا انسلخ من

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/٣٤٧).

(٢) المرجع نفسه.

العلم النافع اختيارًا وطوعًا، واستحبَّ العمى على الهدى، فألت حاله إلى أن يُشبَّه بالكلب! والله المستعان.

فمعنى الانسلاخ من الآيات: الإقلاع عن العمل بما تقتضيه.

قال العلامة ابن عاشور: «ورُتبت أفعال الانسلاخ، والاتباع، والكون من الغاوين، بفاء العطف على حسب ترتيبها في الحصول، فإنه لما عاند ولم يعمل بما هداه الله إليه؛ حصلت في نفسه ظلمة شيطانية مكنت الشيطان من استخدايمه وإدامة إضلاله، فالانسلاخ عن الآيات أثر من وسوسة الشيطان، وإذا أطاع المرء الوسوسة تمكن الشيطان من مقادير، فسخره وأدام إضلاله، وهو المعبّر عنه بـ (أُتبعه)، فصار بذلك في زمرة الغواة المتمكّنين من الغواية»<sup>(١)</sup>.

قال صاحب المنار: «ترتّب على انسلاخه منها باختياره أن لحقه الشيطان، فأدركه وتمكّن من الوسوسة له، إذ لم يبق لديه من نور العلم والبصيرة ما يحول دون قبول وسوسته، وأعقب ذلك أن صار من الغاوين؛ أي الفاسدين المفسدين»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن القيم - رحمه الله -: «فأخبر - سبحانه - أن الرّفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره، وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع»<sup>(٣)</sup>.

(١) «التحرير والتنوير» (١٧٦/٩)

(٢) «تفسير المنار» (٣٤٠/٩)

(٣) «إعلام الموقعين» (٢/٢٩٢ - بتحقيقي).

ولابن الجوزي - رحمه الله - توجيهُ مهمٌ، وَتَبَشُّ عميقٌ في الأَرْضِيَّاتِ التي قد يَدْهَمُهَا وسواسُ الشَّيْطَانِ في نفسِ طَالِبِ العِلْمِ، فيغزل له ثوبَ هَلَاكِهَ منها؛ فيقول:

«إِنَّ أَقْوَامًا عَلَتْ هِمَمُهُمْ فَحَصَّلُوا عِلْمَ الشَّرْعِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَالْفَقْهِ وَالْأَدَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَأَتَاهُمُ إِبْلِيسُ يُخْفِي التَّلْبِيسَ، فَأَرَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِعَيْنٍ عَظِيمَةٍ لِمَا نَالُوا وَأَفَادُوا غَيْرَهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَفْزُهُ لَطُولُ عَنَائِهِ فِي الطَّلَبِ، فَحَسَّنَ لَهُ اللَّذَاتِ، وَقَالَ لَهُ: إِلَى مَتَى هَذَا التَّعَبُ؟ فَأَرِخَ جَوَارِحَكَ مِنْ كُلِّ التَّكَالُفِ، وَأَفْسَحْ لِنَفْسِكَ مِنْ مَشْتَهَاها، فَإِنْ وَقَعَتْ فِي زَلَّةٍ فَالْعِلْمُ يَدْفَعُ عَنْكَ الْعُقُوبَةَ، وَأُورِدَ عَلَيْهِ فَضْلَ الْعِلْمَاءِ، فَإِنْ خُذِلَ هَذَا الْعَبْدُ وَقَبِلَ هَذَا التَّلْبِيسَ يَهْلِكُ، وَإِنْ وَفَّقَ؛ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقُولَ: جَوَابُكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ إِنَّمَا فَضَّلَ الْعِلْمَاءُ بِالْعَمَلِ، وَلَوْ لَا الْعَمَلُ بِهِ مَا كَانَ لَهُ مَعْنَى، وَإِذَا لَمْ أَعْمَلْ بِهِ كُنْتُ كَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ الْمَقْصُودَ بِهِ، وَيَصِيرُ مِثْلِي كَمِثْلِ رَجُلٍ جَمَعَ الطَّعَامَ وَأَطْعَمَ الْحَيَاءَ وَلَمْ يَأْكُلْ، فَلَمْ يَنْفَعِهِ ذَلِكَ مِنْ جُوعِهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَعَارِضَهُ بِمَا وَرَدَ فِي ذِمِّ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِالْعِلْمِ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ»<sup>(١)</sup>، وَحِكَايَتِهِ ﷺ عَنْ رَجُلٍ يُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ، يَقُولُ: كُنْتُ أَمُرُّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ<sup>(٢)</sup>، وَقَوْلِ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «وَيْلٌ لِمَنْ يَعْلَمُ مَرَّةً، وَوَيْلٌ لِمَنْ عِلْمُ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٥٠٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٧٨)، وسنده ضعيفٌ جداً. انظر: «الضعيفة» (١٦٣٤) لشيخنا الألباني - رحمه الله تعالى - .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٢) من حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - .

ولم يعمل سبع مرّات»<sup>(١)</sup>.

والثالث: أن يذكر له عقاب من هلك من العلماء التاركين للعمل بالعلم، كإبليس، وبلعام، ويكفي في ذم العالم إذا لم يعمل قوله - تعالى -: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾<sup>(٢)</sup>.

قال ابن قدامة - رحمه الله -: «فأما علمُ المعاملة؛ وهو علم أحوال القلب، كالخوف، والرجاء، والرضا، والصدق، والإخلاص وغير ذلك، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء، وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم؛ كسفيان، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

وإنما انحطت رتبة المُسمَّينَ بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات، لتشاغلهم بصورة العلم من غير أخذٍ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه، وتعمل بخفائيه»<sup>(٣)</sup>.

فحسبك أخي طالب العلم قول ربك - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال العلامة محمد رشيد رضا: «هذا، وإنَّ الفرقانَ في اللُّغة هو الصُّبح الذي يفرق بين الليل والنهار، ويسمَّى القرآنُ فرقانًا؛ لأنَّه كالصُّبح يفرِّق بين الحق والباطل، وتقوى الله - تعالى - في الأمورِ كلّها تعطي صاحبها نورًا يفرِّق به بين دقائق الشُّبُهَاتِ التي لا يعلمُهنَّ كثيرٌ من النَّاسِ، فهي تفيده علمًا خاصًا

(١) أخرجه بنحوه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (رقم ٦٧).

(٢) «تلبس إبليس» (ص ١١٥ - ١١٦).

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٨).

لم يَكُنْ ليهتدي إليه لولاها.

وهذا العلم الذي هو غير العلم الذي يتوقف على التلقين، كالشرع أصوله وفروعه، وهو ما لا تتحقق التقوى بدونه؛ لأنها عبارة عن العمل - فعلاً وتركاً - بعلم، فالعلم الذي هو أصل التقوى وسببها لا يكون إلا بالتعلم كما ورد في الحديث: «العلم بالتعلم»<sup>(١)</sup>.

والعلم الذي هو فرعها وثمرتها، هو ما تفتن له النفس بعد، فيفيدها الرُّسُوحُ في العلم الأول بالعمل به، فإنَّ العلم يكون في النفس مجَمَلًا مُبْهَمًا حتى يُعْمَلَ به، فإذا عُمِلَ به صار مفصلاً جلياً راسخاً تتبين به الدقائق والخفايا، وبذلك تفتن نفس العامل إلى مسائل أخرى تطلبها بالتجربة والبحث حتى تصل إليها، كما يعرف كل واقف على ترقِّي العلوم الطَّبيعية في الأنفس والأشياء»<sup>(٢)</sup>.

فيا طالب العلم! إِيَّاكَ والغرور، إِيَّاكَ والأُمَانِيَّ، إِيَّاكَ والاستخفاف بخطوات الشيطان ومداخله عليك، فلا يَغْرَتَكَ بأنَّ لك سابقةً وفضلاً يقومان بَتَبَعَاتِ سَيِّئَاتِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِتَبَعَاتِهَا إِلَّا التَّوْبَةُ النَّصُوحُ، واعتياد الخير والطَّاعة حتى يصير سَجِيَّةً ثَابِتَةً لَكَ، فالخير عادة، والشرُّ لِحَاجَةٍ، والهلاكُ كُلُّ الهلاكِ في طولِ الاغترارِ بِالرَّحْمَةِ، والإصرار على الذَّنْبِ.

قيل للحسن البصري - رحمه الله -: نراك طويل البكاء! فقال: «أخافُ أن يطرحني في النَّارِ ولا يُبَالِي»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) علَّقَه البخاري تحت باب (العلم قبل القول والعمل)، وانظر تحريجه في «الصحيحة» (٣٤٢).

(٢) «تفسير المنار» (١٠٨/٣).

(٣) «صفة الصَّفة» (١١٧/٢).

فلتسجد القلوب بين يدي الله سجدة لا تقوم منها إلا على نداء المحشر،  
لتنعم بعد ذلك بالنعيم المقيم، وقانا الله الشهوات والشبهات، وثبتنا على طاعته  
ومراضيه.

عن عبد الواحد بن زيد قال: «خرجتُ إلى ناحية الحُرَيْبَةِ، فإذا أسودُّ  
مجذومٌ قد تَقَطَّعَتْ كُلُّ جَارِحَةٍ لَهُ بِالْجُدَامِ، وَعَمِيَ، وَأُقْعِدَ، وإذا هو يزحفُ، وإذا  
صبيانٌ يرمونه بالحجارة حتى رموا وجهه، فرأيتُهُ يَحْرُكُ شَفَتَيْهِ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ لِأَسْمَعَ  
مَا يَقُولُ، فإذا هو يقول:

يا سيدي! إِنَّكَ لَوْ قَرَضْتَ لِحْمِي بِالْمَقَارِيطِ، وَنَسَرْتَ عَظْمِي بِالْمَنَاشِيرِ،  
مَا أَزْدَدْتُ لَكَ إِلَّا حُبًّا، فَاصْنَعْ بِي مَا شِئْتَ».

وهكذا فليكن الثَّباتُ<sup>(١)</sup>.

نسأل الله من فضله.

ومن الجدير بالذكر أنَّ من أسبابِ ذهابِ العلمِ كتمانُهُ، وتركُ نشرِهِ وتعليمِهِ  
والقيام بحَقِّهِ، فقد وردَ في تعظيمِ هذه الوظيفةِ والتغليظِ على من تركها ما ليسَ  
من الغرضِ التَّعَرُّضُ لَهُ، ويكفي في ذلك قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا  
أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ  
وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعَنُونَ ﴿١٦١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا  
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠]، وما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن  
النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أَلْجَمَهُ اللَّهُ - عز وجل - بِلْجَامٍ مِنْ

---

(١) وانظر قصة مؤثرة جدًا في «ثقات ابن حبان» (٥/٢ - ٥) في ترجمة التابعي الجليل (أبي قلابه  
عبدالله بن زيد الجرهمي).



نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

والذي يعيننا هُنَا إدراكُ أَنَّ من عقوباتِ التفریطِ في تعليمِ العلمِ: نسيانُهُ وضياعُهُ، قال العلامة السَّفَّاريني: «فمن خَزَنَ علمه ولم ينشُرْه، ابتلاه الله بنسيانه، جزاءً وَفَاقًا»<sup>(٢)</sup>.

وكلُّ شيءٍ إذا أنفقتَ منه فَإِنَّه ينقصُ إِلَّا العلمَ، فإذا بذلَه صاحِبُه ونشَرَه فَإِنَّه يزد.



---

(١) رواه أحمد (٣٤٤ / ٢)، وسنده صحيح.

(٢) «غذاء الألباب» (٤٤ / ١).

## أثر الذنوب على مناحي الحياة الأخرى

لا يمكن أن تحيط بهذا الموضوع محاضرة، ولكن لابد أن نتوسّم بعض ما ورد في الشرع من نصوصٍ ومن قصصٍ قصّها الله - تعالى - عن أقوامٍ كانوا قبلنا. الذنوب لها أثر ليس على فاعليها فقط، فصحيحٌ أن هناك ذنوبٌ شخصية يتوب الله على صاحبها، وهناك ذنوب جماعية لها أثر على المجتمع. وللاطلاع على بعض آثارها على الناس، وإفسادها لأنماط معيشتهم، وإضرارها بهم، وشؤمها عليهم، وظلمتها في قلوبهم، فتأمّل معي هذه المسألة هذا الحديث العظيم.

### \* حديثٌ عظيمٌ في نتائج المعاصي:

يقول نبيُّنا ﷺ: «يا معشر المهاجرين! خمسٌ إذا ابتليتُم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قومٍ قطُّ حتى يعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطّاعونُ والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان؛ إلا أخذوا بالسّنين، وشدة المئونة، وجور السُّلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم؛ إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله؛ إلا سَلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم

تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله؛ إلا جعل الله بأسهم بينهم»<sup>(١)</sup>.  
الذنوب على أنواع وأقسام، وكل نوع من أنواع هذه الذنوب له أثر على  
جانبٍ من جوانب الحياة.



---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩) وغيره عن عبد الله بن عمر، وإسناده جيّد.

## آثار الزنا

النبي ﷺ يقول: «لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا؛ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَشَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ».

والله! هذه القطعة من الحديث تصلح أن تكتب في المستشفيات، وأن تكون شعارًا لوزارة الصحة، حتى نحصن الناس من الأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم.

لأجل ذلك علينا أن نحارب ظهور المعصية، وأن نبثَّ حراس حياتنا وسياجها: العقيدة الصحيحة والفضيلة.

قال: «يا معشر المهاجرين! خمسٌ إذا ابتليتم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا».

الإعلان بالفاحشة أشدُّ من الفاحشة، فمعناه أن الفاحشة تجاوزت كونها ذنبًا شخصيًا، وأصبحت ذنبًا يقوم به جمعٌ كبيرٌ من أفراد المجتمع، ولذا كان حصادها عامًا.

قال: «إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَشَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ».

الأمراض والأوجاع بسبب الذنوب تصيب جميع الناس، ولذا ربُّنا يقول:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

لما انتشر الطاعون في سنة إحدى وأربعين وسبع مئة، سأل السلطان من حضره من الفقهاء والقضاة يوم ختم قراءة «صحيح البخاري»<sup>(١)</sup> في أخريات رمضان عن الذنوب التي إذا ارتكبتها الناس عوقبوا بالطاعون؛ فذكر بعضهم أن الطاعون عقوبة الزنا، وأتبع ذلك على أن النساء يمشين في الأسواق متزيّنات، فأشار آخر بمنعهنّ من الخروج من بيوتهنّ، فظنّ السلطان أنه إذا فعل ذلك ارتفع الوباء، فمنعهنّ وتشدّد في ذلك؛ فامتنعن حتى لم ير بشوارع القاهرة امرأة؛ فتزل بالأرامل، وذوات الأسباب، ومن لا قيّم لها، ومن تطوف تسأل الناس: بلاءٌ كبير، وتعلّلت الأسواق لبوار عدة بضائع لا تُنفق إلا على النساء<sup>(٢)</sup>.

أخرج البيهقي في «الشعب»<sup>(٣)</sup> عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: إِنَّ الظَّالِمَ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «بَلَى وَاللَّهِ! حَتَّى الْحَبَارَى لَتَمُوتُ فِي وَكْرِهَا هُزًّا لَا لِظُلْمِ الظَّالِمِ».

وروى البخاري<sup>(٤)</sup> من حديث أبي قتادة الحارث بن ربعي - رضي الله عنه - أَنَّهُ كَانَ يَحْدُثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ، فَقَالَ: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاخُ مِنْهُ؟ قَالَ: «الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ

---

(١) كان يُقرأ «البخاري» لرفع الأوبئة. انظر معالجتنا لهذا في كتابي «قتاوى السراج البلقيني في وقائع رفعت للسلطين والملوك والأمراء» (ص ٢٢٢ وما بعدها).

(٢) «درر العقود الفريدة» (١ / ٤٧٩).

(٣) برقم (٧٤٧٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٥١٢).

من نَصَبِ الدُّنْيَا وأذاها إلى رَحْمَةِ اللَّهِ، والعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ».

ولعلَّ من الآثار المحسوسة التي تدلُّ على أنَّ هذا الخبر النبويَّ الشريف قد تحقَّق فعلاً مثل فلق الصبح؛ ظهور مرضٍ عصريٍّ فتكَّ - وما زال يفتك - بملايين البشر، وليس له سببٌ يُعرف إلاَّ الفاحشة والعلاقات الجنسية المنفلتة، وهو الذي يسمونه بمرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز)، فهذا الداء - نعوذ بالله منه - مصداقُ لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَشَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ»، فهل كان هذا البلاء في أسلافنا؟! بلا شكَّ لم يعرفه أسلافنا اسماً ولا رسماً.

ومع كون هذا المرض يمكن انتشاره بوسائل كثيرة، وهذه الوسائل واقعة ومتوفرة، ولا توجد موانع واضحة طبيّاً تمنع من تسبُّبها في نقل المرض، إلاَّ أنَّ الطَّبَّ يؤكد أنَّ الفاحشة هي السبب الأساسي وراء انتشاره.

وليت شعري! كيف لم تدعُ هذه الحقائق النَّاصعة الغربَ الْمُعَذَّبَ الشَّقِيَّ بكفره إلى إنصاف نفسه بالإسلام - ولا نقول: إلى إنصاف الإسلام -؟!!

يقول الدكتور الطَّيِّب محمد علي البار: «رغم أنَّ المصاب بـ (الإيدز) يُخرج فيروسات (الإيدز) في إفرازاته كُلِّها - بما فيها الدَّمُوع، والبول، والبلبن من الموضع - إلاَّ أنَّ وسائل العدوى تتركز في العوامل الآتية فقط:

١ - الشذوذ الجنسي (اللواط).

٢ - الزنا.

ويشكِّل هذان العاملان اليومَ ما يوازي (٩٠) بالمئة من حالات انتشار

(الإيدز)، ويعتبر الشذوذ الجنسي (اللواط) العامل الأساسي في حدوث (الإيدز) وانتشاره في الولايات المتحدة وكندا ودول أوروبا الغربية بصورة خاصة، حيث يشكّل الشاذون جنسياً ما بين (٧٠) و(٨٠) بالمئة من جميع حالات (الإيدز) في هذه البلاد!

ويعتبر الزنا العامل الأساسي في إفريقيا الاستوائية، وفي الوباء الذي انتشر مؤخراً في الهند وبانكوك (تايلاند)، حيث بلغت نسبة المصابات بفيروس (الإيدز) من البغايا في بومباي (الهند) وبانكوك أكثر من (٧٠) بالمئة، وبلغت نسبة البغايا الحاملات لفيروس (الإيدز) في نيروبي (كينيا)، وبيوتار (رواندا)، وزائير، وزامبيا، وأوغندا، وأنجولا ما بين (٨٠ - ٩٠) بالمئة...»<sup>(١)</sup>.

بل إنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذكرَ فاحشةَ الزَّنا في خطبته التي تلت صلاةَ الكسوف، فقد خرَّجَ مسلمٌ في «صحيحه» من حديثِ أمِّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال في خطبته تلك - بعد أن حمد الله وأثنى عليه -: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ من آياتِ الله، وإنَّهما لا ينخسفان لموتِ أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتموهما؛ فكبَّروا وادعُوا اللهَ وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا، يا أُمَّةَ محمد! إنَّ من أحدٍ أغيرُ من الله أن يزني عبده أو تزني أُمته، يا أُمَّةَ محمد! والله لو تعلمونَ ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضَحَكْتُمْ قليلاً، أَلَا هل بَلَّغْتُ؟»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عَقَبَ صلاة الكسوف سِرٌّ بديعٌ لمن تأمَّله، وظهورُ الزَّنا من أَمَارَاتِ خَرَابِ الْعَالَمِ»<sup>(٣)</sup>.

(١) مجلة «مجمع الفقه الإسلامي» العدد (٩).

(٢) رواه مسلم (٩٠١).

(٣) «الجواب الكافي» (ص ٣٧٩).

والمقصود أنَّ الشمس تنكسف عند حدوث تغيرٍ عظيمٍ في الكون، يؤثر على نظام الكون كله، وأنَّ الزَّنا أثره يفسدُ نظام العالم كله ويبدد صلاحه، ويمزق انسجامه، فإذا كان هذا حاله في خراب العالم، فهو قمينٌ بأن يفتك بالشعوب ويخرب الأوطان، ويُضعف الدَّل التي تأذن به بالتصريح أو التلميح، ولو بالسكوت على فاعليه وعدم قيام حدود الله - عز وجل - على فاعليه.

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فنهى عن قربانها، وليس فقط عن إتيانها، ليكون أقوى في الزجر، وأبلغ في الإبعاد والصيانة عن جحيمها وآثارها في الدنيا والآخرة.

قال ابن عطية: «وقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نهي عام عن جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي، و﴿ظَهَرَ﴾ و﴿بَطَنَ﴾ حالتان تستوفيان أقسام ما جُعِلت له من الأشياء»<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «ومنها<sup>(٢)</sup>: أنَّ المعاصي توهن القلب والبدن، أَمَّا وَهْنُهَا للقلب فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ، بَلْ لَا تَزَالُ تَوْهِنُهُ حَتَّى تُزِيلَ حَيَاتَهُ بِالْكَلْبَةِ، وَأَمَّا وَهْنُهَا للبدن؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ قُوَّتُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَكُلَّمَا قَوِيَ قَلْبُهُ قَوِيَ بَدَنُهُ، وَأَمَّا الْفَاجِرُ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ قَوِيَّ الْبَدَنِ، فَهُوَ أَوْعَفُ شَيْءٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ، فَتَخُونُهُ قُوَّتُهُ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ، فَتَأْمَلْ! قُوَّةَ أَبْدَانِ فَارَسَ وَالرُّومِ، كَيْفَ خَانَتْهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٢٥).

(٢) أي: من آثار الذنوب.



إليها، وقَهَرَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِقُوَّةِ أَيْدِيهِمْ وَقُلُوبِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

فهذه إطلاقة على فعل الفاحشة بالبدن، واستنزائها للأسقام والأمراض عقوبةً من الله - تعالى -.

وقال ابن القيم في بيان بشاعة الزنا خاصة:

«ومنها<sup>(٢)</sup>: أَنَّ الزَّنا يُجَرِّئُهُ عَلَى قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَعَقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَكَسْبِ الْحَرَامِ، وَظُلْمِ الْخَلْقِ، وَإِضَاعَةِ أَهْلِهِ وَعِيَالِهِ، وَرَبًّا قَادَهُ قَسْرًا إِلَى سَفْكِ الدِّمِ الْحَرَامِ، وَرَبًّا اسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِالسَّخْرِ وَبِالشَّرْكِ وَهُوَ يَدْرِي أَوْ لَا يَدْرِي، فَهَذِهِ الْمَعْصِيَةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَعَاصِي قَبْلُهَا وَمَعَهَا.

ويتولّد عنها أنواعٌ أُخرُ من المعاصي بعدها، فهي محفوفةٌ بجُنْدٍ من المعاصي قبلها، وجُنْدٍ بعدها، وهي أَجْلَبُ شَيْءٍ لَشَرِّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَمْنَعُ شَيْءٍ لْخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِذَا عَلِقَتْ بِالْعَبْدِ فَوْقَ فِي حَبَائِلِهَا وَأَشْرَاكِهَا؛ عَزَّ عَلَى النَّاصِحِينَ اسْتِنْقَاذُهُ، وَأَعْيَى الْأَطِبَّاءَ دَوَائُهُ، فَأَسِيرُهَا لَا يُفْدَى، وَقَتِيلُهَا لَا يُودَى، وَقَدْ وَكَلَهَا اللَّهُ - سبحانه - بِزَوَالِ النِّعَمِ، فَإِذَا ابْتَلَى بِهَا عَبْدٌ فَلْيُودِّعْ نِعَمَ اللَّهِ، فَإِنَّهَا ضَيْفٌ سَرِيعُ الْإِنْتِقَالِ، وَشَيْكُ الزَّوَالِ»<sup>(٣)</sup>.

قال أبو عبيدة: صدّق ابن القيم الأمانة وبرّ ونصح - رحمه الله تعالى -، فما انتشأ الإجهاض إلا بسببه، فهو معصيةٌ بعده، ولذا لمّا وصف الله عباد الرحمن فذكر ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وقال على إثرها: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾؛

(١) «الدّاء والدّواء» (ص ١٣٦).

(٢) أي: مساوئ الزّنا.

(٣) «روضة المحبين» (ص ٤٩٧).

لشدّة الترابط بين الأمرين، وقال في تنمّة الآية مهدّدًا: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٦٩].

وقال - أيضًا -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ ۖ﴾، وقال بعدها: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۖ﴾ [الإسراء: ٣١ - ٣٣].

فسبق النهي عن الزنا حرمة القتل، وتبعه - أيضًا -.

وتأمل! معي قوله - سبحانه - عن الزنا: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا ۖ﴾ والسبيل هو الطريق المسلوك، من فعله مرة أدمن عليه، واستعاض به عن الحلال، وتكّب شرع الله في الزواج والحرص على الولد الصالح له، الذي يحفظ اسمه ورسمه، فما أشقى الزناة، فإنهم عطّلوا المتعة التي أباحها الله لهم، واستبدلوا الطيبات بالخبائث، والطاعات بالفواحش والمعاصي.

الغناء رُقِيَةُ الزَّنا:

الغناء وثيق الصّلة بالزّنا، ودافعٌ إليه، ومحَرّضٌ عليه، ومُهيِّجٌ لكوا من الشهوة التي لا سبيل لقضاءها - عند بعض النّاس - إلّا به، وذلك لما في المعازف والأصوات الحسنة من التأثير، وفيما يتضمّنه الغناء - غالبًا - من الكلام الذي فيه وصفُ الأشواق، والعشق، والميل، والغرائز، بل يتعدّى ذلك إلى وصف الأجسام والمفاتن، وكلُّ ذلك في الغناء الذي هو بصوت الرّجال، مع ما يكون معه من المعازف!

فكيف بصوت المرأة، تؤدّيه وهي تتكسّر وتتنهّد وتشهق؟! نسال الله

السلامة.

أَمَّا اليوم فقد آل أمره إلى أن صارَ مصحوبًا بالصُّورِ العارية وشبه العارية، فانقلبَ دعوةً صريحةً إلى الدَّعارة والفُجور، وصارَ يُؤدَّى على المسارحِ في خليطٍ من الرجالِ والنِّساءِ على حالٍ يندى لها الجبينُ، ويبكي لها الحياءُ وأهلُه، ويُبثُّ من عليها إلى بيوتِ ملايين المسلمين عبر الفضائيات، لتستنَّ بسننِ العارياتِ العواتقُ وذواتُ الخُدُورِ، فتُذْبَحُ الفضيلةُ في مهدها، ويوَأدُ الحياءُ في نفوسِهِنَّ قبل أن يستهْلَّ، ولا حول ولا قوَّةَ إلا بالله العليِّ العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال يزيد بن الوليد بن عبد الملك: «يا بني أُمَيَّة! إِيَّاكُمْ والغِنَاء؛ فَإِنَّهُ يُنْقِصُ الْحَيَاءَ، وَيَزِيدُ فِي الشَّهْوَةِ، وَيَهْدِمُ الْمُرُوءَةَ، وَيُنُوبُ عَنِ الْحَمْرِ، [ويفعلُ ما يفعلُ الْمُسْكِرُ]، فَإِنْ كُنْتُمْ لَا بَدَّ فَاعِلِينَ، فَجَنَّبُوهُ النَّسَاءَ، فَإِنَّ الْغِنَاءَ دَاعِيَةُ الزَّنا»<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «قال أبو عُبَيْدة معمر بن المثنى: جاورَ الحُطَيْيئةَ قومًا من بني كُليب، فمشى ذَوُو النُّهى منهم بعضُهُم إلى بعضٍ، وقالوا: يا قوم! إنكم قد رُمِيتُم بدهايةٍ، هذا الرَّجُلُ شاعرٌ، والشاعرُ يظُنُّ فيُحَقِّقُ، ولا يستأني فيتَبَّتْ، ولا يأخذ الفضلَ فيعفو، فَاتَّوهُ وهو في فَنَاءٍ خِبَائِهِ، فقالوا: يا أبا مُليكة! إِنَّهُ قد عَظُمَ حَقُّكَ عَلَيْنَا؛ بتخطُّيك القبائلِ إلينا، وقد أَتيناكَ لنسألكَ عما تُحِبُّ فَنَاتِيهِ، وعما تَكْرَهُ فنزدجر عنه، فقال: جَنَّبُونِي نَدِيَّ مجلسكم، ولا تُسَمِّعُونِي أَغاني شبيبتكم؛ فَإِنَّ الْغِنَاءَ رُقِيَّةُ الزَّنا.

فإذا كان هذا الشاعرُ المفتوقُ اللسان، الذي هابت العربُ هجاءَه خافَ عاقِبَةَ الْغِنَاءِ، وأنْ تَصِلَ رُقِيَّتُهُ إلى حُرْمَتِهِ، فما الظَّنُّ بغيره؟

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٧٦)، وما بين المعقوفتين زيادةٌ من «البداية والنهاية» (١٠/ ١٩).

ولا ريبَ أنَّ كلَّ غيورٍ يُجَنَّبُ أهله سماعَ الغناء، كما يُجَنَّبُهن أسبابُ الرِّيبِ،  
ومن طَرَّقَ أهله إلى سماعِ رُقية الزَّنا فهو أعلمُ بالاسم الذي يستحقه.

ومن الأمرِ المعلوم عند القوم: أنَّ المرأةَ إذا استعصت على الرجل، اجتهدَ  
على أن يُسَمِعَهَا صوتَ الغناء، فحينئذ تُعْطِي اللَّيَّانَ.

وهذا لأنَّ المرأةَ سريعةُ الانفعالِ للأصواتِ جدًّا، فإذا كان الصوتُ بالغِناءِ  
صارَ انفعالُها من وجهَيْن: من جهة الصوت، ومن جهة معناه، ولهذا قال النبي ﷺ  
لأنجشةَ حاديهِ: «يا أنجشة! رويدًا رفقا بالقوارير»<sup>(١)</sup> يعني: النساء.

فأما إذا اجتمع إلى هذه الرقية: الدف، والشبابة، والرقص بالتخنث والتكسر؛  
فلو حبَلَت المرأةُ من غِناءٍ لحبَلَت من هذا الغِناء.

فلعمرُ الله! كم من حُرَّةٍ صارت بالغناء من البغايا؟ وكم من حُرٍّ أصبح به  
عبدًا للصبيان أو الصبايا؟ وكم من غيورٍ تبدَّل به اسمًا قبيحًا بين البرايا؟ وكم من  
ذي غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارف والحشايا؟ وكم من مُعافٍ  
تعرَّض له، فأمسى وقد حلَّت به أنواعُ البلايا؟ وكم أهدى للمشغوف به من  
أشجان وأحزان، فلم يجد بُدًّا من قبول تلك الهدايا؟ وكم جرَّع من غُصَّةٍ، وأزال  
من نعمة، وجلب من نقمة؟ وذلك منه من إحدى العطايا، وكم خَبًّا لأهله من  
آلام مُنتظرة، وغموم مُتوقَّعة، وهمومٍ مستقبلة؟<sup>(٢)</sup>

فهل علمتمُ يا قوم! إنسانًا أقبلَ على الغناء والألحان وصلَحَتْ له حالٌ في  
دينٍ أو دنيا؟ وهل تعرفون مجتمعًا فشا فيه هذا الأمرُ وازدادَ من الله قُربًا، أو على

(١) رواه البخاري (٦١٤٩) ومسلم (٢٣٢٣).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٣٥ - ٤٣٧).

عدوّه نصرًا، أو بين الأمم تقدّمًا وحضارة؟!

وقال - رحمه الله -: «والذي شاهدناه نحن وغيرنا وعرفناه بالتجارب، أنّه ما ظهرت المعازف وآلات اللّهُو في قومٍ، وفشت فيهم، واشتغلوا بها، إلّا سلّط الله عليهم العدوّ، وبُلّوا بالفحط والجذب، ووُلاةُ السُّوء، والعاقل يتأمّل أحوال العالم وينظر، والله المستعان»<sup>(١)</sup>.

وها نحن نرى ونسمع، كم يردّد المغنّون وسامعهم من ألفاظٍ كفريةٍ، فيها استهانةٌ بالله، ورُسْله، وكُتبه، وملائكته، كلُّ ذلك والجميعُ في غمرة السُّكر، سُكر الطُّرب والتَّمايل إذا لم يكن سُكرًا حقيقيًّا من خمرٍ، فمن جاعلٍ (الغناء) سرِّ الوجود، و(أنيّ النَّاي) باقٍ إلى الأزل بعد فناء الخلق والخليقة!

ومن مُجاهرٍ بأنَّ معشوقته أنستهُ ربّه ودينه، ومُنَادٍ صائحٍ بأنَّ حبيبته معبوده الذي لا يجاوز له أمرًا ولا نهيًا، بل منهم من جعل كلَّ عضوٍ منها وثنًا يعبّده، فيسجّد للعنين، وينحني للرُّموش والأهداب، ويسبّح بِذِكْرِ الشَّعْرِ وزينته ولونه!

وأعجبُ ما فيهم وأدّلّه على المَسْخِ الذي هم فيه: أنّك إذا سألت من فيه بقيّة حياءٍ منهم عن ذلك، وبأيّ وجهٍ يستحلّه؟! قال لك: هذا غناء! ولم يزد!

كأنّهم يرونَ أنّ الغناء يُستباح فيه الكُفْر والفجور والدَّعوة إلى المُنكر!

ألا فاعلموا أنّ المؤاخذه على الغناء كالمؤاخذه على سائر الكلام، وعلى ما يصاحبه من الأفعال كالمؤاخذه على سائر الأفعال، فليت شعري! هل الغناء مُستثنى من قوله - تعالى -: ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]؟

فأين يُذهب بعقولكم؟!

(١) «مدارج السالكين» (١/٥٠٠).

ولكن لا أحد ينظر ولا يتأمل إلا من رحم الله، فقد صار الأمر إلى ما  
خشيه شيخنا الإمام الألباني - رحمه الله - حيث قال: «أخشى أن يزداد الأمر  
شدة، فينسى الناس حكم الغناء، حتى إذا ما قام أحدٌ ببيانه أنكر عليه، ونُسبَ  
إلى التشدد»<sup>(١)</sup>.



---

(١) «تحریم آلات الطرب» (ص ١٦).

## المُجَاهِرَةُ بِالذَّنْبِ ذَنْبٌ آخَرُ

وردَ في هذا الحديث قولُه - عليه الصلاة والسلام -: «حتى يُعلنُوا بها»؛ أي: يجهرُون بها ويُظهرونها، ولا يكتفون بمجرّد إيقاعها واقترافها، والمجاهرةُ بالمعصية خِذْلَانٌ على خِذْلَانٍ، وجريمةٌ فوق جريمةٍ، لها عقوبتُها ولها فضيحتُها استقلالاً، غير ما يترتّب على الذَّنْبِ في ذاته، وقد فرّق الشَّرْعُ على سَنَنِ العَدْلِ والإنصافِ بين العاصي المُجَاهِرِ بمعصيته، المتفاخِرِ بإتيانها، والمُسْمَعِ بعنتريّاته الشَّيطانيّة، وبين ذلك الذي زَلَّ فَسَتَرَ نفسَه، وتَوَقَّى لحياءه وحِشْمَتَه.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يَصْبَحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فيقول: يا فلان! عملتُ البارحةَ كذا وكذا، وقد باتَ يسترُه ربُّه، ويصبحُ يكشفُ سِتْرَ الله عنه»<sup>(١)</sup>.

المجاهرون: «أي: المعلنون بالمعاصي، المستهزئون بإظهارها، وأصله من الظهور، والجهْرُ ضدُّ السِّرِّ»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩) ومسلم (٢٩٩٠).

(٢) «مشارك الأنوار» (١/١٦١).

وذكر النووي ضابط المجاهرة؛ فقال: «هم الذين جاهرُوا بمعاصيهم وأظهروها وكشفوا ما ستر الله - تعالى - عليهم فيتحدثون بها لغير ضرورة ولا حاجة»<sup>(١)</sup>.

قال الحافظ: «سترُ الله مستلزمٌ لسرِّ المؤمنِ على نفسه، فمن قصدَ إظهارَ المعصية والمجاهرةَ بها أغضبَ ربُّه فلم يسرَّه، ومن قصدَ التَّسترَ بها حيَّاهُ من ربِّه ومن النَّاسِ، مَنْ الله عليه بسرُّه إيَّاه»<sup>(٢)</sup>.

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «اجتنبُوا هذه القاذورة التي نهى الله عنها، فَمَنْ أَلَمَّ؛ فَلْيَسْتَرْ بِسَرِّ الله، وَلْيَتَّبِعْ إِلَى الله، فَإِنَّهُ مِنْ يُبَدِّلْ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمَ عَلَيْهِ كِتَابَ الله - عز وجل -»<sup>(٣)</sup>.

بل امتدَّ ترغيبُ الشَّرْعِ إلى المُعَاْفَى مِنَ الذَّنْبِ أَصْلًا، إِذَا وَقَفَ عَلَى عَوْرَةٍ وَسَيِّئَةٍ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَسْتَرَهَا وَيَكْتُمَهَا وَلَا يَذِيعَهَا، لِأَنَّهُ فِي إِشَاعَتِهَا مِنَ الْمَفَاسِدِ، أَخْطَرُهَا إِلْفُ النَّفْسِ لَذِكْرُهَا وَلَوْ قَوَّعَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا فِي الدُّنْيَا؛ سَتَرَهُ اللهُ - عز وجل - فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»<sup>(٤)</sup>.

والفاضحُ والمُجَاهِرُ كِلَاهُمَا دَاخِلٌ فِي الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ؛ لِقَوْلِهِ - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٨/١١٩).

(٢) «فتح الباري» (١٠/٤٨٨).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرک» (٤/٢٧٢) رقم (٧٦١٥)، وصححه شيخنا الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٩).

(٤) رواه أحمد (٤/١٠٤)، وسنده صحيح.



وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿[النور: ١٩].

قال ابن بطّال: «في الجَهْر بالمعصية استخفافٌ بحق الله ورسوله وبصالحِي المؤمنين، وفيه ضَرْبٌ من العِنَادِ لهم، وفي التَّسْتَرِ بها السلامةُ من الاستخفاف، لأنَّ المَعَاصِي تُذَلُّ فاعِلُهَا، ومن إقامة الحدِّ عليه إنْ كَانَ فِيهِ حَدٌّ، ومن التعزيرِ إنْ لم تُوجِبْ حَدًّا، وإذا تَمَحَّصَ حقُّ الله، فهو أكرمُ الأكرمين، ورحمتهُ سبقت غضبه، فلذلك إذا سَتَرَهُ في الدُّنْيَا لم يَفْضَحْهُ في الآخرة، والذي يَجَاهِرُ يَفُوتُهُ جميعُ ذلك»<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام: «فما دامَ الذنبُ مستورًا فمصيبته على صاحبه خاصّة، فإذا أُظْهِرَ ولم يُنْكَرْ كانَ ضَرَرُهُ عامًّا، فكيفَ إذا كَانَ في ظَهورِهِ تحريكٌ غيرِهِ إليه، ولهذا أنكرَ الإمامُ أحمد وغيرُهُ أشكالَ الشَّعْرِ الغَزَلِيِّ الرَّقِيقِ؛ لئلاَّ تتحركَ النفوسُ إلى الفواحش، فلهذا أُمِرَ من ابْتِئَالٍ بِالْعِشْقِ أَنْ يَعْفَ وَيَكْتُمَ، فيكونَ حينئذٍ مَخْنٍ قال الله فيه: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، والله أعلم»<sup>(٢)</sup>.

والذنوبُ في كُلِّ أحوالها تَضُرُّ، وتستجلبُ سخطَ الله وغضبه ومقتَه، وليس النهيُّ عن المجاهرة من أجلِ تسويغِ المعصية في السِّرِّ أو التهوين منها، لكن الذي يسترُ نفسه له حالان:

الأولى: أن يكون قد غلبَهُ الحياءُ، فاستحى من معصيته التي ارتكبها، لا جُرْأَةً على الله، ولا استخفافًا بنظره إليه، ولا استهانةً بمخالفة أمرِهِ، ولكن تملَّكه سوءُ

(١) «شرح ابن بطّال على صحيح البخاري» (٢٦٣/٩)، «فتح الباري» (١٠/٤٨٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢١٥).

نفسه، وتمكّن منه شيطانه، فما لبث أن ندم، وتاب وأناب، وأقْلَعَ، واستغفر، وتضرّع إلى ربّه وسأله العفو، وازدرى نفسه في ذات الله، وأكثر من الصالحات، فلا يزال هذا شأن أكثر المؤمنين، ومثل هذا - إن شاء الله - لا تضيق عنه رحمة الله التي وسعت كل شيء.

الثانية: أن يستتر بمعصيته خوفاً من العقوبات الظاهرة المترتبة عليها من حدٍّ أو تعزير، أو درءاً لغيبة الناس له عن نفسه، وحفاظاً على مكانته الاجتماعية، لكنه إذا خلا بمعصيته أتاها مطمئن النفس بها، راضياً، مُقبلاً على نزوات نفسه، مُعرضاً عن ربّه، مُغلِقاً قلبه على واعظ الله فيه، فمثل هذا على خطرٍ عظيم، وتحت وعيدٍ شديد، وهو أقرب إلى زمرة المخدولين من أهل النفاق والرياء.

فإن الله - تعالى - قال في شأن المنافقين: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُهُمْ تَبَازُؤًا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿النساء: ١٠٧-١٠٩﴾.

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ١٤٢).

فتأمل! حالهم في استئفال الصلاة، وفي كونهم لا يذكرون إلا قليلاً<sup>(١)</sup>، فإن

(١) وقد سُئِلَ الحَسَن - رحمه الله - عن رجلٍ لا يتحاشى من معصية، إلا أن لسانه لا يفتُر من ذكر الله؟! فأطرق ملياً، ثم قال: «إنَّ ذلكَ لَعَوْنٌ حسنٌ». رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة»

هذه حالة تساوي العرق في العصيان؛ لأن الصلاة والإكثار من ذكر الله من أهم الروادع عن ارتكاب المعاصي والفواحش والمنكرات، فإذا خَلَتْ نفوسُهم من ذلك فهي معمورة بالمعصية على نحو تصوير المعاصي لهم سجيّة يَحْيُونَ معها اللَّيْل والنَّهَار، لا يتَحَاشُونَ من شيءٍ منها إِلَّا إذا اطلَّعَ عليهم بعضُ الخَلْق، نسأل الله السَّلامة.

أَمَّا الْمُجَاهِرُ فقد تجاوزَ كُلَّ ذلك، وبارَزَ الله بمعصيته، وسمَعَ بها وأشاعَهَا، فابتعدَ من العافية، وبَغَضَ نفسَه إلى الله، وسَدَّ عن نفسِهِ بابَ رَحْمَتِهِ، وتعدَّدت في ذَمِّهِ التَّوْبَاتُ الواجبة، وتكاثرت عليه سيئاتُهُ، وتعدَّى صَرَرُهَا منه إلى غيره من المؤمنين زرافاتٍ ووحدانًا، فحلَّت عقوبَتُهُ فيما تجبُ فيه العقوبة، وسقطت حُرْمَتُهُ بفسقه، ولاكَّت الألسُنُ عِرْضَه غيرَ آثمةٍ بذلك، مع ما هو أمامه من العثرات والمخاطر في الآخرة إذا لم يتب، فأَنَّى له العافية وهو على ما هو عليه؟!!

قال ابن القيم - رحمه الله -: «فالإصرارُ على المعصية معصيةٌ أخرى، والقعودُ عن تدارك الفارطِ من المعصية إصرارٌ ورَضَى بها، وطمأنينةٌ إليها، وذلك علامةُ الهلاك، وأشدُّ من هذا كُلُّه المجاهرةُ بالذنبِ مع تيقُّنِ نظرِ الربِّ - جلَّ جلاله - من فوق عرشه إليه، فإن آمَنَ بنظرِهِ إليه وأقدَمَ على المجاهرةِ فعظيمٌ، وإن لم يؤمن

= قلتُ: وهو عونٌ حسنٌ من وجهين:

الأوَّل: أَنَّهُ لا يزالُ به هذا الذِّكْرُ حتى يفتحَ الله به على قلبِهِ من معرفَتِهِ وخشيَتِهِ وتعظيمِهِ ما يحمله على تركِ المعاصي.

الثاني: أَنَّهُ عونٌ حسنٌ بكونِهِ كَفَّارَةً لسيِّئاتِ ذنوبِهِ ومعاصيه، فقد وردَ ما لا يُحصى من النُّصوصِ في تعظيمِ شأنِ الذِّكْرِ وتكفيرِهِ للسيِّئاتِ، حتى إِنَّهُ لَتُحْطُّ عن الذَّاكِرِ ذنوبُهُ كما تنفضُ الشجرةُ ورقَهَا.

بَنَظَرِهِ إِلَيْهِ وَأُطْلِعَهُ عَلَيْهِ فَكُفِّرَ وَانْسَلَخَ مِنَ الْإِسْلَامِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَهُوَ دَائِرُ بَيْنِ الْأَمْرَيْنِ؛  
بَيْنَ قَلَّةِ الْحَيَاءِ وَمَجَاهَرَةِ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالْانْسِلَاخِ مِنَ الدِّينِ»<sup>(١)</sup>.  
وروى البيهقي - رحمه الله - عن العوام بن حوشب - رحمه الله - قال: «الابتهاجُ  
بالذَّنْبِ أَشَدُّ مِنْ رُكُوبِهِ»<sup>(٢)</sup>.



---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨١).

(٢) «شعب الإيمان» (٩/ ٣٥١) رقم (٦٧٥٦).

## آثار التطفيف في الميزان وذهاب الأمانة

يقول النبي ﷺ: «وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَوَونَةِ، وَجُورِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ».

التاجر الذي يبيع على (البسطة)، والتاجر الذي يبيع في (البقالة) أو (السوبر ماركت)، إذا طَفَّفَ المكيال والميزان، وفشا ذلك في الناس، كانت أول عقوباتهم أن يُؤخذوا بالسنين، أتدرون ما معنى (السنين)؟

يقول النبي ﷺ فيما ثبت عنه: «لَيْسَتْ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمَطَّرُوا، وَلَكِنْ السَّنَةُ أَنْ تُمَطَّرُوا وَتُمَطَّرُوا، وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا»<sup>(١)</sup>.

المطر كثير، حتى إنه يبلغ حدَّ التسبُّب في الفيضانات والسيول، ولكنَّ العقوبة من الله أَنَّهُ يجعله في غير زمانه وفي غير مكانه المناسب للنبات، والسبب تطفيف المكيال والميزان.

تطفيف المكيال والميزان رمزٌ للغشِّ عموماً، فكل ما يلحق به في حقيقته ممَّا يساويه ومما هو أعلى منه فهو مثله وزيادة.

والعقوبة الثانية: «شِدَّةُ الْمَوَونَةِ» كما في الحديث، تصبح الحياة شديدة،

(١) رواه مسلم (٢٩٠٤).

الرغد فيها قليل، والرزق قليل، والتكاليف ثقيلة على الناس.

إذن، الفقرُ وضيقُ الرِّزْق، وعُسْرُ تحصيل المعيشة والكفاية والحياة الكريمة؛ من آثار الذنوب.

والنَّاسُ - إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ - لَهْمُ مَعَ رَبِّهِمْ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مَسَالِكُ عَجِيبَةٍ، وَأَخْلَاقِيَّاتٌ مُشِينَةٌ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

فالجميع يعلم أنَّ الرزق بيد الله، لا رازق سواه، ومع ذلك إذا مُنِعَ عن النَّاسِ رزقُهُمْ؛ طلبوه بشتَّى الوسائلِ، وتوسَّلوا إليه بكلِّ وسيلة، إِلَّا أَنْ يُصْلِحُوا ما بينهم وبين الله، لترفع عنهم موانعُ الهلك؛ فهذا متروكٌ، وإن كان له حظٌّ من الفكر والعمل فإلى آخر المراتب، وإلى الله المشتكى من قلة التَّيَقُّظ، واستحكام الغفلة.

وما أسرعَ المَلَلِ من هذا الطَّرِيق عند الأكثرين، إن قلتَ له: استغفر الله يرزُقكَ؛ فكأنَّما تأمره بنقل جبلٍ من موضعه، في حين يَكُدُّ نفسه الليل والنَّهار في أشقِّ الأعمال على النَّفوسِ والأبدان ولا يستثقل ولا يشتكي!

قال - تعالى -: ﴿وَلِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم: ٣٦ - ٣٧].

فانظر! كيف لحقهم القنوط عند تبدُّل الحال، في حين كان يتوجَّب عليهم أن يفتِّشوا في أقوالهم، وأفعالهم، ومكنونات أنفسهم عن أسباب هذا التَّبَدُّل، ولذلك طمأنَّتْهم وهدَّاهُمْ ولفَّتْ أُنْظَارَهُمْ إلى أَنَّهُ - سبحانه - هو الذي يَسْطُرُ الرزقَ لمن يشاء، ويمنعه عمَّن يشاء، فعلامٌ يشرِّدون عنه ويلتفتون إلى غيره؟! فإنَّ في

تبدل تلك الأحوال، وتناوب الضيق والسعة آياتٌ يدركها ويفهمها عبادُ الله المؤمنين المرحومون، وتنبؤ عنها أنظارُ المخدولين بمعاصيهم وجهالاتهم، والمحرومين من فضله وإنعامه، وهُداه وحراسته.

قال ابن عاشور: «فأريد تنبيههم هنا إلى حالة تلقيهم ضدَّ الرَّحْمَةِ بالقُنُوطِ ليحذروا ذلك، ويَرْتَضُوا برجاءِ الفرج والابتihal إلى الله في ذلك، والأخذ في أسباب انكشافها.

والرحمةُ أطلقت على أثر الرحمة، وهو المنافع والأحوال الحسنة الملائمة، كما يُنبئ عنه مقابلتها بالسيئة، وهي ما يسوء صاحبه ويحزنه، فالمقصد من هذه الآية تَحُلُّقُ المسلمين بالْحُلُقِ الكاملِ».

إلى أن قال: «فقلوه: ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ وصفٌ لحالِ النَّاسِ عندما تصيبهم الرحمة، لِيُنَبِّئَ عليه ضِدُّه في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ لِمَا يقتضيه القُنُوطُ من التذمر والغضب، فليس في الكلام تعريضٌ بإنكارِ الْفَرَحِ حتى نضطرَّ إلى تفسيرِ الْفَرَحِ بِالْبَطَرِ ونحوه، لأنَّه عُدُولٌ عن الظَّاهِرِ بلا داعٍ.

والمعنى: أنَّهم كما يفرحون عند الرحمة ولا يخطر ببالهم زوالها، ولا يحزنون من خشيتها، فكذلك ينبغي أن يصبروا عندما يمسهُمُ الضَّرُّ ولا يقنطوا من زواله، لأنَّ قنوطهم من زواله غيرُ جارٍ على قياسِ حالهم عندما تصيبهم رحمةٌ حين لا يتوقعون زوالها، فالقُنُوطُ هو محلُّ الإنكارِ عليهم.

وهذا كقوله - تعالى -: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩] في أنَّ محلَّ التَّعَجُّبِ هو اليأسُ والقُنُوطُ».

ثمَّ قال - رحمه الله -: «ثمَّ أنكرَ عليهم إهمالَ التأملِ في سنَّةِ الله الشائعة في

الناس؛ من لحاق الضر وانفراجِه، ومن قسمة الحظوظ في الرزق بين بسطٍ وتقتيرٍ، فإنه كثيرُ الوقوعِ كُلِّ حينٍ، فكما أنَّهم لم يقنطوا من بسطِ الرزق عليهم في حين تقتيره، فكدَّحُوا في طلبِ الرزقِ بالأسبابِ والدُّعاءِ، فكذلك كان حقُّهم أن يتلقَّوا السوءَ النَّادِرَ بمثلِ ما يتلقَّونَ بهِ ضيقَ الرِّزْقِ، فيسْعَوْا في كشفِ السيئةِ بالتَّوبَةِ والابتِهالِ إلى الله، وبتعاطي أسبابِ زوالها من الأسبابِ التي نصبها الله - تعالى -.

فجملته ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ إلخ عطفٌ على جملة ﴿وَلِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾، والاستفهامُ إنكارِيٌّ في معنى النَّفْيِ؛ أنكرَ عليهم عدمَ الرُّؤيةِ تنزيلاً لرؤيتهم ذلك منزلةَ عدمِ الرُّؤيةِ، لإهمالِ آثارها من الاعتبار بها<sup>(١)</sup>.

فها نحنُ أمامَ معصيةٍ تشتدُّ بسببها المؤونة، ويشحُّ القوت، ويضيقُ الرزق، فكم منَّا يوليها العناية الشرعيَّة التي تستحقُّها، من معالجة هذه المعصية بالتوبة وإصلاح الحال مع الله؟! فكيف حالنا إذا جمعنا مع المعصية معاصٍ، ومع المنكر منكرات، ومع المخالفة مخالفات؟! ثمَّ مع ذلك نريدُ أن نطوِّع السُّننَ الكونيَّةَ لِمَا نشتهي ونتمنَّى! ﴿تِلْكَ إِذَا قُسِمَةُ ضَيْرَى﴾ [النجم: ٢٢]، فلا والله! لا يكون ولن يكون، فليس لها من دون الله كاشفة.

ونحن نجدُ سلوكَ النَّاسِ إذا ابتلاهم الله بتضييقِ الرِّزْقِ قد ثَبَّهَ عليه مرارًا وتكرارًا في القرآن، ولا سيما ذلك الصَّنَفُ الظُّلومُ الجهول، الذي لم يتعلَّمِ نصوصِ الوحيين، ولم يركِّ نفسه بما شرعَ الله، بل ظنَّ أنَّ عطاءَ الله له في دنياه إنما هو لأنَّ الله يحبُّه! وأنَّه قد حصَّلَ رضاه، فهو يعتقدُ أنَّه إن رجع إليه فإنَّ له عنده الحُسنى، ولم

(١) «التحرير والتنوير» (٢١/ ١٠٠ وما بعدها).



يفهم المُسَيِّكِينَ أَنَّ الذي هو فيه إِنَّمَا هو بلاءٌ واستدراجٌ فَحَسْبُ!

قال الله - عز وجل - حاكياً عن هذا الصَّنَفِ: ﴿وَلَيْنَ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وقال: ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾ [نصّلت: ٥٠]، بل أخبر عن الكفار أَنَّهُمْ يبحثون عن الفقراء والمستضعفين من المؤمنين، ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٢]، فهؤلاء ظنُّوا أَنَّ موازين الآخرة في العطاء والحرمان كموازين الدنيا، وما فقهوا أَنَّ الدنيا لا تسوى عند الله جناح بعوضة، ولو كانت كذلك لما سقى منها الكافر شربة ماء.

قال - تعالى -: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ﴾ ١، وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ٣﴾ [هود: ٩-١١]، وقال - تعالى -: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَحَّ بِهَا وَإِن تَصْبِهِمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨] ونحو هذه الآيات.

فشيمة الإنسان عموماً في هذه الدنيا هذا التَّقَافُزُ الأَرَعُنُ بين الفرح والقنوط، والفخر واليأس، وبهذه الأحوال يَتَقَلَّبُ الأكثرون تَمَشُّيًّا مع تَقَلُّبِ حالهم في الأرزاق، ولا يُسْتَنَى من ذلك إِلَّا المَوْفَّقُونَ الذين صبروا وعملوا الصالحات.

قال ابن عاشور: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ احتراس باستثناء من ﴿الْإِنْسَانِ﴾، والمراد بـ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ المؤمنون بالله؛ لأنَّ الصبر من مَقَارِنَاتِ الإيمان، فكُنِيَ بـ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عن

المؤمنين، فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَرْوِّضُ صَاحِبَهُ عَلَى مَفَارِقَةِ الْهَوَىٰ وَبِذِ مَعْتَادِ الصَّلَاةِ، قَالَ  
- تعالى -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾  
[العصر: ٣].

ومن معاني الصبر: انتظارُ الفرج، ولذلك أُوتِرَ هنا وصفُ ﴿صَبْرُوا﴾ دون  
﴿ءَامَنُوا﴾ لأنَّ المرادَ مقابلةَ حالهم بحالِ الكفارِ في قوله: ﴿إِنَّهُ لَيَكُونُ كَكُفْرٍ﴾.  
ودلَّ الاستثناء على أنَّهم متَّصفون بضدِّ صفاتِ المستثنى منهم، وفي هذا  
تحذيرٌ من الوقوعِ فيماثلِ صفاتِ الكافرين على اختلافِ مقادير، وقد نسجت  
الآية على هذا المنوال من الإجمال لتذهب نفوس السامعين من المؤمنين في طُرُقِ  
الحذرِ من صفتي اليأس وكفران النعمة، ومن صفتي الفرح والفخر، كلَّ مذهبٍ  
ممكن<sup>(١)</sup>.

والعقوبة الثالثة على التطفيف وانتقاص المكيال والميزان: «وَجَوْرُ السُّلْطَانِ  
عَلَيْهِمْ»، جور السلطان سببه: أفعالنا، معاصينا، عدم تقوى الله - عز وجل -، لا سيما  
قلَّة التقوى والورع عند التجار ومن بأيديهم المال.

المشتري في الغالب مسترسل، لا سيما في السِّلَعِ اليسيرة، يتعامل مع البائع  
بالأمانة ولا يتوقَّع الغشَّ والغبن والتطفيف، ومعظم أصحاب الحاجات عند  
التجَّار ضعفاء، أضعف منهم مكانة وسلطة؛ لأنَّ المال له سلطان، بل التجَّار  
غالبًا لا يجروون على انتقاص حقِّ أحدٍ إلَّا إن كان ضعيفًا لا سندَ له، فجزاءُ ذلك  
«جَوْرُ السُّلْطَانِ»، لأنَّ السُّلْطَانَ متحكِّمٌ في حقوق الجميع بإذن الله، فكلُّ ما أخذوه  
من الفقير الضَّعيفِ المخدوعِ بغير حقٍّ، أخذه السُّلْطَانُ من حقوقهم بسلطته

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/١٥).

وجبروته، بالمكوس والضرائب والمخالفات ونحو ذلك، وما زلنا إلى يومنا هذا نسمع القصة تلو القصة من ذلك.

وقد كتب محمد بن يوسف الأصبهاني لمن كتب إليه يشكو ظلم العمال: «يا أخي! بلغني كتابك، تذكر ما أنتم فيه، وإنه ليس ينبغي لمن عمل بالمعصية أن ينكر العقوبة، وما أرى ما أنتم فيه إلا من شؤم الذنوب»<sup>(١)</sup>.

فهل تظن - أخي في الله - أن أمر الأمانة في البيع والشراء والوزن والكيل سهل؟! لا والله! وكثير مما يجري من دقيق الخيانات وجليلها في هذا الباب يحسبه أكثرنا هيئاً، وهو عند الله عظيم.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - للموالي ومن كان يلي أمر الكيل والوزن في السوق: «إنكم قد ولّيتُم أمرين هلكت فيهما الأمم السالفة قبلكم»<sup>(٢)</sup>. وأمر المكيال والميزان من الأمانات، والأمانة كل شؤنها عظيمة.

خرج البيهقي - رحمه الله - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال:

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ٢٣٦).

(٢) رواه الترمذي (١٢١٧) عن ابن عباس مرفوعاً بإسناد ضعيف جداً، وضعفه الترمذي وصحّح وقفه على ابن عباس، وهو الصحيح.

فقد أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٦/ ٣٢) من طريق عبد الله بن نمير، وفي «الشعب» (٤٩٠٤) من طريق يعلى بن عبيد، كلاهما عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن كريب - وهو مولى ابن عباس - عن ابن عباس به موقوفاً، وخالفهما شريك - وهو النخعي - فرواه عن الأعمش عن سالم عن ابن عباس به مرفوعاً، أخرجه ابن مردويه في «تفسيره» كما في «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٦٤)، وشريك سيئ الحفظ، خالف في سنده فأسقط ذكر كريب، ورفع ولم يوقفه.

«القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة! قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة - وإن قُتل في سبيل الله - فيقال: أَدَّ أمانتك. فيقول: أي رب! كيف وقد ذهبت الدنيا؟! قال: فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فيُنطلق به إلى الهاوية، ومثَّل له أمانته كهيتها يوم دُفَعَتْ إليه، فيراها، فيعرفها، فيهوي في إثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا ظنَّ أنه خارج؛ زَلَّتْ عن منكبيه فهو يهوي في إثرها أبد الآبدين».

ثم قال: «الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة - وأشياء عددها - وأعظم ذلك: الودائع».

فأتيتُ<sup>(١)</sup> البراء بن عازب فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟! قال كذا، قال كذا.

قال: «صَدَقَ! أما سمعتَ بقولِ الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]»<sup>(٢)</sup>.

وقال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «لا تنظروا إلى صلاةٍ أحدٍ ولا صيامه، وانظروا إلى صِدْقِ حديثه إذا حَدَّثَ، وإلى أمانته إذا ائْتُمِنَ، وإلى وَرَعِهِ إذا أَشْفَى»<sup>(٣)</sup>.

فشأن الأمانة عظيمٌ، ولا تُختبر أمانة الرَّجل إلا حينما يلوح له ما يُطمع في

(١) القائل: زاذان؛ الراوي عن ابن مسعود.

(٢) «شعب الإيمان» (٤/ ٣٢٣ - ٣٢٤) برقم (٥٢٦٦)، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٦٣).

(٣) «شعب الإيمان» (٤/ ٣٢٦) برقم (٥٢٧٨). أشفى: أشرفَ على الدنيا وأقبلت عليه. (النهاية).

مثله، فهناك يستطيع سبر نفسه واختبار ورعه وأمانته.

ولذا يقول يحيى بن أبي كثير - رحمه الله - : «لا يُعجبك حلمُ امرئٍ حتى يغضب، ولا أمانته حتى يطمع؛ فإنَّك لا تدري على أيِّ شقيِّه يقع»<sup>(١)</sup>.

وقال ميمون بن مهران : «ثلاثُ المؤمنُ والكافرُ فيهنَّ سواءٌ: الأمانةُ تؤدِّيها إلى من ائتمنك عليها من مسلمٍ وكافرٍ، وبرُّ الوالدين، قال الله - تعالى - : ﴿وَلِإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية [لقمان: ١٥]، والعهدُ تفِي به لمن عاهدتَ من مسلمٍ أو كافرٍ»<sup>(٢)</sup>.

فحتَّى الكافر، أنت مُطالبٌ بالنصح له والصدق معه عند المعاملة، وكفره على نفسه، لكنَّه لا يُبيحُ لك منه مالاً، فإنَّ الخيانةَ صفةٌ مذمومةٌ مُطلقاً، لا يمكنُ أن تُمدح بأيِّ حال.

ومن الذُّنوبِ الواقعةِ في أبوابِ تعاملِ النَّاسِ بالمالِ ما يكونُ إثمه متسلسلاً، يُولِّدُ الشرَّ منه ما بقيت الدنيا، والله المستعان.

وقد قرَّر الغزالي من هذا المعنى في كتاب «الإحياء» وفي غيره ما فيه كفاية، وقد قال في «كتاب الكسب»: «ترويح الدرهم الزائف من الدراهم في أثناء النقد ظلم؛ إذ به يَسْتَضِرُّ المُعامل إن لم يَعْرِف، وإن عَرَف؛ فيروِّجه على غيره، وكذلك الثاني والثالث، ولا يزال يتردَّد في الأيدي، ويعمُّ الضرر، ويتَّسع الفساد، ويكون وزر الكلِّ ووباله راجعاً إليه؛ فإنَّه الذي فتح ذلك الباب».

ثم استدل بحديث: «من سنَّ سنَّةً حسنةً... إلخ».

(١) «شعب الإيمان» (٣٥٩/٦) برقم (٨٥١٥)، و«حلية الأولياء» (٦٩/٣).

(٢) «حلية الأولياء» (٨٧/٤).

ثم حكى عن بعضهم أن إنفاق درهم زائف أشد من سرقة مائة درهم؛ قال: «لأنَّ السرقة معصية واحدة، وقد تَمَّتْ وانقطعت، وإظهار الزائف بدعة أظهرها في الدين، وسنَّ سنة سيئة يعمل عليها من بعده؛ فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة، ومائتي سنة، إلى أن يفنى ذلك الدرهم، ويكون عليه ما فسد ونقص من أموال الناس بسببه، وطوى لمن مات ومات معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة<sup>(١)</sup>، يعذب بها في قبره، ويسأل عنها إلى انقراضها، وقال - تعالى -: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]؛ أي: نكتب - أيضًا - ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدَّموه، ومثله قوله - تعالى -: ﴿يُبَيِّنُ الْإِنْسَانُ يَوْمَ ذَمِّهِمَا قَدَمَ وَالْآخَرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وإنَّما أثار أعماله من سنَّ سنة سيئة عمِل بها غيره».

ومَّا ينبغي التنبُّه له لإتمام موضوعنا هذا، فلتذكَّر أنَّ العرب في جاهليتها كانت قد وزَّعت مسؤوليات الحجِّ، وكان تفويض الحجيج من مزدلفة إلى منى بيد خزاعة، وقبل الإسلام كان دعاؤهم - كما يُقرأ في كتب الأدب - أن يقول أحدهم: «اللهم! أصلح بين نسائنا، وبغض بين رعائنا، واجعل أموالنا عند سَمَحائنا».

فالله - تعالى - إذا ما أراد خيرًا لهذه الأمة، جعل الأموال بأيدي السَّمَحَاءِ،

---

(١) فما قولك في حال المفسدين من الفنانين والمطربين وأهل الفساد ممَّن تبقى معاصي الشهوات بعدهم سنوات طويلة، وهي تعمل على إفساد الأخلاق والمروءات، والأسوأ منهم أهل الشبهات وأهل البدع ممَّن يتعلَّق بكلامهم سفهاء الأحلام، ويعملون على ترويحها، فما بالك بالذي كان سببًا في سنَّ قوانين الفساد والإفساد، وتلتزم بها الأمة؟! فهؤلاء يؤاخذون بذنوبهم وذنوب من يعمل بها بعد موتهم، فالويل لهم! إن لم يستفيقوا من غفلتهم، وينهضوا من حوبتهم.

وكانت نفوس من بأيديهم الأموال أكبر من أموالهم، وجعل المناصب بأيدي السُّمَحَاء، وكانت نفوس من بأيديهم المناصب أعظم من مناصبهم، حينئذٍ تنهأ الأمة.

إذًا، عقوبة تطفيف الميزان، وإنقاص الكيل، وانتقاص الحق، أن تؤخذ الأمة بالسَّنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان، ووالله! هذا يصلح لوزارة التموين لترفعه شعارًا، ويتعلَّم التجار، فتطفيف المكيال والميزان جريمة اجتماعية، وليست جريمة شخصية.

قال الأستاذ العلامة محمود شلتوت - رحمه الله -: «فإذا كان التطفيف في حفنة من بُرٍّ أو شعير، أو أوقية من سمن أو لبن؛ مجلبة للغضب الإلهي، فكيف بالتطفيف في الحقوق العامة والواجبات الدنيئة وغيرهما من كل ما يتقاضى عليه الإنسان أجرًا، أو يتحمل مسؤوليته؟! إِنَّ الغشَّ في رطلٍ من اللحم أقلُّ ضررًا من الغشِّ في الرأي والعمل والفتوى والإرشاد والتوجيه والوظيفة، وإنَّ الغشَّ في هذه النواحي غشٌّ يمتد خطره ويعظم خطبه ويهوي بالمجتمع إلى مكانٍ سحيق»<sup>(١)</sup>.



---

(١) «الوصايا العشر» (ص ٦٢).

## ظَلَمُ الرَّعِيَّةِ سَبَبٌ كَوْنِيٌّ لظَلَمِ السُّلْطَانِ، لَا مَسْوُوعٌ لَهُ

إِنَّ مَا يُذَكَّرُ فِي هَذَا الْبَابِ، هُوَ أَدَاءُ لَوَاجِبِ شَرْحِ الشُّنَنِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي بَيْنَهَا لَنَا اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، وَالَّتِي مِنْهَا - أَيْضًا - قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ مُطَالَبٌ بِأَدَاءِ الْحَقِّ الَّذِي فِي ذِمَّتِهِ، وَلَا يَكُونُ الظُّلْمُ مُسْتَنَدًا لِلظُّلْمِ، وَلَا الْإِسَاءَةُ مُسْوَعَةً لِأُخْتِهَا، لِذَا فَلَا يَظُنُّ الْمَسْئُولُ الْفَاسِدُ، وَالرَّاعِي الظَّالِمُ، وَالْمُتَنَفِّذُ الَّذِي يَتَحَكَّمُ بِمَصَالِحِ النَّاسِ، أَنَّ فُسَادَهُ وَتَجَبُّرَهُ وَظُلْمَهُ وَعُدْوَانَهُ عَلَى حَقِّقِ الْعِبَادِ سَيُغْفَرُ لَهُ إِذَا كَانُوا هُمْ عُصَاةً أَوْ فُسَاقًا؛ فَإِنَّ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ وَدِمَاءَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ حَرَمَةٌ تَحْرِيمًا مُعْلَظًا، بَلِ الْأَصْلُ أَنَّ ذَلِكَ مَصُونٌ لِّغَيْرِ الْمُسْلِمِ - أَيْضًا -.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ وَرَدَ الْوَعِيدُ شَدِيدًا فِي حَقِّ مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ فَشَقَّ عَلَى النَّاسِ، وَتَعَسَّفَ عَلَيْهِمْ، وَمَنْعَهُمْ حَقُّوقَهُمْ، وَلَا يُعْفِيهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَلَا يُكْفِّرُ عَنْهُ إِلَّا رَدُّ الْمَظَالِمِ، وَتَصْحِيحُ الْحَالِ، وَالتَّوْبَةُ إِلَى اللَّهِ، وَالْخُرُوجُ مِنَ الْمَظَالِمِ.

(١) رواه البخاري (١٧٣٩) ومسلم (١٢١٨).



عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرَبَ بِيَدِهِ على منكبي! ثمَّ قال: «يا أبا ذر! إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَزْيٌ وندامة، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»<sup>(١)</sup>.

وعن عوف بن مالك - رضي الله عنه - أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنْ شِئْتُمْ أَنْبَأْتُكُمْ عَنِ الْإِمَارَةِ، وَمَا هِيَ». فنَادَيْتُ بِأعلى صوتي: وما هي يا رسول الله؟! قال: «أَوَّلُهَا مَلَأَمَةٌ، وَثَانِيهَا نَدَامَةٌ، وَثَالِثُهَا عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ عَدَلَ، وَكَيْفَ يَعْدِلُ مَعَ أَقْرَبِيهِ؟!»<sup>(٢)</sup>.

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللَّهُمَّ! مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»<sup>(٣)</sup>.

وعن معقل بن يسار - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ رَاعٍ اسْتُرْعِيَ رَعِيَّةً فَعَشَّهَا فَهُوَ فِي النَّارِ»<sup>(٤)</sup>.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ الشَّيْخُ الزَّانِي، وَالْعَائِلُ الْمَرْهُو، وَالْإِمَامُ الْكَذَّابُ»<sup>(٥)</sup>.

(١) رواه مسلم (١٨٢٥).

(٢) رواه البزار في «مسنده» (١٨٨/٧) رقم (٢٧٥٦)، والطبراني في «الكبير» (٧١/١٨) رقم (١٣٢)، وحسنه شيخنا الألباني في «صحيح الترغيب» (٢١٧٣).

(٣) رواه مسلم (١٨٢٨).

(٤) رواه أحمد (٢٥/٥)، ومسلم في «صحيحه» (١٤٦١).

(٥) رواه النسائي (٢٥٧٥)، وسنده صحيح.

وروى عمرو بن مرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من إمام يغلق بابه دون ذي الحاجة والحلة والمسكنة، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته»<sup>(١)</sup>.

بل في حديث صحيح عظيم جدًا خرَّجه أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً: «ما من أمير عشرة، إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً، لا يفكه إلا العدل، أو يوبقه الجور»<sup>(٢)</sup>.

وروى البيهقي - رحمه الله - في «الشعب» عن محمد بن عبد الله العتبي، قال: «أتى أعرابي والياً، فقال له الوالي: لتقولن الحق أو لأوجعنك! فقال: وأنت - أيضاً - فاعمل به؛ فوالله! لَمَا وَعَدَكَ الله به أعظم مما وعدتني به من نفسك»<sup>(٣)</sup>.  
كان هذا استطراداً مهماً في هذه النقطة، حتى يعرف كل واحد، ولأننا نأمل لأنفسنا ولإخواننا المسلمين أن يكون الإصلاح شاملاً، والتوبة عامة، والخير غامراً، سائلين الله توفيقه وفضله وإمداده.



(١) رواه الترمذي (١٣٣٢)، وسنده صحيح.

(٢) رواه أحمد (٤٣١/٢)، وسنده قوي، والحديث صحيح، وخرَّجته مع بيان طرقه في تعليقي على «فضيلة العادلين» (رقم ٧) لأبي نعيم الأصفهاني.

(٣) «شعب الإيمان» (٢٩/١٠) رقم (٧١٢١).

## آثار منع الزكاة في الدنيا والآخرة

وأما الذنب الثالث؛ فيقول النبي ﷺ: «وَمَا مَنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْمَطَرَ، وَلَوْ لَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا».

هذا المقياس يصلح لمن؟ هذا يصلح للأرصاد الجوية، أدّوا الزكوات تُمَطَّرُوا، وقد رأينا بأعيننا في سنة من السنوات، عندما بذل أهل الأردن أموالاً كثيرةً وزكواتٍ عظيمةً ليسدّوا حاجة إخوانهم أهل العراق عندما نُكبوا، فأنزل الله علينا مطراً غزيراً عظيماً، وهكذا فإنّك تستطيع أن تعرف زكوات الناس أدّيت أم لم تُؤدَّ من موسم المطر.

قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٤﴾ يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿[التوبة: ٣٤ - ٣٥].

ويقول النبي ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُخْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فُتُكْوَىٰ بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَىٰ سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَإِلَيْلُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمَنْ حَقَّهَا حَلَبَهَا يَوْمَ وَرْدِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؛ بَطِخَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقِرَ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا، تَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أَوْ لَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، بَطِخَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقِرَ لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءٌ وَلَا جَلْحَاءٌ وَلَا عُضْبَاءٌ، تَنْطِحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطْوُهُ بِأَظْلَافِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أَوْ لَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «وفي ذلك معاملة له»<sup>(٢)</sup> بنقيض قصده؛ لأنَّه قصدَ منعَ حقِّ الله منها، وهو الارتفاق والانتفاع بما يمنعه منها، فكان ما قصدَ الانتفاع به أضرَّ الأشياءِ عليه.

والحكمة في كونها تُعادُ كُلُّها، مع أنَّ حقَّ الله فيها إنَّما هو في بعضها؛ لأنَّ الحقَّ في جميع المالِ غيرُ متميِّزٍ، ولأنَّ المالَ لَمَّا لَمْ تُخْرَجْ زكَّاتُه غيرُ مطهَّرٍ»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «من أحبَّ شيئًا سوى الله - تعالى -، ولم تكن محبَّته له لله - تعالى -، ولا لكونه مُعينًا له على طاعة الله - تعالى -؛ عُدَّ به في الدنيا

(١) رواه مسلم (٩٨٧).

(٢) أي: للمنع الزكاة.

(٣) «فتح الباري» (٣/٢٦٩).

قبل يوم القيامة، كما قيل:

أَنْتَ الْقَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ فَاحْتَرِ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوَى مَنْ تَصْطَفِي

فإذا كان يومُ المعادِ؛ وَلَى الْحَكْمُ الْعَدْلُ - سبحانه - كُلُّ مُحِبٍّ ما كان يُحِبُّهُ فِي الدُّنْيَا فَكَانَ مَعَهُ؛ إِمَّا مَنَعًا أَوْ مَعَذَّبًا، ولهذا يُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الْمَالِ ما لَهُ شَجَاعًا أَقْرَعَ يأخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يعني: شِدْقَيْهِ -، يقول: أنا مالِك! أنا كَنْزُك! وَيُصَفَّحُ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نارٍ يَكْوِي بِهَا جَبِينَهُ وَجَنِبَهُ وَظَهْرَهُ»<sup>(١)</sup>.

وقال - رحمه الله -: «وَتَأْمَلُ! الْحِكْمَةُ فِي حَبْسِ اللَّهِ - عز وجل - الْغِيثُ عَنْ عِبَادِهِ، وَابْتِلَاءُهُمْ بِالْقَحْطِ إِذَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ وَحَرَمُوا الْمَساكِينَ، كَيْفَ جُوزُوا عَلَى مَنَعِ ما لِلْمَساكِينَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ، بِمَنَعِ اللَّهِ مَادَّةَ الْقُوَّةِ وَالرِّزْقِ وَحَبْسِهَا عَنْهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ بِلِسَانِ الْحَالِ: مَنَعْتُمُ الْحَقَّ؛ فَمُنِعْتُمُ الْغِيثَ، فَهَلَّا اسْتَنْزَلْتُمُوهُ بِبَذْلِ ما لِلَّهِ قَبْلَكُمْ؟!»<sup>(٢)</sup>.

وَصَدَقَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما يَبْخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، ﴿وَأَمَّا مَنْ يَبْخُلْ وَأَسْتَفْتَى﴾<sup>(٨)</sup> وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى<sup>(٩)</sup> فَسَيُسِرُّهُ لِلْعُسْرَى<sup>(١٠)</sup> وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ٨ - ١١].

بل دَلَّ كِتَابُ اللَّهِ - تعالى - على أَنَّ الكَوَارِثَ التي تَنْزِلُ بِالَّذِينَ يَمْنَعُونَ حَقَّ اللَّهِ الْوَاجِبَ فِي أَمْوَالِهِمْ، لَيْسَتْ قَاصِرَةً عَلَى مَنَعِ الْمَطَرِ، بَلْ إِنَّ مِنْ آثارِ ذَلِكَ: تَعْرِضُ أَمْوَالُهُمْ جَمِيعًا لِلتَّلَفِ وَالْهَلَاكِ فِي الدُّنْيَا - أَيْضًا -.

(١) «إِغَاثَةُ الْلَهْفَانِ» (١/ ٣٨ - ٣٩).

(٢) «مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ» (١/ ١٧٧).

قال - تعالى :- ﴿ إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَنَافَ عَلَيْهِ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُرُّ تَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسْتَعِينُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُوهُمْ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَبْرَأَنَّ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يَبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ [القلم: ١٧ - ٣٣].

فهذه الجنة؛ وهي البستان الناصر الذي كانت ثماره وافرة، لما تواطأ أصحابه وأنفقوا على حرمان المساكين من خيره، واجتمعوا على أن يمنعوا حقَّ الله فيه، أفاقوا على جنتهم تلك ذاك الصباح فإذا هي ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ أي: محترقة كالليل الأسود، وقيل: المعنى أنَّها كالأرض المحصودة، لم يبق منها سوى هشيمٍ وحطبٍ وعيدانٍ يابسة لا يُنتفع بشيءٍ منها، ومهما يكن، فقد حلت بها الكارثة، ولم ينفطنوا إلى جَنَائَتِهِمْ وسوء صنيعهم إلاَّ بعد فوات الأوان.

قال ابن كثير - رحمه الله :- «قال الله - تعالى :- ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أي: هكذا عذابٌ من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حقَّ المسكين والفقراء وذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفرًا.

﴿وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذابُ الآخرة أشقُّ»<sup>(١)</sup>.

فنسأل الله - تعالى - العافية، ونعوذ بوجهه الكريم من شرور نفوسنا ومن

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ١٩٧).

شُحَّها، ومن سيئات أعمالنا، فالإنسان إذا لم يُعالج شُحَّ نفسه فهو كما وصفه خالقُه العليمُ به - سبحانه - بأنَّه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢١].

قال بشر الحافي: «بقاءُ البُخلَاءِ؛ كَرُبُّ على قلوبِ المؤمنين»<sup>(١)</sup>.

وخرَّج البخاريُّ في «الأدب المفرد»<sup>(٢)</sup> من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟» قلنا: جَدُّ بن قيس، على أَنَّا نُبْخُلُهُ! قال: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟! بل سَيِّدُكُمْ عمرو ابن الجموح».

وكان عمرو على أصنامهم في الجاهلية، وكان يُولِّم عن رسول الله ﷺ إذا تزوَّج.

فالجودُ والكرم والصدقة من خصال الإيمان<sup>(٣)</sup>، ومنع الزكاة من البُخل والشُّحِّ، وكما سمعنا في الحديث عقوبته عقوبةً عامَّةً، فهو جريمةٌ جماعيةٌ في حقِّ جماعة المسلمين - أيضًا - ينالُ ثؤمها الجميع، بالإضافة إلى عقوبة المانع في شخصه في الدنيا والآخرة.

وَأَمَّا الْمُتَرَفُّونَ الَّذِينَ أَبْطَرَتْهُمْ النِّعْمَةُ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَحْمِلَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ والشكر والعمل الصالح وأداء الحقوق، فإنَّهم بتكذيبهم وإعراضهم يضعون أنفسهم تحت الوعيد الشديد، ولا يتنبَّهون أنَّ سيفَ النِّقْمَةِ الإلهيةِ يوشكُ أَنْ يَخْرُزَ رقابَهُمْ.

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ٣٥٠).

(٢) برقم (٢٩٦)، وصححه شيخنا الألباني - رحمه الله - .

(٣) فصل ذلك سراج الدين البلقيني في كتابه «ترجمان شعب الإيمان»، وفرغتُ - والله الحمدُ - من تحقيقه.

قال - تعالى -: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا  
 آخَرِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا  
 أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْآ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ  
 دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

قال ابن عاشور: «وفي ﴿كم﴾ الدالة على كثرة العدد إيماءً إلى أن هذه  
 الكثرة تستلزم عدم تحلف إهلاك هذه القرى، وبضميمة وصف تلك الأمم  
 بالظلم - أي: الشرك - إيماءً إلى سبب الإهلاك، فحصل منه ومن اسم الكثرة معنى  
 العموم، فيعلم المشركون التهديد بأن ذلك حال بهم لا محالة بحكم العموم، وأن  
 هذا ليس مراداً به قرية معينة».

قال: «والقصم: الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التثام ولا انتفاع»<sup>(١)</sup>،  
 واستُعير للاستيصال والإهلاك القوي كإهلاك عادٍ وثمود وسبأ»<sup>(٢)</sup>.

وقال - أيضاً -: «وقوله - تعالى -: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُلُونَ﴾ من جملة التهكم، وذكر  
 المفسرون في معنى ﴿تَشْكُلُونَ﴾ احتمالات ستة؛ أظهرها أن المعنى: ارجعوا إلى ما  
 كنتم فيه من النعيم، لتروا ما آل إليه، فلعلكم يسألكم سائل عن حال ما أصابكم؛  
 فتعلموا كيف تجيئون؛ لأن شأن المسافر أن يسأله الذين يقدم إليهم عن حال البلاد  
 التي تركها من خُصْبٍ ورخاءٍ أو ضِدِّ ذلك، وفي هذا تكملة للتهكم»<sup>(٣)</sup>.

(١) قال البقاعي: «وأشار بالقصم - الذي هو أفطع الكسر - إلى أنها كانت باجتماع الكلمة  
 وشدة الشكيمة كالحجر الرخام في الصلابة والقوة». «نظم الدرر» (٥ / ٧١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٧ / ٢٤).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٧ / ٢٧).



وقد أفاضَ الزمخشري - رحمه الله - في بيان دلالات هذا التهكُّم، وبلاغة وقوعه على نفوسِهِم ونفوس من يجب أن يتعظ بها أصابهم؛ فقال: «والركض: ضرب الدابة بالرجل؛ ومنه قوله - تعالى -: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢]، فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هارين منهزمين من قريتهم لِمَا أدركتهم مقدمة العذاب، ويجوز أن يشبَّهوا في سرعة عَدُوهِم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابِّهم، ف قيل لهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾، والقول محذوف... ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ﴾ من العيش الرَّافِه والحال النَّاعمة، والإتراف: إبطار النعمة، وهي التَّرفُّه ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْكِرُونَ﴾ تهكُّم بهم وتوبيخ؛ أي: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غداً عما جرى عليكم، ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم، وترتَّبوا في مراتبكم، حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكُون أمره ويُنفذ فيه أمرُكم ونهيكم، ويقول لكم: بم تأمرون؟ وبماذا ترسمون؟ وكيف نأتي ونذُر؟ كعادة المُنْعَمِينَ المُخَدَّمِينَ، أو يسألكم النَّاس في أُنديتكم المَعَاوِن في نوازل الخطوب، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم، ويستضيئون بآرائكم، أو يسألكم الوافدون عليكم والطُّمَّاعُ يستمطرون سحائب أكفكم، ويمتروَن أخلافَ معروفكم وأياديكم، إمَّا لأنَّهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء النَّاس وطلب الثناء، أو كانوا بخلاء، ف قيل لهم ذلك تهكِّمًا إلى تهكم، وتوبيخًا إلى توبيخ»<sup>(١)</sup>.

فانظر! كيف تضمَّن هذا التحذيرُ الإلهيُّ الجليلُ المَهيبُ لفتَ نظرِ

(١) «تفسير الزمخشري» (٣/ ١٠٦ - ١٠٧).

الْمُتْرَفِينَ إِلَى أَنْ يُنْقِذُوا نَعِيمَهُمْ بِالشُّكْرِ، وَيَسْتَدِيمُوا أُبْهَةَ النِّعْمَةِ بِأداء الحقوق،  
وإِلَّا فَهَمٌ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى أَنْ يَزُولَ عَنْهُمْ كُلُّ نَعِيمٍ، وَيُسْلَبُوا كُلُّ نِعْمَةٍ، حَتَّى أَدَقَّ  
وَأَخْفَى مَا تَشْتَهِيهِ النَّفُوسُ.

وقد ذكر أبو حيان - رحمه الله - وجهًا جميلًا في بلاغة نداء التهكم هذا؛  
فقال:

«أهل هذه القرى كانوا باغترارهم يَرَوْنَ أَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ، وَأَنَّهُ لَوْ جَاءَهُمْ  
عَذَابٌ أَوْ أَمْرٌ؛ لَمْ يَنْزِلْ بِهِمْ حَتَّى يَتَخَاصَّمُوا وَيُسْأَلُوا عَنْ وَجْهِ تَكْذِيبِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ،  
فِيَحْتَجُّونَ هُمْ عِنْدَ ذَلِكَ بِحُجَجٍ تَنْفَعُهُمْ فِي ظَنِّهِمْ، فَلَمَّا نَزَلَ الْعَذَابُ دُونَ هَذَا  
الَّذِي أَمَلُوهُ، وَرَكَضُوا فَارِّينَ، نَادَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى وَجْهِ الْهَزْءِ بِهِمْ: ﴿لَا تَرْكُضُوا  
وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ﴾ ﴿كَمَا كُنْتُمْ تَطْمَعُونَ، لِسَفَاهِهِ  
آرَائِكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وهذا على القولِ بأنَّ الذين يقولون لهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا...﴾ هم ملائكةُ  
العذاب، وهو أحد الوجوه المذكورة في الآية، وأيًا ما كان القائل، وسواءً كان ذلك  
يقال على الحقيقة أو على وجه التقدير، فهذا المعنى البديع متحقق، بل لا تكاد تخلو  
منه نفسٌ مقيمٌ على التفريطِ والمعصية، فإنه لولا تغييرُ الشيطانِ به بإيhamه امتدادَ  
عُذْرِهِ، لَمَا سَوَّفَ وَطَالَ أَمَلُهُ، وَلَوْ أَيقَنَ بِقُرْبِ الْعَذَابِ لَمَا مَاطَلَ فِي التَّوْبَةِ!

فسبحان الله! ألم يجعل الله من أسبابِ هلاكِ القرى فسقَ مُتْرَفِيهَا؟! فقال  
- عزَّ من قائلٍ -: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٩).

فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿[الإسراء: ١٦].

فالنَّقِيْضُ الطَّبِيعِيُّ لِلنُّبُوَّةِ: مَوْقِعُ الْمُتَرْفِينَ وَالْمُسْرِفِينَ، كَمَا تَشْهَدُ لَهُ هَذِهِ  
الْآيَةُ، وَيَشْهَدُ لَهُ - أَيْضًا - مَجْرِيَاتُ التَّارِيخِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ، فَالْعِلَاقَةُ  
بَيْنَهُمَا تَطَارُدٌ وَتَنَاقُضٌ، وَلَا سِيَّما إِنْ كَانُوا الْمَسْئُولِينَ، وَتَشْهَدُ لَهُ قِرَاءَةُ ﴿أَمْرُنَا﴾  
«بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ مَفْتُوحَةً؛ أَيْ: سَلَّطْنَا شَرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ،  
أَوْ جَعَلْنَاهُمْ أَمْراءَ مُسَلِّطِينَ»<sup>(١)</sup>.  
فَاللَّهُمَّ! سَلِّمْ.

\* \* \*

---

(١) «معجم القراءات» (٣٣ / ٥) للخطيب، ويُنظر: «السبعة» (٣٧٩)، «إعراب القراءات  
السبع وعللها» (٣٦٦ / ١)، «البحر المحيط» (٢٠ / ٧).

## آثار نقض العهد

يقول النبي ﷺ: «لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ».

من أراد أن يعرف لم تضع بلاد المسلمين، ولم تُسلب منهم أرضهم، فقد جاءه الجواب؛ ما نقض قوم عهد الله وعهد رسوله ﷺ إلا سَلَّطَ الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذ بعض ما في أيديهم.  
معنى (العهد):

ذُكر العهد في كتاب الله كثيرًا، وموارده في كتاب الله على ثلاثة أنحاء: أن العهد قد يكون من الله للعبد، وقد يكون من العبد إلى الله، وقد يكون من العبد إلى عبدٍ مثله.

فَمِنْ عَهْدِ اللَّهِ إِلَى عِبِيدِهِ؛ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَسْبِقَنِي أَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۖ وَإِنْ أُغْبِذُوا فِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝﴾ [يس: ٦٠ - ٦١]، وقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ ۖ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ۖ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾ [آل عمران: ١٨٣].

فالعهد هنا بمعنى التكليف والإلزام والإيجاب.

ومثله في المعنى: الميثاق الذي يأخذه الله على عباده وأنبيائه، فهو بمعنى التكليف والإلزام والإيجاب، ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ومن عهد العبد لربه أو معاهدته له؛ قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥]، فهذا مثال لقوم عاهدوا ثم نقضوا ونكثوا؛ وهم المنافقون يوم الخندق، وقد ذكر الله في مقابلها مدحه لأولئك المؤمنين الصادقين، وهم أصحاب النبي ﷺ، الذين عاهدوا ثم وفوا بعهدهم، وقاموا بحقه، فقال - تبارك وتعالى -: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وأما العهد من العبد لمثله؛ فكما ورد في معاهدة المسلمين للمشركين، وهو هنا في معنى الصلح والأمان؛ كما قال - تعالى -: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

وإذا عاهد الإنسان ربه - تبارك وتعالى - على شيء من الطاعة والمعروف، فإنَّ عهده يكون في معنى النذر واليمين، ويأخذ أحكامهما.

ولذا فقد بَوَّب البخاري في «صحيحه»<sup>(١)</sup> (باب: عهد الله - عز وجل -)، وخرَّج تحته حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: «من حلف على يمينٍ كاذبةٍ ليقطع بها مال رجلٍ مسلمٍ - أو قال: أخيه -؛ لقي الله وهو عليه

(١) برقم (٦٦٥٩).

غضبان»، فأُنزل الله تصديقه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾.

وتتمّة الآية: ﴿وَأَيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

فكان العهد هنا من العبد لربه، وهو في معنى اليمين.

قال الرَّاعِب: «العَهْدُ: حفظُ الشيء ومراعاتُهُ حالًا بعدَ حالٍ، وسُمِّيَ (المَوْثُوقُ) الذي يلزم مراعاتُهُ: عهدًا. قال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَسْئُورٌ﴾ [الإسراء: ٣٤] أي: أوفوا بحفظ الأيمان، قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: لا أجعل عهدي لمن كان ظالمًا، قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

وعَهْدَ فلانٍ إلى فلانٍ، يَعْهَدُ؛ أي: ألقى إليه العهدَ وأوصاه بحفظه، قال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ [طه: ١١٥]، ﴿أَلَمْ نَعْهِدْ إِلَىٰكُمْ﴾ [يس: ٦٠]، ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٢٥].  
وعهدُ الله تارةً يكونُ بما رَكَزَهُ في عقولنا، وتارةً يكونُ بما أَمَرْنَا به بالكتابِ وبِالْإِسْنَةِ رُسُلِهِ، وتارةً بما نلتزمُهُ وليسَ بِلَازِمٍ في أصلِ الشَّرْعِ، كالنَّذْرِ وما يجري مجراها»<sup>(١)</sup>.

فحقيقة العهد في القرآن تدور إذن على هذه المعاني، وكذلك في السُّنَّة - أيضًا -.

---

(١) «المفردات» (٢/ ١٣١).

قال في «النهاية»<sup>(١)</sup>: «وقد تكرر ذكر العهد في الحديث، ويكون بمعنى: اليمين والأمان والذمة والحفاظ ورعاية الحرمة والوصية، ولا تخرج الأحاديث الواردة فيه عن أحد هذه المعاني».

معنى (نقض العهد):

قال في «لسان العرب»<sup>(٢)</sup>: «النقض: إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء». وقال ابن فارس: «النون والقاف والضاد أصل صحيح يدل على نكث شيء»<sup>(٣)</sup>.

وفي «المصباح المنير»<sup>(٤)</sup>: «نقضت الحبل نقضاً - أيضاً -: حللت برمه. ومنه يقال: نقضت ما أبرمه: إذا بطلته. وانتقض هو بنفسه، وانتقضت الطهارة: بطلت. وانتقض الجرح بعد برئه، والأمر بعد التثامه: فسد».

أقول: فالنقض إذاً؛ هو ما يؤول بالعقدة إلى الانحلال والانفراط والفساد، ومنه سُميت الأعمال والأقوال التي تُخرج صاحبها من الإيمان وتسبب في كفره - عياداً بالله -: (نواقض)؛ لأنها تؤول بعقدة الإيمان التي في القلب إلى الانحلال والانفكاك والانتكاث.

وعلى هذا: فنقض عهد الله وعهد رسوله، هو التنصل والتحلل من طاعتهما الواجبة واللازمة، والإخلال بحقوق العهد الذي تلقاه عنهما المكلف، سواءً فيما

---

(١) (٣/٣٢٥).

(٢) (٧/٢٤٢) مادة (نقض).

(٣) «مقاييس اللغة» (٥/٤٧٠).

(٤) (٢/٦٢٢).

يَتَرْتَّبُ فِي ذِمَّتِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ تَعَبُّدًا وَتَعْظِيمًا وَاتِّبَاعًا، أَوْ مَا كَانَ يَتَعَلَّقُ بِذِمَّةِ الْعَبْدِ مِنْ حَقُوقِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَمِنْ صُورِ الْعُهُودِ الَّتِي جَاءَ التَّشْدِيدُ فِي شَأْنِهَا، عَهْدُ الْمُسْلِمِ لغيرِ الْمُسْلِمِ، وَتَأْمِينُهُ عَلَى نَفْسِهِ بِمَوْجِبِ الصُّلْحِ الَّذِي يَعْقِدُهُ الْمُسْلِمُونَ مَعَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ»<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا؛ لَمْ يَرَحْ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رَجَعَهَا تَوَجَّدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً، فَقُتِلَ؛ فَقَتْلُهُ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ؛ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»<sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ: «وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ»<sup>(٤)</sup>.

وَمَا زَالِ الْمُسْلِمُونَ مُعْظَمُونَ لِهَذَا الْأَمْرِ، وَيَحْرُصُونَ عَلَى رِعَايَتِهِ، وَيَعْلَمُونَ الْوَعِيدَ الْوَارِدَ بِشَأْنِ إِخْفَارِ الذِّمَّةِ وَخِيَانَةِ الْعَهْدِ.

(١) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (٢٦٦٠)، وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣١٦٦).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٨٤٨).

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣١٧٩).



بل في بعض الفتوح التي وقعت في زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ،  
أجازَ عُمَرُ - رضي الله عنه - عهدًا كتبه عبدٌ من عبيد المسلمين للمشركين دون  
مشورة الجيش، فصَحَّحَ عمر ذلك العهد، تعظيمًا ل شأن أن يبذل المسلمون ذمَّتهم  
ثمَّ يُخفروها، فيظهرون حينها بمظهر الخائنين.

فعن فضيل بن زيد الرقاشي - وقد كان غزا على عهد عمر بن الخطاب  
سبع غزوات - قال: بعثَ عمر جيشًا فكنْتُ في ذلك الجيش، فحاصرنا أهلَ  
سُهْرِيَّاج<sup>(١)</sup>، فلمَّا رأينا أنَّنا سنفتحها من يومنا ذلك، قلنا: نرجع فنقيِّل، ثمَّ نروحُ  
فنفتحها، فلمَّا رجعنا، تخلَّفَ عبدٌ من عبيد المسلمين، قرأَ عنهم قرأَ طُئُوهُ، فكتبَ  
لهم أمانًا في صحيفة، ثمَّ شدَّه في سهم، فرمى به إليهم، فخرجوا.

فلمَّا رجعنا من العشيِّ وجدناهم قد خرَّجُوا! قلنا لهم: ما لكم؟ قالوا:  
أَمْتَمُّونَا، قلنا: ما فعلنا! إنَّما الَّذي أَمَنَكُم عبدٌ لا يَقْدِرُ على شيءٍ، فارجعوا حتى  
نكتبَ إلى عمر بن الخطاب، فقالوا: ما نعرفُ عبدَكُم من حرَّكُم! ما نحن براجعين،  
إن شئتم فاقتلونا، وإن شئتم ففُؤا لنا.

قال: فكتبنا إلى عمر، فكتبَ عمر: إنَّ عبدَ المسلمين من المسلمين، ذمَّته  
ذمَّتُهُمْ.

قال: فأجازَ عمرُ أمانه<sup>(٢)</sup>.

---

(١) قال ياقوت: «(سُهْرِيَّاج) بلدةٌ بفارس... وقال بعضهم: إنَّ حصنَ (سيران) يُدعى:  
(سُورِيَّانج)، فسَمَّته العربُ: (سهرياج)». «معجم البلدان» (٣/ ٢٩٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (١٢/ ٤٥٤) وأبو عبيد في «الأموال» (١/ ٢٩٥)  
- مختصرًا -، والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ١٩٤) برقم (١٧٢٦٥) - مختصرًا -، وصَحَّحه  
ابن الملقن في «البدر المنير» (٩/ ١٧٧)، ويُنظر لـ (العهد) مع المستأمنين والكافرين =

وهذه رعاية عظيمة للعهد، وعناية بشأنه.

ولذا فإننا نجد ربنا - تبارك وتعالى - الموصوف بصفات الكمال والجلال، الذي له الصفات العلى؛ أي: الصفات التي بلغت في علو القدر الغاية والمنتهى، نجده - تبارك وتعالى - قد عامل الكفار والمنافقين معاملة من جنس معاملتهم معه، وقابل إساءتهم بما يستحقون؛ لأنّ جزاءهم بالمثل حينئذ هو الكمال، وهو الحكمة والعدل.

فنجده - تعالى - يقول: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ويقول: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]، وقال - تعالى - أيضًا: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١١﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤ - ١٥].

وهكذا، إلّا في الخيانة، فإنّ الخيانة لا تكون فضيلة ولا تكون محمودّة أبدًا، لا ابتداءً ولا جزاءً، بل هي نقيصة في كلّ ظروفها وصورها، ولذا قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١]، فقال: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، ولم يقل: (فخانهم) - مثلاً -، ولا توعدهم أن يقابل خيانتهم بخيانة، ولا شرع لنبيه ﷺ أن يفعل ذلك، بل حتى عندما يتوجّس المسلمون خيفة من غدر الكفار، ويشكّون في مصداقيتهم في وفائهم بالعهد

---

= وأحكامها مع الأدلة: «الإنجاد في أبواب الجهاد» (٢/ ٢٩٣ - ٣٣٨ بتحقيقي) لابن المناصف، فإنّه من (المهمّات)، ولا سيما في هذه الأوقات.

والتزامهم به، فلم يشرع الله - تعالى - المبادرة بالخيانة والنقض، بل شرع للمسلمين أن يقدموا للكفار بنقض العهد، ويخبروهم بالغائه وبطلانه قبل أن يُبادروا إلى أي فعل؛ فقال - تبارك وتعالى -: ﴿وَلِمَا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

ولذا فقد قال النبي ﷺ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»<sup>(١)</sup>.

وبهذا يظهر لنا الرابط بين معصية نقض العهد وبين الجزاء؛ بأن يسلط الله على المسلمين عدوًّا من غيرهم، فيأخذ منهم ويسلبهم بعض ما في أيديهم، وهو أن نقض العهد لما كان عدوانًا من المسلم بغير حق، كان الجزاء أن يُمكن غير المسلم من المسلم، فالله حكيم عدل، لا يُجافي أحدًا من خلقه برحم ولا قرابة، وإنها جزاء السيئة سيئةً مثلها، والله المستعان.

عن جبير بن نفير - رضي الله عنه - قال: «لَمَّا فُتِحَتْ مَدَائِنُ قُبُرُسَ<sup>(٢)</sup>، وقع الناس يقتسمون السببي ويفرقون بينهم، ويبكي بعضهم على بعض، فتنحى أبو الدرداء، ثم احتبى بحمائل سيفه، فجعل يبكي! فأتيته، فقلت: ما يبكيك يا أبا الدرداء؟! أتبكي في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله وأذل فيه الكفر وأهله؟!

فضرب على منكبيه، ثم قال: ثكلتك أمك يا جبير بن نفير! ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره! بينما هي أمة قاهرة ظاهرة على الناس، لهم الملك، حتى تركوا أمر الله، فصاروا إلى ما ترى، وإنه إذا سلط السبأ على قوم، فقد خرجوا

(١) رواه أبو داود (٣٥٣٦) والترمذي (١٢٦٤)، وسنده صحيح.

(٢) هي جزيرة (قبرص) المعروفة في البحر الأبيض المتوسط.

من عين الله، وليست لله بهم حاجة»<sup>(١)</sup>.

وصدق - رضي الله عنه -، وما كان أعظمَ اعتباره بها رأى يومئذٍ، رعايةً منه لقوله - تعالى - في نظراء هؤلاء من يهود بني النضير: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ أَلْفُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَكُنْ لِلْآبَةِصْرِ﴾ [الحشر: ٢].

وهل تنهار الأمم، وتخرب الأوطان، وتذل الشعوب، وتزول الحضارات، إلا بالذنوب؟!!

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وقد شاهد الناس عياناً، أنه من عاش بالمكر، مات بالفقر»<sup>(٢)</sup>.

فنسأل الله أن يردَّ المسلمين إلى دينهم ردًّا جميلاً، ويردَّ إليهم ما سلب من أراضيهم وديارهم.

العهد مع رسول الله ﷺ:

لو أخذنا إطلالةً سريعةً على حالنا مع أتباع سنَّه - عليه الصلاة والسلام - على كافة المستويات؛ أعني: في كلِّ مجالات الحياة، فكيف حالها؟ وما نصيبها من العمل والاهتمام؟

والله - تبارك وتعالى - قسم الذين آمنوا به وبرسوله ﷺ وصحبوه في حياته

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (رقم ٧٦٢)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ٢٩٠ - ٢٩١)

رقم (٢٦٦٠) - واللفظ له -، بسندٍ صحيح.

(٢) «إغائة اللهفان» (١/ ٦١٣).

إلى فئتين؛ فقال - تعالى -: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]،  
فهؤلاء هم المهاجرون - رضي الله عنهم -.

ثم قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وهؤلاء هم الأنصار - رضي الله عنهم -.

فأين أنا وأنت؟ أنا وأنت ينبغي أن نكون في فئةٍ ثالثة ذكرها الله بعد الفئتين السابقتين؛ وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

هذا مقام تعظيم السلف، واتباعهم على ما كانوا عليه من المنهج، وعلى طريقتهم المباركة في تقديم الوحي على كل شيء، وتقديم الرسول ﷺ على كل أحد، فكم نصيبنا منها؟

إنَّ بيننا وبينه موعدًا - عليه الصلاة والسلام -؛ وهو حوضه المورود في عرصات القيامة، فهناك سيُداو عنه أقوامٌ ويُطردوا بها غيرُوا وبدَّلوا، والفائزون هم أهل الاتِّباع الخالص، الذين يبذلون عقولهم وقلوبهم وجوارحهم في التحقق بها جاء به ﷺ علمًا وعملاً.

لا شكَّ أنَّ التقصير كبير، وشُوم المخالفة والبدعة جاثمٌ على الفرد والجماعة، وليس التقصير فقط، بل إنَّ تيارات الانتقاص والتنكُّر للسُّنة ورواتها وحمَلَتِهَا

- أيضًا - موجودة - يا للأسف - في الأمة الإسلامية، وتلعب دورها كاملاً في تحريف الدين وتشويهه، وذبح قيم الأمة وهويتها الأصلية تحت شعارات التجديد ودعاوى المواكبة وأشباهها، فليعتبر هؤلاء قبل فوات الأوان، قبل أن ينظمهم التاريخ - وهم على الشهرة حريصون - في سلك المنبوذين، والمُعاقبين على أعين الناس، فقد حفظت لنا بطون الكتب ما فيه عبرة.

هذا مع وجوب التنبيه إلى تنوع العقوبات التي يُجرىها الله - تعالى - بعدله وحكمته على المستكبرين على رسوله ﷺ، والمتأمرين على سُنَّته، فإنَّ أشكالها وأنواعها على ظواهرهم وبواطنهم لا تُحصى، وأخطرها وأعظمها تأثيراً ما يكون من الخذلان عن الهدى بما كسبت أيديهم، ومعاقتهم بالشُّكوك، كما قال شيخ الإسلام: «من تعودَ معارضةَ الشرعِ بالرأي، لا يستقرُّ في قلبه الإيمان»<sup>(١)</sup>.

وكما قال تلميذه الإمام ابن القيم: «من عرَّضَ عليه حقُّ فردّه فلم يقبله، عوقِبَ بفسادِ قلبه وعقله ورأيه»<sup>(٢)</sup>.

وهذا الباب، أعني باب اتِّباع النبي ﷺ، وتحصيل بركات مراعاة السُّنة، وبيان شؤم البدعة ومخالفة الهدى النبوي الشريف، بابٌ واسعٌ لا يُحاطُ به، وتحقيقُ هذا الباب علماً وعملاً هو حقيقة النصف الثاني من كلمة التوحيد: (وأشهد أنَّ محمداً رسولُ الله).

وفي الحديث المشهور في «الصَّحيحين»: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله»؛ فما المقصود بالهجرة إلى رسول الله ﷺ؟

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٨٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦٠).

هذه الهجرة واجبةٌ على كلِّ أحد، وقد كانت قديمًا بالهجرة إليه في المدينة،  
أيّام كانت الديار المحيطة بها معظمها ديار كُفر، فكانت - سابقًا - هجرةً حسيّةً  
ينتقل فيها المهاجرُ من مكانٍ إلى مكان.

لكنّ لهذه الهجرة جانبٌ لا ينفكُّ عنه أحد، بل يجبُ على كلِّ أحد، سواءً  
انتقلَ حسًّا من دارٍ كفرٍ إلى دارٍ إسلامٍ أم لم ينتقل؛ وهو هجرةُ الأفكار، والمفاهيم،  
والبِدَع، والعادات، المخالفة لما جاء به ﷺ، والتزامُ الوحي الذي أنزله الله على  
قلبه، والرّضى بما دلّ عليه من المسالك، والإيمان بأنّ هديّه خيرُ الهدى، وخبره  
أصدقُ الخبر، وسيرته أحمَدُ السّير.

«فاسمع الآن شأن هذه الهجرة والدلالة عليها، وحاسب نفسك بينك  
وبين الله، هل أنت من الهاجرين لها أو المهاجرين إليها؟

فحدّ هذه الهجرة: سَفَرُ النَّفْسِ في كلِّ مسألةٍ من مسائل الإيمان، ونازلةٍ من  
نوازل القلوب، وحادثَةٍ من حوادث الأحكام؛ إلى مَعْدِنِ الهُدَى، ومنبعِ النُّور  
المُتَلَقَّى من فَمِ الصَّادِقِ المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ  
يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

فكلُّ مسألةٍ طَلَعَتْ عليها شمسُ رسالته، وإلّا فاقدِفْ بها في بحار الظُّلمات،  
وكلُّ شاهدٍ عدَلَه هذا المزكّي الصّادق، وإلّا فعُدّه من أهل الرّيبِ والتّهمات، فهذا  
حدُّ هذه الهجرة.

فما للمقيم في مدينة طبعه وعوائده، القاطن في دارِ مَرْبَاهُ ومَوْلده، القائل:  
إِنَّا على طريقةِ آبائنا سالكون، وإِنَّا بحبلهم مستمسكون، وإِنَّا على آثارهم مقتدون،  
وما لهذه الهجرة؟!!

قد ألقى كله عليهم، واستند في معرفة طريق نجاته وفلاحه إليهم، معتذراً بأن رأيهم له خير من رأيه لنفسه، وأن ظنونهم وآراءهم أوثق من ظنه وحديثه.

ولو فشئت عن مصدر هذه الكلمة، لوجدتها صادرة عن الإخلاق إلى أرض البطالة، متولدة بين بعل الكسل وزوجته المالة.

والمقصود: أن هذه الهجرة فرض على كل مسلم، وهي مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله، كما أن الهجرة الأولى مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وعن هاتين الهجرةين يُسأل كل عبد يوم القيامة، وفي البرزخ، ويُطالَبُ بها في الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار.

قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين؟

وهاتان الكلمتان هما مضمون الشهادتين، وقد قال - تعالى -: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فأقسم - سبحانه - بأجل مُقسم به وهو نفسه - عز وجل -، على أنه لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله، حتى يُحَكِّمُوا رسولَ الله ﷺ في جميع موارد النزاع، وهو كل ما شجرَ بينهم من مسائل النزاع في جميع أبواب الدين، فإن لفظة (ما) من صيغ العموم، فإنها موصولة تقتضي نفى الإيمان إذا لم يوجد تحكيمه في جميع ما شجرَ بينهم.

ولم يقتصر على هذا حتى ضمَّ إليه انشراح صدورهم بحُكمه، حيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً - وهو الضيق والحصَرُ - من حكمه، بل يقبلوا حُكمه بالانشراح، ويقبلوه بالتسليم، لا أنهم يأخذونه على إغماض، ويشربونه على قذى، فإن هذا



مُتَنَافٍ لِلْإِيمَانِ، بل لا بد أن يكون أَخْذُهُ بِقَبُولٍ وَرِضًا وَانْشِرَاحِ صَدْرٍ<sup>(١)</sup>.

وَالسُّنَّةُ وَالْبِدْعَةُ صَرَّتَانِ، لَا يَأْخُذُ الْعَبْدُ مِنْ إِحْدَاهُمَا شَيْئًا إِلَّا شَغَلَهُ عَنْ مِثْلِهِ فِي الْأُخْرَى، فَالسَّعِيدُ مَنْ لَزِمَ الْحَقَّ، وَلَا يَبِيعُ هَذَا نَبِيَّ ﷺ بِأَيِّ شَيْءٍ، وَمِمَّا قَرَّرَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ بِعِبَارَةٍ بَدِيعَةٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى، قَوْلُهُ - بَرَدَ اللَّهُ مَضْجَعَهُ -: «وَالشَّرَائِعُ هِيَ غِذَاءُ الْقُلُوبِ وَقُوَّتُهَا... وَمَنْ شَأْنِ الْجَسَدِ إِذَا كَانَ جَائِعًا فَأَخَذَ مِنْ طَعَامٍ حَاجَتَهُ؛ اسْتَغْنَى عَنْ طَعَامٍ آخَرَ، حَتَّى لَا يَأْكُلَهُ إِنْ أَكَلَ مِنْهُ إِلَّا بِكَرَاهَةٍ وَتَجَشُّمٍ، وَرَبِمَا صَرَّهَ أَكْلُهُ، أَوْ لَمْ يَتَنَفَّعْ بِهِ، وَلَمْ يَكُنْ هُوَ الْمُغَذِّي لَهُ الَّذِي يُقِيمُ بَدَنَهُ، فَالْعَبْدُ إِذَا أَخَذَ مِنْ غَيْرِ الْأَعْمَالِ الْمَشْرُوعَةِ بَعْضَ حَاجَتِهِ، قَلَّتْ رَغْبَتُهُ فِي الْمَشْرُوعِ وَانْتِفَاعُهُ بِهِ، بِقَدْرِ مَا اعْتَاضَ مِنْ غَيْرِهِ، بِخِلَافِ مَنْ صَرَفَ نَهْمَتَهُ وَهَمَّتَهُ إِلَى الْمَشْرُوعِ، فَإِنَّهُ تَعَظَّمُ مَحَبَّتُهُ لَهُ وَمَنْفَعَتُهُ بِهِ، وَيَتِمُّ دِينُهُ وَيَكْمُلُ إِسْلَامُهُ.

وَلِذَا تَجَدُّ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ سَمَاعِ الْقَصَائِدِ لَطَلَبِ صَلَاحِ قَلْبِهِ؛ تَنْقُصُ رَغْبَتُهُ فِي سَمَاعِ الْقُرْآنِ، حَتَّى رُبَّمَا كَرِهَهُ! وَمَنْ أَكْثَرَ مِنَ السَّفَرِ إِلَى زِيَارَاتِ الْمَشَاهِدِ وَنَحْوِهَا؛ لَا يَبْقَى لِحُجِّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ مَا يَكُونُ فِي قَلْبِ مَنْ وَسَّعَتْهُ السُّنَّةُ، وَمَنْ أَدْمَنَ عَلَى أَخْذِ الْحِكْمَةِ وَالْآدَابِ مِنْ كَلَامِ حُكَمَاءِ فَارَسٍ وَالرُّومِ، لَا يَبْقَى لِحِكْمَةِ الْإِسْلَامِ وَآدَابِهِ فِي قَلْبِهِ ذَاكَ الْمَوْقِعَ، وَمَنْ أَدْمَنَ قِصَصَ الْمُلُوكِ وَسِيرَتِهِمْ؛ لَا يَبْقَى لِقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَسِيرَتِهِمْ فِي قَلْبِهِ ذَاكَ الْاهْتِمَامَ، وَنَظِيرُ هَذَا كَثِيرٌ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ»

(١) «الرسالة التبوكية» (ص ٢٣ - ٢٦) للإمام ابن قيم الجوزية.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٤٢ - ٥٤٣).

فَإِنَّكَ فَالْفَرْحُ ﴿يونس: ٥٨﴾، وقد دارت أقوال السلف على أن فضل الله ورحمته: الإسلام والسنة، وعلى حسب حياة القلب يكون فرحه بها، وكلما كان أرسخَ فيها كان قلبه أشدَّ فرحاً، حتى إن القلب ليرْقُصُ فرحاً - إذا باشر رُوحَ السَّنة - أحزن ما يكون النَّاسُ، وهو ممتلئٌ أمناً أخوف ما يكون النَّاسُ»<sup>(١)</sup>.

أمَّا البدعةُ فهي زورٌ، وكذبٌ، وباطلٌ، وافتراءٌ على الله، وشؤمٌ على العاملِ بها، بل على الأمة بأسرها، ولو أفنى فيها الإنسانَ عمره لم يكن له بعد ذلك إلاَّ الخسران، إلا أن يكون جاهلاً يعذُّره الله - تعالى - بفضلِه ورحمته.

ومن شؤمها على صاحبها، أنَّها تكون له سيئةٌ تعيشُ من بعده، وتسويداً مستمراً لصحيفته إذا كان هو من اخترعها أو أحيها بعد موتها ودعا النَّاسَ إليها، فإنَّ الإنسانَ قد يفعلُ الفعلَ أو يقولَ القولَ ولا يحيطُ بآثاره ونتائجه، فيعود عليه وبالأعظمِ لم يكن في حسابه ولا في تصوُّره، ويكون مؤاخذاً في الشرع بعينِ فعله وقوله، وبما تسبَّب به قوله وفعله كذلك؛ وذلك لأنَّ الله - تبارك وتعالى - يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، ولقول النبي ﷺ: «ما من نفس تقتل ظمأً؛ إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ منها»<sup>(٢)</sup>، وقوله - عليه الصلاة والسلام -: «وإنَّ أحدكم ليتكلم بالكلمة من سَخَطِ الله ما يظنُّ أن تبلغ ما بلغت»<sup>(٣)</sup>، فيكتب الله عليها سَخَطَه إلى يوم يلقاه»<sup>(٤)</sup>، وقوله ﷺ: «ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة؛ كان عليه وزرها

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٩ - ١٠).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٥) ومسلم (١٦٧٧).

(٣) في رواية للترمذي في «جامعه» (٢٣١٤) من حديث أبي هريرة: «لا يرى بها بأساً».

(٤) رواه الترمذي (٢٣١٩) من حديث بلال بن الحارث المزني، وسنده صحيح.

ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»<sup>(١)</sup>، فهذه النصوص أدلة واضحة على الشُّوم الذي يناله صاحب البدعة منها، وقديماً قيل: السَّعيدُ من إذا مات ماتت ذنوبه معه.

بل المبتدع ذليلٌ عند الله وعند النَّاسِ، وهذا من سَوَاءِ البدعة وشؤمها وأنكادها على أهلها - أيضاً -.

قال الإمام الشَّاطِبيُّ - رحمه الله -:

«وَأَمَّا أَنَّ الْمُبْتَدِعَ يُلْقَى عَلَيْهِ الذُّلُّ فِي الدُّنْيَا وَالْغَضَبُ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى -؛ فَلَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخْطَؤُوا لَعَجَلًا سَنَاءَهُمْ عَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، حسبما جاء في تفسير الآية عن بعض السَّلف.

ووجهه ظاهر؛ لأنَّ المتَّخِذِينَ لِلْعَجَلِ إِنَّمَا ضَلُّوا بِهِ حَتَّى عَبَدُوهُ، لِمَا سَمِعُوا مِنْ خُوارِهِ، وَلِمَا أُلْقِيَ إِلَيْهِمُ السَّامِرِيُّ فِيهِ، فَكَانَ فِي حَقِّهِمْ شُبْهَةٌ خَرَجُوا بِهَا عَنِ الْحَقِّ الَّذِي كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ، قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾، فَهُوَ عَمُومٌ فِيهِمْ وَفِيهِمْ أَشْبَهُهُمْ، مِنْ حَيْثُ كَانَتْ الْبِدْعُ كُلُّهَا افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، حَسْبَمَا أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

فإذن كلُّ من ابتدع في دين الله فهو ذليلٌ حقيرٌ بسبب بدعته، وإنَّ ظهر لبادي الرأي عِزُّه وجبروته، فهم في أنفسهم أذلاء.

وأيضاً فإنَّ الدَّلةَ الحاضرةَ بين أيدينا موجودةٌ في غالبِ الأحوالِ، ألا ترى

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

أحوال المبتدعة في زمان التابعين وفيما بعد ذلك؟ حتى تلبسوا بالسلاطين ولاذوا بأهل الدنيا، ومن لم يقدِرْ على ذلك استخفى بدعته، وهرب بها عن مخالطة الجمهور، وعمل بأعمالها على التقيّة<sup>(١)</sup>.

وهذه سنّة كونيّة شرعيّة لله - عز وجل - لا تتخلف عن أحد، ولا تنخرم بتقليب الحوادث والأعصار، ولا تنفك عن الإنسان أيّ كان، وإن صُنِعَ له الهيئان، وشاع ذكره ومدحه في وسائل الإعلان، تفقّد نَجْدًا، وافحص نُجْبَرًا.

وقال الشاطبي - رحمه الله - (٢):

«فاعلموا أنّ البدعة لا تفيد معها عبادة من صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا غيرها من القُرْبَات<sup>(٣)</sup>، ومُجَالِس صاحبها تُنَزِعُ منه العصمة، ويُوَكَّلُ إلى نفسه<sup>(٤)</sup>، والماشي إليه وموقّره معيّنٌ على هدم الإسلام<sup>(٥)</sup>، فما الظنُّ بصاحبها؟ وهو ملعونٌ

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٢١٧ - ٢١٨ - بتحقيقي).

(٢) «الاعتصام» (١/ ١٨٣ - بتحقيقي).

(٣) والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ». أخرجه مسلم (١٧١٨)، و(ردّ): مردودٌ على فاعله.

(٤) يُشِيرُ إلى ما ورد عن محمد بن النضر الحارثي - رحمه الله - وغير واحدٍ من السلف: «من أصغى سمعه إلى صاحب بدعة وهو يعلم أنّه صاحب بدعة، نُزِعَتْ منه العصمة، ووُكِّلَ إلى نفسه».

أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ١٣٦) رقم (٢٥٢).

(٥) يُشِيرُ إلى ما ورد عن الأوزاعي، وإبراهيم بن ميسرة، وغير واحدٍ من السلف: «من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام».

أخرجه الهروي في «ذمّ الكلام» (٥/ ١٣١) رقم (٩٢٣) عن الأوزاعي.

على لسان الشريعة، ويزدادُ من الله بعبادته بُعْدًا، وهي مَظَنَّةُ إلقاءِ العداوةِ والبغضاءِ، ومَانَعَةٌ من الشفاعةِ المحمّدية، ورافعةٌ للسنن التي تقابلها، وعلى مبتدعها إثمٌ من عمل بها، وليس له من توبةٍ، وتُلْقَى عليه الدّلة في الرّضا والغضبِ من الله، ويُبعد عن حوض رسول الله ﷺ، ويُخاف عليه أن يكون معدودًا في الكفّار الخارجين عن الملة، وسوء الخاتمة عند الخروج من الدنيا، ويسودُّ وجهه في الآخرة، ويُعذب بنار جهنم، وقد تبرأ منه رسول الله ﷺ، وتبرأ منه المسلمون، ويُخاف عليه الفتنة في الدنيا زيادةً إلى عذاب الآخرة».

ولا نقول إلّا: إنّنا لله وإنّا إليه راجعون، فعلى الرّغم من كلّ محاسن السّنة وبركات الاتّباع، وكلّ مساوئ البدعة والابتداع؛ لا تزال البدع تزداد، ويتكالب عليها النّاس، ولا تزدادُ السّنة إلّا غربةً، ولا يزدادُ أهلها إلّا وحشةً، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وهنا كلمتان عزيزتان لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية - رحمهما الله -، فيها تعميقٌ لمفهوم الاتّباع الشامل، في العلم والعمل، وللأفراد والجماعات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«فليس لأحدٍ - وإنّ عَظَمَ علمه وعبادته ومُلْكُه وسلطانُه - أن يَعدِلَ عمّا جاء به الرسول ﷺ إلى ما يخالفه في شيءٍ من الأمور الدّينية، باطنها وظاهرها، وشرائعها وحقائقها، بل على جميع الخلق أن يتبعوه ويسلموا لحكمه، قال الله - تعالى -: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴿الآية [النساء: ٥٩]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]، كما قال في سورة البقرة: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٣].

وفي «صحيح مسلم»<sup>(١)</sup> عن عائشة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَصَلِّي يَقُولُ: «اللَّهُمَّ! رَبَّ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وقد علق - سبحانه - بطاعته الفوزَ فقال في ذمِّ المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِرُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧ - ٥٤].

وهذا الأصلُ متفقٌ عليه بين كلِّ من آمَنَ به الإيَّانَ الواجبَ الذي فرضه الله على الخلق، وكلِّ أحدٍ عليه أن يتقي الله ما استطاع، كما قال - تعالى -: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذا تبين لقوله - تعالى -: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال ابن مسعود: «حَقُّ تَقَاتِهِ هُوَ: أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَّرَ فَلَا يُكْفَرُ»<sup>(٢)</sup>، لكن الأمرَ مشروطٌ بالاستطاعة كما بيَّنه في قوله - تعالى -: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، فقد يخفى على الإنسان بعضُ سنَّةِ الرسول

(١) برقم (٧٧٠).

(٢) «تفسير الطبري» (٧/ ٦٥).

وأمره مع اجتهاده في طاعته، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» أخرجاه في «الصحيحين»<sup>(١)</sup>، وقد يقول الرجل ويحكم بغير علم فيأثم على ذلك، كما يأثم إذا قال بخلاف ما يعلمه من الحق»<sup>(٢)</sup>.

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

«القياس الصحيح هو معقول النصوص، والقياس الباطل المخالف للنصوص مُضَادٌّ لِلشَّرْعِ، فهذا الفصل هو فَرْقٌ ما بين وَرَثَةِ الأنبياء وغيرهم، وأصله مبني على حرف واحد؛ وهو عموم رسالته بالسنة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم التي بها صلاحهم في معاشهم ومعادهم، وأنه لا حاجة إلى أحدٍ سواه البتة، وإنما حاجتنا إلى من يبلِّغنا عنه ما جاء به، فمن لم يستقر هذا في قلبه؛ لم يرسخ قدمه في الإيمان بالرسول، بل يجب الإيمان بعموم رسالته في ذلك.

كما يجب الإيمان بعموم رسالته بالنسبة إلى المكلفين، فكما لا يخرج أحد من الناس عن رسالته البتة، فكذلك لا يخرج حق من العلم به والعمل عمّا جاء به، فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمة إلى سواه، وإنما يحتاج إلى غيره من قل نصيبه من معرفته وفهمه، فبحسب قلة نصيبه من ذلك تكون حاجته، وإلا فقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وقد ذكر للأمة منه علماً.

(١) رواه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦)، ولفظه عندهما مختلف اختلافاً يسيراً.

(٢) «الرد على الإخنائي» (ص ٩٥ - ٩٧).

وَعَلَّمَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى آدَابَ التَّخَلِّيِّ، وَآدَابَ الْجَمَاعِ وَالنَّوْمِ وَالْقُعُودِ وَالْأَكْلِ  
وَالشَّرْبِ وَالرُّكُوبِ وَالنُّزُولِ، وَوَصَفَ لَهُمُ الْعَرْشَ وَالْكَرْسِيَّ وَالْمَلَائِكَةَ وَالْجَنَّةَ  
وَالنَّارَ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا فِيهِ حَتَّى كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنَ، وَعَرَّفَهُمْ بِرَبِّهِمْ وَمَعْبُودِهِمْ أَتَمَّ  
تَعْرِيفٍ حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرُونَهُ بِهَا وَصَفَهُ لَهُمْ بِهِ مِنْ صِفَاتِ كِمَالِهِ وَنَعُوتِ جَلَالِهِ.

وَعَرَّفَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَأَمَمَهُمْ وَمَا جَرَى لَهُمْ مَعَهُمْ حَتَّى كَأَنَّهُمْ كَانُوا بَيْنَهُمْ،  
وَعَرَّفَهُمْ مِنْ طَرُقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ دَقِيقَهَا وَجَلِيلَهَا مَا لَمْ يَعْرِفْهُ نَبِيٌّ لِأَمْتِهِ قَبْلَهُ، وَعَرَّفَهُمْ  
مِنْ أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَمَا يَكُونُ بَعْدَهُ فِي الْبَرْزَخِ وَمَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَالْعَذَابِ  
لِلرُّوحِ وَالْبَدَنِ مَا جَلَى لَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَعَايِنُونَهُ، وَكَذَلِكَ عَرَّفَهُمْ مِنْ أَدْلَةِ  
التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ وَالرَّدِّ عَلَى جَمِيعِ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ مَا لَيْسَ - لِمَنْ  
عَرَفَهُ - إِلَى كَلَامِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ الْبَيِّنَةِ، وَكَذَلِكَ عَرَّفَهُمْ مِنْ مَكَائِدِ الْحُرُوبِ وَلِقَاءِ  
الْعَدُوِّ وَطَرُقِ الظُّفْرِ بِهِ مَا لَوْ عَلِمُوهُ وَفَعَلُوهُ لَمْ يَقُمْ لَهُمْ عَدُوٌّ أَبَدًا، وَكَذَلِكَ عَرَّفَهُمْ  
مِنْ مَكَائِدِ إِبْلِيسَ وَطَرُقِهِ الَّتِي يَأْتِيهِمْ مِنْهَا وَيَحْتَرِزُونَ بِهِ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ، وَمَا  
يُدْفَعُونَ بِهِ شَرَّهُ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ أَرَشَدَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ إِلَى مَا لَوْ فَعَلُوهُ  
لَا اسْتَقَامَتْ لَهُمْ دُنْيَاهُمْ أَعْظَمَ اسْتِقَامَةٍ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحِذَافِيرِهِ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ  
بِهِمْ حَاجَةً إِلَى أَحَدٍ سِوَاهُ، وَلِهَذَا خَتَمَ اللَّهُ بِهِ دِيْوَانَ النُّبُوَّةِ، فَلَمْ يَجْعَلْ بَعْدَهُ رَسُولًا  
لَا اسْتِغْنَاءَ الْأُمَّةُ بِهِ عَنْ سِوَاهُ.

فَكَيْفَ يُظَنُّ أَنَّ شَرِيعَتَهُ الْكَامِلَةَ الْمُكَمَّلَةَ مُحْتَاجَةٌ إِلَى سِيَاسَةٍ خَارِجَةٍ عَنْهَا؟!  
أَوْ إِلَى حَقِيقَةٍ خَارِجَةٍ عَنْهَا؟! أَوْ إِلَى قِيَاسٍ خَارِجٍ عَنْهَا؟! أَوْ إِلَى مَعْقُولٍ خَارِجٍ  
عَنْهَا؟! فَمَنْ ظَنَّ ذَلِكَ فَهُوَ كَمَنْ ظَنَّ أَنَّ النَّاسَ حَاجَةٌ إِلَى رَسُولٍ آخَرَ بَعْدَهُ!  
وَسَبَبُ هَذَا كُلُّهُ خَفَاءُ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى مَنْ ظَنَّ ذَلِكَ، قَالَ - تَعَالَى -: ﴿أَوَلَمْ



يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرْحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال - تعالى -: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال - تعالى -: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وكيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يفي بعشر معشار ما الناس محتاجون إليه على زعمهم الباطل<sup>(١)</sup>!

ويا لله العجب! كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين واستخراج هذه الآراء والمقاييس والأقوال؟ هل كانوا مهتدين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك حتى جاء المتأخرون أعلم منهم وأهدى منهم؟ هذا ما لا يظنه من به رمق من عقل أو حياء! نعوذ بالله من الخذلان.

ولكن من أوتي فهمًا في الكتاب وأحاديث الرسول، استغنى بها عن غيرهما بحسب ما أوتيته من الفهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وهذا الفصل لو بسط كما ينبغي لقام منه عدة أسفار، ولكن هذه لفظات تشير إلى ما وراءها<sup>(٢)</sup>.



(١) يشير الإمام ابن القيم بهذا إلى بعض الغلاة من أهل الرأي، الذين زعموا أن تسعة أعشار الاجتهاد في القياس، وأن النصوص لا تنفي بعشر معشار الشريعة، وهي مقولة جائرة، ردَّ عليها أهل العلم بما يكفي ويشفي، ومن تصدَّر للردِّ عليها الإمام ابن القيم نفسه، في معظم كتبه، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وغيرهما.

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٥٥ - ١٥٦).

## قَوَارِعُ وَمَصَارِعُ

خَرَجَ أَحْمَدُ بْنُ مِرْوَانَ الدِّينُورِيُّ بِسَنَدِهِ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ شُعَيْبٍ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ بَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ بِالْبَصْرَةِ، فَحَدَّثَنَا بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ»، وَفِي الْمَجْلِسِ مَعَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُعْتَرِلَةِ؛ فَجَعَلَ يَسْتَهْزِئُ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ! لَا أَقْطِرَنَّ غَدًا نَعْلِي فَأَطَأُ بِهِمَا أَجْنَحَةَ الْمَلَائِكَةِ! قَالَ: فَفَعَلَ وَمَشَى فِي النَّعْلَيْنِ، فَجَعَتْ رِجْلَاهُ جَمِيعًا، وَوَقَعَتْ فِي رِجْلَيْهِ جَمِيعًا الْآكَلَةَ»<sup>(١)</sup>.

ونقل النووي في «شرحه على صحيح مسلم» عن الحافظ أبي عبد الله محمد ابن إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي قوله:

«وَقَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْحِكَايَاتِ أَنَّ بَعْضَ الْمُبْتَدِعَةِ حِينَ سَمِعَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلَا يَغْمَسُ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ»، قَالَ ذَلِكَ الْمُبْتَدِعُ - عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ -: أَنَا أَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدِي؛ فِي الْفِرَاشِ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي دُبُرِهِ إِلَى ذِرَاعِهِ!

قَالَ التَّيْمِيُّ: فَلْيَتَّقِ الْمَرْءُ الاسْتِخْفَافَ بِالسَّنَنِ وَمَوَاضِعِ التَّوْقِيفِ، فَاَنْظُرْ كَيْفَ وَصَلَ إِلَيْهَا شَوْمُ فَعْلِهَا.

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٢١٥٤) - بتحقيقي).

قلت<sup>(١)</sup>: ومعنى هذا الحديث ما قاله الإمام الشافعي - رضي الله - تعالى - عنه - وغيره من العلماء - رضي الله - تعالى - عنهم -: أَنَّ النَّائِمَ تَطَوَّفَ يَدُهُ فِي نَوْمِهِ عَلَى بَدَنِهِ، فَلَا يَأْمَنُ أَتَمَّا مَرَّتْ عَلَى نَجَاسَةٍ؛ مِنْ دَمٍ بَثْرَةٍ، أَوْ قَمَلَةٍ، أَوْ بَرْعُوْثٍ، أَوْ عَلَى مَحَلِّ الِاسْتِنْجَاءِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ومن هذا المعنى ما وُجِدَ في زماننا هذا وتواترت به الأخبار وثبتت عند القُضَاة أَنَّ رَجُلًا بَقْرِيَّةً بِيْلَادٍ بَصْرَى فِي أَوَائِلِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَسِتِّ مِائَةٍ، كَانَ شَابًّا سَيِّئَ الْإِعْتِقَادِ فِي أَهْلِ الْخَيْرِ، وَلَهُ ابْنٌ يُعْتَقَدُ فِيهِمْ<sup>(٢)</sup>، فَجَاءَ ابْنُهُ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ شَيْخٍ صَالِحٍ وَمَعَهُ مِسْوَاكٌ، فَقَالَ: مَا أَعْطَاكَ شَيْخُكَ؟ - مُسْتَهْزَأًا -، قَالَ: هَذَا الْمِسْوَاكُ. فَأَخَذَهُ مِنْهُ وَأَدْخَلَهُ فِي دُبُرِهِ احْتِقَارًا لَهُ! فَبَقِيَ مُدَّةً، ثُمَّ وَلَدَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي أَدْخَلَ الْمِسْوَاكُ فِي دُبُرِهِ جَزْرًا قَرِيبَ الشَّبَبِ بِالسَّمَكَةِ؛ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ مَاتَ الرَّجُلُ فِي الْحَالِ أَوْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ.

---

(١) القائل النووي - رحمه الله - .

(٢) وَحُسْنُ الْإِعْتِقَادِ فِي أَهْلِ الْخَيْرِ هُوَ تَحْسِينُ الظَّنِّ بِهِمْ، وَمَحَبَّتُهُمْ، وَالتَّفَقُّهُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ، وَسَوَأُهُمْ فِي الدِّينِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ، وَالتَّصَدِيقُ بِكَرَامَاتِهِمْ إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُجِيرِيَ عَلَى أَيْدِيهِمْ شَيْئًا مِنْهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُوجِبَ ذَلِكَ غُلُوبًا فِيهِمْ، وَلَا خَوْفًا وَلَا دُعَاءً وَلَا رَجَاءً، فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، وَلَا نَشْكَ فِي أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالتَّعْبِيرِ الْمَذْكُورِ (يُعْتَقَدُ فِيهِمْ).

وقد تجاوز كثيرٌ حدَّ هذا الاصطلاح، وظهر في الأمة - ولا سيما عند شيوخ الجهل منذ عصر الماليك - (المعتقد بهم)، وشاع وذاع حتى في حقِّ الظالمين أنفسهم آكلين أموال الأوقاف، وكثر استخدام هذا الاصطلاح في حقِّ جماعاتٍ، لملايساتٍ وأسبابٍ، تحتاج لجمعٍ مع معرفة الأعيان، لنشخص العلاج، والله الوافي والهادي.

عافانا الله الكريم من بلائه، ووفقنا الله لتتزيه السنن وتعظيم شعائره»<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة (علي بن مرزوق الربعي السلامي ت: ٧٢٠هـ) حكاية نقلها المترجم له عن (جمال الدين إبراهيم بن محمد الطيبي)، قال:

أَنَّ بَعْضَ أُمَرَاءِ الْمُغْلِ تَنَصَّرَ، فَحَضَرَ عِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ كِبَارِ النَّصَارَى وَالْمُغْلِ، فَجَعَلَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَنْتَقِصُ النَّبِيَّ ﷺ، وَهَنَّاكَ كَلْبٌ صَيِّدٌ مُرْبُوطٌ، فَلَمَّا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَثَبَ عَلَيْهِ الْكَلْبُ فَخَمَسَهُ، فَخَلَّصُوهُ مِنْهُ، وَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: هَذَا بِكَلامِكَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ: كَلَّا! بَلْ هَذَا الْكَلْبُ عَزِيزُ النَّفْسِ، رَأَيْتُ أُشِيرُ بِيَدِي فَظَنَّ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُضْرِبَهُ.

ثُمَّ عَادَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ فَأَطَالَ، فَوَثَبَ الْكَلْبُ مَرَّةً أُخْرَى فَقَبِضَ عَلَى زَرْدَمَتِهِ فَقَلَعَهَا، فَمَاتَ مِنْ حِينِهِ.

فأسلم بسبب ذلك نحو أربعين ألفاً من المغل»<sup>(٢)</sup>.

بل وفي زماننا القريب هذا وقائع، منها ما وثقه الشيخ المحدث العلامة أحمد محمد شاكر - رحمه الله -، سَمِعَ أُذُنٍ، وَوَعَى قَلْبٍ، وَبَصَرَ عَيْنٍ، عَنْ بَعْضِ مُتَّقِي النَّبِيِّ ﷺ الَّذِينَ عَرَفَهُمْ بِشُخُوصِهِمْ وَأَعْيَانِهِمْ.

قال - رحمه الله -:

«سَأُقْصُّ عَلَيْكَ قِصَّةً كَانَتْ فِي عَصْرِنَا، مَا أَظُنُّكَ أَدْرَكَتَ عَهْدَهَا، وَلَعَلَّكَ سَمِعْتَ بِهَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ لَكَ فِيهَا مَوْعِظَةٌ وَعِبْرَةٌ:

(١) «بستان العارفين» (ص ٢٥٤ - ٢٥٦).

(٢) «الدرر الكامنة» (٣/ ١٢٨).

كان الشيخ طه حسين طالبًا بالجامعة المصرية القديمة... وتقرر إرساله في بعثةٍ إلى أوربيّة، فأراد حضرة صاحب العظمة السلطان حسين - رحمه الله - أن يكرمه بعطفه ورعايته، فاستقبله في قصره استقبالا كريما، وحباها هدية قيّمة المغزى والمعنى.

وكان من خطباء المساجد التابعين لوزارة الأوقاف خطيبٌ فصيح متكلمٌ مقتدر؛ وهو الشيخ محمد المهدي خطيب «مسجد عزبان»، وكان السلطان حسين - رحمه الله - مواظبا على صلاة الجمعة في حفلٍ فخيمٍ جليلٍ يحضره العلماء والوزراء والكبراء.

فصلّى الجمعة يوما ما بمسجد المبدولي القريب من قصر عابدين العامر، وندبت وزارة الأوقاف ذاك الخطيب لذلك اليوم، وأراد الخطيب أن يمدح عظمة السلطان، وأن ينوّه بما أكرم الشيخ طه حسين، ولكن خاتته فصاحته، وغلبه حبّ التغالي في المدح، فزلّ زلّة لم تقم له قائمة من بعدها، وأعتقد أنّها أخفّ من زلّتك، إذ قال أثناء خطبته: «جاء الأعمى، فما عبس في وجهه وما تولى»!

وكان من شهود هذه الصلاة والدي الشيخ محمّد شاكر، وكيل الأزهر سابقا - رحمه الله -، فقام بعد الصلاة يعلنُ النَّاسُ في المسجد أنّ صلاتهم باطلة، وأمرهم أن يعيدوا صلاة الظهر، فأعادوها، ذلك بأنّ الخطيب كَفَرَ بما شتم رسول الله ﷺ تعريضا لا تصرّحا؛ لأنّ الله - سبحانه - عتب على رسوله ﷺ حين جاءه ابنُ أمّ مكتوم الأعمى وهو يحدث صناديد قريش يدعوههم إلى الإسلام، فأعرض عن الأعمى قليلا حتى يفرغ من حديثه فأنزل الله عتاب رسوله في سورة كريمة، ثم جاء هذا الخطيب الأحمق الجاهل، يريد أن يتملّق عظمة السلطان - رحمه الله -، وهو عن تملّقه غنيّ والحمد لله، فمدّحه بما يوهّم السّامع

أنَّه يريدُ إظهارَ منقبةٍ لعَظَمَتِهِ، بالقياسِ إلى ما عاتب اللهُ عليه رسولَه.  
وأستغفر الله من حكاية هَذَا.

فكان صُنْعُ الخطيبِ المسكينِ تعريضًا برسولِ الله ﷺ لا يرضى به مسلم،  
وفي مقدِّمة من ينكره السلطان نفسه».

ثم قال بعد كلام: «فأقسم بالله! لقد رأيته بعيني رأسي بعد بضع سنين،  
وبعد أن كان متعالياً، متنفخاً، مستعزاً بمن لا ذبهم من العظماء والكبراء، رأيته مهيناً  
ذليلاً، خادماً على باب مسجد من مساجد القاهرة، يتلقى نعال المصلين يحفظها،  
في ذلّةٍ وصغار، حتى لقد خجلتُ أن يراني، وأنا أعرفه وهو يعرفني، لا شفقةً عليه،  
فما كان موضعاً للشفقة، ولا شماتةً فيه، فالرجل النبيل يسمو على الشماتة، ولكن  
لما رأيته من عبرة وموعظة»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) «كلمة الحق» (ص ١٤٨ - ١٥٣).

## عقوبة سب الصحابة وانتقاصهم

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مدّ أحدِهِم ولا نصيفه»<sup>(١)</sup>. وهذا الحديث الجليل العظيم الذي اتفق أهل الحديث وأئمة ونقاده على صحته، يعلم من أدرك مناسبته وسبب وروده أن النبي ﷺ لا يرضى في أصحابه أدنى انتقاصٍ، فضلًا عن صريح السب الذي يكون باللّعن ونحوه - عيادًا بالله تعالى -.

فقد خرّج أحمد في «مسنده» عن أنس - رضي الله عنه قال -: كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلامٌ، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟! فبلغنا أن ذلك ذكرٌ للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي! فوالذي نفسي بيده! لو أنفقتم مثل أحد - أو: مثل الجبال - ذهبًا؛ ما بلغتم أعمالهم»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠)، وظفرتُ بمكاتبةٍ مهمّةٍ حول هذا الحديث بين الحافظ ابن حجر العسقلاني والعلامة جلال الدين البلقيني، أودعتها جمعي لـ «فتاوى جلال البلقيني»، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

(٢) رواه أحمد (٢٦٦/٣)، والضّياء في «المختارة» (٢٠٤٦)، وسنده صحيح.

فهذا كما ترى أخى في الله! قاله النبي ﷺ لخالد بن الوليد - رضي الله عنه - الذي قال عنه: «اللهم! هو سيفٌ من سيوفك فانصره»<sup>(١)</sup>، وذلك لما أخذ الراية وخلّص المسلمين يوم مؤتة، ويومئذ سمي خالد: (سيف الله).

وهذا له دلالة عظيمة، فإذا كان النبي ﷺ لم يرَضْ أدنى تعريضٍ من متأخري أصحابه بمقتدّمهم، وسمّى ذلك سبّاً لهم، فكيف الحال مع لم يكن منهم أصلاً ولا يشبههم في شيء، وأنّى له أن يشبههم؟!

فخالدٌ من عظماء الإسلام، ومن أركان الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ويُقال له مثلٌ هذا؛ فهذا الذي يسمّيه أهل العلم تنبيّةً بالأعلى على الأدنى، فإذا كان مثل خالدٍ منهيّاً عنه، فغيره ومنْ دونه أولى بكثيرٍ.

وإلاّ فخالدٌ - رضي الله عنه - من الصّحابة، وكان بينه وبين عبد الرحمن كلامٌ كما يقع بين البشر من الجدَل والخلاف، ومنْ دون خالدٍ من الصّحابة لهم كذلك منزلةٌ رفيعةٌ، وكلٌّ من صدّق عليه معنى الصّحابيّ وحده وتعريفه فكذلك.

قال ابن الجوزي:

«وفصل الخطاب في هذا الباب:

بأنّ الصّحبة إذا أطلقت فهي في المُتعارَف تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: أن يكون الصّاحبُ مُعاشِراً مُخَالِطاً كثير الصّحبة، فيقال: هذا صاحبُ فلانٍ، كما يُقال: خادمه، لمن تكرّرت خدمته، لا لمن خدّمه يوماً أو ساعة.

والثاني: أن يكون صاحباً في مُجَالَسَةٍ أو مُمَاشَاةٍ ولو ساعةً، فحقيقة الصّحبة

---

(١) رواه أحمد (٢٩٩/٥)، والنسائي في «الكبرى» (٨٢٤٩)، وابن أبي شيبة (٥١٢/١٤)، وابن

سعد (٤٦/٣ - ٤٧) من حديث أبي قتادة الأنصاري، وسنده حسن.



موجودةً في حقّه، وإن لم يشتهر بها<sup>(١)</sup>.

فالشَّاهدُ أَنَّ السَّابِقَ وَاللَّاحِقَ مِنْهُمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مَن لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مُؤَمَّنًا بِهِ، وَمَاتَ ثَابِتًا عَلَى إِسْلَامِهِ وَإِيمَانِهِ، فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَلَوْ كَانَتْ صُحْبَتُهُ سَاعَةً وَاحِدَةً، أَوْ أَقَلَّ.

قال - تعالى - : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فهذه الآية تُقَرِّرُ الْفَضْلَ وَتُثَبِّتُ الْحَقَّ لِكُلِّ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي وَصَفْنَا آنفًا، مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، بِسَابِقِهِمْ وَلاحِقِهِمْ، وَمُكْثَرِهِمْ مِنَ الصُّحْبَةِ وَمُقَلِّهِمْ.

فإنَّها ذَكَرَتِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَذَكَرَتِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ يَشْمَلُ مَنْ كَانَ تَابِعًا بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، لَكِنْ أَوَّلٌ وَأَوَّلَى مِنْ يَدْخُلُ فِيهِ هُمْ مُتَأَخِّرُوا الصَّحَابَةِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا إِخْوَانَهُمُ السَّابِقِينَ بِإِحْسَانٍ، كَمَا يَشْهَدُ لَهُ وَاقِعُهُمْ وَمَا حُفِظَ لَنَا عَنْهُمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -.

وقال - سبحانه - : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ⑧ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ① وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا

(١) «تلقيحُ فُهومِ أهلِ الأثر» (ص ٧٢).

الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٨﴾  
[الحشر: ٨-١٠].

ومن هذه الآية الكريمة أخذ مالك - رحمه الله - أن من سب الصحابة لا حق له في الفية<sup>(١)</sup>، لأنها في بيان مصارفه، فإنها في سياق ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى...﴾ الآية [الحشر: ٧].

وحيث لم يكن من غرضنا في هذه العجالة بيان مفصل الاعتقاد الصحيح في أصحاب النبي ﷺ على الرغم من ضرورة ذلك وأهميته الكبيرة في هذا الوقت وفي كل وقت، فإننا نكتفي بإيراد طرف من آثار السب على السبائين، وبيان شؤم اللعن على اللعائين<sup>(٢)</sup>، إذ هذا الفعل من المهلكات، وفيه تعدد على السادات، بل طعن خفي في معلمهم ﷺ، فهو من الأفعال القبيحة، وله نتائج وخيمة، وفي بعض ما وقفنا عليه خبر لمن استخبر، وعبرة لمن اعتبر.

قال شيخ الإسلام: «ولهذا تجد عامة من ظهر عليه شيء من هذه الأقوال فإنه يتبين أنه زنديق، وعامة الزنادقة إنما يستترون بمذهبهم<sup>(٣)</sup>، وقد ظهرت لله فيهم مثلاث، وتواتر النقل بأن وجوههم تمسح خنازير في المحيا والممات، وجمع العلماء ما بلغهم في ذلك، ممن صنف فيه الحافظ الصالح أبو عبد الله محمد

---

(١) رواه البيهقي في «الكبرى» (٣٧٢/٦) رقم (١٣٤٩٠)، وهو صحيح عن مالك.

(٢) من نوادر هذا الزمان أن رأينا فيه عياناً وعائشاً حساً تحالف الشيوعي والرافضي على هذا الأمر! والأول يكفر بكل دين وملة، والثاني يزعم أنه لا ولي لله ولا لرسوله سواه، وعش رجباً، تر عجباً!

(٣) المقصود: مذهب الرافضة.

ابن عبد الواحد المقدسي كتابه في «النَّهْيُ عن سَبِّ الأصحابِ، وما جاء فيه من الإِثم والعِقَابِ»<sup>(١)</sup>.

عن عبد الملك بن أبي نصره عن أبيه قال: «كُنَّا بالمدينة، فسَبَّ رجلٌ عثمان، فنَهَيْنَاهُ فلم يَنْتَهُ، فَأَرَعَدْتُ ثُمَّ جَاءَتْ صَاعِقَةٌ فَأَحْرَقَتْهُ»<sup>(٢)</sup>.

ولقد استقصى العلامة المؤرِّخ الأستاذ محبُّ الدِّين الخطيب - رحمه الله - مصائر الخائضين في دم عثمان - رضي الله عنه -، فقال:

«وكان الله - عز وجل - أوَّلَ المنتقمين من قتلةِ عثمان، فإنَّ جهجاه بن سعيد الغفاري الذي انتزع عصا النبي ﷺ من يد عثمان وهو على منبر المسجد النبويِّ فكسرها على ركبته اليمنى، سرعان ما انتقم الله منه، فدخلت شظيئةٌ من العصا في رُكبة جهجاه فدَوْدَتْ وأصابته الأكلة، ثُمَّ انقطعت أخباره عن النَّاس، وأكبر الظَّنُّ أَنَّهُ مات بها.

وحرقوص بن زهير السَّعدي كان من أمره بعد خروجه على عثمان أن خرج على عليٍّ - أيضًا - وقتله عليٌّ يوم النُّهروان سنة ٣٩ هـ.

وحكيم بن جبلة العبدي قُطِعَت رجله في وقعة الجمل، فناداه منادٍ وهو يموت: جَزِعْتَ يا خبيثُ! حينَ عَصَّكَ نكألُ الله بما ركبْتُم من الإمام المظلوم، وفرَّقْتُم جماعة المسلمين وأصَبْتُم من دمائهم؟ فذُقْ وبألِ الله - عز وجل - وانتقامه.

وزميله ذريح بن عباد العبدي قتله الله في تلك الواقعة.

والذين لم يُقتلوا في المعركة وهم من أهل البصرة، قبضت عليهم قبائلهم

(١) «الصارم المسلول» (٣/ ١١١١).

(٢) «الثقات» (٧/ ١٠٥) لابن حَبَّان.

وجاؤوا بهم إلى طلحة والزبير كما يُجاء بالكلاب، فقتلوا.

ولم يفلت من رجال فتنة عثمان المنسوبين إلى البصرة إلا حرقوص بن زهير الذي قلنا إنه خرج بعد ذلك على عليٍّ فقتله عليٌّ يوم النهروان.

وجندب بن زهير الغامدي بقيَ إلى حربِ صِفِّينَ فبارز فارسًا من أزد الشَّام فقتله الأزدي، وكان ابن خالته مخنف بن سليم يشهد عليه بأنَّه مشؤوم صغيرًا وكبيرًا، وأنَّه كان يختار الأعرس والأنكد في الجاهليَّة والإسلام.

وأبو زينب بن عوف الأزدي قُتل في صِفِّين سنة ٣٧ هـ.

وشريح - وهو الحطم - بن أرفي العبسي خرج على عليٍّ وقُطِعَت رِجلُهُ، ثُمَّ قُتِلَ وهو يقول - مُصِرًّا على حماقته وطغايته القديم :-

أضربُّهم ولو أرى أبا حسن      ضربته بالسَّيفِ حتى يطمئنَّ  
ويقول:

أضربُّهم ولو أرى عليًّا      ألبستُهُ أبيضَ مشرفيًّا  
وعلباء بن الهيثم السَّدوسي قُتل في حربِ الجمل، قتله رجلٌ من الصَّالحين؛ وهو عمرو بن يثربٍ، الذي كان قاضي البصرة قبل كعب بن سور قائد جمل عائشة، وأوَّل شهداء القرآن - رضي الله عنه -.

وعمر بن الحمق الخزاعي عاش إلى سنة ٥١ هـ ثُمَّ طُعِنَ في المَوْصِلِ بعدد طعناته لأَمير المؤمنين عثمان.

وعُمير بن ضائب الذي كسر ضلع عثمان بعد موته؛ عاش إلى أنْ وَلِيَ الحَجَّاجُ العراقَ، فلمَّا مَثَلَ بين يديه يستندي رحمته - وهو يظنُّ أنَّ الحَجَّاجَ لا يعرفه - قال له الحَجَّاج: ألسْتَ أنتَ الذي تقول:

هَمَمْتُ ولم أفعل وكِدْتُ وليتَنِي تَرَكْتُ على عثمانَ تبكي حلائِلُه؟  
وأمرَ به فُقِلَ.

وكعب بن ذي الحبكة النّهدي عاش إلى أن قتله بُسر بن أبي أرطاة في تثليث.  
وكنانة بن بشر التجيبي ظفر به عمرو بن العاص وقتله في مصر، وكان كِنانة  
من أشدّ المتكاليين على عثمان، ويُقال: إنّه هو الذي باشَرَ قَتْلَه، وكان حريصًا على  
المنع من دَفن قتلى الدّار.

وابن الكوّاء الإشكري لم يكتفِ بالخروج على عثمان فخرج على عليٍّ - أيضًا -.  
ومحمّد بن أبي حذيفة الذي كفر نعمة عثمان وكافأ خيرَه بكلِّ ما استطاعه  
من شرٍّ؛ كانت عاقبته القتل بالمجانيق في العريش سنة ٣٦ هـ.

وهكذا سائرُ قتلة عثمان لقوا جزاءَ عملهم في الدُّنيا قبل الآخرة، والمشهورون  
منهم يَعرف مصيرُهم صبيان المدارس<sup>(١)</sup>.

وروى ابن عساكر عن السُّدِّيِّ قال: «أُتيتُ كربلاءَ أُبيعُ البزَّ بها، فعَمِلَ لنا  
شيخٌ من طيءٍ طعامًا، فتعشَّينا عنده، فذكرنا قتلَ الحسين، فقلت: ما شَرَك في  
قتله أحدٌ إلَّا ماتَ بأسوأِ مِيتَةٍ.

فقال: ما أكذبكم يا أهلَ العراق! فأنا فيمن شَرَك في ذلك.

فلم يَبْرَحْ حتى دَنَا من المصباح وهو يَتَّقِدُ بِنَفْطٍ، فذَهَبَ يَخْرُجُ الفَتِيلَةَ بِإصبعه  
فأخذت النار فيها، فذهبَ يُطْفِئُهَا بِرِيقِهِ، فَأَخَذَتِ النَّارُ في لَحِيَّتِهِ، فغَدَا فالتقى  
نفسَه في الماءِ، فرأيتَه كأنّه حِمَمَةٌ<sup>(٢)</sup>.

(١) من تعليقه على «المنتقى من منهاج الاعتدال» (ص ٢٤١ - ٢٤٢).

(٢) «تاريخ دمشق» (١٤/ ٢٣٣).

وروى ابن عساكر عن شيخ من بني هاشم قال: «رأيت رجلاً بالشَّام قد اسْوَدَّ نِصْفُ وجهه وهو يَغْطِيهِ، فسألته عن سبب ذلك؟ فقال: نعم؛ قد جعلتُ لله عَلِيًّا أَنْ لا يسألني أحدٌ عن ذلك إلا أخبرته، كنتُ شديدَ الوَقِيعَةِ في عليِّ بنِ أبي طالبٍ، كثيرَ الذِّكْرِ له بِالْمَكْرُوهِ، فَبَيْنَا أَنَا ذاتَ لَيْلَةٍ نائِمٌ، أَتَانِي آتٍ في منامي، فقال: أَنْتَ صَاحِبُ الوَقِيعَةِ في عليٍّ، وَضَرَبَ شِقَّ وَجْهِي، فأصْبَحْتُ وَشِقُّ وَجْهِي أَسْوَدُ»<sup>(١)</sup>.

وقال الذهبي في ترجمة حُسَامِ الدَّوْلَةِ، صاحبِ المَوْصِلِ، مُقَلَّدُ بنِ المُسَيَّبِ (ت ٣٩١هـ):

«وله شعر وأدب، وفيه رفضٌ، وَثَبَّ عَلَيْهِ مَمْلُوكٌ في مَجْلِسٍ أَنَسِهَ قَتْلَهُ في صَفَرِ سَنَةِ إِحْدَى وَتَسْعِينَ وَثَلَاثَ مِئَةٍ، لكَوْنِهِ سَمِعَهُ يَقُولُ: لَوْلا ضَجِيعَاكَ لَزُرْتُكَ»<sup>(٢)</sup>.

ثمَّ أورد خبر مقتله كاملاً في «تاريخ الإسلام» فقال:

«قتله في هذا العام غلام له تركيٌّ في صَفَرٍ، فيُقال: قَتَلَهُ لِأَنَّهُ سَمِعَهُ يوصي رجلاً من الحاجِّ أَنْ يَسَلَّمَ على رسول الله ﷺ ويقول: قلْ له: لَوْلا صَاحِبَاكَ لَزُرْتُكَ!

فأخبرنا محمد بن النحاس، أخبرنا يوسف السَّائِي، أَنَا السَّلَفِي، أَنَا أَبُو علي البرَدَانِي، أَنَا أَبِي والحسن بن طالب البزاز وابن نبهان الكاتب، قالوا: أَرَادَ رجلُ الحَجِّ، فأَحْضَرَهُ الأَمِيرُ مُقَلَّدٌ، وقال: اقرأْ على النَّبِيِّ ﷺ السَّلامَ وقلْ له:

(١) «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٥٣٣ - ٥٣٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٦).

لولا صاحبك لزررتك.

قال الرجل: فَحَجَجْتُ وَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، وَلَمْ أَقُلْ ذَلِكَ إِجْلَالًا، فَنِمْتُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَنَامِي، فَقَالَ: يَا فُلَانُ! لِمَ لَا تُؤَدُّ الرَّسَالَهَ؟  
فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَجَلَلْتُكَ.

فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى رَجُلٍ قَائِمٍ، فَقَالَ: خُذْ هَذَا الْمَوْسَى وَادْبَحْ بِهِ - يَعْنِي: مُقْلَدًا - (١).

فَوَافَيْتُ إِلَى الْعِرَاقِ، فَسَمِعْتُ أَنَّ الْأَمِيرَ مُقْلَدًا ذُبِحَ عَلَى فِرَاشِهِ، وَوُجِدَ الْمَوْسَى عِنْدَ رَأْسِهِ، فَذَكَرْتُ لِلنَّاسِ الرُّؤْيَا، فَشَاعَتْ، فَأَحْضَرَنِي ابْنُهُ قُرَوَاشٌ، فَحَدَّثَنِي، فَقَالَ لِي: تَعْرِفُ الْمَوْسَى؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَأَحْضَرَ طَبَقًا مَمْلُوءًا مَوَاسِي! فَأَخْرَجْتُهُ مِنْهُمْ! فَقَالَ: صَدَقْتَ، هَذَا وَجَدْتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَهُوَ مَذْبُوحٌ» (٢).

وَعَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: «كَانَ بِالْكُوفَةِ رَجُلٌ يُعْطِي الْأَكْفَانَ، فَهَاتَ رَجُلٌ، فَقِيلَ لَهُ، فَأَخَذَ كَفَنًا وَانْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَيِّتِ وَهُوَ مُسَجَّى، فَتَنَفَّسَ وَالْقَى الثُّوبَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: غَرُّوْنِي! أَهْلِكُونِي! النَّارُ النَّارُ!

قُلْنَا لَهُ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا! قِيلَ: وَلَمْ؟!

قَالَ: بِشْتَمِي أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -» (٣).

وَقَالَ خَلْفُ بْنُ تَمِيمٍ: سَمِعْتُ بَشِيرًا، وَيُكْنَى أَبُو الْخَصِيبِ، قَالَ:

«كَنتُ رَجُلًا تَاجِرًا وَكُنتُ مُوسِرًا، وَكُنتُ أَسْكُنُ مَدَائِنَ كِسْرَى، وَذَاكَ فِي

---

(١) كَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَاولَهُ الْمَوْسَى وَأَشَارَ لَهُ إِشَارَةً أَفْهَمَهُ بِهَا أَنَّ الْمَقْصُودَ أَنْ يَذْبَحَ الْمَذْكُورَ.

(٢) «تَارِيخُ الْإِسْلَامِ» (٢٧/٢٦٠ - ٢٦١).

(٣) «تَارِيخُ دِمَشْقَ» (٤٤/٣٨٨).

زمن ابنِ هُبَيْرَةَ، فَأَتَانِي أَجِيرِي يَذْكُرُ أَنَّ فِي بَعْضِ الْخَنَائِثِ رَجُلًا قَدْ مَاتَ وَلَيْسَ يَوْجَدُ لَهُ كَفَنٌ، فَأَقْبَلْتُ حَتَّى دَخَلْتُ ذَلِكَ الْخَانَ، فَدَفَعْتُ إِلَى رَجُلٍ مُسَجًى وَعَلَى بَطْنِهِ لَبَنَةٌ، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَذَكَرُوا مِنْ عِبَادَتِهِ وَفَضْلِهِ.

قال: فَبَعَثْتُ لِنَشْرِي الْكَفْنَ وَغَيْرَهُ، وَبَعَثْتُ إِلَى حَافِرٍ يَحْفَرُ لَهُ، وَهَيَّأْنَا لَهُ لَبَنًا، وَجَلَسْنَا نُسَخِّنُ، وَقَالُوا: لَنُغَسِّلَنَّهُ، فَبَيْنَا نَحْنُ، إِذْ وَثَبَ الْمَيِّتُ وَثَبَةً فَبَدَرَتْ اللَّبَنَةُ عَنْ بَطْنِهِ وَهُوَ يَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ وَالنَّارِ! فَتَصَدَّعَ أَصْحَابُهُ عَنْهُ.

قال: فَذَنَوْتُ حَتَّى أَخَذْتُ بَعْضَهُ وَهَزَزْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: مَا رَأَيْتَ؟ وَمَا حَالُكَ؟ قال: صَحَبْتُ مُشَيْخَةً مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَأَدْخَلُونِي فِي دِينِهِمْ - أَوْ فِي رَأْيِهِمْ - فِي سَبِّ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرِ وَالْبَرَاءَةِ مِنْهُمَا! قُلْتُ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ، ثُمَّ لَا تَعُدِّي.

قال: فَأَجَابَنِي: وَمَا يَنْفَعُنِي وَقَدْ انْطَلَقَ بِي إِلَى مَدْخَلِي مِنَ النَّارِ فَأَرَيْتُهُ؟! وَقِيلَ لِي: إِنَّكَ سَتَرْجِعُ إِلَى أَصْحَابِكَ فَتَحَدِّثُهُمْ بِمَا رَأَيْتَ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى حَالِكَ! فَمَا انْقَضَتْ كَلِمَتُهُ حَتَّى مَالَ مَيِّتًا عَلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ.

قال: فَانْتَظَرْتُ حَتَّى أُتِيتُ بِالْكَفَنِ، فَأَخَذْتُهُ وَقُمْتُ، لَا كَفَنَتُهُ، وَلَا غَسَلْتُهُ، وَلَا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ، فَأُخْبِرْتُ بَعْدُ أَنَّ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ كَانُوا عَلَى رَأْيِهِ وَلَوْ غُسِّلَهُ وَدَفَنَهُ وَالصَّلَاةَ عَلَيْهِ، وَقَالُوا: مَا الَّذِي أَنْكَرْتُمْ مِنْ صَاحِبِنَا؟ إِنَّمَا كَانَتْ خَطْفَةً مِنَ الشَّيْطَانِ تَكَلَّمَ بِهِ عَلَى لِسَانِهِ!!

قال خَلَفٌ: قُلْتُ: يَا أَبَا الْخَصِيبِ! هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي حَدَّثَنِي بِهِ، شَهِدْتُهُ؟ قال: بَصَرُ عَيْنِي، وَسَمْعُ أُذُنِي، وَأَنَا أُؤَدِّيهِ إِلَى النَّاسِ<sup>(١)</sup>.

(١) «تاريخ دمشق» (٤٤/٣٨٩-٣٩٠).



وعن خلف بن تميم - أيضًا - قال: أخبرنا أبو الحُبَاب - وهو عمُّ عَمَّار بن سيف الضَّبِّي - قال: «كُنَّا فِي غَزَاةٍ فِي الْبَحْرِ، وَقَائِدُنَا مُوسَى بْنُ كَعْبٍ، وَمَعَنَا فِي الْمَرْكَبِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ يُكْنَى أَبُو الْحَجَّاجِ، فَأَقْبَلَ يَشْتُمُ أَبَا بَكْرٍ، فَرَجَرْنَاهُ فَلَمْ يَنْزَجِرْ، وَهَمَّيْنَاهُ فَلَمْ يَنْتَهَ، فَأَرْسَيْنَا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ، فَتَفَرَّقْنَا فِيهَا تَتَاهَبٌ لَصَلَاةِ الظُّهْرِ.

فَأَتَى صَاحِبُ لَنَا فَقَالَ: أَذْرِكُوا أَبَا الْحَجَّاجِ؛ فَقَدْ أَكَلْتُهُ النَّحْلُ! فَدَفَعْنَا إِلَى أَبِي الْحَجَّاجِ وَهُوَ مَيِّتٌ، وَقَدْ أَكَلْتُهُ الدَّبَرُ؛ وَهِيَ النَّحْلُ».

قال خلف: «فَزَادَنِي فِي هَذَا الْحَدِيثِ ابْنُ الْمُبَارَكِ: قَالَ أَبُو الْحُبَابِ: «فَحَفَرْنَا لَهُ لِنَدْفِنَهُ، فَاسْتَوْعَرَتْ عَلَيْنَا الْأَرْضُ، فَقُلْتُ: مَا اسْتَوْعَرْتَ؟ قَالَ صَلَبْتُ فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَى أَنْ نَحْفَرَ لَهُ، فَأَلْقَيْنَا عَلَيْهِ وَرَقَ الشَّجَرِ وَالْحِجَارَةَ، وَتَرَكْنَاهُ، وَخَطَفُنَا»<sup>(١)</sup>. قال خلف: «فَكَانَ صَاحِبُ لَنَا يَبُولُ، فَوَقَفْتُ نَحْلَةً عَلَى ذَكَرِهِ فَلَمْ تَضُرَّهُ، فَعَلِمْنَا أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ»<sup>(٢)</sup>.

وقال الحافظ الضيَاء المقدسي - رحمه الله -:

«وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا طَالِبٍ بْنَ يُونُسَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْبَعْلَبَكِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي الشَّيْخُ مُحَمَّدُ النَّوْرِيُّ قَالَ: كُنْتُ بِالْمَوْصِلِ، وَكَانَتْ أُمُّ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ تَعْتَقِدُ فِيَّ، وَكَانَ ابْنُهَا يَجِيءُ إِلَيَّ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ.

قال: فَخَرَجْتُ بَعْضَ اللَّيَالِي، فَطُفْتُ فِي الْمَقَابِرِ، فَإِذَا مَقْبَرَةٌ مُبَيَّضَةٌ وَعَلَيْهَا بَابٌ حَجَرٍ، وَإِذَا أَنَا أَسْمَعُ فِيهَا صَوْتًا كَتَهَارُشِ الْكِلَابِ، وَلَيْسَ بِهِ، فَجِئْتُ إِلَى

(١) أي: انصرفنا مسرعين.

(٢) «تاريخ دمشق» (٤/ ٣٩٠).

بابها ففتحتُ، وإذا فيها قبران أو ثلاثة، ولم أر شيئاً، ثم خرجتُ، فإذا أنا أسمعُ ذلك الصوت، فبقيتُ متعجباً! قال: واتفق أن صاحب الموصِلِ جاء إلينا، فجلسَ، وجرى الحديثُ، وذكروا الرَّافِضَةَ، وقالوا: ما كانَ عندنا منهم إلا الخادمُ فلان، فقيل: ووزيرُ صاحبِ مارْزَنْدَران - أيضاً - وماتا وهما مدفونان هاهنا بمقبرةٍ لهما.

فقلت: أين؟ فقيل: هذه المقبرة البيضاء.

فقلت: لقد جرى لي كذا وكذا، ولو كان لي قُدْرَةٌ لنبَشْتُ عنها.

فقال صاحب الموصِلِ: أنا أنبشُ عنها، فنَبَشَ عنها؛ فإذا هما خنزيران<sup>(١)</sup>.

بل إنَّ أبا هريرة - رضي الله عنه -، قد صانه الله - تبارك وتعالى - وحفظه بروايته السُّنَّةَ، وحفظها للأُمَّة في حياته وبعد مماته؛ فقد ذكر الذهبي - رحمه الله - في «السِّير»<sup>(٢)</sup>:

«قال الحافظ أبو سعد السمعاني: سمعتُ أبا المعمر المبارك بن أحمد: سمعتُ

أبا القاسم يوسف بن علي الزنجاني الفقيه: سمعتُ الفقيه أبا إسحاق الفيروز آبادي: سمعتُ القاضي أبا الطيب يقول: كنَّا في مجلسِ النَّظَرِ بجامع المنصور، فجاء شابٌّ خراسانيٌّ، فسأل عن مسألة المَصْرَاة<sup>(٣)</sup>؛ فطالَبَ بالدَّلِيلِ، حتى استُدِلَّ

(١) «النَّهي عن سبِّ الأصحاب» (ص ١٠٦).

(٢) (٢/٦١٨-٦١٩).

(٣) المَصْرَاة: هي النَّاقَةُ أو البقرة أو الشاةُ يُتركُ لبنها محبوساً في ضرعها، ثمَّ تُعرض للبيع فيظنُّ الذي يراها أنَّ احتواء ضرعها على هذا الكمِّ من اللَّبن هو عادتها ودأبها، فإذا اشتراها وحلبها يومين أو ثلاثة، ظهر له أنَّه قد خُدع! ولذا نهى النبي ﷺ عن هذا الفعل، ويسمى: (التَّصْرِيَة).

بحديث أبي هريرة الوارد فيها.

فقال - وكان حنفياً -: أبو هريرة غير مقبول الحديث!

فما استتمَّ كلامه حتى سقط عليه حَيَّةٌ عظيمةٌ من سقف الجامع، فوثب النَّاسُ من أَجْلِهَا، وهرب الشابُّ منها، وهي تتبعه.  
ف قيل له: تَبُّ! تَبُّ! فقال: تَبُّتُ.

فغابت الحَيَّةُ، فَلَمْ يَر لها أثرًا.

قال الإمام الذهبي: «إِسْنَادُهَا أَثَمَّةٌ، وأبو هريرة إِلَيْهِ الْمُنْتَهَى فِي حِفْظِ مَا سَمِعَهُ مِنَ الرِّسُولِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَدَائِهِ بِحُرُوفِهِ، وَقَدْ أَدَّى حَدِيثَ الْمُصَرَّاةِ بِالْفَاظَةِ، فَوَجِبَ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِهِ، وَهُوَ أَصْلُ بَرَأْسِهِ».

---

= وحديث أبي هريرة الوارد فيه هو ما رواه البخاري (٢١٤٨) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لَا تُصَرُّوا الْإِبِلَ وَالْغَنَمَ، فَمَنْ ابْتَاعَهَا بَعْدَ فَإِنَّهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ بَعْدَ أَنْ يَحْتَلِبَهَا، إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ، وَإِنْ شَاءَ رَدَّهَا وَصَاعَ تَمْرٍ»، وعند مسلم (١٥٢٤) بلفظ: «مَنْ اشْتَرَى شَاةً مُصَرَّاةً فَلْيَنْقَلِبْ بِهَا فَلْيَحْلِبْهَا، فَإِنْ رَضِيَ حِلَابَهَا أَمْسَكْهَا، وَإِلَّا رَدَّهَا وَمَعَهَا صَاعٌ مِنْ تَمْرٍ»، وفي بعض ألفاظه: «فَهُوَ فِيهَا بِالْخِيَارِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ».

ومحلُّ اعتراض الحنفية على الحديث يبنى على ما يسمونه: (ما جاء على خلاف القياس)، وهي مسألةٌ مبحوثةٌ في (أصول الفقه)، ولهم فيها قولٌ مرجوحٌ، وليس هذا محلُّ بسطِ المسألةِ لا أصلاً ولا فرعاً.

لكِنِّي أقول: ليت شعري! إِنْ كَانَ هَذَا صَنِيعُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي الدُّنْيَا بِهَذَا الشَّابِّ الْمُسْكِينِ الَّذِي يَتَعَصَّبُ لِمَذْهَبِهِ، وَمَأْخُذُ مَذْهَبِهِ فِي الْإِعْتِرَاضِ عَلَى الْحَدِيثِ لَيْسَ عَنْ نَبْذٍ وَلَا انْتِقَاصٍ وَلَا اِزْدِرَاءٍ؛ وَإِنَّمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يَعِظُّونَ أَصُولَ الشَّرْعِ وَقَوَاعِدَهُ بِذَلِكَ! فَكَيْفَ يَكُونُ صَنِيعُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِأَقْوَامٍ لَا يَقِيمُونَ لِلسُّنَّةِ وَزَنًّا فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، وَكَمْ يَلْحَقُ الْأَمَّةُ مِنْ شُؤْمٍ جَهَالَتِهِمْ وَتَطَاوُلِهِمْ عَلَى دِينِ اللَّهِ وَحَفَظَتِهِ وَحَمَلَتِهِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

بل من عجائب ما سمعنا - وليس بعجيبٍ - ! ما حدث به شيخنا ومُحِبُّنا  
فضيلة الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي - حفظه الله -، قال:

«كنتُ في مكة عام ( ١٣٩٧ هـ ) في رابطة العالم الإسلامي، وكانت رسالتي  
للمجستير عن (أبو هريرة - رضي الله عنه - في ضوء مروياته).

وجاءني شيخ من مصر اسمه: عبد الحكيم حمادة، وقال: يا شيخ! أنت كتبتَ  
عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، وأنا أحدثُكَ قصَّةً وقعت معي، حدث بها:  
كنتُ أسمع عن هذا (أبو رية) أنه يطعن بالصَّحابيَّ الجليل أبي هريرة ويتهمه.  
فقلتُ: أرى هذا والتقي به.

فذهبتُ إلى بيته، فاستقبلني أحد أولاده، وقال: لا يمكن! لأنَّه في مرضٍ  
شديد.

وبعد إلحاحٍ شديدٍ أخذ بيدي إلى غرفته، ووجههُ مُسوِّدٌ مثل الفحم، وعيناهُ  
بارزتان مخيفتان، وهو ينظر إلى جدارٍ أمامه ويصيح: آه! هذا أبو هريرة! هذا أبو  
هريرة!

فقلتُ: هذا في الدنيا، فكيف بالآخرة؟! نسأل الله العافية والسلامة.  
فلم أتحمَل البقاء دقائق فخرجتُ.

قال الشيخ الفاضل محمد الأعظمي: من (٣٩) سنة وأنا أحدثُ بها، وحدثوا  
عني<sup>(١)</sup>.



---

(١) ما زال فضيلة الشيخ الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي - حفظه الله - على قيد الحياة،  
وأستاذًا للحديث الشريف في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية - سابقًا - .

## مُؤَنَسَاتٌ وَمُوحِشَاتٌ مِنْ مُخْتَارِ الرُّؤْيِ وَالْمَنَامَاتِ

في حين تغلو بعض طوائف المبتدعة في باب الرؤى والمنامات، فيجعلها بعضهم من مصادر التشريع وبناء الأحكام، كما وقع في ذلك بعض المتصوفة، ويغلو البعض الآخر في جحد دلالتها وتكذيب معانيها، كما يفعله المعتزلة، يقف أهل السنة والأثر والموفقون من أهل الاتباع منها الموقف الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وهو أنها مؤنسَاتٌ ومبشِّرَاتٌ صادقةٌ إذا كانت في الخير، ومنبّهَاتٌ إذا كانت فيما لا يسرُّ الإنسان، بشرط أن تكون من الرؤى الصادقة القابلة للتعبير، ويتصدَّر لتعبيرها من هو عالم بهذا العلم الذي لا يُسَلِّمُ زَمَامَهُ لأيِّ أحد<sup>(١)</sup>.

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر:

«وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّهَا مِنَ النَّبُوَّةِ، وَأَنَّ التَّصَدِيقَ بِهَا حَقٌّ، وَفِيهَا مِنْ بَدِيعِ حِكْمَةِ اللَّهِ وَلُطْفِهِ مَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ فِي إِيمَانِهِ،

---

(١) وفَّقني الله تعالى - وله الحمدُ والمِنَّةُ والفضلُ - للعناية بهذا العلم الشريف تصنيفاً وتحقيقاً، فقد صَدَرَ لي - بالاشتراك مع أحد طلبة العلم - كتابُ «المقدِّمات المُمَهِّدات السَّلَفِيَّاتِ فِي الرُّؤْيِ وَالْمَنَامَاتِ»، وتحقيقُ لكتاب «تعبير الرؤيا» لابن قتيبة الدينوري، وتحقيقُ لكتاب «المُعَلَّم على حروف المعجم في تعبير الأحلام» لأبي الطَّاهِرِ إبراهيم بن يحيى المقدسي الحنبلي.

ولا أعلم بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر خلافاً فيما وصفتُ لك،  
ولا ينكرُ الرؤيا إلا أهل الإلحاد، وشِرْذِمَةٌ من المعتزلة»<sup>(١)</sup>.

وقال - رحمه الله -:

«وَعِلْمُ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا من علومِ الأنبياء وأهلِ الإيمان، وحسبك بما أخبر الله  
من ذلك عن يوسف - عليه السلام - وما جاء في الآثار الصحاح فيها عن النبي ﷺ،  
وأجمع أئمة الهدى من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء المسلمين أهل  
السنة والجماعة على الإيمان بها، وعلى أنها حكمة بالغة، ونعمة يُمْنُ الله بها على من  
يشاء، وهي المُبَشِّرَاتُ الباقية بعد النبي ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

ومما ورد في عقوبات سبّ أبي الصحابة من المنامات، والتي ظهرت آثارُ  
بعضها في المحسوس:

ما رواه ابن عساكر بسنده إلى أبي طاهر الحسين بن منصور بن محمد بن  
يعقوب؛ وكان رجلاً معتقداً للسنة شفعوياً<sup>(٣)</sup>، إلا أنه كان يتشيع قليلاً، قال:

«كنت أبغض معاوية والعنه، فرأيتُ النبي ﷺ في النوم كأنه دخل داري،  
وكان في الدار حمام، دخل الحمام واغتسل، فلما خرج من الحمام ركب بغلته وكان  
بين يديه رجل قائم أصفّر اللون، فسلمتُ على النبي ﷺ، فقال لي: يا أبا طاهر!  
لا تلعه ولا تُبغضه. قلت: من هو يا رسول الله؟!

---

(١) «التمهيد» (١/٢٨٥).

(٢) «التمهيد» (١/٤٩).

(٣) أي: شافعيًا.

قال: هو معاوية بن أبي سفيان، أخي كاتبُ الوحي»<sup>(١)</sup>.

ومنها:

قال أحمد بن يحيى بن حميد الطويل: «رأيتُ النبي ﷺ في النومِ جالسًا، وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليُّ جلوسٌ معه، ومعاوية قائمٌ بينَ يديه، فأُتيَ برجلٍ، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! هذا يذكُرنا ويتنقّصنا. فكأنَّ النبي ﷺ انتهرَ الرَّجلَ.

قال الحميدي<sup>(٢)</sup>: وكنتُ أعرِفُ الرَّجلَ، فقال الرَّجلُ: أمّا هؤلاءِ فلا، ولكن هذا - يعني: معاوية -، فقال رسول الله ﷺ: وَيْلَكَ! أوليس معاوية من أصحابي؟ وَيْلَكَ! أوليس معاوية من أصحابي؟ - ثلاثا - وفي يد رسول الله ﷺ حربةٌ، فدفعها إلى معاوية، وقال: جأ بهذه في لَبَّتِهِ<sup>(٣)</sup>. فوجأ بها في لَبَّتِهِ. وانتبهتُ، فبكرتُ إلى منزلِ الرَّجلِ، فإذا الذَّبْحَةُ قد طرَقَتْهُ، وماتَ في اللَّيْلِ<sup>(٤)</sup>.

ومنها:

عن رضوان السَّمان قال: «كانَ لي جارٌ في منزلي وسوقي يشتُمُ أبا بكرٍ وعمرَ - رضي الله عنهما -، فكثُرَ الكلامُ بيني وبينه، فلمَّا كان ذاتَ يومٍ شتمَهما وأنا حاضرٌ، فوقعَ بيني وبينه كلامٌ حتى تناوَلَنِي وتناولتُهُ، فانصرفتُ إلى منزلي وأنا مغمومٌ حزينٌ ألومُ نفسي.

---

(١) «تاريخ دمشق» (٥٩/٢١٢).

(٢) هو نفسُ الرَّائي صاحبُ القصة.

(٣) جأ: فعلٌ أمرٌ من وجأً يَجأُ، بمعنى: اقطع. واللَّبة: هي المَنَحَر.

(٤) «تاريخ دمشق» (٥٩/٢١٢ - ٢١٣).

قال: فنمتُ وتركتُ العِشاءَ من الغَمِّ، فرأيتُ رسولَ الله ﷺ في منامي من ليلتي، فقلت: يا رسول الله! فلانُ جاري في منزلي وسوقي، وهو يسبُّ أصحابك. قال: مَنْ مِنْ أَصْحَابِي؟ قلت: أبا بكرٍ وعُمَرُ. فقال رسول الله: خُذْ هَذِهِ الْمُدِيَّةَ فَادْبَحْهُ بِهَا. قال: فأخذته فأضجعته فذبحته، فرأيتُ كأنَّ يَدِي قد أَصَابَتْ مِنْ دَمِهِ، فَأَلْقَيْتُ الْمُدِيَّةَ وَأَهْوَيْتُ بِيَدِي إِلَى الْأَرْضِ أَمْسَحُهَا، فانتبَهْتُ وأنا أَسْمَعُ الصُّرَاخَ مِنْ نَحْوِ دَارِهِ!

فقلت: انظروا ما هذا الصراخ. قالوا: ماتَ فلانُ فجأةً!  
فلَمَّا أَصْبَحْتُ نَظَرْتُ إِلَيْهِ؛ إِذَا خَطُّ مَوْضِعِ الذَّبْحِ<sup>(١)</sup>.  
ومنها:

عن الفضل بن الزبير قال: «كنتُ جالسًا عندَ شخصٍ، فأقبلَ رجلٌ فجلسَ إليه رائحتهُ رائحةُ القَطِرَانِ، فقال له: يا هذا! أَتَبِيعُ القَطِرَانَ؟ قال: ما بعته قطُّ! قال: فما هذه الرائحةُ؟ قال: كنتُ مِمَّنْ شَهِدَ عَسْكَرَ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ<sup>(٢)</sup>، وكنتُ أبيعُهُمْ أَوْتَادَ الْحَدِيدِ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيَّ اللَّيْلُ رَقَدْتُ، فرأيتُ في نَوْمِي رسولَ الله ﷺ ومعه عليٌّ، وعليٌّ يَسْقِي القَتْلَى مِنْ أَصْحَابِ الْحُسَيْنِ، فقلت له: اسقني، فأبى! فقلت: يا رسول الله! مُرَّهْ يَسْقِينِي، فقال: أَلَسْتَ مِمَّنْ عَاوَنَ عَلَيْنَا؟ فقلت: يا رسول الله! والله ما ضربتُ بسيفٍ، ولا طعنتُ برُمحٍ، ولا رميتُ بسهمٍ، ولكنِّي كنتُ أبيعُهُمْ أَوْتَادَ الْحَدِيدِ.

(١) رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (٢٩٩/١) رقم (٣٩٤)، وابن أبي الدنيا في «المنامات» (٢١٩).

(٢) أي: العسكر الذين قتلوا الحسين - رضي الله عنه - .



فقال: يا علي! اسقيه، فناولني قَعْبًا<sup>(١)</sup> مملوءًا قَطِرَانًا، فشربت منه قَطِرَانًا، ولم أزل أَبُولُ القَطِرَانَ أَيَّامًا، ثُمَّ انْقَطَعَ ذلك البَوْلُ عَنِّي، وَبَقِيَتِ الرَّائِحَةُ فِي جِسْمِي.

فقال له السُّدِّيُّ: يا عبدالله! كُلْ مِنْ بُرِّ العِرَاقِ، واشْرَبْ مِنْ مَاءِ الفُرَاتِ، فَمَا أَرَاكَ تُعَايِنُ مُحَمَّدًا أَبَدًا<sup>(٢)</sup>.

ومنها:

عن الأصمعي قال: «كان عندنا بالبصرة رجلٌ يَتَشَبَّعُ وكان من الغلاة، وكان يَكْتُمُنَا، قال: فَبَكَرَ ذاتَ يومٍ فقال: يا أصحابَ الحديثِ! الحقُّ معكم. قلنا: كيف؟ قال: رأيتُ اللَّيْلَةَ في المنامِ أبا بكر الصِّدِّيقِ، فرأيتُ شيخًا بهيًّا حَسَنَ اللَّحْيَةِ، فقلت: يا خليفةَ رسولِ الله ﷺ! اجْعَلْنِي فِي حِلٍّ. قال: من أيِّ شيءٍ؟ قلت: كنتُ أَشْتُمُّكَ وَالْعَنُكَ! فقال لي: لا تَعُدْ. قلت: أنا تائبٌ. فقال: أنتَ في حِلٍّ.

ثُمَّ وَقَفْتُ فإذا عُمَرُ قد جاء كأنَّه أَسَدٌ، فقلت: يا أمير المؤمنين! قال: لَبَّيْكَ. قلت: اجْعَلْنِي فِي حِلٍّ. قال: من أيِّ شيءٍ؟ قلت: كنتُ أَشْتُمُّكَ وَالْعَنُكَ! فقال: لا حتى أَدْعَتَكَ دَعْتَهُ<sup>(٣)</sup> تَسْلَحَ منها. فأصْبَحْتُ وقد خَرْتُ!

فقال الأصمعي: بالخرَاءَةِ ثُبَّتَ<sup>(٤)</sup>.

قلتُ: فهذه فضائحُهُم التي عاينوها على فراشِهِم، وهي أدنى من أن تكونَ

---

(١) هو الإناء الواسع.

(٢) «تاريخ دمشق» (١٤/٢٥٩).

(٣) دَعْتَهُ يَدْعُهُ: خَنَقَهُ خَنْقًا شديدًا.

(٤) «تاريخ دمشق» (٤٤/٣٩١).

عذابًا في الدُّنيا، فكيف بعذاب الآخرة؟!  
ومثلُ ذلك وأشدُّ منه - يقظةٌ ومنامٌ - ما يستعصي على الاستقصاء.

\* \* \*

## آثار الحكم بغير ما أنزل الله

أما الخصلة الخامسة فتحتاج منا للتدبر، وقد ظهر لي فيها - بتيسير الله وتوفيقه - ربطٌ لم أره عند أحدٍ، فإنْ أصبْتُ فأحمده - سبحانه -، وإلا فمِن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه.

وهذا الربط وإن كان استطرادًا، لكنني أبدأ به لأهميته.

يقول النبي ﷺ: «وَمَا لَمْ تَحْكُمُوا بِكُتَابِ اللَّهِ، وَتَحَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ؛ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ».

سرُّ وجود البأس والشدة بين المسلمين: عدم الحكم بالكتاب والسنة.

لو سأل سائل فقال: هل كان النبي ﷺ يعلم أنه يأتي في آخر الزمان حكام على أمته يحكمون بغير ما أنزل الله؟

أجبنا بـ (نعم)، لكن هذا غيب؛ فكيف عرفناه؟ وما هو الدليل؟

اعلم إذن، وتسلَّح بهذا تتفع جدًّا:

عن معاذٍ - رضي الله عنه - قال: صَلَّى رسول الله ﷺ صلاةً فأحسنَ فيها القيامَ والخشوعَ والركوعَ والسجودَ، قال: «إِنَّهَا صَلَاةُ رَغَبٍ وَرَهَبٍ، سَأَلْتُ اللَّهَ فِيهَا ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَزَوَى عَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَبْعَثَ عَلَيَّ أُمَّتِي عَدُوًّا

من غيرهم فيجتاحهم؛ فأعطانيه، وسألته أن لا يبعث عليهم سنة تقتلهم جوعاً؛ فأعطانيه، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم؛ فردّها عليّ<sup>(١)</sup>.

فلن تُهلك الأمة بزلزال، ولن تُهلك بشيء عامٍّ يُعمُّ الأمة كلها.

والعدوُّ لا يمكن أن يتكالب علينا جميعاً ويتمكّن منّا جميعاً، وإنّا يمكن أن يأخذ طرفاً منّا ومن بلادنا كفلسطين، والعراق، والشيشان، وغيرها، أما أن يستحلَّ بيضتنا فلا يمكن.

قال: «وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ، فَرَدَّهَا عَلَيَّ»، فاربط هذا بقوله ﷺ: «وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أَيْمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أُنْزَلَ اللَّهُ؛ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ»؛ فتعلم علم اليقين ويظهر لك أنَّ نبيّنا كان يعلم أن أُمَّته ستحكم بغير ما أنزل من الكتاب والسُّنة، ومع ذلك لم يذكر تكفيرهم! فهذا دليلٌ على صحّة استصحاب إسلامهم، وأنّه بمجرد الحكم بغير ما أنزل الله لا يكفر هؤلاء، وهذا دليلٌ خفيٌّ لكنّه قويٌّ من خلال الربط بين هذه النصوص.

وذلك لأنَّ وُقُوعَ البأس بين المسلمين بعضهم من بعض، نتيجةٌ لكونهم يُحكمون بغير ما أنزل الله، فحيثما رأينا النتيجة دلّتنا على وجود السبب متقدِّماً عليها ومصاحباً لها.

وقد سبقت الإشارة إلى قوله - تعالى - عن أهل الكتاب: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّا نَصْرُكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِّثْقَلَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْفَيْكَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٤٧/٥).

فهذه القطعة من الحديث في نفس المعنى؛ فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَإِذَا اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ذَهَبَتْ بِهِمْ نَفُوسُهُمْ فِي أَوْدِيَةِ الْهَوَى كُلِّ مَذْهَبٍ، وَلَمْ يَقِفْ افْتِرَاقُهُمْ عِنْدَ حَدٍّ، فَالْهَوَى يَهْوِي بِصَاحِبِهِ، وَالتَّفَرُّقُ يُذْهِبُ الْقُوَّةَ فِي الْأُمَّةِ، فَهِيَ تَوَاقُنُ.

ومن دقيق فهم وكيع - رحمه الله تعالى - في هذا الباب قوله: «من طلب الحديث كما جاء فهو صاحب سنّة، ومن طلب الحديث ليقوّي هواه فهو صاحب بدعة»<sup>(١)</sup>.

ذلك أَنَّ أَهْلَ الْهَوَى يَحْتَجُّونَ ثُمَّ يَسْتَدِلُّونَ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَسْتَدِلُّونَ، وَحَيْثُ أَوْصَلَهُمُ الدَّلِيلُ قَامُوا بِهِ، وَقَالُوا بِهِ، وَعَقَّدُوا قُلُوبَهُمْ عَلَيْهِ.

وقال وكيع - أيضًا -: «لو أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَصِبْ فِي الْحَدِيثِ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ يَمْنَعُهُ مِنَ الْهَوَى، كَانَ أَصَابَ فِيهِ»<sup>(٢)</sup>.

بل إِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقِيمَ حُكْمَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَأَقْبَلَ عَلَى قِرَاءَتِهَا وَدِرَاسَتِهَا، وَلَيْسَ لَهُ مَوْهَلٌ مِنَ الْفَهْمِ السَّلِيمِ وَالنَّظَرِ الصَّحِيحِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ تَابِعًا لِلْسَّلَفِ الْكَرَامِ الَّذِينَ شَهِدُوا التَّنْزِيلَ وَعَلِمُوا التَّأْوِيلَ؛ فَإِنَّ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ، وَيَقَعُ بِسَبَبِ هَذَا الْمَسْلَكِ الْإِفْتِرَاقُ وَالْإِقْتِتَالُ، وَرَبَّمَا كَانَ الْإِقْتِتَالُ عَلَى إِثْرِ إِعْمَالِ الْهَوَى فِي تَوْجِيهِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ فَتَكًا بِأَهْلِهِ مِنَ الْإِقْتِتَالِ الْوَاقِعِ عَلَى إِثْرِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمَا.

وها نحنُ نرى بِأَعْيُنِنَا أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ اتِّقَاءَ شَرٍّ مِنْ شِئْتُمْ مِنَ الْخَلْقِ بِالسُّبُلِ

---

(١) أخرجه البخاري في «جزء رفع اليدين» (ص ١٢٠ - ١٢١ - مع «جلاء العينين»).

(٢) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٦٠).

المعروفة التي يسلكها بنو آدم؛ ومنها التفاهم والصُّلح، فيمكنك ذلك مع معظم الخلق، ويستحيل مع الخوارج؛ فهو لاء لا يرضيهم إلا دمك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الإمام ابن عبد البرّ - رحمه الله -:

«وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَأَنْ لَا تُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»<sup>(١)</sup>؛ فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ:

فَقَالَ قَائِلُونَ: أَهْلُهُ أَهْلُ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ وَالِدِّينِ، فَهَؤُلَاءِ لَا يُنَازِعُونَ لِأَتَمِّهِمْ أَهْلَهُ، وَأَمَّا أَهْلُ الْجَوْرِ وَالْفِسْقِ وَالظُّلْمِ فَلَيْسُوا لَهُ بِأَهْلٍ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِإِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup> [البقرة: ١٢٤].

(١) يشير إلى حديث الصحيحين الذي رواه عبادة بن الصامت - رضي الله عنه -، فقال: «دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعَنَا، فَقَالَ - فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا - أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا تُنَازَعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ» رواه البخاري (٧٠٥٦، ٧٠٥٥) ومسلم (١٧٠٩).

(٢) قال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٧٠٧/١): «وَفِي الْآيَةِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ يَوْمُئِذٍ لَيْسُوا جَدِيرِينَ بِالْإِمَامَةِ لِاتِّصَافِهِمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الظُّلْمِ؛ كَالشَّرْكِ وَتَحْرِيفِ الْكِتَابِ وَتَأْوِيلِهِ عَلَى حَسَبِ شَهَوَاتِهِمْ، وَالْإِنْهَاكِ فِي الْمَعَاصِي، حَتَّى إِذَا عَرَضُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ عُلِمُوا انْطِبَاقَهُ عَلَيْهِمْ، وَإِنَاطَةَ الْحُكْمِ بِوَصْفِ الظَّالِمِينَ إِسْمَاءً إِلَى عِلَّةٍ نَفِيٍّ أَنْ يَنَالَهُمْ عَهْدُ اللَّهِ، فَيُفْهِمُ مِنَ الْعِلَّةِ أَنَّهُ إِذَا زَالَ وَصْفُ الظُّلْمِ نَاهَهُمُ الْعَهْدُ، وَفِي الْآيَةِ أَنَّ الْمُتَّصِفَ بِالْكِبِيرَةِ لَيْسَ مُسْتَحَقًّا لِإِسْنَادِ الْإِمَامَةِ إِلَيْهِ؛ أَعْنِي سَائِرَ وَلَايَاتِ الْمُسْلِمِينَ: الْخِلَافَةَ وَالْإِمَارَةَ وَالْقَضَاءَ وَالْفَتْوَى وَرَوَايَةَ الْعِلْمِ وَإِمَامَةَ الصَّلَاةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ».

وقال العلامة فخر الدين الرازي في «مفاتيح الغيب» (٣١/٤): «فَحَكَى اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَنْ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَمُورًا تَوْجِبُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَعَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى =

وإلى مُنَازَعَةِ الظالمِ الجائرِ ذهبَ طوائفٌ من المعتزلةِ وعامةُ الخوارجِ.

وأما أهلُ الحقِّ وهم أهلُ السُّنَّةِ فقالوا: هذا هو الاختيارُ، أن يكونَ الإمامُ فاضلاً عدلاً محسناً، فإن لم يكنْ؛ فالصَّبْرُ على طاعةِ الجائرينَ من الأئمةِ أولى من الخروجِ عليه؛ لأنَّ في منازَعَتِهِ والخروجِ عليه استبدالُ الأمنِ بالخوفِ، ولأنَّ ذلكَ يَحْمِلُ على هَرَقِ الدِّماءِ، وشنِّ الغاراتِ، والفَسَادِ في الأرضِ، وذلكَ أعظمُ من الصَّبْرِ على جَوْرِهِ وفَسْقِهِ، والأصولُ تشهدُ، والعقلُ والدينُ، أن أعظمَ المَكْرُوهِينِ أولاهُما بالترُّكِ، وكلُّ إمامٍ يقيمُ الجمعةَ والعيدَ، ويجاهدُ العدُوَّ، ويقيمُ الحدودَ على أهلِ العداءِ، ويُنصِفُ النَّاسَ من مظلَمِهِم بَعْضِهِم لبعضٍ، وتَسْكُنُ له الدَّهْمَاءُ، وتَأْمَنُ به السُّبُلُ، فواجبُ طاعتهِ في كلِّ ما يأمرُ به من الصَّلاحِ أو من المُباحِ»<sup>(١)</sup>.

وقال الحسن - رحمه الله - في الأمراء -: «والله! ما يستقيمُ الدينُ إلَّا بهم وإن جاروا أو ظلموا، والله! لَمَا يُصْلِحَ اللهَ بهم أكثرُ ممَّا يُفسدون»<sup>(٢)</sup>.

---

= قبول قولِ مُحَمَّدٍ ﷺ والاعترافَ بدينِهِ والانقيادَ لشرعِهِ، وبيانِهِ من وجوه:

أحدها: أَنَّهُ - تعالى - لَمَّا أَمَرَهُ ببعضِ التكاليفِ، فلَمَّا وَفَّى بها وخرَجَ عن عُهُدَتِهَا لا جَرَمَ نالَ النُّبُوَّةَ والإمامةَ، وهذا ممَّا يَنْبَغُ لليهودَ والنصارى والمُشْرِكِينَ على أن الخَيْرَ لا يحصلُ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ إلَّا بِترُكِ التَّمَرُّدِ والعِنَادِ، والانقيادِ لحُكْمِ الله - تعالى - وتكاليفِهِ.

وثانيها: أَنَّهُ - تعالى - حَكى عَنْهُ أَنَّهُ طَلَبَ الإمامَةَ لأَوْلادِهِ؛ فقالَ اللهُ - تعالى -: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فدلَّ ذلكَ على أَنَّ مَنْصِبَ الإمامَةِ والرياسةَ في الدِّينِ لا يصلُ إلى الظَّالِمِينَ، فهؤلاءُ متى أرادوا وُجِدَانَ هذا الْمَنْصِبِ وجبَ عليهم تَرْكُ اللَّجَاجِ والتَّعَصُّبِ للباطلِ».

(١) «التمهيد» (٢٣/ ٢٧٨ - ٢٧٩).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٦٢).

وتأمل! معي هذه اللَّمحة من فقه السَّلف، وتنبُّههم لهذا الأمر، وإيمانهم بضرورة إتيان البيوت من أبوابها، دون حماسةٍ ودون عواطف عواصف، ودون حماقات، ودون خلطٍ بين الفقيه العالم، وبين العابد الجاهل المتنطع.

ذكر الذهبي - رحمه الله - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «قَدِمَ عَلَى عُمَرَ رَجُلٌ، فَجَعَلَ عُمَرُ يَسْأَلُهُ عَنِ النَّاسِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ مِنْهُمْ كَذَا وَكَذَا.

فقلت: والله! ما أحبُّ أن يسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المُسَارعة. قال: فزَبرَني عمر، ثم قال: مَهْ.

فانطلقتُ إلى منزلي مكتئبًا حزينًا، فقلت: قد كنتُ نزلتُ من هذا بمنزلةٍ، ولا أَرَانِي إِلَّا قَدْ سَقَطْتُ مِنْ نَفْسِهِ، فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي حَتَّى عَادَنِي نِسْوَةٌ أَهْلِي وَمَا بِي وَجَعٌ، فَبَيْنَا أَنَا عَلَى ذَلِكَ، قِيلَ لِي: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فخرجتُ، فإذا هو قائمٌ على الباب ينتظرني، فأخذ بيدي ثم خلا بي.

فقال: ما الذي كرهتَ مما قال الرجل آنفاً؟

قلت: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنْ كُنْتُ أَسَأْتُ؛ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، وَأَنْزِلُ حَيْثُ أَحْبَبْتَ.

قال: لَتُخْبِرَنِي.

قلتُ: متى ما يسارعوا هذه المسارعةَ يَحْتَقُوا<sup>(١)</sup>، ومتى ما يَحْتَقُوا يَخْتَصِمُوا، ومتى ما اختصموا يَخْتَلِفُوا، ومتى ما يَخْتَلِفُوا يَقْتُلُوا.

---

(١) يَحْتَقُوا: يزعمُ كُلُّ مِنْهُمْ أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ.



قال: لله أبوك! لقد كنت أكتُمُهَا النَّاسَ حتى جئتُ بها»<sup>(١)</sup>.

ومعنى «يتخَيَّرُوا مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ»: ليس هو الانتقاء والاختيار الذي لا مستند له إلا الهوى، فهذا قد ذمَّه الله في كتابه؛ كما قال - تعالى -: ﴿أَفَتَتَوَمَّنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسَدُّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]؛ لأنَّ التَّخْيِيرَ فيه إعمالٌ للهوى وليس من العبودية الحقَّة في قليلٍ أو كثيرٍ، فإنَّ وظيفة الشَّرْع أن يُخْرِجَ العبدَ من داعي هواه إلى الخضوع لأمرٍ مولاه.

وإنَّما المعنى: أن يتفَقَّهوا فيما أُنْزِلَ اللَّهُ، ليستخرجوا منه أحكام النوازل والمسائل والوقائع، فيكونوا في ذلك قد اختاروا من التنزيل ما يحتاجونه في شفاء أدوائهم وعلاج أمراضهم، وأنزلوا الدواء على الألم، فيعصِّمهم الخير والعافية، لأنَّ الفقه والتقوى والعقل أن تعالج أقدارَ الله بشرع الله؛ بمعنى: أن تُعامل ما ينزل بك من المسائل والأحكام في الشؤون العامة والخاصة بما أُنْزِلَ الله في كتابه وسنة رسوله، فمن فهم الأمرين: الواقع والواجب، فهو الذي يفلح، وإن كان حاكمًا؛ انتفع بفلاحه النَّاسُ، وكان خيره عامًا.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «ولا يتمكَّن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحُكْم بالحقِّ إلَّا بنوعَيْن من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباطُ علم حقيقة ما وقعَ بالقرائن والأماراتِ والعلاماتِ حتى يحيط به علمًا.

والنَّوع الثاني: فهم الواجبِ في الواقع؛ وهو فهم حكم الله الذي حكم به

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٤٩).

في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبّق أحدهما على الآخر، فَمَنْ بذلَ جُهدَه واستَفَرَّغَ وُسْعَه في ذلك، لم يَعدَمَ أَجرينِ أو أَجرًا، فالعالم من يتوصَّل بمعرفةِ الواقعِ والتَّفَقُّه فيه إلى معرفةِ حُكَمِ اللهِ ورسولِهِ»<sup>(١)</sup>.

فهذا حديثٌ جليلٌ عظيمُ القَدْرِ كما ترى، وكلُّ جُمْلَه ومفرداته لها نصوصٌ كثيرةٌ تشهد لها وتؤكد معناها، فالاستدلالُ على هذه القضايا ليس موقوفًا أصلاً على هذا الحديث وحده، وهكذا كلُّ القضايا الكبيرة والمسائل التي لها تأثيرٌ عامٌ وتكثر حاجة الناس إليها، وتمسُّ حياتهم مساسًا مباشرًا، تتصافر على إثباتها الأدلة، وتكون واضحةً لكلِّ أحد، ولكنَّ الناس تستغفلهم الشياطين، وتجتاهم عن دينهم.

قال ابن أبي العزِّ الحنفي - رحمه الله -: «فإنَّ العلمَ كلِّما كانَ النَّاسُ إليه أحوَجَ؛ كانت أدِلَّتُهُ أَظْهَرَ، رحمةً من الله بِخَلْقِهِ»<sup>(٢)</sup>.

إذن، هذا الحديث فيه ألوانٌ وضروبٌ لذنوب تترتب عليها مجموعة من العقوبات المتنوعة، ولم تشمل أصحابها فقط، وإنما عمَّت جميع الناس، وعمَّت أفراد المجتمع، أو سلكت في ضرب من ضروبه، أو في ناحية من نواحيه، وإذا تخلَّفت أحيانًا فتتخلَّف برحمة من الله وفضل، كما في قوله ﷺ: «وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا»، هذا من رحمته - سبحانه وتعالى -، هذه رحمته بالبهائم التي هو أرحم بها من أن يعاقبها بخطايا بني آدم.

وينبغي على الموقِّعين والمستبصرين من الدُّعاة والمصلحين في هذه الأمة،

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٦٥ - بتحقيقي).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ١٥٢ ط الرسالة).

أن يكون موقفهم من المصائب والكوارث التي تحلُّ بالشعوب الإسلامية موقفًا شرعيًا، وفقهم لها فقها ربانيًا، ويمكن أن يتلخَّص ذلك الموقف الشرعي في الآتي<sup>(١)</sup>:

أولاً: العلم بأسبابها، وتقرير أنَّ ما جرى لم يجزِ إلا على وفقِ سُنَّةٍ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وعلى قانونٍ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

ثانيًا: العودُ باللُّومِ والتَّوْبِخِ على النَّفْسِ لا على الغير، رعاية لقوله - تعالى -: ﴿قُلْ هُوَ مِن عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ثالثًا: تحصينُ جماعة المسلمين من الأسباب التي إذا قامت بهم تكرَّرت المصيبةُ، وذلك بتعليم الجاهل، وزجر المتهاون، والإحياء العامَّ لكلِّ مظاهر الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

رابعًا: الصَّبْرُ، ومدافعةُ آثار المصائب، وذلك لأنَّ المؤمن إذا حلَّت به مصيبةٌ، فإنَّ عليه واجباتٍ شرعيةً في التعامل معها وإنْ كانت ممَّا كسبت يدها، وعليه أن يكون في ذلك صبورًا طويل النَّفسِ، وأطولَّ من الفردِ نفسًا ينبغي أن يكون الدَّاعيةُ إلى الخير والمصلح، لأنَّه يعالج الجماعة لا الفرد.

قال النعمان بن بشير - رضي الله عنهما -: «الهلكة كلُّ الهلكة أن يُعْمَلَ بالسيِّئات في أزمان البلاء»<sup>(٢)</sup>.



(١) انظر: «السُّنن الإلهية في الأفراد والأمم والشُّعوب» (ص ٢١٥ وما بعدها).

(٢) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦٢ / ١٢٥).

## آثار أكل الربا وعقوبته

قال - تعالى :- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩﴾.

فمن أين نبدأ وأين ننتهي في إحصاء بوائق ذنب من آثاره أنه يستجلب على مرتكبه الحرب من الله ورسوله؟! وأين هي قلوب المُرابين؟!

قال القرطبي - رحمه الله :- « ذكر ابن بُكَيْر قال: جاء رجلٌ إلى مالك بن أنس فقال: يا أبا عبد الله! إنِّي رأيتُ رجلاً سكراناً يتعاقر<sup>(١)</sup>، يريد أن يأخذ القمر! فقلت: امرأتي طالقُ إن كان يدخلُ جوفَ ابنِ آدمَ أَشْرٌ من الخمر. فقال: ارجع حتى أنظر في مسألتك. فأتاه من الغد، فقال له: ارجع حتى أنظر في مسألتك. فأتاه من الغد، فقال له: امرأتك طالقُ، إنِّي تصفَّحتُ كتابَ الله وسُنَّةَ نبيِّه، فلم أرَ شيئاً أَشَرَّ من الرِّبَا؛ لأنَّ الله أَذَنَ فيه بالحرب»<sup>(٢)</sup>.

أما حال أكل الربا في قبره؛ فقد أَرى النبي ﷺ في منامه رؤيا حق، فقد

(١) أي: يمد نفسه إلى الأعلى.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٣٦٤).

خَرَجَ الْبَخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مَقْدَسَةٍ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ، وَعَلَى وَسْطِ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ، رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِيهِ فَرْدَةٌ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كَلِمًا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِيهِ بِحَجَرٍ فِيرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهْرِ أَكَلِ الرَّبَا»<sup>(١)</sup>.

وَمِنْ مَسَاوِيهِ أَنْ أَكَلَهُ مَلْعُونٌ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ إِذَا لَمْ يَتَبَّ، وَمِثْلُهُ مُؤْكَلُهُ، وَكَاتِبُهُ، وَمَنْ شَهِدَ عَلَيْهِ؛ لِمَا رَوَاهُ جَابِرٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكِلَ الرَّبَا، وَمُؤْكَلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدِيهِ»، وَقَالَ: «هُمْ سَوَاءٌ»<sup>(٢)</sup>.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ مَمْحُوقٌ لِلْبَرَكَةِ، وَأَيُّ بَرَكَةٍ لِمَنْ يَحَارِبُهُ اللَّهُ؟! قَالَ - تَعَالَى -: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].  
وَيَصَدِّقُ ذَلِكَ وَيفسِّره حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرَّبَا إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قَلَّةٍ»<sup>(٣)</sup>.

وَإِذَا كَانَ الَّذِي يُطِلُّ إِطْلَالََةً وَاحِدَةً عَلَى الشُّجُونِ، أَوْ قَاعَاتِ الْمَحَاكِمِ، تَصْغُرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ لِمَا يَرَى مِنَ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ الَّذِي يَلَاقِيهِ الْمُرَابُّونَ فِي الدُّنْيَا، هَذَا مَعَ تَسَاهُلِ الْقَوَانِينِ وَمُرُونَتِهَا، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالٌ مِنْ أَصَرٍّ عَلَى هَذَا الذَّنْبِ فِي الْآخِرَةِ؟!

(١) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ (٢٠٨٥).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٥٩٨).

(٣) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (٢٢٧٩)، وَصَحَّحَهُ شَيْخُنَا الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - .

ومن سُؤْمِ الرَّبَا عَلَى الْمُجْتَمَعَاتِ أَنَّهُ يَقْتُلُ رُوحَ الْإِحْسَانِ، وَيَنْقُضُ عُرَى الْأُخُوَّةِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْمَالِ الْمُرَابِي لَا يَبْذُلُ مَالَهُ بِالصَّدَقَةِ أَوْ الْقَرْضِ، بَلْ لَا يَقْرِضُهُ إِلَّا بِالرَّبَا طَمَعًا فِي الْكَسْبِ الْمُزَيَّفِ الْمُوْهُومِ، وَقَدْ سُئِلَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: لَمْ حَرَّمَ اللَّهُ الرَّبَا؟ قَالَ: «لِيَلَّا يَتَمَنَّعَ النَّاسُ الْمَعْرُوفَ»<sup>(١)</sup>.

وَلَقَدْ تَمَنَعُوهُ فَعَلَّا مِنْذُ أَنْ وَلَغُوا فِي الرَّبَا، وَتَمَرَّغُوا فِيهِ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، حَتَّى أَصْبَحَتْ تَرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَبْكِي لَشِدَّةِ فَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ، وَلَا يَجِدُ مِنْ ذَوِي الدُّثُورِ وَالْأَمْوَالِ الْعَظِيمَةِ مَنْ يَقْرِضُهُ قَرْضًا حَسَنًا - وَلَا نَقُولُ: يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ -، بَلْ لَا يَجِدُ إِلَّا أَنْ يَتَوَاطَأَ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ مَعَ مُرَابٍ، فَيَخْرُجَا بِحِيلَةٍ لِإِمْضَاءِ عَقْدِ الرَّبَا فِي صُورَةٍ غَيْرِ صَرِيحَةٍ، أَوْ يُلْقِي بِنَفْسِهِ فِي أَحْضَانِ الْبَنُوْكِ الْفَاتِحَةِ ذِرَاعَيْهَا لِكُلِّ مَنْ رَقَّ دِينُهُ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ.




---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ١٩٤).

## آثار قتل النفس بغير حق

ومن المعاصي الموبقة والجرائم الكبرى: جريمة القتل، وإزهاق النفس بغير حق، فقد عدّها النبي ﷺ من الموبقات؛ أي: المهلكات، وهي هلاك في الدنيا والآخرة.

وبعد أن قصّ الله علينا قصّة قتل أحد ابني آدم لأخيه - وهي أوّل جريمة قتل على الأرض -؛ تردّد علينا هذه الآية الكريمة الجليلة المهيبة العظيمة: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

فما السرّ في هذا التشبيه العجيب، والتركيب المهيّب، والرّبط الذي تنخلع له القلوب؛ أعني: تشبيه قتل النفس الواحدة بقتل الناس جميعاً؟ علماً بأنّه لم يرد في معصية من المعاصي ولو كانت من تلك الجرائم الكبرى، تشبيه مرتكبها في حقّ واحد من الخلق بمن يرتكبها في حقّ بني آدم أجمعين، إلّا في القتل.

قال ابن عاشور: «ومعنى التشبيه في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ حثّ جميع الأمّة على تعقّب قاتل النفس وأخذه أينما تُقف، والامتناع من إيوائه

أو الستر عليه، كلُّ مخاطب على حسب مقدرته وبقدر بَسْطَةِ يَدِهِ في الأرض، من  
وَلَاةِ الْأُمُورِ إلى عَامَّةِ النَّاسِ.

فالمقصود من ذلك التشبيه تهويلُ القتل، وليس المقصودُ أَنَّهُ قد قتل النَّاسَ  
جميعًا، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَابِلٌ لِلْعَفْوِ من خصوصِ أوليائِ الدِّمِ دون بقية النَّاسِ.

على أَنَّ فيه معنًى نفسانيًّا جليلاً؛ وهو أَنَّ الدَّاعِي الَّذِي يُقَدِّمُ بِالْقَاتِلِ على  
القتلِ يرجع إلى ترجيحِ إرضاءِ الدَّاعِي النَّفْسَانِي النَّاشِي عن الغضبِ وحبِّ الانتقامِ  
على دواعي احترامِ الحقِّ وزجرِ النَّفْسِ والنَّظَرِ في عواقبِ الفعلِ من نُظْمِ الْعَالَمِ،  
فَالَّذِي كان من حيلته ترجيحُ ذلك الدَّاعِي الطَّيِّفِ على جملة هذه المعاني الشَّرِيفَةِ؛  
فذلك ذو نفس يوشك أن تدعوه دَوْمًا إلى هضمِ الحقوق، فكلَّمَا سنحت له الفرصة  
قتل، ولو دعتهُ أن يقتل النَّاسَ جميعًا لفعل»<sup>(١)</sup>.

وذكر العلامةُ الفخرُ الرازيُّ وجهاً جميلاً واستحسنه في فائدة هذا التشبيه،  
فقال:

«جميعُ النَّاسِ لو علموا من إنسانٍ واحدٍ أَنَّهُ يقصد قتلهم بأجمعهم؛ فلا شكَّ  
أَنَّهُم يدفعونه دفعًا لا يمكنه تحصيلِ مقصوده، فكذلك إذا علموا منه أَنَّهُ يقصدُ  
قتل إنسانٍ واحدٍ معيَّنٍ، يجب أن يكون جِدُّهُمْ واجتهادهم في منعه عن قتل ذلك  
الإنسانِ مثل جِدِّهِم واجتهادهم في الصورة الأولى»<sup>(٢)</sup>.

فكيف لا يكونُ أمرُ قتل النَّفْسِ عَظِيمًا مَهُولًا؛ والله - تعالى - يقول: ﴿وَمَنْ  
يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَعَزَّازُوهُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ

(١) «التحرير والتنوير» (١٧٨/٦).

(٢) «مفاتيح الغيب» (١٦٩/١١).



وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿[النساء: ٩٣]﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»<sup>(١)</sup>.

«المعنى: أنه في أيِّ ذنبٍ وقع؛ كان له في الدين والشرع مخرج؛ إلا القتل فإن أمره صعب، ويوضح هذا ما في تمام الحديث عن ابن عمر أنه قال: «إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها: سفك الدَّم الحرام بغير حِلِّه»<sup>(٢)</sup>، والورطات: جمع ورطة؛ وهي كلُّ بلاءٍ لا يكادُ صاحبه يتخلص منه، يُقال: تورَّط واستورط»<sup>(٣)</sup>.

ولذا فقد صحَّ التشديدُ إلى الغاية في شأن القتل، وأثر التَّغْلِيظ فيه عن عامَّة السَّلف، حتى اشتهر قولُ ابن عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - بأنَّ القاتل لا توبة له. فقد روى الطَّبْراني عن نافع بن جبير بن مطعم عن ابن عَبَّاسٍ أنَّه سأله سائلٌ، فقال: يا أبا العباس! هل للقاتل من توبة؟ فقال ابن عباس - كالمتعجب - من شأنه -: ماذا تقول؟! فأعاد عليه المسألة. فقال له: ماذا تقول؟ مرتين أو ثلاثاً. ثمَّ قال ابن عباس: أنَّى له التوبة؟! سمعتُ نبيكم ﷺ يقول: «يأتي المقتول معلقاً رأسه بإحدى يديه، متلبِّباً قاتله بيده الأخرى، تشخب أوداجُه دماً، حتى يأتي به العرش، فيقول المقتول لله: ربِّ! هذا قتلني. فيقول الله - عز وجل - للقاتل: تعسْتَ. ويذهبُ به إلى النار»<sup>(٤)</sup>.

(١) رواه البخاري (٦٨٦٢).

(٢) رواه البخاري (٦٨٦٣) موقوفاً على ابن عمر.

(٣) «كشف المشكل من حديث الصَّحَّاحين» (١/ ٦٧٥) لابن الجوزي.

(٤) «المعجم الكبير» (١٠/ ٣٠٦) رقم (١٠٧٤٢).

فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

قال رسول الله ﷺ: «قَتَلَ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رَوَالِ الدُّنْيَا»<sup>(١)</sup>.

وبلغ من تعظيم دم المؤمن أن قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ؛ لَأَكْبَهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

وقد روى البخاري عن جُنْدُب بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - أنه أوصى بعض أصحابه بقوله: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُتَنُّ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا؛ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ بِمَلَأٍ كَفَّ مِنْ دَمٍ أَهْرَاقَهُ؛ فَلْيَفْعَلْ»<sup>(٣)</sup>.

وما أجهل فقه السلف في التوقي من هذه الجريمة، وهذا الشر المستطير، وترك العدوان على دماء النَّاسِ وأموالهم وأعراضهم، فقد كتب رجلٌ إلى عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - يطلبُ منه أن يكتب إليه بالعلم كلّه.

فكتب إليه ابن عمر: «إِنَّ الْعِلْمَ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْقَى اللَّهَ خَفِيفَ الظَّهِيرِ مِنْ دِمَائِ النَّاسِ، حَمِصَ الْبَطْنِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، كَافَّ اللِّسَانِ عَنْ أَعْرَاضِهِمْ، لَا زِمًا لِأَمْرِ جَمَاعَتِهِمْ؛ فَافْعَلْ»<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*

---

(١) رواه النسائي (٣٩٩٠) وسنده صحيح.

(٢) رواه الترمذي (١٣٩٨) وسنده صحيح.

(٣) رواه البخاري (٧١٥٢) موقوفًا على جُنْدُب - رضي الله عنه -، وخرَّجته في كتابي «معجم شيوخ شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني» رقم (٢٢٦ / ١٨).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٢٢).

## آثار شرب الخمر وعقوبته

الخمرُ مشؤومة، ومن شؤمها أَنَّ الكأسَ منها لا تصلُّ إلى فم شاربها حتى تكون اللَّعْنَةُ قد حَلَّتْ به وبتسعةٍ معه.

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «لعنَ رسول الله ﷺ في الخمرِ عشرةً: عاصِرَها، ومعتَصِرَها، والمعصورةَ له، وحاملَها، والمحمولةَ له، وبائعها، والمبيعةَ له، وساقِيها، والمستقاةَ له، حتى عدَّ عشرةً من هذا الضَّرْبِ»<sup>(١)</sup>.

ومن آثارها على المجتمع أنَّها من أسباب العداوة والبغضاء وإفساد النفوس، قال - تعالى -: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿[المائدة: ٩٠ - ٩١].

قال ابن جُزَيٍّ: «تَقْيِيحٌ لِلْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وذكرٌ لبعضِ عيوبِها، وتعليلٌ لتحريمِها، وقد وقعت في زمانِ الصَّحابةِ عداوةٌ بينَ أقوامٍ بسببِ شربهم لها قبل تحريمِها، ويُقال: إنَّ ذلك كان سببَ نزولِ الآيةِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه ابن ماجه (٣٣٨١) وسنده صحيح.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» (١/٢٤٢).

وقال القرطبي: «فكُلُّهُوَ دَعَا قَلِيلُهُ إِلَى كَثِيرٍ، وَأَوْقَعَ الْعِدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَ الْعَاكِفِينَ عَلَيْهِ، وَصَدَّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ؛ فَهُوَ كَشْرَبِ الْخَمْرِ، وَأَوْجَبَ أَنْ يَكُونَ حَرَامًا مِثْلَهُ»<sup>(١)</sup>.

قال العلامة السَّعْدِي - رحمه الله -: «فَإِنَّ الْفَلَاحَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَرْكِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، خُصُوصًا هَذِهِ الْفَوَاحِشَ الْمَذْكُورَةَ، وَهِيَ الْخَمْرُ؛ وَهِيَ كُلُّ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ؛ أَيْ: غَطَّاهُ بِسُكْرِهِ، وَالْمَيْسِرُ؛ وَهُوَ: جَمِيعُ الْمُعَالَجَاتِ الَّتِي فِيهَا عَوْضٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ كَالْمِرَاهِنَةِ وَنَحْوِهَا، وَالْأَنْصَابُ الَّتِي هِيَ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ وَنَحْوُهَا مِمَّا يُنْصَبُ وَيُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَالْأَزْلَامُ الَّتِي يَسْتَقْسِمُونَ<sup>(٢)</sup> بِهَا، فَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ نَهَى اللَّهُ عَنْهَا وَزَجَرَ، وَأَخْبَرَ عَنْ مَفَاسِدِهَا الدَّاعِيَةِ إِلَى تَرْكِهَا وَاجْتِنَابِهَا.

فَمِنْهَا: أَنَّهَا رَجَسٌ؛ أَيْ: خَبَثٌ، نَجِسٌ مَعْنَى، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَجَسَةً حِسًّا، وَالْأُمُورُ الْخَبِيثَةُ مِمَّا يَنْبَغِي اجْتِنَابُهَا وَعَدَمُ التَّدَنُّسِ بِأَوْضَارِهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ؛ الَّذِي هُوَ أَعْدَى الْأَعْدَاءِ لِلْإِنْسَانِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْعَدُوَّ يُحْذِرُ مِنْهُ، وَتُحْذَرُ مَصَائِدُهُ وَأَعْمَالُهُ، خُصُوصًا الْأَعْمَالُ الَّتِي يَعْمَلُهَا لِيُوقِعَ فِيهَا عَدُوَّهُ، فَإِنَّهَا فِيهَا هَلَاكُهُ، فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ الْبَعْدُ عَنْ عَمَلِ الْعَدُوِّ الْمُبِينِ، وَالْحَذَرُ مِنْهَا، وَالْخَوْفُ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الْفَلَاحُ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِاجْتِنَابِهَا، فَإِنَّ الْفَلَاحَ هُوَ الْفُوزُ

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٩١).

(٢) الاستقسام: طَلَبُ الْقَسَمِ، وَفَرَزَ النَّصِيبَ. وَالْأَزْلَامُ: هِيَ السَّهَامُ، وَالِاسْتِقْسَامُ بِهَا هِيَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِي التَّنْبُؤِ بِمَا يَقْدُمُونَ عَلَيْهِ أَوْ يَتْرَكُوهُ، فَهِيَ نَوْعٌ مِنَ التَّطْيِيرِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ صُورِ الشَّرْكِ.

بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له.

ومنها: أنَّ هذه موجبةٌ للعداوة والبغضاء بين النَّاسِ، والشيطانُ حريصٌ على بثِّها، خصوصًا الخمرُ والميسرُ، ليقعَ بين المؤمنين العداوة والبغضاء، فإنَّ في الخمرِ من انغلاقِ العقلِ وذهابِ حِجَّةِ، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصًا إذا اقترنَ بذلك من السَّبَابِ ما هو من لوازم شارِبِ الخمرِ، فإنَّه ربما أوصلَ إلى القتلِ، وما في الميسرِ من غَلَبَةِ أَحَدِهِمَا لِلآخَرِ، وأخذِ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسبابِ للعداوة والبغضاء.

ومنها: أنَّ هذه الأشياء تصدُّ القلب - ويتبعه البدنُ - عن ذكر الله وعن الصلاة، اللَّذَيْنِ خُلِقَ لهما العبدُ، وبهما سعادته، فالخمر والميسر يصدَّانه عن ذلك أعظمَ صدٍّ، ويشغلُ قلبه ويذهلُ لُبَّهُ في الاشتغالِ بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو.

فأيُّ معصيةٍ أعظمُ وأقبحُ من معصيةٍ تدنِّس صاحبها، وتجعله من أهل الخُبثِ، وتوقعه في أعمالِ الشيطانِ وشبَّاكِهِ، فينقادُ له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؟!

فهل فوق هذه المفاسد شيءٌ أكبرُ منها؟!»<sup>(١)</sup>.

وزاد ابن رجب<sup>(٢)</sup> ذكْرَ مفاسدَ أخرى؛ منها: نزْعُ الإيمانِ عن صاحبها حال

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٢٤٣).

(٢) انظر: «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٢٧٧).

شُرِبَهَا، كما جاء في الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يَنْتَهَبُ نُهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ يرفعُ النَّاسُ إليه أبصارَهُم وهو مؤمن»<sup>(١)</sup>.

وروى ابن عباسٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «مُذْمِنُ الخَمْرِ إِنْ مَاتَ لَقِيَ اللَّهَ كَعَابِدٍ وَثْنٍ»<sup>(٢)</sup>.

وذكر ابن حَبَّان في «صحيحه» (٥٣٤٧ - «الإحسان») على إثر الحديث: «يشبه أن يكون معنى هذا الخبر: من لَقِيَ اللَّهَ مُذْمِنٌ خَمْرٍ مُسْتَحِلًّا لَشُرْبِهِ، لَقِيَهِ كَعَابِدٍ وَثْنٍ؛ لاستوائيهما في حالة الكفر».

والأحسن منه ما قاله ابن رجب: «وهذا لأنَّ مدمنها يعكف عليها ولا يكاد يفيق منها، فيصير كالعاكف على الأوثان»<sup>(٣)</sup>.

ومنها: منعُ قبول الصلاة؛ ففي الحديث: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فَلَمْ يَنْتَشِرْ؛ لم تُقْبَلْ له صلاةٌ ما دامَ في جوفه أو عروقه منها شيءٌ، وإن ماتَ ماتَ كافراً، وإن انتَشَى؛ لم تقبل منه صلاةٌ أربعين يوماً، وإن ماتَ فيها ماتَ كافراً»<sup>(٤)</sup>.

والخمرُ جاء وصفها بأنَّها (أُمُّ الخبائث)، ويشهدُ شهادةً محسوسةً لكونها

---

(١) رواه مسلم (٥٧).

(٢) رواه أحمد (٢٧٢/١)، وعبد الرزاق (١٧٠٧٠)، وعبد بن حميد (٧٠٨ - «المنتخب»)، وإسناده ضعيفٌ، فيه مجهول، وحسنه شيخنا الألباني في «الصحيحه» (٦٧٧) مرفوعاً، والصواب أنه موقوفٌ على عبدالله بن عمرو، كما بيَّنته في (تحقيقي الثاني) لكتاب «الكبائر» (ص ١٩٠ - ١٩٢)، وهو الذي رجحه ابن رجب في رسالته «ذم الخمر» (٢٧٥).

(٣) «ذم الخمر» (٢٧٥).

(٤) رواه أحمد (٢٧٦٤٤)، وصححه شيخنا الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٨٣).

(أمّ الخبائث) ما رواه النسائي في «سننه»<sup>(١)</sup> عن عثمان - رضي الله عنه - أنّه خطبَ الناسَ يوماً؛ فقال:

«اجتنبوا الخمر، فإنّها أمّ الخبائث، إنّّه كان رجلٌ ممّن خلا قبلكم تعبّد، فعَلِقَتْهُ امرأةٌ غويّةٌ، فأرسلت إليه جاريّتها، فقالت له: إنّنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريّتها، فطَفَقَتْ كلّما دخل باباً أغلقتَه دونه، حتى أفضى إلى امرأةٍ وضيئةٍ، عندها غلامٌ وباطيةٌ خمر، فقالت: إنّني والله! ما دعوتُكَ للشهادة، ولكن دعوتُكَ لتَفَعَ عَلَيَّ، أو تشرب من هذه الخمرة كأساً، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأساً، فسقته كأساً، قال: زيدوني، فلم يُرمِ حتى وقعَ عليها، وقتلَ النَّفْسَ.

فاجتنبوا الخمر، فإنّها والله! لا يجتمع الإيَّمان وإدمان الخمرِ، إلّا ليوْشك أن يخرج أحدهما صاحبه».

فشَرِبُ الخمر فعلةٌ مذمومة، وخصلةٌ مشؤومة، يظهر نحسُها وشؤمُها على صاحبها في الدنيا قبل الآخرة.

وممّا لا ينقضي منه العجبُ في شأن (أمّ الخبائث) أمران:

الأوّل: هذا المسخُّ الذي حلَّ بفطر كثيرٍ من المسلمين ذكوراً وإناثاً، إذ تسمعُ كثيراً منهم - لا سيما الشباب - يتباهون بالسُّكْرِ، وما يحملُهم عليه ذلك السُّكْرُ من العريضة، والتبذُّل، والتعرّي، وارتكاب القبائح، لا أقول: التي يقبّحها الشرع

---

(١) برقم (٥٦٦٦)، وسنده صحيح، وروي عنه مرفوعاً ولا يصحُّ، انظر: «العلل» (١٥٨٦) لابن أبي حاتم، و(٢/ ١٨٥) للدَّارقطني، وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٦٦٧)، والدَّارقطني في «السنن» (٤٦١٠) وإسناده منكر.

فقط؛ بل التي تقبّحها الأذواق والأعراف حتى عند غير المسلمين.

ولذا قال ابن رجب: «واعلم أن شُرْبَ الخمر لو لم يردَّ الشرع بتحريمه لكان العقل يقتضي تقيّحه؛ لِمَا فيه من إزالة العقل - الذي به شَرَفُ الْآدَمِيِّ على الحيوانات - فيصير مشارِكًا لبقية البهائم، أو أسوأ حالًا منها، فمنهم من يتلَطَّخُ بالنَجَاسَاتِ والأَقْدَارِ والقِيءِ، ومنهم من يتشبه بالخنزير، أو يقتل، أو يجرح، فيشبه السَّبَاعَ الجوارح؛ كالكلب العقور ونحوه».

قال: «ولهذا حرّمها كثيرٌ من أهل الجاهليّة قبل الإسلام»<sup>(١)</sup>.

ولذا نجد كبارَ الما جِنيين، بل حتى الجاهليّين، لم يتمدّحوا بالسُّكْرِ، وإنّما ذكروا إقبالهم على الشَّرَابِ، وتلذّذهم به مع نُدْماءِهِم، لكن لم يتباهوا بغيابِ عقولهم، وهل يتباهى أحدٌ ببلوغه الدَّرَجَةَ التي يستوي فيها هو والبهيمة؟! كما قال حسان:

ونشرها فتترُكُنَا مُلوْگَا وأُسَدَا مَا يُنْهِنُنَا اللَّقَاءُ

ولم يشربها منذُ أن حُرِّمَتْ - رضي الله عنه -، ومع ذلك فهذا ذكره لها قبل تحريمها.

حتى ذلك الذي لم يتحاش من لونٍ من الفجور؛ وهو الذي يقال له: أبو نواس، يقول:

فلَمَّا شَرِبْنَاَهَا وَدَبَّ دَبِيْهَهَا إلى موضع الأسرارِ قُلْتُ لها قِفي  
مَخَافَةَ أَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا فِيطْلِعَ نُدْمَانِي على سِرِّي الخفي

(١) «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٢٨١).



يقول: إِنَّهُ يَشْرَبُ الْخَمْرَ - عِيَاذًا بِاللَّهِ -، حتى إذا وجدَ أَنَّهَا بدأتْ تتسلَّلُ إلى قلبه، وبدأ يفقدُ وعيَه، وأوشَكَ على الهدْيَانِ؛ توقَّفَ عن شُرْبِهَا قبل أن ينتقلَ إلى تلكِ الحالةِ المَرْدُولَةِ، لئلا يكشفَ سِرًّا يحسُنُ كتمانَه، أو يهتكَ سِتْرًا يتعيَّنُ الإبقاءُ عليه دون أن يُكشَفَ.

وقال آخر:

يَسْقِي وَيَشْرَبُ لَا تُلْهِيه سَكْرَتُهُ      عن النَّديمِ وَلَا يُلْهُو عن الكاسِ  
أطاعَهُ سُكْرُهُ حتى تَمَكَّنَ مِنْ      حالِ الصُّحَاةِ، وهذا أعْظَمُ النَّاسِ

قلت: بل من أفجرِ النَّاسِ وأرذلهم لا أعظمهم، ولكن القصد أن دهاقنة الماجنين يتباهون ببقاء المروءة ومراعاة الذُّوق، ولا يتفخرون بالبهيمية التي يراها فَجَّارُ زماننا غاية سُكْرِهِم، فإلى الله المشتكى من تراكم الظُّلُمات.

ومهما يكنُ فيها من مُتعةٍ مُدَّعاةٍ «أفليس من الغبنِ كُلِّ الغبنِ تَعَجَّلُ شُرْبُ هذه الخبيثةِ المُفسِدةِ للعقلِ والدينِ مع زُمرَةِ الفُسَّاقِ الأَرْذَالِ والشياطين، وتركُ شُرْبِ الخَمْرِ المُطَهِّرةِ التي هي لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ في حظيرةِ القُدُسِ مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبِيِّينَ والصَّدِيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ؟!»<sup>(١)</sup>.

الثاني: ما زلنا نسمعُ من يصدِّعُ رؤوسنا بأنَّ في الخمرِ دواءً! وقد جاء في الحديث الذي خرَّجه مسلمٌ - رحمه الله - عن طارق بن سُويْد الجُعْفِيِّ - رضي الله عنه - أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عن الخمرِ، فنَهَى - أو كرهَ - أن يصنعَها. فقال: إِنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ. فقال: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ، وَلَكِنَّهُ دَاءٌ»<sup>(٢)</sup>.

(١) «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٢٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٩٨٤)، وقد وقفتُ على تقريرِ صحفيٍّ نُشرَ على الموقع الرسمي لهيئة =

= الإذاعة البريطانية (BBC) بتاريخ ٢ يناير ٢٠٠٧ بعنوان: (الشُّرب يقلل مخاطر ضغط الدَّم)؛ وهو تقرير وُصف بأنّه (دراسة أمريكية)، ليرجع ذاتُ التقرير بنقلٍ عن (المؤسّسة البريطانية لصحّة القلب) تنقُض فيه الدّراسة الأمريكيّة، فيقول مُعدُّوه فيه:

But experts warned too much alcohol can raise blood pressure and said the findings should not be used as a licence to drink.

They stressed that alcohol can harm and should not be used as a medicine.

والترجمة الحرفية لهذا الكلام الوارد في التقرير:

«ولكنّ الخبراء حذّروا من أنّ المزيد من الكحول يرفع ضغط الدَّم، وقالوا: إنّ نتائج بحثهم لا ينبغي أن تستخدم كإذن بشُّرب المزيد، وشدّدوا على أنّ الكحول من الممكن أن تكون ضارّة، ولا ينبغي استعمالها على أنّها علاج».

وتضيف إحدى الباحثات في (المؤسسة البريطانية لصحّة القلب) الآتي:

With alcohol consumption there is a fine line between benefit and risk.

والمعنى: «عند استهلاك الكحول، هناك خيط دقيق بين المنفعة والمخاطرة».

وهي تذكر ذلك على فرض تسليمها لنتائج الدراسة الأمريكيّة، فتقصد أنّ الخمر لا تصلح لتكون دواءً بأيّ حال.

فلعلّ هذا يكون رادعاً للمفتونين، إنّ لم يكفهم ما أوردنا من الرّوادع الشرعيّة قبل ذلك. بل نشرت صحيفة (الغارديان) البريطانية الشهيرة على موقعها الرسمي بتاريخ ٢٤/٢/٢٠٠٩ خبراً بالعنوان الآتي:

**Even small amounts of alcohol increase a woman's risk of cancer.**

A study involving more than a million women found that drinking the equivalent of just one small glass of wine a day significantly increased the risk of common cancers.

ومعنى العنوان الرئيسي: «حتى كمّيّات قليلة من الكحول تزيد خطر الإصابة بالسرطان عند النّساء».

وقد ذكر البخاري - تعليقاً - عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال عن النداي بـ (الشُّكْر): «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ»<sup>(١)</sup>.

وأشد ابن طولون الصّالحي - رحمه الله - في ذمّ الخمر<sup>(٢)</sup>:

لا تنافق بَمَدْحِكَ الحَنْدَرِيسَا <sup>(٣)</sup>	فتوافق في ذاك عِبَادَ عِيسَى
إنّما يمدحُ المُدَامَ النَّصَارَى	وبها يُغْوِي الرَّجِيمُ المَجُوسَا
قال فيها بعضُ الأطَبَاءِ قَوْلَا	لَبَسُوهُ عَلَى الْوَرَى تَلْبِيسَا
أنّها تنفعُ السَّقِيمَ وهذا	خبرٌ قد أتوا به معكُوسَا
قال فيها الرّسولُ قولاً شريفاً	فتدبرُ كلامَه المحروسَا
ليس فيها لأمتي من شفاءٍ	بعدَ ذا القولِ كيف تشفي نَيسَا
تُفسِدُ الدِّينَ لَا محالَةً حقّاً	ثمّ تُهدي للجسمِ داءً حَبِيسَا

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ في الدنيا لم يشربها في الآخرة؛ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ»<sup>(٤)</sup>.

= ومعنى ما هو مكتوبٌ تحته: «دراسة شملت أكثر من مليون امرأة؛ وجدت أن شرب ما يُعادل كأساً صغيراً من النبيذ يومياً، قد زاد بشكل كبير خطر الإصابة بالسرطانات الشائعة».

وإلى الله نشكوا انغلاقَ القلوب والعقول.

(١) صحيح البخاري (٥٦١٤) (باب: شراب الحلواء والعسل).

(٢) «ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر» (٢/ ٦٧٠ - ٦٧١) لابن طولون.

(٣) هي: الخمر.

(٤) رواه البخاري (٥٥٧٥) ومسلم (٢٠٠٣) واللفظ له.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن رجل من الأنصار قال: « حَضَرْنَا مَوْلَى لَنَا عِنْدَ مَوْتِهِ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ وَهُوَ يُخْرِجُ، إِذْ صَاحَ صَيْحَةً مَا بَقِيَ مِنَّا إِنْسَانٌ إِلَّا سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ أَفْقَنَّا، فَرَفَعْنَا رُءُوسَنَا، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ، فَذَهَبْنَا نَنْظُرُ، فَإِذَا وَجْهُهُ كَأَنَّهُ كَبَّةٌ طِينٌ، قَدْ التَّقَى جِلْدُهُ وَوَجْهُهُ وَرَأْسُهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، ثُمَّ تَمَدَّدَ فَمَاتَ، فَسَأَلْنَا عَنْ أَمْرِهِ، فَإِذَا هُوَ صَاحِبٌ بَاطِلٌ »<sup>(١)</sup>.

وكبة الطين: كرة الطين، فاختلطت ملامحه وانعجنت أعضاؤه.

فتأمل هذه الخاتمة، وهذا الحال، هل يشتهي من أحد؟!!

قلتُ: وهم يُطْلَقُونَ (الباطل) على الحرام، لا سيما على ما كان يُشْتَهَى منه ممَّا يعتاده أهل اللهو والتَّرف؛ كالخمر، والزنا، والقمار، والميسر، ومعاشرة المُرْدَان، ونحو ذلك، نسأل الله السَّلامة.

وليس لنا أن نعجب ونحن نحفظُ عن نبيِّنا ﷺ قوله: « لِيَكُونََنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ، وَلَيُنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عِلْمٍ، يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ - يعني: الفقير - لِحَاجَةٍ، فَيَقُولُوا: ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا. فَيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ، وَيَضَعُ الْعِلْمَ، وَيَمَسُخُ آخِرِينَ قَرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »<sup>(٢)</sup>.

وعن عمران بن حصين - رضي الله عنهما - أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ ». فقال رجل من المسلمين: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَتَى ذَاكَ؟ قال: « إِذَا ظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ، وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ »<sup>(٣)</sup>.

(١) «المحتضرين» (ص ١٦٤) لابن أبي الدنيا.

(٢) رواه البخاري (٥٥٩٠).

(٣) رواه الترمذي (٢٢١٢)، وسنده صحيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا الحُسْنُ والجَمَالُ الذي يكونُ عن الأعمالِ الصَّالحةِ في القلبِ يسري إلى الوجه، والقُبْحُ والشَّيْنُ الذي يكونُ عن الأعمالِ الفَاسِدةِ في القلبِ يسري إلى الوجه كما تقدَّم، ثمَّ إنَّ ذلكَ يَقْوَى بِقُوَّةِ الأعمالِ الصَّالحةِ والأعمالِ الفاسدةِ، فكلَّمَا كَثُرَ البِرُّ والتَّقْوَى قَوِيَ الحُسْنُ والجَمَالُ، وكلَّمَا قَوِيَ الإثمُ والعدوانُ قَوِيَ القُبْحُ والشَّيْنُ، حتى يَنْسَخَ ذلكَ ما كَانَ لِلصُّورَةِ من حُسْنٍ وقُبْحٍ، فكم مِمَّنْ لم تكن صورته حَسَنَةً، ولكن من الأعمالِ الصَّالحةِ ما عَظَّمَ به جَمَالَهُ وبِهَاؤُهُ، حتى ظهرَ ذلكَ على صورته.

ولهذا ظهرَ ذلكَ ظُهُورًا بَيِّنًا عِنْدَ الإصرارِ على القَبَائِحِ في آخِرِ العُمُرِ، عِنْدَ قُرْبِ المَوْتِ، فترى وجوهَ أهلِ السُّنَّةِ والطَّاعَةِ كلَّمَا كَبُرُوا ازدَادَ حُسْنُهَا وبِهَاؤُهَا حتى يكونَ أَحَدُهُمْ في كِبَرِهِ أَحْسَنَ وَأَجْمَلَ مِنْهُ في صِغَرِهِ، ونجدُ وجوهَ أهلِ البدعةِ والمعصيةِ كلَّمَا كَبُرُوا عَظَّمَ قُبْحُهَا وشَيْنُهَا حتى لا يستطيعَ النَّظَرُ إِلَيْهَا من كان مُنْبَهَرًا بِهَا في حالِ الصَّغَرِ لَجَمَالِ صورتِهَا.

وهذا ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ فيمن يعظمُ بدعته وفُجُورُهُ؛ مثل الرَّاغِبَةِ وأهلِ المَظَالِمِ والفَوَاحِشِ...»<sup>(١)</sup>.

وروى ابن أبي الدنيا بسنده إلى سُنيْدٍ قال: بلغني عن سهل الأنباوي هذا الحديث، فَلَقِيْتُهُ، فَسَأَلْتُهُ، فَحَدَّثَنِي فقال: «أَتَيْتُ رَجُلًا أَعُوذُهُ وَقَدْ احْتَضَرَ، فَبَيْنَا أَنَا عِنْدَهُ، إِذْ صَاحَ صَاحَةً أَحَدَثَ مَعَهَا، ثُمَّ وَثَبَ فَأَخَذَ بُرْكِيتِي، فَأَفْرَعَنِي! قُلْتُ: مَا قَصَّتُكَ؟ قَالَ: هُوَ ذَا حَبَشِيٍّ أَزْرُقُ! عَيْنَاهُ مِثْلُ السُّكْرُكَتَيْنِ<sup>(٢)</sup>، فَغَمَزَنِي غَمَزَةً

(١) «الاستقامة» (١/٣٦٥).

(٢) السُّكْرُكَةُ: هي خمر الحبشة، كَأَنَّهُ يريد: أَنَّ عَيْنَيْهِ غَامِقَتَانِ كَخَمْرِ الحبشة.

أَحَدْتُ مِنْهَا. فَقَالَ لِي: مَوْعِدُكَ الظُّهْرُ.

فَسَأَلْتُ عَنْهُ: أَيُّ شَيْءٍ كَانَ يَعْمَلُ؟ قَالَ: كَانَ يَشْرَبُ النَّبِيذَ<sup>(١)</sup>.

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَمَا كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ، فَلَا جَرَمَ يَقُولُ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -:  
مَنْ تَرَكَ الْخَمْرَ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِأَسْقِينَهُ مِنْهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُسِ، وَمَنْ تَرَكَ الْحَرِيرَ وَهُوَ  
يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِأَكْسُونِهِ إِيَّاهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُسِ»<sup>(٢)</sup>.

فَالْخَمْرُ فِيهِ إِدْمَانٌ، وَيُضَيِّعُ إِرَادَةَ الْعَبْدِ، وَيَجْرِمُهُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَيَسْقُطُهُ مِنْ  
أَعْيُنِ النَّاسِ، وَلَا يَعِيشُ إِلَّا مَعَ أَرَادَتِهِمْ، وَيَكْسِبُ بِمَا جَنَّتْ يَدَاهُ مَسَاخَطَ اللَّهِ، فَيُضَرُّ  
بِدِينِهِ وَدُنْيَاهُ، إِذِ الْخَمْرُ شَرَابٌ يُتَلَفُ الْجِهَازُ الْعَصَبِيُّ وَيَتَسَبَّبُ فِي إِحْدَاثِ مُعْظَمِ  
أَمْرَاضِهِ، وَهُوَ السَّبَبُ وَرَاءَ (٩٠) بِالمِائَةِ مِنَ السَّرَطَانَاتِ الَّتِي تُصِيبُ الْمَرِيضَ، وَكَذَلِكَ  
الْمَعْدَةُ، وَيَذْهَبُ بِالْمُنَاعَةِ، وَيُضْعَفُ قُدْرَةُ الرَّجُلِ عَلَى إِتْيَانِ أَهْلِهِ، وَيَتَسَبَّبُ فِي عَدَدٍ  
مِنِ الْأَمْرَاضِ الْجُلْدِيَّةِ.

وَفِي بَعْضِ السَّنَوَاتِ بَلَغَتْ نِسْبَةُ حَوَادِثِ الْقَتْلِ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْخُمُورِ مَا نَسَبَتْهُ  
(٨٦) بِالمِائَةِ مِنْ مَجْمَلِ حَوَادِثِ الْقَتْلِ، وَنِصْفِ حَوَادِثِ الْاِغْتِصَابِ بِسَبَبِ الْخُمُورِ  
- أَيْضًا -<sup>(٣)</sup>.

فَمَا الْجَازِبِيَّةُ الَّتِي يَجِدُهَا فِيهِ شَارِبُوهُ؟! وَمَا الَّذِي يَقْدِّمُهُ لَهُمْ سِوَى أَنْ يَكُونَ  
شُرْبُهُمْ لِلْخَمْرِ فَصْلًا مِنْ فُصُولِ ذُلِّهِمْ وَعِبُودِيَّتِهِمْ لِلشَّيْطَانِ، مُتَظَاهِرِينَ بِسَعَادَتِهِمْ

(١) «المحتضرين» (ص ١٦٤ - ١٦٥).

(٢) «صحيح الترغيب» (٢٣٧٥)، وَخَرَّجَتْهُ فِي تَعْلِيْقِي عَلَى كِتَابِ «تَمْهِيدِ الْفَرَشِ» لِلْسَّيْوُطِيِّ.

(٣) انْظُرْ: «حِكْمَةُ مِنَ الْأَحْكَامِ» (ص ١٣٠ وَمَا بَعْدَهَا) لِمُحَمَّدٍ عَلِيِّ بْنِ بَحْرِي.

بقضاء أوطارٍ رخيصة، والاستمتاع بشهوة زائفة لا معنى لها.

«يا هذا! اعرفْ قَدْرَ لُطْفِنَا بِكَ، وحَفْظِنَا لَكَ، إِنَّمَا مَهِينَاكَ عن المعاصي صيانةً  
لك، وَغَيْرَةُ عَلَيْكَ، لا لحاجتنا إلى امتناعك، ولا بُخْلًا بها عليك.

لَمَّا عَرَفْتَنَا بِالْعَقْلِ حَرَمْنَا عَلَيْكَ الْخَمْرَ لِأَنَّمَا تَسْتُرُهُ، شَيْءٌ بِهِ عَرَفْتَنَا؛ يَحْسُنُ  
بِكَ أَنْ تُزِيلَهُ أَوْ تُغَطِّيَهُ؟!

لا كَانَ كُلُّ مَا يَقْطَعُ الْمَعْرِفَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، لا كَانَ كُلُّ مَا يَحْجُبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ.

يا شارب الخمر! لا تغفل، يكفيك سُكْرُ جَهْلِكَ، لا تجمع بين خطيئتين.

يا من باشر بعض القاذورات! اغتسل منها بالإنبابة، وقد زال الدَّرَنُ، طَهَّرُوا  
دَرَنَ الْقُلُوبِ بِدَمْعِ الْعَيُونِ، فما يَنْفَعُهَا غَيْرُهَا.

يا من قد دَرَنَ قَلْبُهُ بَوَسَخِ الذُّنُوبِ! لو اغْتَسَلْتَ بِمَاءِ الْإِنَابَةِ لَطَهَّرْتَ، لو  
شَرِبْتَ مِنْ شَرَابِ التَّوْبَةِ لَوَجَدْتَهُ شَرَابًا طَهُورًا.

يا أوساخ الذنوب! يا أدران العيون! ﴿هَذَا مُغْتَسَلُ بَارِدٍ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] (١).

ولا بدَّ أخيرًا من الإشارة إلى إخبار النبي ﷺ بقوله في الحديث السابق:  
«يَسْتَحْلُونَ... والخمر والمعازف»، فمتى سمعت أحدًا يَحْلُلُ الخمرَ أو المعازف  
وآلات الطرب فلا تصدِّقه، وقل: أخبرنا النبي ﷺ لنَحْذَرَكَ ونَحْذَرَ مِنْكَ، فَإِيَّاكَ  
وصنيعَ شياطين الإنس والجنّ.

\* \* \*

---

(١) «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٢٨٤).

## آثار العقوق وقطيعة الرحم وعقوبته

قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنبٍ أَجْدَرُ أَنْ يَعَجَلَ اللهُ لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يُدَخِّرُ له في الآخرة؛ من البَغْيِ وقطيعةِ الرحم»<sup>(١)</sup>.

البَغْيُ: مجاوزةُ الحدِّ المأذون فيه من أيِّ شيءٍ كان.

وقد قال - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ فِيهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَسُّهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿

[يونس: ٢٢ - ٢٣].

فها هو ربُّنا - تبارك وتعالى - يحذِّرُ الباغي على الخلق، المتطاول عليهم بغير حقٍّ، المعتدي على حقوقهم ظلمًا، بأنَّ بغيه لا يكون إلَّا على نفسه.

وأما تعجيلُ العقوبة لقاطع الرَّحم؛ فقال المُنَاوي: «لأنَّ فاعلَ ذلك لَمَّا افترى باقتحامٍ ما تطابقت على النَّهي عنه الكتبُ السَّماوية، والإشاراتُ الحَكَمِيَّة،

(١) رواه الترمذي (٢٥١١) وسنده صحيح.



وقطَعَ الوَصْلَ التي بها نظامُ العالمِ وصلاحيه؛ أَسْرَعَ إِلَيْهِ الوَبَالَ في الدُّنْيَا، مع ما أَدْخَرَ له من العقابِ في العُقْبَى»<sup>(١)</sup>.

والحديثُ دليلٌ - أيضًا - على أنَّ ما يُعَجَّلُ للقاطِعِ والباغي من العقوبةِ في الدُّنْيَا لا يُعَدُّ كفارةً عن عقوبة الآخرة، وهذا محلُّه إذا لم يتب من بغيه وقطيعة، والله المستعان.

عن مُحَمَّد بن عُمَيْيَّةَ الْفَزَارِيِّ قال: سمعتُ أبا إِسْحاقَ الْفَزَارِيَّ يقولُ لعبدِاللهِ ابنِ المبارك: «يا أبا عبد الرحمن! كان رجلٌ من أصحابنا جَمَعَ من العلمِ أكثرَ مما جَمَعَتْ وَجَمَعَتْ، فَاحْتَضَرَ، فَشَهِدَتْهُ، فَقَالَ لَهُ: قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فيقول: لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا! ثُمَّ تَكَلَّمَ، فَيَتَكَلَّمُ، قال ذلكَ مرتين، فلم يزل على ذلكَ حتى مات.

قال: فسألتُ عنه، فقيل: كان عاقًا بوالديه، فظننتُ أَنَّ الَّذِي حُرِمَ كَلِمَةَ الإِخْلَاصِ لِعُقُوقِهِ بوالِدَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

والقاطِعُ لِلرَّحِمِ ملعونٌ، والوالدانِ أَخَصُّ الرَّحِمِ، فقد قال - سبحانه -: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

\* \* \*

---

(١) «فيض القدير» (١/ ٦٤٥).

(٢) «المحتضرين» (ص ١٧٦) لابن أبي الدنيا.

## عقوبة الكذب والزور والافتراء والبهتان

كل واحدة من المذكورات لها تعريفها وحدها في اللغة وفي اصطلاح أهل العلم، لا سيما منها ما يترتب عليه حد من الحدود الواجبة المقدرة شرعاً كالفرية، وهي من أساء القذف؛ فقد قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَاجْزَوْهُنَّ ثَمَنَيْنِ جَلْدَةٍ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَدَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٤١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿النور: ٤ - ٥﴾.

فهذا النوع الخاص من الفرية كما ترى، يوجب أن يُجلد فاعله ثمانين جلدة، وردّ شهادته، والحكم عليه بالفسق، وقد اختلف أهل العلم في مرجع الاستثناء في قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ هل بعد توبتهم يرتفع عنهم وصف الفسق فقط وتبقى شهادتهم مردودة؟ أم أن الاستثناء راجع إلى كليهما؟ وهذا له تفاصيل دقيقة وفروع لا تحصى مبسوطه في كتب الفقه.

والمقصود هنا التحذير من مطلق الكذب؛ لأنّ المذكورات جميعاً يجمعها الإتيان بما يخالف الحقيقة، وما لا يجوز قوله باللسان.

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «عليكم بالصدق؛ فإنّ الصدق يهدي إلى البرّ، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب؛ فإنّ

الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً»<sup>(١)</sup>.

وللكذب شؤمٌ خاصٌّ على الرزق؛ فإنَّه يمحَقُّ بركةَ المالِ المُكتَسَبِ من البيع والتجارة، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «البَّيْعَانِ بالخيارِ ما لم يتفرَّقا - أو قال: حتى يتفرَّقا -، فإنَّ صدَقًا وبيئًا، بُوركَ لهما في بيعِهما، وإنَّ كُتْمًا وكذبًا، مُحِقتْ بركةُ بيعِهما»<sup>(٢)</sup>.

وقد أرى النبي ﷺ في منامه كيف يكون عذابُ الكذاب في قبره - نسأل الله العافية والسلامة -.

عن سَمُرَةَ بنِ جُنْدَبٍ - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ ممَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟». قال: فيَقْصُّ عليه من شاء الله أَنْ يَقْصَّ، وإنَّه قَالَ ذاتَ غَدَاةٍ «إنَّه أَتَانِي اللَّيْلَةُ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ! وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا...».

فذكرَ مروَّره على أَصْنَافٍ من أَهْلِ المعاصي المُعَذَّبين في قبورهم، حتى قال: «فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِكُلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَاقِي وَجْهِهِ فَيُشْرِشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمِنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ.. قال: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى، قال: قلت: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَا؟».

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٢٠٨٢) ومسلم (١٥٣٢).

حتى فسّر له ﷺ حقيقة ما رأى، ورؤيا الأنبياء وحي كما تعلم؛ فقالا:  
«وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشْرِشِرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمِنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ،  
وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الْكِذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ»<sup>(١)</sup>.

فأيُّ عاقلٍ يشتهي هذا المال؟! وكيف يكون الحال في الآخرة إذا كانت هذه  
حال الكذاب في قبره، وهذا عذابه إلى أن تقوم الساعة؟!

ولا نشكُّ أنَّ من أوضح ما يتناوله هذا الوصف النبوي عند ذكره الكذب  
التي تبلغ الآفاق؛ أنَّ أوَّل ما يدخل فيه الكذب على مواقع الإنترنت ووسائل  
التواصل الاجتماعي، التي ما إن يُكذَّب عليها الحرفُ هنا، حتى يقرأه القارئ من  
أقاصي الدنيا بعد ثوانٍ، ثمَّ تطير وتُتداوَل من قُطرٍ إلى قُطرٍ حتى تعمَّ أرجاء الأرض  
في بضع ساعات.

ومَّا وردَ من الوعيد على الكذب، ما رواه بهزُّ بن حكيم عن أبيه عن جده  
- رضي الله عنه -، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ  
لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ فَيَكْذِبُ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ»<sup>(٢)</sup>.

وغير ذلك كثيرٌ في شأن الكذابين والمفترين.

وأما ما جاء من العقوبات المحسوسة الواقعة في الدنيا؛ فمن ذلك:  
عن عروة بن الزبير: أنَّ أروى بنتَ أُوَيْسٍ ادَّعَتْ على سعيد بن زيد أنَّه  
أخذَ شيئاً من أرضها، فحاصمتهُ إلى مروان بن الحكم، فقال سعيد: أنا كنتُ آخذُ  
من أرضها شيئاً بعد الذي سمعتُ من رسول الله ﷺ؟! قال: وما سمعتُ من

(١) رواه البخاري (٧٠٤٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٥) وأبو داود (٤٩٩٢)، وسنده حسن.

رسول الله ﷺ؟ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا؛ طَوَّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ». فقال له مروان: لا أسألكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هَذَا. فقال: اللهم! إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَعَمَّ بَصَرُهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا.

قال: فما ماتت حتى ذهبَ بَصَرُهَا، ثُمَّ بَيْنَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا، إِذْ وَقَعَتْ فِي حَفْرَةٍ فَمَاتَتْ<sup>(١)</sup>.

وفي لَفْظٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «فَرَأَيْتُهَا عَمِيَاءَ تَلْتَمِسُ الْجُدْرَ، تَقُولُ: أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ. فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي الدَّارِ مَرَّتْ عَلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ فَوَقَعَتْ فِيهَا، فَكَانَتْ قَبْرَهَا». ومن ذلك:

عبد الملك بن عُمَيْرٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: شَكَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فَعَزَلَهُ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمَ عَمَّارًا، فَشَكَّوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ! إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تُحْسِنُ تَصَلِّي!

قال أبو إسحاق: أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ! فَإِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أَصَلِّي صَلَاةَ الْعِشَاءِ، فَأَرْكُضُ فِي الْأَوَّلِينَ وَأُخَفُّ فِي الْآخِرِينَ.

قال: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ. فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رَجُلًا إِلَى الْكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ، وَلَمْ يَدْعُ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يَقَالُ لَهُ: أَسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ، يَكْنَى أَبَا سَعْدَةَ، قَالَ:

(١) رواه مسلم (١٦١٠).

أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا؛ فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ.

قال سعد: أَمَّا وَاللَّهِ! لَأَدْعُونَ بَثَلًا: اللَّهُمَّ! إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطْلَ عُمُرَهُ، وَأَطْلَ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالْفِتَنِ.

وكانَ بعدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ أَصَابَتْني دَعْوَةُ سَعْدٍ.

قال عبد الملك: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بعدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك - أَيضًا -:

عن سليمان بن حرب قال: «كَانَ مُطَرِّفٌ<sup>(٢)</sup> مُجَابَ الدَّعْوَةِ، أَرْسَلَهُ رَجُلٌ يَخْطُبُ لَهُ، فَذَكَرَهُ لِلْقَوْمِ فَأَبَوْهُ، فَذَكَرَ نَفْسَهُ فَرَّوْجُوهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ - فِي ذَلِكَ -: بَعْثْتُكَ تَخْطُبُ لِي؛ حَظَبْتَ لِنَفْسِكَ؟! قَالَ: قَدْ بَدَأْتُ بِكَ. قَالَ: كَذَبْتَ! قَالَ: اللَّهُمَّ! إِنْ كَانَ كَذَبَ عَلَيَّ فَأَرِنِي بِهِ. قَالَ: فَمَاتَ مَكَانَهُ. فَاسْتَعْدَوْا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمُ الْأَمِيرُ: ادْعُوا أَنْتُمْ - أَيضًا - عَلَيْهِ كَمَا كَانَ دَعَا عَلَيْكُمْ<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

---

(١) رواه البخاري (٧٥٥).

(٢) هو الإمام مطرف بن عبدالله بن الشخير.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٥)، و«تاريخ دمشق» (٥٨/ ٣٢٤)، و«كرامات الأولياء» (ص ٢٠٩).

## عقوبة اليمين الفاجرة

اليمين الفاجرة هي: الكاذبة التي يحلفها صاحبها بغياً وظلماً وهو يعلم أنه فيها كاذب؛ ليفوز بها بما ليس له، ويقتطع بها حقوق إخوانه زوراً وبُهتاناً، ولا شك أنها أعظمُ جُرمًا وإثمًا من مجرد الكذب.

قال رسول الله ﷺ: «ليس شيءٌ أطيعَ اللهُ فيه أعجلُ ثوابًا من صلّةِ الرَّحِمِ، وليس شيءٌ أعجلُ عقابًا من البغيِ وقطيعةِ الرَّحِمِ، واليمينُ الفاجرةُ تدعُ الدِّيارَ بِلَاقِعٍ»<sup>(١)</sup>.

وقد تعرّضنا لعاقبة البغي وقطيعة الرحم، ومحلُّ الشاهد من هذا الحديث أنَّ اليمين الفاجرة تخرب الدِّيار حتى تدعها بلاقع، نسأل الله العافية.

فهذه عقوبةُ إلهية تنزلُ بالأفراد الذين يستخفُّون باسم الله عندما يحلفون به، فيحلفون به كذبًا، فما بالك بالجماعات الذين لا يقيمون وزنًا لسائر أوامر الله وشرعه، نسأل الله السلامة والعافية.

قال في «النهاية»<sup>(٢)</sup>: «البَلَاقِعُ: جمع بَلَقَعَ وبلَقَعَة، وهي الأرض القفر التي

(١) رواه البيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٣٥) برقم (١٩٦٥٥)، وصححه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٩٧٨).

(٢) (١٥٣/١).

لا شيء بها، يريد: أنَّ الحالف بها يفتقر ويذهب ما في بيته من الرزق. وقيل: هو  
أن يفرق الله شمله ويعير عليه ما أولاه من نعمه.

\* \* \*



## شؤم النَمِيمَةِ وأثرها على المجتمع

قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَطْعُمْ كُلَّ حَلَافٍ مِّمِّينَ ۖ هَٰذَا مِثْلُ مِمَّا بَنِيكُمْ﴾ [القلم: ١٠-١١].  
 قال القرطبي: «مِثْلُ بَنِيكُمْ، أي: يمشي بالنَمِيمَةِ بين النَّاسِ لِيُفْسِدَ بَيْنَهُمْ، يُقَالُ: نَمَّ، يَنْمُ، نَمًّا وَنَمِيمًا وَنَمِيمَةً؛ أي: يمشي ويسعى بالفساد»<sup>(١)</sup>.

عن عطاء بن السائب؛ قال: «قدمتُ من مكة فَلَقَنِي الشَّعْبِيُّ، فقال: يا أبا زيد! أَطْرَفْنَا مِمَّا سَمِعْتَ بِمَكَّةَ؟ فقلت: سمعت عبد الرحمن بن سابط يقول: لا يَسْكُنُ مَكَّةَ سَافِكٌ دَمٍ، وَلَا آكُلُ رَبًّا، وَلَا مِثْلُ بَنِيكُمْ. فَعَجِبْتُ مِنْهُ حِينَ عَدَلَ النَّمِيمَةَ بِسَفْكِ الدَّمِ وَأَكْلِ الرَّبِّ».

فقال الشَّعْبِيُّ: وما يعجبك من هذا؟<sup>(٢)</sup>! وهل يُسْفِكُ الدَّمُ وَتُرَكَّبُ الْعِظَائِمُ إِلَّا بِالنَّمِيمَةِ؟<sup>(٣)</sup>.

وصدق - رحمه الله -، فكم من دمٍ سُفِكَ، وكم من بيتٍ هُدِمَ، وكم من

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ٢٣٢).

(٢) يعني: ما العجبُ فيه؟!

(٣) رواه وكيع في «الزهد» (٣/ ٧٦٣ - ٧٦٤)، ومن طريقه الدِّينُورِي في «المجالسة» (٦٧٣ - بتحقيقي)، وانظر تعليلي عليه فيه.

عرض انتھك، فكانت النّميمة هي شرارة كل هذه العظائم.

وهذا مع ما توعد الله به النّمام من سوء الجزاء العاجل في قبره، مع ما هو مدّخر له في الآخرة.

ففي «الصحيحين»<sup>(١)</sup> من حديث ابن عبّاس - رضي الله عنهما - قال:  
خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة فسمع صوت إنسانين يعدّبان في  
قبورهما، فقال: «يعدّبان، وما يعدّبان في كبير، وإنّه لكبير؛ كان أحدهما لا يستتر  
من البول، وكان الآخر يمشي بالنّميمة». ثم دعا بجريدة فكسرها بكسرتين - أو  
ثنتين - فجعل كسرة في قبر هذا وكسرة في قبر هذا، فقال: «لعلّه يخفف عنهما ما لم  
يبيّسا».

وقال رسول الله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ تَمَامٌ»<sup>(٢)</sup>.

فهذه - أيضًا - من المعاصي الخاصّة التي وردت النصوص بأن لها آثارًا  
مشؤومة عاجلة على النّاس.

ويُجزى النّمام والمُغتائب من جنس عمله، جزاء وفاقًا؛ فعن أبي بَرزّة  
الأسلمي - رضي الله عنه - مرفوعًا: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بَلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ  
قَلْبَهُ! لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ،  
وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد؛

---

(١) البخاري (٦٠٥٥) ومسلم (٢٩٢)، وبوّب عليه البخاري: (باب: النّميمة من الكبائر).

(٢) رواه مسلم (١٠٥).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٨٢)، وسنده صحيح.

فإنَّه يَعِزُّ عليه الصَّبْرُ عنها، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار، ويتورع  
من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكُّه  
في أعراض الخلق، والقول على الله ما لا يعلم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص ١٢٦ - ١٢٧).

## تأثير المعصية في الماء والهواء والحجارة

عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل الحَجَرُ الأسودُ من الجنة وهو أشدُّ بياضًا من اللبن، فسودَّته خطايا بني آدم»<sup>(١)</sup>.  
فهل يستنكر عاقلٌ أو يستغربُ تسويدَ الخطايا لحياته؟ وتعكيرها لصفوِ علاقاته؟ وإفسادها لمحباته؟

تأمل! معي بعين قلبك، وصفاء نفسك، ما قاله الطيّبي في شرحه لهذا الحديث، وعبارته: «لعل هذا الحديث جارٍ مجرى التمثيل والمبالغة في تعظيم شأن الحجر وتفظيع أمر الخطايا والذنوب، والمعنى: أن الحجر لما فيه من الشرف والكرامة وما فيه من اليمن والبركة شارك جواهر الجنة فكأنه نزل منها، وأن خطايا بني آدم تكاد تؤثر في الجهاد فيجعل المبيض منها مسودًا، فكيف بقلوبهم؟! أو لأنّه من حيث أنه مكفّر للخطايا، محمّء للذنوب؛ لما روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه كان يزاحم على الرُّكنَيْن، وقال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «إنَّ مسحهما كفَّارةٌ للخطايا»<sup>(٢)</sup>، كأنّه من الجنة، ومن كثرة تحمُّله أوزار بني آدم صار كأنّه كان

(١) رواه الترمذي (٨٧٧) وسنده صحيح.

(٢) صححه شيخنا الألباني في تخريجه لأحاديث «المشكاة» (٢٥٨٠).

ذا بياضٍ شديدٍ، فسودَّته الخطايا، هذا، وإنَّ احتمالَ إرادةِ الظَّاهرِ غيرُ مدفوعٍ عقلاً، ولا سمعاً، والله أعلم بالحقائق»<sup>(١)</sup>.

ذكر الذهبي - رحمه الله - في «السَّيَر»<sup>(٢)</sup> عن محمد بن سيرين قوله:  
«قلتُ مرةً لرجلٍ: يا مفلس! فعوقبتُ».

ثمَّ نقلَ قولَ أبي سليمان الدَّاراني - وقد بلغه هذا القول عن ابن سيرين -:  
«قلتُ ذنوبُ القومِ، فعرفوا من أين أتوا، وكثرتُ ذُنُوبُنَا فلم نَدْرِ من أين نُؤْتَى».

وصدق - رحمه الله -، فكيف يميِّز الخير من الشرِّ، أو يدرك سبب النِّحسِ، من لا يكاد يسأل نفسه أفي حلالٍ هو أم في حرامٍ؟ ومن لا يكاد يتحاشى شيئاً من الشرِّ أو يتَّقِيهِ؟ ولا حول ولا قوَّةَ إلا بالله.

وبَوَّب البخاريُّ - رحمه الله - في «صحيحه»: (باب نزولِ النَّبِيِّ ﷺ الْحِجْرَ).  
وَالْحِجْرُ: هي مدائن صالح - عليه السلام -، وديار ثمود، نسأل الله العافية  
مِمَّا حَلَّ بِهِمْ، وهي - كما هو معلومٌ - على الطَّرِيقِ بين المدينة وتبوك، وقد نزل بها ﷺ  
في طريقه إلى غزوة تبوك سنة تسعٍ من الهجرة.

وأُسْنَدُ البخاريِّ فيه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ  
بِالْحِجْرِ قال: «لا تدخلوا مساكنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَصِيْبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ؛  
إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ»، ثُمَّ قَنَعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَارَ الْوَادِي<sup>(٣)</sup>.

(١) «شرح الطَّيْبِي عَلَى الْمَشْكَاة» (٥/٢٧٣ - ط الباكستانية).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/٦١٦).

(٣) البخاري (٤٤١٩).

وَأَسَدٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَفْظًا آخَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِ الْحِجْرِ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ؛ أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ».

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «هَذَا الْحَدِيثُ نَصٌّ فِي الْمَنْعِ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى مَوَاضِعِ الْعَذَابِ، إِلَّا عَلَى أَكْمَلِ حَالَاتِ الْخُشُوعِ وَالْإِعْتِبَارِ، وَهُوَ الْبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَخَوْفِ عِقَابِهِ الَّذِي نَزَلَ بِمَنْ كَانَ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ، وَأَنَّ الدُّخُولَ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ يُخْشَى مِنْهُ إِصَابَةُ الْعَذَابِ الَّذِي أَصَابَهُمْ».

وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنْ تَدَبُّرِ الْآيَاتِ، فَمَنْ رَأَى مَا حَلَّ بِالْعُصَاةِ وَلَمْ يَتَنَبَّهُ بِذَلِكَ مِنْ غَفْلَتِهِ، وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِي حَالِهِمْ وَيَعْتَرِ بِهِمْ؛ فَلْيَحْذَرْ مِنْ حُلُولِ الْعُقُوبَةِ بِهِ، فَإِنَّهَا إِنَّمَا حَلَّتْ بِالْعُصَاةِ لَغَفْلَتِهِمْ عَنِ التَّدَبُّرِ وَإِهْمَالِهِمُ الْيَقَظَةَ وَالتَّذَكُّرَ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ السُّكْنَى بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَلَا الْإِقَامَةُ بِهَا، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ؛ مِنْهُمْ: الْحَطَّائِيُّ وَغَيْرُهُ، وَنَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ.

قَالَ مُهَنَّأٌ: سَأَلْتُ أَحْمَدَ عَمَّنْ نَزَلَ الْحِجْرَ؛ أَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا وَيَعْجَنُ بِهِ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا لَظُرُورَةٍ، وَلَا يَقِيمُ بِهَا»<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحِجْرِ أَرْضٍ ثُمُودَ، فَاسْتَقَوْا مِنْ آبَارِهَا، وَعَجَنُوا بِهِيَ الْعَجِينَ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَهْرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا، وَيَعْلِفُوا الْإِبِلَ الْعَجِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَرِدُهَا النَّاقَةُ»<sup>(٢)</sup>.

(١) «فتح الباري» (٢/٤٣٤) لابن رجب.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨١).

وما ذلك إِلَّا لتأثير المعصية في الماء والهواء والمكان، فَإِنَّ لها شؤماً في كلِّ ما  
حولها.

هذا ما أردتُ أن أوردَه مكتفياً به، وأَنْنى لنا أن نستقصيَ- على وجه التَّمامِ  
نقائصَ الإنسانَ وتفريطَه في جنبِ الله، والنَّقْصُ لهذا الإنسانِ صفةٌ ذاتٍ لازمةٌ  
لا تنفكُ عنه، ولا مفرِّجٌ إِلَّا الله، لا ملجأ ولا منجى منه إِلَّا إليه - سبحانه -.



## دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في محاربة الذنوب

من أكثر أسباب ظهور الذنوب على مستوى جماعة الناس: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولنأخذ بعض الأمثلة: التبرُّج والزنا والرِّبَا ذنوب جماعية، والمتلبِّسون بهذه المعاصي لهم ما ينقذهم منها بحكم ما أودعه الله في الطَّبَاع التي ركزها في النفوس؛ من الغيرة على من تبرَّج من محارمه ومن هنَّ تحت ولايته، وكذا الرحمة والشفقة على من انغمس بالرِّبَا إن كان محتاجًا، فهؤلاء جميعًا مذنبون بإقرارهم وبسكوتهم، وعدم إيجادهم التدابير العملية الجادة التي تحول بين هؤلاء وذنوبهم، بتلبية حاجاتهم التي من أجلها اقترفوا الخطايا والذنوب، فهم عند الله في شرعه وكونه مثلهم في الوزر، والعقوبة المترتبة عليه، فإنَّها تعمُّهم جميعًا.

المراي - مثلاً - قبل أن يراي يعرف حاله وعوزَه عددٌ من أصحابه وأحبابه المقرَّين إليه من الأغنياء أو من بإمكانهم مساعدته بإعطائه قرضًا حسنًا<sup>(١)</sup>، ولن

---

(١) سبقت آيات الرِّبَا والتغليظ في تحريمه، وفي آخر سورة البقرة آيات الصدقة والحثُّ عليها، وبيان فضلها، ولحقت آيات القرض وبيان أحكامه ووجوب كتابته، فلمَّا تفلَّت النَّاس من الالتزام بكتابة القرض، وأصابهم الخجل لاعتباراتٍ وهمية من مطالبة من يطلبه بالرَّهن أو الكتابة؛ انعدم القرض أو كاد، ففتح باب الرِّبَا على مصراعيه.



تتأثر تجارتهم بشيء، ولن يمسّ رغدهم وبجوحة عيشهم جراء هذا القرض شيء، فالذي لا يقرض المرابي وهو مستطيع، ويلجئه إلى الربا يكون شريكاً له في الوزر؛ لأنّ من يعرف حاله من خواصّه ومعارفه يجب عليه أن يأخذ على يده، ينهيه عن المنكر، وأن يبذل له ما يستطيع من مساعدة، وباعثه الغيرة على حرّمة الله، والشفقة على عباد الله؛ لأنّ المُعَاوَنَةَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى واجبَةٌ على جماعة المسلمين وجوباً عاماً، كما يدلّ عليه كتابُ الله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

فما أحوجنا إلى اتخاذ تدابير تحول دون إقبال الناس على الربا، والواجب على المصارف الإسلامية أن تحسّن أداءها، وأن يلمس الناس منها بلغة الأرقام - كما يقولون - أنّها أرحم بهم من البنوك الربوية، وأن لا يكون همُّها فقط الربح المادّي، وما أحوجنا - أيضاً - إلى صندوق وقف للنقد، يؤخذ من الأغنياء ثم في المال يرد إليهم؛ مثل القرض الحسن، وأنا أعرض على المسؤولين هذا الأمر، حتى نخفف من الجريمة، فكما أنّ هناك جرائم تكون العقوبة فيها جماعية؛ فإنّها تحتاج منّا إلى تدابير وقائية جماعية، ليحفظنا ربنا، وليبعد مقتته عنا، وكما قالوا: يُحَدِّثُ النَّاسَ، والواجب على من بيدهم القدرة أن يُحَدِّثُوا لهم ما يمنعهم من الوقوع في المعصية.



## تعاضد الذنوب عند غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يقول النبي ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سَيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَخْرُجْنَ رِيحُهُنَّ مِنْ رِيحِهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا»<sup>(١)</sup>.

### هل من صلة بين الصنفين؟

بلا شك هناك صلة عظيمة وليست صلة فقط، وحياة الأمم محكومة بقواعد هي سنن الله فيها، والكتاب والسنة بيّننا لنا ما نحتاجه منها وننجوا به بيّناً شافياً، ومنها هذا الحديث، فإنّه قاعدة في تحليل واقع الأمة.

من الصّلات بين الصّنفين: أنّ الأقوام الذين بأيديهم سيّاطٌ كأذناب البقر يمثلون الظّلم الذي يمارسه الجبّارة والمتنفّذون، والنساء الكاسيات العاريات يمثلن الفساد الخلقيّ، فمتى ظهر الفساد الخلقيّ؛ لا بدّ أن يظهر ظلم السّلطان وجبروته.

ومن الصّلات بينهما: أنّ الذي يعيش عبداً لشهوته، والذي لا يقدر على

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٥٧).

أن يقول للمتبرِّجة: اتَّقِ الله! لا يقدر على أن يقول للظالم: أنت ظالم!

فالحديث يذكر صنفين من الناس بينهما تلازم، ويبيِّن لنا - أيضًا - مدى تأثير غياب واجب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر على تفسُّي الفساد، وتعمُّقه وصعوبة تقليده أو زواله؛ ذلك لأنَّ النَّفس مردت عليه، وأدمنت على وجه يكون الفطام منه محتاجٌ إلى رحمة الله، وهذا في سنَّة الله - عز وجل - يؤدِّي إلى هلاك العباد، وخراب البلاد.

قال الله - تعالى -: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

هذا حضٌّ وتوجيهٌ نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلَّا، فهي للتَّحضيض والتَّحفيز والحثُّ والتنشيط، ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي: أولو فضلٍ، يقال: فلانٌ من بَقِيَّةِ القوم؛ أي: من خيارهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ بالنهي عن الكفر والمعاصي ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: ولكن قليلًا ممَّنْ أنجينا من القرون مَهْوًا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي، والنجاة للنَّاهين وحدهم ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: الكافرون والساكتون ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: شهواتهم؛ والمعنى: اتبعوا ما عرفوا فيه التَّعَمُّدَ والترفع، من حب الرِّئاسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيئ، ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونبذوه وراء ظهورهم ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ هذا هو وصفهم الذي يستحقونه؛ الإِجرام.

وهكذا عَجَبَ الله - عز وجل - ألا يوجد في القرون الماضية بقايا من أهل الخير يَنْهَوْنَ عَمَّا كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض إلا القليل، هم الذين أنجاهم الله - عز وجل - عند حلول غضبه وفجأة نقمته.

ثُمَّ بَيَّنَّ الله - عز وجل - سُنَّتَهُ في الإهلاك، فأخبر أنه لم يهلك قرية إلا حال كون أهلها ظالمين لأنفسهم بالمعاصي وترك الأمر والنهي، ولم يأت قرية مُصْلِحَةً بأُسِّه وعذابه قط؛ فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ ولم يقل: صالحين، وإنما قال: مصلحون، فنزَّه نفسه - تعالى - عن الظلم، وجعل من الظلم أن يهلك قرية وأهلها مصلحون، ومن تتبع ما حلَّ بالبلاد والقرى خلال العصور من عذابٍ، فإنه يجد العذاب مرافقًا للفساد وقرينًا له<sup>(١)</sup>.

ومن المعلوم أنَّ إحكام البدايات سلامةٌ في النِّهَايَاتِ، ولذا كان ظهور المنكر على وجه يكون فيه تمكينٌ له، ورفعٌ لرايته، ويوجد سلطةٌ لأهله، يقلق السلف ويزعجهم.

عن يحيى بن يمان قال: «لَقِيتُ سَفِيَانُ الثَّوْرِيَّ عِنْدَ جَبَلِ بَنِي فِزَارَةَ، فَقَالَ: أَتَدْرِي مِنْ أَيْنَ جِئْتُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: جِئْتُ دَارَ الصَّيَادِلَةِ، نَهَيْتُهُمْ عَنْ بَيْعِ الدَّاذِيِّ<sup>(٢)</sup>، إِنِّي لَأَرَى الشَّيْءَ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَمُرَ فِيهِ وَأَنْهَى عَنْهُ، فَلَا أَفْعَلُ؛ فَأَبْوُلُ دَمًا»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) انظر: «الأساس في التفسير» (٥/٢٦٠٩).

(٢) الدَّاذِيُّ: نباتٌ له رائحةٌ مسكرة، قال في «تاج العروس» (٩/٤٠٨) مادة (ذوذ): «الدَّاذِيُّ: نَبْتُ، وَقِيلَ: شَيْءٌ لَهُ عُنُقُودٌ مُسْتَطِيلٌ، وَحَبُّهُ عَلَى شَكْلِ حَبِّ الشَّعِيرِ، يُوَضَّعُ مِنْهُ مِقْدَارٌ رَطْلٍ فِي الْفَرْقِ، فَتَعْبَقُ رَائِحَتُهُ، وَيَجُودُ إِسْكَارُهُ».

(٣) «حلية الأولياء» (٧/١٤ - ١٥).

وما هذا إلا لإدراكه العظيم لمكانة هذه الشَّعيرة من الدِّين؛ أعني: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وشِدَّة حَنْقِهِ على المنكرات، فنسأل الله أن يغفر لنا، وإليه نشكوا تقصيرنا فيها في حقِّ أهلنا وأوطاننا.

وأريدك أخي في الله! أن تقرأ معي بعَيْن القلب هذه الكلمة التي تخلع القلوب خلْعاً، لهذا الإمام من أئمة الهدى، وهو يستقرئ آثار الذُّنوب المباشرة في تسليط الخلق بعضهم على بعض، وفي تجربتها الظالمين على المظلومين، وفي حملها البُغاة على البغي على ضحاياهم، عندما يستمرئ العاصي معصيته، وتستحكمُ غفلةُ الصالحين.

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه، فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه، كما أنَّ المسؤول إذا ردَّ السائل فهو في خفارة كذبه، ولو صدق السائل لما أفلح من ردِّه، وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها، ولو أدَّوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم.

وهذا - أيضاً - باب عظيم من حكمة الله، يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التَّقدير، وتسليط العالم بعضهم على بعض، وتمكين الجناة والبُغاة، فسبحان! من له في كل شيء حكمةٌ بالغة، وآيةٌ باهرة، حتى إنَّ الحيوانات العاديَّة على النَّاس في أموالم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم، ولولا ذلك لم يُسلَّط عليهم منها شيء.

ويحكى أنَّ بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنَّه خالص، فأرسل الله عليه سيلاً فذهب بالغنم، فجعل يعجب! فأتي في منامه فقيل له: أتعجب

من أخذ السيل غنمك؟! إنه تلك القطرات التي شُبَّتْ بها اللَّبن، اجتمعت وصارت سَيْلاً.

فِقُسْ على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك، تعلم حينئذ أن الله قائمٌ بالقِسْط، وأنه قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت، وأنه لا يظلم مثقال ذرَّة. والأثر الإسرائيليُّ معروفٌ: أن رجلاً كان يشوب الخمرَ ويبيعه على أنه خالص، فجمع من ذلك كيسَ ذهبٍ وسافر به، فركب البحر ومعه قرد له، فلما نام؛ أخذ القرد الكيسَ، وصعد به إلى أعلى المركب، ثم فتحه فجعل يلقيه ديناراً في الماء وديناراً في المركب، كأنه يقول له - بلسان الحال -: ثمنُ الماء صار إلى الماء، ولم يظلمك.

وتأمَّل! حكمةَ الله - عز وجلَّ - في حبس الغيث عن عباده، وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاةَ وحرَموا المساكين، كيف جُوزوا على منع ما للمساكين قِبَلَهُمْ من القوت، بمنع الله مادَّةَ القوتِ والرِّزْقِ وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحقَّ؛ فمُنِعْتُم الغيث، فهلاً استنزَلتموه ببذل ما لله قِبَلْكم؟!

وتأمَّل! حكمةَ الله - تعالى - في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه، فصَدَّهم عنه كما صَدَّوا عباده، صدًّا بصدٍّ، ومنعاً بمنعٍ.

وتأمَّل! حكمته - تعالى - في محقِّ أموالِ المُرابِّين، وتسليطِ المُتْلِفَاتِ عليها، كما فعلوا بأموال النَّاسِ ومَحَقُّوها عليهم وأتلفوها بالرِّبا، جُوزوا إتلافاً بإتلافٍ، فَقَلَّ أن ترى مُرابِّياً إلَّا وأخْرَجَتْهُ إلى مَحَقٍّ وقِلَّةٍ وحاجة.

وتأمَّل! حكمته - تعالى - في تسليطِ العدوِّ على العبادِ إذا جَارَ قوِيُّهم على ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حَقُّه من ظالمه، كيف يسلِّطُ عليهم من يفعل بهم

كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء، وهذه سُنَّةُ الله - تعالى - منذ قامت الدنيا، إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها.

وتأمل! حكمته - تعالى - في أن جعلَ مُلُوكَ العبادِ وأمرَاءَهُم وولاتَهُم من جنس أعمالهم، بل كأنَّ أعمالَهُم ظهرت في صُورِ وُلاتِهِم وملوكِهِم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم ووُلاتِهِم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة، فولاتِهِم كذلك، وإن منعوا حقوقَ الله لديهم وبخلوا بها، منعت ملوكُهُم وولاتُهُم ما لهم عندهم من الحقِّ، وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممَّن يستضعفونه ما لا يستحقُّونه في معاملتهم، أخذت منهم الملوكُ ما لا يستحقُّونه، وضربت عليهم المُكُوسَ والوظائف، وكلُّ ما يستخرجونه من الضَّعيف، يستخرجه الملوك منهم بالقوَّة؛ فعَمَّالُهُم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في الحكمة الإلهية أن يوليَّ على الأشرار الفُجَّارِ إلَّا من يكون من جنسهم.

ولما كان الصِّدْر الأوَّل خيارَ القرونِ وأبرَّها، كانت ولاتُهُم كذلك، فلمَّا شَابُوا؛ شَابَتْ لهم الوُلاة، فحكمةُ الله تأبى أن يوليَّ علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاويةَ وعمر بن عبد العزيز، فضلًا عن مثل أبي بكر وعمر، بل وُلاتُنا على قَدَرِنا، ووُلاةٌ من قَبَلِنا على قَدَرِهِم، وكلُّ من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها.

ومن له فطنة إذا سافرَ يفكره في هذا الباب، رأى الحكمةَ الإلهيةَ سائرةً في القضاء والقَدَر، ظاهرةً وباطنةً فيه، كما في الخلق والأمر سواء، فإيَّاك أن تظنَّ بظنِّكَ الفاسدِ أن شيئًا من أقْصِيَّتِهِ وأقداره عارٍ عن الحكمةِ البالغة، بل جميعُ أقْصِيَّتِهِ - تعالى - وأقداره واقعةٌ على أتمِّ وجوه الحكمة والصَّواب، ولكن العقول الضعيفة محجوبةٌ بضعفها عن إدراكها، كما أنَّ الأبصارَ الحَفَّاشِيَّةَ محجوبةٌ بضعفها عن ضوء الشمس،

وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت، ونطقت وقالت،  
كما أن الحفّاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ولازمها قطع من الليل مظلم<sup>(١)</sup>

قال أبو عبيدة: وهذا أمرٌ ملموسٌ مُشاهد، يعرفه من خبر حال الناس،  
وأَمْضَى سَنَةِ اللَّهِ - عز وجل - فيهم، وتفطن له الهيثم بن عدي؛ فإنه حدث فقال:

«كان الأغلب على عبد الملك بن مروان حُبُّ الشعر، فكان الناس في أيامه  
يتناشدون الأشعار، ويتدارسون أخبار الشعراء، ويُعَنُونَ بها.

وكان الأغلب على الوليد بن عبد الملك حُبُّ البناء واتخاذ المصانع، واعتقاد  
الضياع، وكان الناس في أيامه يخوضون في رصف الأبنية، ويحرصون على التشييد  
والتأسيس، ويولعون بالضياع والعمارات.

وكان الأغلب على سليمان بن عبد الملك حب الطعام والنساء، فكان الناس  
في أيامه يصفون ألوان الأطعمة، ويذكرون أطايبها وغرائبها، ويستكثرون من  
الحرص على أحاديث النساء، ويتساءلون عن تزوج الحرائر، والاستمتاع بالسّراري،  
ويتجارون في الباه.

وكان الأغلب على عمر بن عبد العزيز حب القرآن والصلاة والصوم، وكان  
الناس في أيامه يتلاقون، فيقول الرجل لأخيه: ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من  
القرآن؟ ومتى تخرجه؟ وكم صليت البارحة؟ وصلاتك في المسجد أكثر أم في بيتك؟  
وهل أنت صائم؟ وما تصوم في الشهر؟

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١٧٥ - ١٧٩).



وكان يزيد بن عبد الملك يحب الخيول والقيان، وكان الناس يتنافسون في اختيارها، ويتقربون إليه بانتخاب الأجود والأحسن منها، وإهدائها إليه.

وكان هشام بن عبد الملك يحب الثياب ونفائس اللباس، وكان الناس يتبارون في التجارة فيها، ويستبضعون ألوانها، ويتواصفون أنواعها.

وكان الوليد بن يزيد صاحب لهو وشراب وسماع، وكان الناس في أيامه يتشاغلون بالملاهي، ويترخصون في النبذ، ويقولون بالسَّماع.

وقد صدق من قال: إِنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ، وَالسُّلْطَانُ سَوْقٌ يُجْلِبُ إِلَيْهَا مَا يَنْفَقُ فِيهَا»<sup>(١)</sup>.

وهكذا دواليك! فالؤمن ينظر بعين البصيرة، ويستفيد من سنن الله - عز وجل - التي رسمها للناس، واستقرت عندهم، وسادت في حياتهم.

حتى إننا لو تأملنا سنن الله الكونية والشرعية حق التأمل، وأعطيناها نصيبها اللائق من النظر، لعلمنا أَنَّ الظُّلْمَ والعصيانَ في الأرضِ إذا وقعا على غيرِ المؤلفِ؛ فإنَّ العقوباتِ تأتي على منوالِ خَرْقِ العادةِ، فلكلِّ زمانٍ ومكانٍ رجالٌ، وأفعالٌ، وأحكامٌ، وعقوباتٌ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فالذنوب تؤثر أثرًا حقيقياً مرّاً، وكلُّنا يعلم أَنَّهُ إذا ما ظهر الرِّبَا أو الزَّنا في قومٍ فقد أَحَلُّوا بأنفسهم الدَّمارَ والعياذَ بالله - تعالى -، كما قال النبي ﷺ: «ما ظهر في قومٍ الرِّبَا والزَّنا إلا أَحَلُّوا بأنفسهم عقابَ الله - عز وجل -»<sup>(٢)</sup>؛ لأنَّ الرِّبَا والزَّنا ذنبان كبيران، يشتركان في توفير الدَّواعي لهما غفلةُ الجماعة، لا نزوة الفرد فقط،

(١) «لطائف المعارف» (ص ٩٣ - ٩٤) لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٤٠٢)، وحسنه شيخنا الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٣٤).

ومع هذا فإنَّ الذنوب الشخصية لها أثر عظيم على النَّاس، وقد أوجبَ الله - عزَّ وجلَّ - على الأمَّة - بالقَدَرِ التي تحصُلُ به الكفاية - محاربتَهُمَا، بحيثُ يَأْثُمُ الجميعُ إذا لم يُقَمَّ به؛ لأنَّ ضريبةَ تركِهِ سيدفعُهَا الجميعُ في الدنيا والآخرة.

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قلت: يا رسول الله! كيف يُحْسَفُ بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟! قال: «يُحْسَفُ بأولهم وآخرهم، ثُمَّ يُبْعَثُونَ على نِيَّاتِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية مسلم<sup>(٢)</sup> - بسنده - إلى عائشة - رضي الله عنها - قالت: عَبَثَ رسول الله ﷺ في منامه، فقلنا: يا رسول الله! صنعتَ شيئاً في منامك لم تكن تفعله. فقال: «العجب! أنَّ ناساً من أمتي يُؤْمِنُونَ بالبيتِ برجلٍ من قريش قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء حُسِفَ بهم»، فقلنا: يا رسول الله! إنَّ الطريق قد يجمع النَّاسُ، قال: «نعم؛ فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مَهْلَكًا واحداً، وَيَصُدُّرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى، يبعثهم الله على نِيَّاتِهِمْ».

وفي بعض ألفاظه<sup>(٣)</sup>: «يا عائشة! إِنَّ الله إذا أنزَلَ سَطَوَتَهُ بأهلِ نِقْمَتِهِ وفيهم الصَّالِحُونَ، فَيُصَابُونَ معهم، ثُمَّ يُبْعَثُونَ على نِيَّاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ»<sup>(٤)</sup>.

وعن جرير بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَا مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١٨).

(٢) برقم (٢٨٨٤).

(٣) لعلَّها من اضطراب بعض الرواة.

(٤) «الصحيحة» (٢٦٩٣).

قَوْمٌ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، لَمْ يَغَيِّرُوهُ؛ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»<sup>(١)</sup>.

عن زينب بنت جحش - رضي الله عنها -: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَرِجًا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ! فَتُحِ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذِهِ» وَحَلَّتْ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ»<sup>(٢)</sup>.

وقال عمر بن عبدالعزيز: «كَانَ يُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا يَعْذِبُ الْعَامَّةَ بِذَنْبِ الْخَاصَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا عُمِلَ الْمُتَكَبَّرُ جَهَارًا، اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ كُلَّهُمْ»<sup>(٣)</sup>.

قال شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله -:

«فِي قَوْلِهَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟» دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ وُجُودَ الصَّالِحِينَ فِي الْمَجْتَمَعِ يَكُونُ سَبَبًا لِمَنْعِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ، وَلِهَذَا مِنْ بَرَكَةِ الصَّلَاحِ أَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ السُّوءَ عَنِ النَّاسِ بِسَبَبِ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ، وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يَقُمْ الصَّالِحُونَ بِمَا يَلْزَمُهُمْ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالنَّصِيحِ لِلْعِبَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَقَدْ قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]»<sup>(٤)</sup>.

وهذه العلاقة بين المعاصي التي تسيطر على المجتمع وتسود فيه على وجه

(١) رواه أحمد (٣٦٤ / ٤) رقم (١٩٢٥٠)، وسنده حسن.

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠).

(٣) رواه مالك في «الموطأ» (٢٨٣٦) ط دار الغرب.

(٤) من شرحه المسجل على «صحيح البخاري».

يصبح ظاهراً، وبين الهلاك المترتب على ذلك؛ سنة الله - عز وجل -، لها تداعياتها، ونتائجها، وهي مذكورة في كتاب الله - عز وجل - في مواطن مثل: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۝١٧﴾ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴿[الإسراء: ١٦ - ١٧].

كما أن هناك آيات كثيرة تربط بين الاستقامة على أوامر الله، ووفرة الخيرات، وحياة الرغد التي يُنعم الله بها على المجتمعات متى التزمت العدل في التوزيع، وهذه سنة من سنن التاريخ؛ قال - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال - سبحانه -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

هذه الآيات الثلاث تربط بين إقامة الشرع والاستقامة عليه، وتأمل! معي الآية الثانية ودقة ألفاظها: ﴿وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فهي لهم ولكنها محجوبة عنهم، فلو آمنوا واتَّقوا ﴿لَفَتَحْنَا﴾، فمعاصيهم أوصدتها وحالت دون وصولها، وتأمل: ﴿بَرَكَاتٍ﴾ لا بركة؛ فهي مصالح خالصة لا تشوبها شائبة، وتأمل: ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ وهي تقابل ما في الآية الأولى: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، وتأمل: ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، فالله لا يُغالب، لا من الأحاد ولا من المجتمعات، وسنته ماضية، وإن لم تقع الاستقامة وقع الحرمان، وحصل (لباس) الجوع والخوف، وذاق ذلك

أصحابه كما تقدّم بيانه، مع التنويه على دقّة القرآن في استعمال ألفاظ (الدّوق) و(اللبّاس).

ولحكمة بالغة لم يبق الأمر يدور على التّأصيل، وإنّما زاد القرآن ذلك بالتمثيل؛ فذكر شعوباً وأممًا شملتهم هذه السنن ليقع الاتعاظ على أتمّ وجه وأكمله وأظهره وأبلغه.

فلا إله إلا الله! كم هو - سبحانه - محسنٌ للنّاس يعلمهم ويريّهم، ويتحبّب إليهم، وينذرهم ويخوّفهم، لتستقيم حياتهم، ويهنّؤوا بها، فأوامره وسننه إنّما وجدت لإصلاحهم في الحال والمآل، ولتقع سعادتهم في المعاش والمعاد، وليبعد عنهم الردى والعذاب.



## الاستخفافُ بالذنبِ هلاكٌ

يقول ابن القيم - رحمه الله -:

«يا مغرورًا بالأمان! لعن إبليس وأهبط من منزل العزِّ بترك سجدةٍ واحدةٍ أمر بها، وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل، وأمر بإيساع الظهر سياتًا بكلمة قذف، أو بقطرة من مسكر، وأبان عضوا من أعضائك بثلاثة دراهم، فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥].»

دخلت امرأة النار في هرة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة، فإذا كان عند الموت؛ جار في الوصية؛ فيختم له بسوء عمله فيدخل النار.

العمر بأخيره، والعمل بخاتمته، من أحدث قبل السلام؛ بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس؛ ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء في آخر عمره، لقي ربه بذلك الوجه»<sup>(١)</sup>.

(١) «الفوائد» (ص ٨٧ - ٨٨).

«واعلم أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمَحَنِّ الْإِغْتِرَارُ بِالسَّلَامَةِ بَعْدَ الذَّنْبِ؛ فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ تَتَأَخَّرُ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَةِ أَنْ لَا يُحَسَّ الْإِنْسَانُ بِهَا، وَأَنْ تَكُونَ فِي سَلْبِ الدِّينِ وَطَمَسِ الْقَلْبِ»<sup>(١)</sup>.

«إِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يُؤْتَى مِنْ قَبْلِ التَّهَاقُوتِ بِالْيَسِيرِ، وَهُوَ الَّذِي يُوقِعُ فِي الْإِثْمِ الْكَبِيرِ، وَالتَّهَاقُوتُ بِالْيَسِيرِ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ الْكَثِيرُ، فَيَكُونُ أَوَّلُهُ كَانَ تَحْقُظًا، ثُمَّ صَارَ انْبِسَاطًا، ثُمَّ صَارَ مِنَ الْانْبِسَاطِ إِلَى ذِكْرِ الْيَسِيرِ، ثُمَّ صَارَ مِنَ الْيَسِيرِ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ، فَلَا تَشْعُرُ حَتَّى تَرَى نَفْسَكَ حَيْثُ كُنْتَ تَكْرَهُ أَنْ تَرَى فِيهِ غَيْرَكَ، فَفِي تَرْكِ الْيَسِيرِ تَرْكُ الْيَسِيرِ وَالْكَثِيرِ.

وَأَقْوَى النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ وَأَصْدَقُهُمْ عَزْمًا هُوَ الَّذِي إِذَا عَزَمَ أَمْضَى عَزْمَهُ وَلَمْ يَلَوْ، وَأَضْعَفُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ أَضْعَفُهُمْ عَزْمًا، وَهُوَ الَّذِي يَعَزِمُ ثُمَّ يَحُلُّ عَزْمَهُ وَلَا يَكَادُ يُمْضِي عَزْمًا، فَهَذَا الَّذِي يَتَلَاعَبُ بِهِ الشَّيْطَانُ وَالْهَوَى وَالنَّفْسُ»<sup>(٢)</sup>.

قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذَنْبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذَنْبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»<sup>(٣)</sup>.

(فَقَالَ بِهِ هَكَذَا): أَيَّ حَرَكَةٍ يَدُهُ عَلَى أَنْفِهِ كَمَا يَفْعَلُ الْمَرْءُ إِذَا طَرَدَ عَنْ أَنْفِهِ الذَّبَابَةَ أَوْ الْبَعُوضَةَ وَنَحْوَهُمَا، وَالْمَرَادُ: «نَحَاهُ بِيَدِهِ أَوْ دَفَعَهُ، هُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ، قَالُوا: وَهُوَ أَبْلَغُ»<sup>(٤)</sup>.

(١) «صيد الخاطر» (ص ١٩٤).

(٢) «آداب النفوس» (ص ٦٤).

(٣) رواه البخاري (٦٣٠٨).

(٤) «فتح الباري» (١١/ ١٠٥).

قال ابن بطال: «فينبغي لمن أراد أن يكون من جملة المؤمنين أن يخشى ذنوبه، ويعظم خوفه منها، ولا يأمن عقاب الله عليها فيستصغرها، فإن الله - تعالى - يعذب على القليل، وله الحجة البالغة في ذلك»<sup>(١)</sup>.

فالفاجر - والعياذ بالله - يرى ذنوبه كأثما ذباب مرَّ على أنفه، أي ذنبه سهل عنده لا يعتقد أنه يحصل له بسببه كثير ضرر، كما أن ضرر الذباب عنده سهل، وكذا دفعه عنه»<sup>(٢)</sup>.

و«السبب في ذلك أن قلب الفاجر مظلّم، فوقع الذنب خفيفاً عنده، ولهذا تجدد من يقع في المعصية إذا وعظ يقول: هذا سهل»<sup>(٣)</sup>.

«ويستفاد من الحديث أن قلة خوف المؤمن ذنوبه وخفته عليه يدل على فجوره، والحكمة في تشبيه ذنوب الفاجر بالذباب كون الذباب أخف الطير وأحقره، وهو مما يُعائِنُ ويُدفعُ بأقلِّ الأشياء، وفي ذكر الأنف مبالغة في اعتقاده خفة الذنب عنده؛ لأنَّ الذباب قلماً ينزل على الأنف، وإنما يقصد غالباً العين، وفي إشارته بيده تأكيد للخفة - أيضاً -، لأنَّه بهذا القدر اليسير يدفع ضرره»<sup>(٤)</sup>.

وفيه: أن الاستهانة بالذنوب من خصال المنافقين وأوصافهم.

---

(١) «شرح ابن بطال على صحيح البخاري» (٨١ / ١٠)، وبنحوه في «التوضيح» (٢٠١ / ٢٩) لابن الملّق.

(٢) «فتح الباري» (١٠٥ / ١١).

(٣) «بهجة النفوس» (٢٠١ / ٤) لابن أبي جهرة، و«فتح الباري» (١٠٥ / ١١).

(٤) «بهجة النفوس» (٢٠٢ / ٤)، و«فتح الباري» (١٠٥ / ١١).



وفي سياق الإفك الذي اختلقه المنافقون قال الله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

قال أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمَوَبَقَاتِ»<sup>(١)</sup>.

وصدق - رضي الله عنه -، فكَذَلِكَ قَدْ كَانُوا كَمَا هِيَ سِيرَتُهُمْ وَحِكَايَاتُهُمْ وَآثَارُهُمْ، كَيْفَ لَا؟! وَهُمْ يَسْمَعُونَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»<sup>(٢)</sup>.

وقد قال رسول الله ﷺ - أَيْضًا -: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنٍ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تَهْلِكُ»<sup>(٣)</sup>.

وكيف ينامُ العاقلُ ملءَ جفنيه كأنَّ يديه ما اقترفتا شيئًا، وربُّه يخبرُه عن يومٍ سَيُسْأَلُ فِيهِ عَن كُلِّ شَيْءٍ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۖ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢ - ٥٣].

وَمِنْ خَبَرِهِمْ فِي الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۖ (١٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (١٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السُّمُورِ (١٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ

(١) رواه البخاري (٦٤٩٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٦).

(٣) رواه أحمد (٣٣١ / ٥)، وسنده صحيح.

قَبْلَ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿الطور: ٢٥-٢٨﴾.

بل إنَّ من بديعِ أنظارِ أئمةِ السَّلفِ الصَّالحِ في كتابِ الله قولُ إبراهيم التَّيميِّ: «ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة، لأنَّهم قالوا: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾» [فاطر: ٣٤] (١).

فاحذر يا عبدالله من أن يُغْرِكَ بالله الغرور، ويشغلك عن التَّوبَةِ بالأمانِ، ويصدِّكَ عن طريقِ الخير بما يزيِّنُ لك من طولِ الأمل، وما يُغريكَ به من زهرة الدنيا.

فما هي إلا ساعةٌ ثم تنقضي ويذهبُ هذا كُلُّه ويَزُولُ  
أو كما قيل:

ومن يأمن الدنيا يَكُنْ مثلَ قابضٍ على الماءِ خائتُهُ فَرُوجُ الأصابعِ  
فبقدرِ ما يعظُمُ الذَّنْبُ عندَكَ يصغُرُ عندَ الله، وبقدرِ ما يصغُرُ عندَكَ يعظُمُ  
عندَ الله، فاحرص على ما ينفعُكَ.

وإنَّما اهتمَّ النبي ﷺ بالتحذيرِ من الاستخفافِ بصغارِ الذُّنوبِ والاستهانةِ بها لأنَّها إذا اعتادتْها النَّفسُ أفضَّتْ بها إلى الموبقاتِ والذُّنوبِ الكبارِ، فلا يزالُ إيمانُ العبدِ على هذا النَّسَقِ يتناقصُ، حتى لربَّما زالَ عنه وخرجَ منه وهو لا يدري بعدُ أين يضعُ قدميه؛ لأنَّ اللَّامْبَالَاةَ قد صارت من سجاياه، والاستهانةَ بالمعاصي من سَمِّته وعادته.

قال أبو حامد: «وكذلك صَغَائِرُ المعاصي يجرُّ بعضها إلى بعضٍ، حتى يفوتَ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الهمم والحزن» (٢٤).

أَصْلُ السَّعَادَةِ بِهِذِهِ أَصْلُ الْإِيمَانِ عِنْدَ الْحَاقِمَةِ<sup>(١)</sup>، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالثَّبَاتَ.

ف «أَحْذَرُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنْ عَمَلِكَ وَنِيَّتِكَ وَسِرِّكَ وَعَلَانِيَتِكَ فِي الصَّغِيرِ كَمَا تَحْذَرُهُ فِي الْكَبِيرِ، وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُفْسِدُ عَلَيْكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ قَدَمَتَهُ اللَّهُ يُفْسِدُ عَلَيْكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَسَادًا سَوَاءً لَا فَضْلَ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ هَكَذَا فِي سَائِرِ الْأَعْمَالِ يَأْتِي الْفَسَادُ عَلَى كَثَرَتِهَا كَمَا يَأْتِي عَلَى قَلَّتِهَا سَوَاءً»<sup>(٢)</sup>.

وَلَتَكُنِ الْآخِرَةُ هَمَّكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ! فَعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٦] قَالَ: «بِذِكْرِ الْآخِرَةِ؛ فَلَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ غَيْرُهَا»<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ قِيلَ لِعَطَاءِ السَّلِيمِيِّ: لَوْ أُجِّجَتْ نَارٌ، وَقِيلَ: مَنْ دَخَلَهَا نَجَا مِنْ جَهَنَّمَ، هَلْ كُنْتَ تَدْخُلُهَا؟ فَقَالَ: بَلْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَخْرُجَ نَفْسِي فَرَحًا بِهَا قَبْلَ وَصُولِي إِلَيْهَا<sup>(٤)</sup>.



(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦٠).

(٢) «آداب النفوس» (١٢٦).

(٣) «تفسير الطبري» (٢١/ ٢١٨).

(٤) «فتح الباري» (١/ ٥٥) لابن رجب.

## الإصرار على الذَّنْبِ مُصِيبَةٌ

«العَبْدُ بَيْنَ تَسَعِ خَافٍ:

فَأُولَاهَا: أَنْ يَخَافَ وَيَدْعُو اللَّهَ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ أَلَّا يَكِلَهُ إِلَى حَسَنَاتِهِ الَّتِي يَتَعَزَّزُ بِهَا فِي عِبَادِ اللَّهِ ظُلْمًا وَعَدْوَانًا.

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَخَافَ مِنْ كَفَرَانِ النِّعَمِ الَّتِي قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْبَطَرُ بِهَا فَأَشْغَلَهُ عَنِ الشُّكْرِ عَلَيْهَا.

وَالثَّالِثَةُ: خَوْفُ الْاسْتِدْرَاجِ بِالنِّعَمِ وَتَوَاتُرِهَا.

وَالرَّابِعَةُ: خَوْفُ اللَّهِ أَنْ يَبْدُو لَهُ غَدًّا مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِبُ فِي طَاعَاتِهِ الَّتِي يَرْجُو ثَوَابَهَا، وَلَمْ يَعُدَّهَا مِنْ ذُنُوبِهِ.

وَالْخَامِسَةُ: الذُّنُوبُ الَّتِي عَمَلَهَا وَاسْتَيْقَنَ بِهَا فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ - تَعَالَى - .

وَالسَّادِسَةُ: تَبِعَاتُ النَّاسِ قَبْلَهُ.

وَالسَّابِعَةُ: أَنَّهُ لَا يَدْرِي مَا يَحْدُثُ لَهُ فِي بَقِيَّةِ عَمْرِهِ.

وَالثَّامِنَةُ: أَنْ يَخَافَ تَعْجِيلَ الْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالنِّكَالِ فِيهَا قَبْلَ الْفَوْتِ.

وَالتَّاسِعَةُ: الْخَوْفُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ - تَعَالَى - فِيهِ، وَفِي أَيِّ الدَّارَيْنِ أَثْبَتَ اسْمَهُ فِي

أُمِّ الْكِتَابِ.

فاحذر الذُّنُوبَ! فَإِنَّ شَوْمَهَا قَرِيبٌ، وظلمتها شديدة، واحذر الحَسَنَاتِ  
الَّتِي تَبَاعَدُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ طَرِيقِ الصَّالِحِينَ»<sup>(١)</sup>.

عن عاصم بن رجاء بن حيوة قال: كان عمر بن عبدالعزيز يخطب، فيقول:  
«أَيُّهَا النَّاسُ! مَنْ أَلَمَّ بِذَنْبٍ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ، فَإِنْ عَادَ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ،  
فَإِنْ عَادَ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ، فَإِنَّمَا هِيَ خَطَايَا مُطَوَّقَةٌ فِي أَعْنَاقِ الرِّجَالِ، وَإِنَّ أَهْلَكَ  
كُلَّ أَهْلَكَ، الْإِصْرَارُ عَلَيْهَا»<sup>(٢)</sup>.

قال الإمام ابن القيم: «ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذَّنْبِ فهو  
كالمُعَانِدِ، وقال معروف: رجاؤك لرحمة مَنْ لَا تُطِيعُهُ مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْحُمُقِ»<sup>(٣)</sup>.  
وذلك لِأَنَّ مِنْ عِيُوبِ النَّفْسِ «الْإِصْرَارُ عَلَى الذَّنْبِ مَعَ تَمَنِّيِ الْمَغْفِرَةِ وَرَجَاءِ  
الرَّحْمَةِ، وَمَدَاوِئُهَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَوْجَبَ الرَّحْمَةَ لِمَنْ لَا يُصِرُّ عَلَى ذَنْبِهِ،  
حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وَقَالَ  
أَبُو حَفْصٍ: الْإِصْرَارُ عَلَى الذَّنْبِ مِنَ التَّهَوُّنِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ - تَعَالَى -.

ويعلم أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَوْجَبَ الرَّحْمَةَ لِلْمُحْسِنِينَ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ  
قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وَأَوْجَبَ الْمَغْفِرَةَ لِلتَّائِبِينَ؛ حَيْثُ قَالَ:  
﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٩٠]»<sup>(٤)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «وقول من قال من العلماء: الاستغفار مع الإصرار

---

(١) «آداب النفوس» (ص ٦٨ - ٦٩) للمحاسبي.

(٢) «حلية الأولياء» (٢٩٦/٥).

(٣) «الجواب الكافي» (ص ٥١).

(٤) «عيوب النفس ومداوئها» (١/٢٣٩) ضمن «مجموعة آثار أبي عبدالرحمن السلمي».

تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ؛ فهذا إذا كَانَ الْمُسْتَغْفِرُ يَقُولُهُ عَلَى وَجْهِ التَّوْبَةِ، أَوْ يَدَّعِي أَنَّ اسْتَغْفَارَهُ تَوْبَةً، وَأَنَّهُ تَائِبٌ بِهَذَا الْاسْتِغْفَارِ، فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مَعَ الْإِصْرَارِ لَا يَكُونُ تَائِبًا، فَإِنَّ التَّوْبَةَ وَالْإِصْرَارَ ضِدَّانِ»<sup>(١)</sup>.

وقال: «فَالْتَوْبَةُ النَّصُوحُ هِيَ الْخَالِصَةُ مِنْ كُلِّ غِشٍّ، وَإِذَا كَانَتْ كَذَلِكَ كَانَتْهُ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَعُودُ إِلَى الذَّنْبِ لِبَقَايَا فِي نَفْسِهِ، فَمَنْ خَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ الشُّبْهَةُ وَالشَّهْوَةُ لَمْ يَعُدْ إِلَى الذَّنْبِ؛ فَهَذِهِ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ، وَهِيَ وَاجِبَةٌ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى -، وَلَوْ تَابَ الْعَبْدُ ثُمَّ عَادَ إِلَى الذَّنْبِ قَبْلَ اللَّهِ تَوْبَتَهُ الْأُولَى، ثُمَّ إِذَا عَادَ اسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ، فَإِنَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ - أَيْضًا -، وَلَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ إِذَا تَابَ ثُمَّ عَادَ أَنْ يُصِرَّ؛ بَلْ يُتُوبُ وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»<sup>(٢)</sup>.

قال وَهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ: «اعْلَمْ أَنَّ مِنْ صِلَاحِ نَفْسِكَ عِلْمُكَ بِفَسَادِهَا، وَبَحْسَبِ الرَّجُلِ مِنْ عَيْبٍ؛ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ فَسَادًا ثُمَّ لَا يَصْلُحُهُ، وَيُسَّ مَنْزِلٌ وَمُتَحَوِّلٌ مِنْ دُنْيَاكَ عَنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ»<sup>(٣)</sup>.

وقال الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الذَّنْبِ أَنْ يَسْتَخَفَّ الْمَرْءُ بِذَنْبِهِ»<sup>(٤)</sup>.

فَالْمَطْلُوبُ إِذْنُ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، التَّوْبَةُ التَّامَّةُ الْمُسْتَوْفِيَةُ لَشُرُوطِ الْقَبُولِ، لَا مَجْرَدُ الْاسْتِغْفَارِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ تَحْتَهُ، وَإِنْ كَانَ عِتْيَادُ الْإِنْسَانِ عَلَى الْاسْتِغْفَارِ مِنْ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣١٩/١٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥٨/١٦).

(٣) أخرجه الدِّينُورِيُّ فِي «الْمَجَالِسَةِ» (١٤٦٧).

(٤) أخرجه الدِّينُورِيُّ فِي «الْمَجَالِسَةِ» (٢٣١٨).

أصبح مقدّماتها، وأهم عناصرها ومكوّناتها.

يقولون: النهايات ميراث البدايات.

ويقولون: من كانت بدايته محرقة، كانت نهايته مشرقة.

والمقصود: يُخْتَمُ لِلْمَرْءِ عَلَى وَفْقِ مَا اعْتَادَهُ، وَلَنْ يَحْضُرَهُ عِنْدَ النَّزْعِ إِلَّا مَا كَانَ مُسْتَوِليًا عَلَى قَلْبِهِ أَكْثَرَ الْوَقْتِ، فَإِنَّ تِلْكَ اللَّحْظَةَ مِنَ اللَّحْظَاتِ الَّتِي لَا يَتَحَكَّمُ فِيهَا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ: ﴿يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال مجاهد: «ما من ميّت يموت إِلَّا مُثَلَّ لَهُ جُلَسَاؤُهُ. قال: فاحتَضَرَ رَجُلٌ؛ فَقِيلَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! قال: شاهك»<sup>(١)</sup>.

وشاهك: كلمة تُقال عند اللعب بالشطرنج.

فهذا رَجُلٌ مُقْبِلٌ عَلَى رَبِّهِ لِلْحِسَابِ وَالسُّؤَالِ، مُنْقَطِعٌ عَنِ الْعَمَلِ، لَا يَدْرِي! يَصِيرُ إِلَى جَنَّةٍ أَمْ إِلَى نَارٍ، وَلَا يَقْوَى عَلَى النُّطْقِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ؛ لِأَنَّهُ أَحْضَرَ لَهُ فِي قَلْبِهِ مَا اعْتَادَ عَلَى أَنْ يَحْشَوْهُ قَلْبُهُ مِنَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ فِي حَيَاتِهِ سِوَاهُ، كَمَا هُوَ حَالُ بَعْضِ النَّاسِ.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «من أعظم الفقه، أن يخافَ الرجلُ أنْ تَحْذِلَهُ ذُنُوبُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَتَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَاتِمَةِ الْحَسَنَى»<sup>(٢)</sup>.

فبادِرْ إِلَى تَطْهِيرِ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ مِنْ عِلَاقِ الْمَعَاصِي، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ فَاسْكَحْ مِنْ طَرِيقِ الْعِبَادَةِ كُلَّ الْمَعِيقَاتِ الَّتِي أَلْقَى بِهَا الْهَوَى فِي طَرِيقِ الطَّاعَةِ.

---

(١) «المحتضرين» (ص ١٧٥ - ١٧٦) لابن أبي الدنيا.

(٢) «الجواب الكافي» (ص ٣٩٠).

قال أبو سليمان الداراني: «من أحسنَ في نهارِه كُوفيَ في ليلِه، ومن أحسنَ في ليلِه كُوفيَ نهارَه، ومن صدَّقَ في تركِ شهوةٍ ذهبَ اللهُ بها من قلبِه، واللهُ أكرمُ من أنْ يعذِّبَ قلبًا بشهوةٍ تُركتْ له»<sup>(١)</sup>.



---

(١) «الزهد الكبير» (ص ٢٨٢) للبيهقي.



## كيف الخلاص من الذنوب؟

اعلم - رحمك الله - أن ربك - تبارك وتعالى - لا يكلفك بما لا يطاق، وبما لا يتجاوز حدود قدرتك، ولا بما هو أكبر من وسعك، فإذا رأيت ربك الذي هو أرحم بك من أبيك وأمك يكلفك بترك الذنوب، ويمنعك منها، ويحرمها عليك، فإنما يكلفك بما تقدر عليه.

وذلك لأنه - تعالى - قد حرم الظلم على نفسه، وأخبر أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها وما آتاها.

فإنك أيها الموفق! أن تظن أنه يلائم عاصياً أن يقول: لا أستطيع التوبة! فإن كل مخبر عن أنه عاجز عن التوبة، فحقيقته ما يقول: الإخبار عن أنه لا يريدُها! أمّا الاستطاعة، فهي في مكنة الجميع، إلا من عظم تجاوزه على ربه، وطال عليه الأمد، ورد هدى الله، فسبق له من الله القضاء بخذلانه، ولم يشأ الله توفيقه للتوبة عقوبة له وانتقاماً منه.

وإني أعيدُكَ ونفسي - مهما أسرفنا على أنفسنا - أن نكون من هؤلاء! وحسبنا الله ونعم الوكيل.

إذا علمت هذا، فاعلم أن الله - تعالى - جعل الأمور منوطة بأسبابها، وما من غاية إلا ولها سبيل توصل إليها، وأدوات ووسائل يُستعان بها على بلوغها،

وفي الطريق عَثَرَاتٌ وَسَقَطَاتٌ، وعلى امتدادها شَوَاغِلٌ وَمُعِيقَاتٌ، غَيْرَ أَنَّ تَوْفِيقَ الله، وإخلاصَ العبدِ وَصِدْقَهُ فوقَ كُلِّ ذَلِكَ.

وقد سبقَ لنا بيانُ أَنَّ أعداءَ الإنسانِ هي: الجهلُ، والهوى، والنفسُ، والشيطانُ، فما يُقَالُ هنا كُلُّهُ يدورُ على التَّدَاوي من هذه الآفاتِ الأربعة.

فنقول - وبالله التوفيق - أَنَّ أسبابَ شفاءِ النَّفسِ من المعاصي هي:

#### ١ - القرآن الكريم:

سَمَّى اللهُ - تعالى - كتابه شفاءً؛ فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال - تعالى -: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال - سبحانه -: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وسمَّاهُ نورًا، فقال: ﴿يَتَأَهَّلَ لِكِتَابٍ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

وسمَّاهُ فرقانًا؛ أي: يَفْرِقُ بين الحقِّ والباطلِ وَيَمْنَعُ التَّبَاسُهْمَا، كما قال: ﴿زَكَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٦﴾ مِن قَبْلِ هُدًى

لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ ﴿٤﴾ [آل عمران: ٣-٤].

والشِّفَاءُ، وإِضَاءَةُ الطَّرِيقِ، والتمييزُ بين الحقِّ والباطلِ، هي أَوْلَى ما يحتاجُهُ النَّاسُ العائدُ إلى ربِّه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والقرآنُ شِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَمَنْ فِي قَلْبِهِ أَمْرٌ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ ففيه من البَيِّنَاتِ ما يُزِيلُ الحَقَّ من الباطلِ، فيزِيلُ أَمْرًا الشُّبُهَةِ الْمُفْسِدَةَ لِلْعِلْمِ والتَّصَوُّرِ والإدراكِ، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وفيه من الحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ بالترغيبِ والترهيبِ والقَصَصِ التي فيها عبرةٌ ما يوجبُ صلاحَ القلبِ، فيرغب القلبُ فيما ينفعُه ويرغب عما يضرُّه، فيبقى القلبُ مُحِبًّا للرشادِ، مُبْغِضًا للغِيِّ، بعدَ أَنْ كَانَ مُرِيدًا للغِيِّ مُبْغِضًا للرشادِ، فالقرآنُ مُزِيلٌ للأمراضِ المُوجِبَةِ للإِزَادَاتِ الفَاسِدَةِ حَتَّى يَصْلَحَ القلبُ فتصلَحَ إِرَادَتُهُ، ويعودَ إلى فطرته التي فُطِرَ عليها، كما يعودُ البدنُ إلى الحالِ الطبيعيِّ، ويغتذي القلبُ من الإيمانِ والقرآنِ بما يُزَكِّيهِ ويؤيِّدُهُ، كما يَغْتَذِي البدنُ بما يُنَمِّيهِ وَيُقَوِّمُهُ، فَإِنَّ زَكَاةَ الْقَلْبِ مِثْلُ نَمَاءِ الْبَدَنِ»<sup>(١)</sup>.

قال مالك بن دينار: «يا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ! ماذا زرعَ القرآنُ في قلوبكم؟ فإنَّ القرآنَ ربيعُ المؤمنين كما أنَّ الغيثَ ربيعُ الأرضِ، فقد ينزلُ الغيثُ من السَّمَاءِ فيصيبُ الحُشَّ فيه الحَبَّةُ، ولا يمنعه نَتْنُ موضعها أَنْ تَهْتَزَّ وتُخْضَرَ وتَحْسُنَ، فيا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ! ماذا زرعَ القرآنُ في قلوبكم؟ أين أصحابُ سورة؟ أين أصحابُ سورَتَيْنِ؟ ماذا عملتم فيها؟»<sup>(٢)</sup>.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٩٥-٩٦).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/٣٥٨-٣٥٩).

وقال الحسن: «والله! يا ابن آدم! لئن قرأت القرآن ثم آمنت به؛ ليطولن في الدنيا حزنك، وليشتدَّن في الدنيا خوفك، وليكثرن في الدنيا بكائك»<sup>(١)</sup>.

والعجب الذي لا ينتهي من طالب علم ليس في صدره شيء من القرآن، وينظر في جميع كتب مكتبته، إلا كتاب الله - عز وجل -، فيبقى مهجورًا لا ينظر فيه البتة، فما أشدَّ حرمانه، وما أقسى قلبه، وما أكثر مرضه!

## ٢ - مداومة ذكر الله - تعالى :-

من أغراض الشيطان ومقاصده: الصَّدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة؛ قال - تعالى :- ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَيْرِ وَالْإِيسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴾ [المائدة: ٩١].

وهذا جريان منه على مذهبه في الحيلولة بين الإنسان وبين ما فيه خير له، ولأنَّ الذِّكْرَ حصنٌ يتحصَّن به العبدُ منه، وهو إنَّما يريد أن يستضعفه ويستغفله.

وقد أخبرنا نبينا ﷺ بأنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد أوحى إلى يحيى بن زكريَّا - عليهما الصلاة والسلام - بخمس كلمات، أن يعمل بهنَّ، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ، ومَّا جاء في تلك الوصية: «... وأمرُكم بذكرِ الله - عز وجل - كثيرًا، وأنَّ مثل ذلك كمثلي رجلٍ طلبه العدوُّ سرَّاعًا في أثره، فأتى حصنًا حصينًا فتحصَّن فيه، وإنَّ العبدَ أحصن ما يكون من الشيطان، إذا كان في ذكرِ الله - عز وجل -»<sup>(٢)</sup>.

(١) المرجع السابق (٢/ ١٣٣ - ١٣٤).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٣٠)، والطيالسي (١١٦١، ١١٦٢) وابن سعد (٤/ ٣٥٩)، والترمذي

(٢٨٦٣، ٢٨٦٤)، وأبو يعلى (١٥٧١)، وابن خزيمة (١٨٩٥) وغيرهم، من حديث

الحارث الأشعري، وهو صحيح.

وقد عَدَّدَ ابن القِيَمِ - رحمه الله - فوائدَ الذِّكْرِ في «الوَابِلِ الصَّيْبِ»<sup>(١)</sup> فَأَجَادَ وَأَفَادَ، وَوَقَّى المُرَادَ، وَمَا ذَكَرَهُ مِمَّا هُوَ شَدِيدُ اللُّصُوقِ بِمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ:

الأولى: أَنَّهُ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ وَيَقْمَعُهُ وَيَكْسِرُهُ.

الثانية: أَنَّهُ يورِثُ الذَّاكِرَ المُرَاقِبَةَ حَتَّى يُدْخِلَهُ فِي بَابِ الإِحْسَانِ، فَيَعْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَلَا سَبِيلَ لِلْغَافِلِ عَنِ الذِّكْرِ إِلَى مَقَامِ الإِحْسَانِ.

الثالثة: أَنَّهُ يورِثُهُ الإِنَابَةَ، وَهِيَ الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ - عِزَّ وَجَلَّ - فَمَتَى أَكْثَرَ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ بِذِكْرِهِ أَوْرَثَهُ ذَلِكَ رُجُوعَهُ بِقَلْبِهِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، فَيَقْبَى اللَّهَ - عِزَّ وَجَلَّ - مَفْزَعُهُ وَمَلْجَأُهُ وَمَلَاذُهُ وَمَعَادُهُ وَقِبْلَةُ قَلْبِهِ وَمَهْرَبُهُ عِنْدَ النَّوَازِلِ وَالبَلَايَا.

الرابعة: أَنَّهُ يورِثُهُ الهَيْبَةَ لِرَبِّهِ - عِزَّ وَجَلَّ - وَإِجْلَالَهُ، لِشِدَّةِ اسْتِيلَائِهِ عَلَى قَلْبِهِ وَحُضُورِهِ مَعَ اللَّهِ - تَعَالَى -، بِخِلَافِ الْغَافِلِ، فَإِنَّ حِجَابَ الهَيْبَةِ رَقِيقٌ فِي قَلْبِهِ.

الخامسة: أَنَّهُ يَحُطُّ بِالْخَطَايَا وَيُذْهِبُهَا، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْحَسَنَاتِ، وَالْحَسَنَاتُ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ.

السادسة: أَنَّهُ سَبَبُ اسْتِغْثَالِ اللِّسَانِ عَنِ الْغَيْبَةِ وَالنِّمِيمَةِ وَالْكَذِبِ وَالْفُحْشِ وَالبَاطِلِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ، فَإِنْ لَمْ يَتَكَلَمْ بِذِكْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَذَكَرَ أَوَامِرَهُ، تَكَلَّمَ بِهَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ أَوْ بَعْضِهَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنْهَا إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَالمُشَاهَدَةِ وَالتَّجَرُّبَةِ شَاهِدَانِ بِذَلِكَ، فَمَنْ عَوَّدَ لِسَانَهُ ذِكْرَ اللَّهِ صَانَ لِسَانَهُ عَنِ الْبَاطِلِ وَاللَّغْوِ، وَمَنْ يَسَّ لِسَانُهُ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ - تَعَالَى -، تَرَطَّبَ بِكُلِّ بَاطِلٍ وَلَغْوٍ وَفُحْشٍ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

(١) انظرها فيه (ص ٩٤ وما بعدها).

السابعة: أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين، فليتحير العبد أعجبهما إليه، وأولاهما به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة.

الثامنة: أن دوام ذكر الرب - تبارك وتعالى - يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإن نسيان الرب - سبحانه وتعالى - يوجب نسيان نفسه ومصالحها، قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها، فهلكت وفسدت ولا بد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه يتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه واشتغل عنه بغيره وضيع مصالحه، فإنه يفسد ولا بد، هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقاؤها إذا أهملها ونسيها واشتغل عن مصالحها وعطل مراعاتها وترك القيام عليها بما يصلحها؟! فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان.

وهذا هو الذي صار أمره كله فُرطاً، فانفرط عليه أمره وضاعت مصالحه، وأحاطت به أسباب القُطوع والخيبة والهلاك.

ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله - تعالى - واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن يُنزله منزلة حياته التي لا غنى له عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقدَه فسَدَ جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحرِّ والبرد، وبمنزلة الكِنِّ في شدة الشتاء والسَّموم.

فحقيق بالعبد أن يُنزَلَ ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح

والقلبِ وفسادُهُما من هلاكِ البدنِ وفسادهِ؟! هذا هلاكٌ لا بدَّ منه، وقد يعقبُهُ صلاحُ الأبدِ، وأمَّا هلاكُ القلبِ والروحِ فهلاكٌ لا يُرجى معه صلاحٌ ولا فلاحٌ، ولا حولٌ ولا قوَّةٌ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ، ولو لم يكن في فوائدِ الذِّكْرِ وإِدَامَتِهِ إلا هذه الفائدةُ وحدها، لكفى بها.

وقال ابن القيم - رحمه الله -: «فمن كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبيته في حال حياته وجد ذلك أحوجَّ ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته، فيعسرُ عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت، ما لم تدركه عناية من ربه، ولأجل هذا كان جديراً بالعاقِل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان لأجل تلك اللحظة التي إن فاتت شقي شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته»<sup>(١)</sup>.

### ٣ - المحافظة على الصلاة:

قال - تعالى -: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

قال ابن عاشور: «وأنت إذا تأملت! وجدت أصل التدين والإيمان من ضروب الصبر، فإن فيه مخالفة النفس هواها ومألوفها في التصديق بما هو مُغَيَّبٌ عن الحس الذي اعتادته، وبوجوب طاعتها واحداً من جنسها لا تراه يفوقها في الخلقة وفي مخالفة عادة آبائها وأقوامها من الديانات السابقة، فإذا صار الصبر خُلُقاً لصاحبه هوّن عليه مخالفة ذلك كله لأجل الحق والبرهان، فظهر وجه الأمر بالاستعانة على الإيمان وما يتفرّع عنه بالصبر، فإنه خُلُقٌ يفتح أبواب النفوس

(١) «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٦٩ - ٦٧٠).

لِقَبُولِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الاستعانة بالصَّلَاةِ؛ فَلأنَّ الصَّلَاةَ شُكْرٌ، والشُّكْرُ يذكِّرُ بالنِّعْمَةِ فَيُبْعَثُ على امْتِثَالِ الْمُنْعِمِ، على أَنَّ في الصَّلَاةِ صَبْرًا من جهاتٍ: في مخالفةِ حَالِ المَرءِ المُعْتَادَةِ ولزومه حالةٍ في وقتٍ مَعَيَّنٍ لا يسوِّغُ له التَّخَلُّفُ عنها ولا الخُرُوجُ منها، على أَنَّ في الصَّلَاةِ سرًّا إلهيًّا لعلَّه ناشئٌ عن تَجَلِّي الرِّضْوَانِ الرَّبَّانِيِّ على المصلِّي، فلذلك نجدُ للصَّلَاةِ سرًّا عظيمًا في تجلية الأحزانِ وكشفِ غَمِّ النَّفْسِ... وهذا أمرٌ يجذُّه من راقبه من المصلِّين، وقال - تعالى -: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُ أَصْلَافُ النَّاسِ عَنْ آلِفَاحِهَا وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، لأنَّها تجمعُ ضروريًّا من العباداتِ»<sup>(١)</sup>.

وقد رصدَ المُنَاوِي بعضَ مَعُونَاتِ الصَّلَاةِ على الخيرِ رصدًا جميلًا، فقال - رحمه الله -:

«فإنَّ في الصَّلَاةِ شِفَاءً من الأمراضِ القلبيَّةِ والبدنيَّةِ، والهُمُومِ والغُمُومِ، ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَرَزَعَ إليها، والصَّلَاةُ مَجْلِبَةٌ لِلرِّزْقِ، حَافِظَةٌ لِلصَّحَّةِ، دَافِعَةٌ لِلأَذَى، مَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ، مُقَوِّيةٌ لِلقَلْبِ، مُفْرِحَةٌ لِلنَّفْسِ، مُذْهِبَةٌ لِلكَسَلِ، مُشْطَّةٌ لِلجَوَارِحِ، مُجِدِّدَةٌ لِلقُوَى، شَارِحَةٌ لِلصَّدْرِ، مُغْذِيَّةٌ لِلرُّوحِ، مُنَوِّرَةٌ لِلقَلْبِ، مُبَيِّضَةٌ لِلوَجْهِ، حَافِظَةٌ لِلنِّعْمَةِ، دَافِعَةٌ لِلنِّقْمَةِ، جَالِيَّةٌ لِلبَرَكَةِ، مُبْعِدَةٌ لِلشَّيْطَانِ، مُقَرِّبَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، وبالجملةِ فَلَهَا تأثيرٌ عَجِيبٌ في حَفْظِ صِحَّةِ القَلْبِ والبَدَنِ وقُوَّاهُمَا، ودَفْعِ المَوَادِّ الرَّدِيئَةِ عَنْهُمَا، سِيمَا إِذَا وُفِّتَ حَقُّهَا مِنَ التَّكْمِيلِ.

فَمَا اسْتَدْفَعَتْ أَذَى الدَّارَيْنِ وَاسْتَجَلَبَتْ مَصَالِحَهُمَا بِمِثْلِهَا، وَسَرَّهَا أَنَّهَا صَلَوةٌ

(١) «التحرير والتنوير» (١/٤٧٩).



بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَبِقَدْرِ الْوَصْلَةِ يُفْتَحُ الْخَيْرُ، وَتُقَاضَى النِّعَمُ، وَتُدْفَعُ النِّقَمُ»<sup>(١)</sup>.

وقال - سبحانه -: ﴿ أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ابْتَغِ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال ابن عاشور: «الصَّلَاةُ تشتملُ على مذكِّراتٍ بالله من أقوالٍ وأفعالٍ من شأنها أن تكون للمصلي كالوعظِ المذكِّرِ بالله - تعالى -، إذ ينهى سامعه عن ارتكابٍ ما لا يرضي الله، وهذا كما يقال: صديقك مرآة ترى فيها عيوبك.

ففي الصلاة من الأقوال: تكبيرُ الله، وتحميده وتسيبحة والتوجهُ إليه بالدُّعاء والاستغفار، وقراءة فاتحة الكتابِ المشتملة على التحميد والثناء على الله والاعتراف بالعبودية له، وطلبُ الإعانة والهداية منه، واجتنابُ ما يغضبه وما هو ضالٌّ، وكلُّها تذكُّرٌ بالتَّعَرُّضِ إلى مرضاة الله والإقلاعِ عن عصيانه وما يُفْضِي إلى غضبه، فذلك صدٌّ عن الفحشاء والمُنْكَرِ.

وفي الصلاة أفعالٌ هي خضوعٌ وتذلُّلٌ لله - تعالى -، من قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ، وذلك يذكِّرُ بلزومِ اجتلابِ مرضاته والتَّباعِدِ عن سَخَطِهِ، وكلُّ ذلك ممَّا يَصُدُّ عن الفحشاء والمُنْكَرِ.

وفي الصلاة أعمالٌ قلبيةٌ من نيَّةٍ واستعدادٍ للوقوفِ بين يدي الله، وذلك يذكِّرُ بأنَّ المعبودَ جديرٌ بأنْ تُمَثَّلَ أوامره وتُجْتَنَّبَ نواهيه.

فكانت الصلاة بمجموعها كالوعظِ النَّاهِي عن الفحشاء والمُنْكَرِ، فإنَّ الله قال: ﴿ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۝٤٥﴾، ولم يقل: تَصُدُّ وتحولُ، ونحو ذلك، ممَّا

(١) «فيض القدير» (٤/٦٨٩) حديث (٦١٥٤).

يَقْتَضِي صَرْفَ الْمُصَلِّيِّ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن القيم - رحمه الله -: «والعبدُ إذا قامَ في الصَّلَاةِ غَارَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ، فَإِنَّهُ قَدْ قَامَ فِي أَعْظَمِ مَقَامٍ وَأَقْرَبِهِ وَأَغْيَظِهِ لِلشَّيْطَانِ وَأَشَدَّهُ عَلَيْهِ، فَهُوَ يَحْرِصُ وَيَجْتَهِدُ أَنْ لَا يَقِيمَهُ فِيهِ، بَلْ لَا يَزَالُ بِهِ يَعِدُّهُ وَيُؤَمِّنِيهِ وَيُنَسِّيهِ وَيُجْلِبُ عَلَيْهِ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ حَتَّى يُهَوِّنَ عَلَيْهِ شَأْنَ الصَّلَاةِ، فَيَتَهَاوَنُ بِهَا فَيَتْرُكُهَا»<sup>(٢)</sup>.

ولك أن تتأملَ الترابطَ بين التفریطِ في الصَّلَاةِ والانسِيَاقِ مع الشَّهَوَاتِ فِي قَوْلِهِ - تعالى -: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، ذلكَ لِأَنَّ مِنْ ضَيَعِهَا - وَهِيَ عَمُودُ الدِّينِ - فَهُوَ لَمَّا سَوَاهَا أَشَدُّ تَضْيِيعًا وَلَا بَدَّ، لِذَلِكَ يَنْفَرُطُ الْعَقْدُ بَعْدَهَا، وَيَسْهُلُ عَلَى تَارِكِهَا الْغَرَقُ فِي الشَّهَوَاتِ.

وهذا غيرُ ما في الصَّلَاةِ نَفْسِهَا مِنْ تَكْفِيرٍ لِلذُّنُوبِ وَمَحْوٍ لِلسَّيِّئَاتِ، كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسَلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا؛ مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟». قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا. قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا»<sup>(٣)</sup>.

(١) «التحرير والتنوير» (٢٥٩/٢٠).

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٥٢).

(٣) رواه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧).

وَمِنَ الْمُنَاسِبِ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى حَدِيثٍ مَنْسُوبٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، كَانَ النَّاسُ يَطْبَعُونَهُ وَيَصَوِّرُونَهُ وَيُوزَعُونَهُ بِهَدَفِ التَّحْذِيرِ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى جُرْمِ مَنْ تَهَاوَنَ فِيهَا، ذَلِكَ هُوَ: «مَنْ تَهَاوَنَ بِالصَّلَاةِ عَاقَبَهُ اللَّهُ بِخَمْسَةِ عَشْرَةَ عَقُوبَةً: خَمْسٌ فِي الدُّنْيَا، وَثَلَاثٌ عِنْدَ

#### ٤ - محاسبة النفس:

وهي «أن يتصفَّح في ليله ما صدرَ من أفعالِ نهاره، فإنَّ اللَّيْلَ أخطرُ للخطاير وأجمعُ للفكرِ، فإنَّ كانَ محمودًا أمضاهُ وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإنَّ كانَ مذمومًا استدركه إنَّ أمكنَ، وانتهى عن مثله في المستقبل»<sup>(١)</sup>.

أو «هي التمييز بين ما له وعليه، فيستصحب ما له، ويؤدِّي ما عليه، لأنَّه مسافرٌ سَفَرٌ مَنْ لا يعودُ»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن الحاجِّ المالكي: «وقد نقلَ الشيخُ ابنُ عبد السلام - رحمه الله تعالى - إجماعَ العلماء على محاسبة النفس، فالمحاسبةُ حَبْسُ الأنفاسِ، وضبطُ الحواسِّ، ورعايةُ الأوقاتِ، وإيثارُ المُهمَّاتِ»<sup>(٣)</sup>.

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «والمقصودُ ذكرُ علاجِ مرضِ القلبِ باستيلاءِ النَّفسِ الأمارَةِ عليه، وله علاجان: محاسبتها، ومخالفتها.. وهلاكُ القلبِ من إهمالِ محاسبتها، ومن موافقتها واتباعِ هواها»<sup>(٤)</sup>.

وقال البيهقي - رحمه الله -: سمعتُ الشيخَ أبا عليَّ الحسنَ بنَ عليِّ الدَّقَّاقِ

---

= الموت، وثلاث في القبر، وثلاث عند خروجه من القبر... إلخ»، وهو حديثٌ موضوعٌ؛ رَكَّبه محمد بن علي بن العباس البغدادي العطَّار على أبي بكر بن زياد النيسابوري، قال الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (٢٩٥ / ٥ - ٢٩٧): «وهو ظاهرُ البُطلان، من أحاديث الطُرُقِيَّة».

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٣٦٣).

(٢) «مدارج السالكين» (١ / ١٦٩).

(٣) «المدخل» (١ / ١٤).

(٤) «إغاثة اللهفان» (١ / ١٣١).

يقول: «أصل الطَّاعَةِ الْوَرَعُ، وأصل الْوَرَعِ التَّقَى، وأصل التَّقَى محاسبة النَّفْسِ، ومحاسبة النَّفْسِ من الخوفِ والرَّجَاءِ، والخوفُ والرَّجَاءُ من المعرفة، وأصل المعرفة: لسانُ العلم والتَّفَكُّرِ»<sup>(١)</sup>.

وقد بين ابن القيم - رحمه الله - ضررَ التَّخَلِّي عن المحاسبة، فقال: «وأضرُّ ما عليه: الإهمال، وتركُ المحاسبة، والاسترسال، وتسهيلُ الأمور، وتمشيتها؛ فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يُغْمِض عَيْنِهِ عن العواقب، وَيُمَشِّي الحال، ويتكل على العفو؛ فيهمَلُ محاسبةَ نَفْسِهِ والنظرَ في العاقبة، وإذا فعل ذلك سَهَّلَ عليه مَوَاقِعُ الذُّنُوبِ، وَأَنَسَ بها، وَعَسَّرَ عليه فِطَامُهَا، ولو حَصَرَ رُشْدُهُ لَعَلِمَ أَنَّ الْحِمِيَةَ أَسْهَلُ مِنَ الْفِطَامِ وتركِ المألوف والمعتاد.

قال ابن أبي الدنيا: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ قَرِيشٍ ذَكَرَ أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَانَ تَوْبَةً بِنِ الصِّمَّةِ بِالرَّقَّةِ، وَكَانَ مُحَاسِبًا لِنَفْسِهِ، فَحَسَبَ يَوْمًا، فَإِذَا هُوَ ابْنُ سِتِينَ سَنَةً، فَحَسَبَ أَيَّامَهَا، فَإِذَا هِيَ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ يَوْمٍ وَخَمْسُ مِثَّةٍ يَوْمٍ، فَصَرَخَ، وَقَالَ: يَا وَيْلَتَا! أَلْقَى رَبِّي بِأَحَدٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ ذَنْبٍ؟ كَيْفَ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفٌ مِنَ الذُّنُوبِ؟ ثُمَّ خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ؛ فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ! فَسَمِعُوا قَائِلًا يَقُولُ: يَا لِكَ رَكْضَةٍ إِلَى الْفَرْدَوْسِ الْأَعْلَى»<sup>(٢)</sup>.

وَجَمَاعَ ذَلِكَ: أَنَّ يَحَاسِبُ نَفْسَهُ أَوْ لَا عَلَى الْفَرَائِضِ، فَإِنْ تَذَكَّرَ فِيهَا نَقْصًا تَدَارَكَهُ، إِمَّا بِقَضَاءٍ أَوْ إِصْلَاحٍ، ثُمَّ يَحَاسِبُهَا عَلَى الْمَنَاهِي؛ فَإِنْ عَرَفَ أَنَّهُ ارْتَكَبَ مِنْهَا شَيْئًا تَدَارَكَهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ، ثُمَّ يَحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى الْغَفْلَةِ،

(١) «الزهد الكبير» (ص ٣١٤) رقم (٨٤١).

(٢) «محاسبة النفس» (٧٦) لابن أبي الدنيا.

فإن كان قد غفلَ عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشّت إليه رجلاه، أو بطشته يده، أو سمعته أذناه: ماذا أردت بهذا؟ ولمن فعلتيه؟ وعلى أي وجه فعلتيه؟»<sup>(١)</sup>.

وقد دلّ على وجوب محاسبة النفس للأمان من استرسالها في المعصية القرآن والسنة؛ فقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

ويدلّ عليه كل آية في كتاب الله أخبرت عن أنّ النفس أمارّة بالسوء، وأسندت الذنوب إلى كسب العبد، وأنها ممّا قدّمت يده، واقترفت جوارحه ولسانه.

وقد أبدع عبد الله بن المقفّع في بيان بعض صور المحاسبة؛ فقال: «وعلى العاقل مخاصمة نفسه، ومحاسبتها، والقضاء عليها، والإثابة والتكيل بها.

أمّا المحاسبة، فيحاسبها بما لها، فإنّه لا مال لها إلا أيّامها المحدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة، وما جُعِلَ منها في الباطل لم يرجع إلى الحق، فيتنبّه لهذه المحاسبة عند الحول إذا حال، والشهر إذا انقضى، واليوم إذا ولى، فينظر فيما أفنى من ذلك، وما كسب لنفسه، وما اكتسب عليها في أمر الدين وأمر الدنيا، فيجمع ذلك في كتاب فيه إحصاء، وجدّد، وتذكير للأمور، وتبكيّت للنفس، وتذليل لها؛ حتى تعترف وتُذعن.

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٤٠ - ١٤١).

وأما الخصومة؛ فإنَّ من طباعِ النَّفسِ الآمرة بالسُّوءِ أنْ تدَّعي المَعَاذِيرَ  
فيما مَضَى، والأَمَانِيَّ فيما بقي، فيردُّ عليها معاذيرَها، وعللَها، وشُبُهَاتَها.

وأما القضاء؛ فإنَّه يحكمُ فيما أَرادتْ من ذلك على السَّيِّئَةِ بِأَتَمِّها فاضحةً،  
مُرَدِّيةً، مُوبِقَةً، وللحسنةِ بِأَتَمِّها زائنةً، مُنْجِيَةً، مُرْبِحَةً.

وأما الإثابة، والتَّكْيِيلُ، فإنَّه يَسُرُّ نَفْسَه بِتَذَكُّرِ تلك الحَسَنَاتِ، ورجاءِ عَوَاقِبِها،  
وتأميلِ فَضْلِها، ويعاقِبُ نَفْسَه بِالتَّذَكُّرِ لِلْسَّيِّئَاتِ، والتَّبَشُّعِ بها، والاقْشَعْرَارِ منها،  
والحزنِ لها.

فأفضلُ ذَوِي الألبابِ أَشَدُّهُم لِنَفْسِهِ بِهَا أَخْذاً، وأقلُّهُم عنها فِيهِ فَتْرَةً<sup>(١)</sup>.  
ولذا لم يُعْرِفْ عن أعلامِ الأُمَّةِ وسلفِها الصالحِ إِلَّا شِدَّةَ محاسبتِهِم لِنَفْسِهِمْ،  
وأنَّهُمْ لم يتساحَّوْا قَطُّ في هذا الأمرِ ولا تهاوَّنُوا فِيهِ، وقد جاءَ عَنْهُمْ في ذلك ما كَثُرَ  
وطابَ واهتدى به طالبُ الهُدَى، فإنَّهُم القومُ لم يَشَقْ قَطُّ مُتَبِعُهُمْ ولا مُتَرَسِّمُ آثارِهِمْ  
ولا سالكُ سَبِيلِهِمْ.

قال أبو الدَّرْداءِ: «لا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الفَقْهِ، حتَّى يَمُوتَ النَّاسَ في ذاتِ  
الله، ثُمَّ يَرْجِعَ إلى نَفْسِهِ فيكونَ لها أَشَدَّ مَقْتًا»<sup>(٢)</sup>.

وقال يونس بن عبيد: «إِنِّي لَأَعُدُّ مِثَّةَ خَصَلَةٍ من خِصَالِ الخَيْرِ، ما أَعْلَمُ أَنَّ  
في نَفْسِي واحِدَةً منها»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص ١٨ - ١٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٨/١).

(٣) «محاسبة النفس» (٣٤) لابن أبي الدنيا.

وأخرج مالك عن أنس - رضي الله عنه - قال: «سمعتُ عمر بن الخطاب - وخرجتُ معه حتى دخل حائطًا - فسمعتُهُ وهو يقول - وبينني وبينه جدارٌ، وهو في جوف الحائط -: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! بَخِ بَخِ! وَاللَّهِ لَتَتَّقِينَ اللَّهَ أَوْ لِيُعَذِّبَنَّكَ»<sup>(١)</sup>.

وقال إبراهيم التيمي: «مَثَلْتُ نَفْسِي فِي الْجَنَّةِ، أَكُلُ ثَمَارَهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا، وَأَعَانِقُ أَبْكَارَهَا، ثُمَّ مَثَلْتُ نَفْسِي فِي النَّارِ، أَكُلُ مِنْ زُقُومِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ صَدِيدِهَا، وَأَعَالِجُ سَلَاسِلَهَا وَأَغْلَاهَا؛ فَقُلْتُ لِنَفْسِي: أَيُّ نَفْسِي! أَيُّ شَيْءٍ تَرِيدِينَ؟ قَالَتْ: أُرِيدُ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا؛ فَأَعْمَلَ صَالِحًا، قَالَ: قُلْتَ: فَأَنْتِ فِي الْأُمْنِيَةِ، فاعْمَلِي»<sup>(٢)</sup>.

وقال ميمون بن مهران: «لَا يَكُونُ الرَّجُلُ تَقِيًّا حَتَّى يَكُونَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ مُحَاسَبَةً مِنْ الشَّرِيكِ لِشَرِيكِه»<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكر ابنُ عبد ربِّهِ في «العقد الفريد»<sup>(٤)</sup> أَنَّ عمر بن عبدالعزيز كتب إلى الحسن: اجمع لي أمر الدنيا، وصف لي أمر الآخرة.

فكتب إليه: «إِنَّمَا الدُّنْيَا حُلْمٌ، وَالْآخِرَةُ يَقْظَةٌ، وَالْمَوْتُ مَتَوَسِّطٌ؛ وَنَحْنُ فِي أَضْغَاثِ أَحْلَامٍ، مِنْ حَاسِبِ نَفْسِهِ رِبْحٌ، وَمِنْ غَفْلِ عَنْهَا خَسْرٌ، وَمِنْ نَظَرٍ فِي الْعَوَاقِبِ نَجَا، وَمِنْ أَطَاعِ هَوَاهُ ضَلٌّ، وَمِنْ حِلْمِ غَنَمٍ، وَمِنْ خَافِ سَلِيمٍ؛ وَمَنْ اعْتَبَرَ

---

(١) «الموطأ» (٢٨٣٧)، وسنده صحيح.

(٢) «محاسبة النفس» (١٠).

(٣) المرجع السابق (٧).

(٤) (٣/٩٥-٩٦).

أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك، واعلم أن أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليه.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

«وهذه الجوارح السبعة - وهي العين<sup>(١)</sup>، والأذن، والفم، واللسان، والفرج، واليد، والرجل - هي مركب العطب والنجاة، فمنها عطبٌ مَنْ عُطِبَ، بإهمالها وعدم حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها، فحفظها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر؛ قال - تعالى -: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة وقعت في الخيانة ولا بد، فإن

(١) وهي بابٌ عظيمٌ من أبواب الخطر، ولعلها أعدى أعداء القلب الذي يسعى في هلاكه بما تنقل إليه من الصور التي يشتهيها، فيحترق بها وبه صاحبها، فتراه موله العقل أبداً، غافلاً طول زمانه من شدة انشغال قلبه بها آذته به عينه، قال ابن القيم - رحمه الله - : «وقد جعل الله - سبحانه - العينَ مرآة القلب، فإذا غَضَّ العبدُ بصره غَضَّ القلبُ شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلبُ شهوته». «روضة المحبين» (ص ١٤٦).



تتمادى على الإهمالِ تَماذَتْ في الخيانة، حتى يَذْهَبَ رأسُ المالِ كُلُّه، فمتى أحسَّ بالنقصانِ انتقل إلى المحاسبة؛ فحينئذٍ يَتَبَيَّنُ له حقيقة الربح والخسران، فإذا أحسَّ بالخسران وتيقَّنه استدرك منها ما استدركه الشريك من شريكه، من الرجوعِ عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل، ولا مَطْمَعٌ له في فسْخِ عقد الشركة مع هذا الخائن والاستبدال بغيره؛ فَإِنَّه لا بدَّ له منه، فليجتهِد في مراقبته ومحاسبته، وليحذر من إهماله»<sup>(١)</sup>.

ثمَّ ليذكر الإنسانُ ولا ينسَ، أَنَّ المعصيةَ إهانةٌ للنفسِ واستهانةٌ بقَدْرِهَا، وتمريغٌ لها في وَحْلِ الشهوةِ والحيوانيةِ، وانتقالٌ بها من الكرامةِ إلى الانحطاطِ، ولو تأمَّلَ العاقلُ المعصيةَ لوجدَهَا كذلك.

قال ابن سمعون: «رَأَيْتُ المعاصي نذالَةً، فتركْتُهَا مروءَةً، فاستحالت دِيَانَةً»<sup>(٢)</sup>.

وهو معنى بديعٌ غايةً، فَإِنَّه يريدُ أَنْ وازَعَ الشَّرْعَ لتركِ الذُّنُوبِ كان ضعيفًا في نفسه، لا يحرِّكُه، ولم يكن يفهمُ منه ما ينبغي له أَنْ يفهم، لكن الذي حرَّكَ قناعتَهُ بِأَنَّ الذُّنُوبَ نذالَةٌ وَسُفُولٌ بِمَلَكَاتِ النَّفْسِ وانحطاطٌ بها، فتركَهَا تَكْرِيمًا لِنَفْسِهِ وإعزازًا لها وترفعًا بها عَمَّا لَا يَحْمُلُ، فما لبثَ أَنْ اتَّضَحَتْ له حكمَةُ الشَّرْعِ في تركِ تلكِ الذُّنُوبِ، وَأَنَّهُ ما نهاهُ عنها إِلَّا لِأَنَّ اللهَ يريدُ كرامَتَهُ بالطَّاعَةِ، فتحوَّلَتْ نِيَّتُهُ إلى الطَّاعَةِ والتَّعَبُّدِ حينَهَا»<sup>(٣)</sup>.

(١) «إِغَاثَةُ اللِّهْفَانِ» (١/١٣٦ - ١٣٧).

(٢) «تَارِيخُ دِمَشْقَ» (٥١/١٢).

(٣) وانظر في نفسك، يَمْنَعُكَ الطَّيِّبُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لِأَجْلِ صِحَّةِ بَدَنِكَ، فَتَطِيعُهُ مَنَاسِكَ الصَّدْرِ، والله يَمْنَعُكَ مِنَ الْخَبَائِثِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا إِلَّا ضَرَرُكَ، فَتَعْصِيهِ! فَبَإَيِّ وَجْهِ تُلَاقِيهِ؟ فَتَأْمَلْ!

ولذا قال الحسن: «أما والله! لئن تَدَقَّقْتُ بهم الهَمَّالِجُ، وَوَطَّئْتُ الرَّجَالَ أَعْقَابَهُمْ، إِنَّ ذُلَّ المعاصي لَفِي قُلُوبِهِمْ، ولقد أبى الله أن يعصيه عبدٌ إلا أَذَلَّهُ»<sup>(١)</sup>.

ومن هذا الباب - أيضًا - قولُ الجراح بن عبدالله الحكمي - رحمه الله -: «تركْتُ الذُّنُوبَ حياءَ أربعين سنةً، ثُمَّ أَذْرَكَنِي الْوَرَعُ»<sup>(٢)</sup>.

ومنه قولُ ذي النُّون المصري: «مَنْ عَمِلَ فِي السِّرِّ عَمَلًا يَسْتَحْيِي مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ، فَلَيْسَ لِنَفْسِهِ عِنْدَهُ قَدْرٌ»<sup>(٣)</sup>.

وصدق! فحسبك من عزِّ الطَّاعَةِ أَنَّهُا إِنْ عُرِفَتْ عَنْكَ سُرِرَتْ بِهَا، وَإِنْ عُرِفَ عَنْكَ الْعَصْيَانُ خَجَلَتْ، وتصاغرت نَفْسُكَ، ففي أيِّهما ترى أن يكونَ سعيُّكَ؟!

ومن النَّظْمِ الطَّيَّارِ السَّائِرِ<sup>(٤)</sup>:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ	وَيُتْبِعُهَا الذُّلَّ إِذَا مَاتُهَا
وَتَرَكْتُ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ	وَالْخَيْرُ لِلنَّفْسِ عِضْيَانُهَا
وَهَلْ أَهْلَكَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ	وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا
وَبَاعُوا النُّفُوسَ فَلَمْ يَزِرْعُوا	وَلَمْ تَغْلُ بِالْبَيْعِ أَثْمَانُهَا
لَقَدْ وَقَعَ الْقَوْمُ فِي جِيفَةٍ	يَبِينُ لِذِي الْعَقْلِ إِنْتَانُهَا

(١) «حلية الأولياء» (١٤٩/٢).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩٠/٥).

(٣) أخرجه الدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (١٥٩/٣).

(٤) هذه الأبيات لعبدالله بن المبارك - رحمه الله -، وقد بيَّنتُ نسبتها إليه في تعليقي على «المجالسة

وجواهر العلم» (٣٠/٢) رقم (١٧٧).

من تطبيقات محاسبة النفس في اليوميّات:

«وَأَعْلَمَ أَنِّي إِنَّمَا أَكْثَرُ عَلَيْكَ وَعَلَى نَفْسِي مِنْ ذِكْرِ الْمُرَاجَعَةِ، لِمَا قَدْ اسْتَبَانَ لِي مِنَ الْإِضْطِرَارِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهَا... وَمَا تَرَكْتُ هُنَا إِلَّا كَالْمُسْتَأْنَسِ لِعَدُوِّهِ وَالْمُسْلَمِ نَفْسَهُ إِلَيْهِ، فَهَلَكْتَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ.

وإن كنت متهاوناً بما أقول لك فإن أكثر حاجتك إليها في صلاة الفريضة، ثم بعدها، وهلمّ جراً في جميع أمورك، ولو كنت ممن يتفقد أمره لعلمت ماذا دخل عليك من الندامة والحسرة حيث فارقتك المراجعة في صلاة الفريضة، فلم تدّر ماذا قرأ إمامك، ولم تدّر! أي فرض كنت أم في نافلة؟ في صلاة كنت أم في غيرها؟! وأنت في رأي العين ممن ينجي ربه، قد أصغيت بأذنيك إلى إمامك، وتحشّعت بوقوفك، وفرّغت قلبك لاستماع ما يقرأ إمامك من كلام ربك في صلاة فريضتك، التي ليس شيء أوجب عليك منها، فرجعت منها وقد ظهر منك ما وصفنا، وأنت كمن لم يشهد لها لقلة ضبطك بالمراجعة لنفسك فيها، ولعلّ الذي حَضَرَتْ منها بقلبك أو عقلته فلم تسه عنه، لو قيل لك: أتحب أن يكون ذلك منك كما كنت ساهياً ولك مئة ألف دينار؟ لقلت: لا.

فاعتني الآن بتعاهد هذه المراجعة على قدر ما عرفت من حاجتك إليها، فإنما لك من عمرك تيقظك، وتيقظك مراجعة ما فيه منفعك وقربتك، والمصير إليه بالعقل، وما سوى ذلك غفلة وسهو يؤدّيان إلى شهوة فيها غليان قلبك، وفي ذلك موافقة نفسك الأمارة بالسوء، والهوى المضلل عن سبيل الله، العادل بأهله عن طريق محبته، وفي ذلك توثب العدو الحثيث، الذي لا يألوك خبالاً، الذي يجري منك مجرى الدم، الذي يراك هو وقبيله من حيث لا تراه.

قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: «قُلُوبُ الْأَبْرَارِ تَغْلِي بِأَعْمَالِ الْبِرِّ، وَقُلُوبُ الْفُجَّارِ تَغْلِي بِأَعْمَالِ الْفُجُورِ».

فتعاهد أمرَك بالمراجعة، فَإِنْ دَأَبْتَ مَكْرُوهًا أَصْلَحَتْهُ وَتَحَوَّلَتْ عَنْهُ، وَإِنْ رَأَيْتَ غَيْرَ ذَلِكَ حَمَدْتَ اللَّهَ، وَكَانَتْ عَنَانِيكَ بِذَلِكَ زِيَادَةً لَكَ أَوْ قُرْبَةً.

وَإِذَا رَأَيْتَ لَكَ عَنَانِيَةً بِالْمُرَاجَعَةِ، فَاعْلَمْ أَنَّهَا نِعْمَةٌ وَقُرْبَةٌ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ، وَأَحَقُّ مِنْ أَحْسَنَتِ صُحْبَتِهِ نِعَمَ اللَّهِ الَّتِي مِفْتَاحُ خَزَائِنِهَا رَحْمَةُ اللَّهِ، فَالْتَمِسْ الزِّيَادَةَ مِنْهَا بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا، وَأَحَقُّ مَنْ أَسَاءَتْ صُحْبَتُهُ نَفْسُكَ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ؛ وَالْإِسَاءَةُ إِلَيْهَا مَخَالَفَتُهَا، فَإِنَّ فِي مَخَالَفَتِهَا مُوَافَقَةً مَرْضَاةَ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن الجوزي - رحمه الله -: «تَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي يَوْمًا تَفَكَّرْتُ مُحَقَّقٌ، فَحَاسِبْتُهَا قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبَ، وَوَزَنْتُهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنَ، فَرَأَيْتُ اللَّطْفَ الرَّبَّانِيَّ، فَمِنْذَ الطُّفُولَةِ وَإِلَى الْآنَ أَرَى لُطْفًا بَعْدَ لُطْفٍ، وَسِتْرًا عَلَى قُبْحٍ، وَعَفْوًا عَمَّا يُوجِبُ عَقُوبَةً، وَمَا أَرَى لَذَلِكَ شُكْرًا إِلَّا بِاللِّسَانِ، وَلَقَدْ تَفَكَّرْتُ فِي خَطَايَا، لَوْ عُوقِبْتُ بِبَعْضِهَا لَهَلَكْتُ سَرِيعًا، وَلَوْ كَشَفَ لِلنَّاسِ بَعْضُهَا لَاسْتَحْيَيْتُ!

وَلَا يَعْتَقِدُ مَعْتَقِدٌ عِنْدَ سَمَاعِ هَذَا أَنَّهَا مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ حَتَّى يَظُنَّ فِيَّ مَا يَظُنُّ فِي الْفَسَاقِ!

بَلْ هِيَ ذُنُوبٌ قَبِيحَةٌ فِي حَقِّ مِثْلِي، وَوَقَعْتُ بِتَأْوِيلَاتٍ فَاسِدَةٍ، فَصِرْتُ إِذَا دَعَوْتُ اللَّهَ أَقُولُ: اللَّهُمَّ! بِحَمْدِكَ وَسِتْرِكَ عَلَيَّ اغْفِرْ لِي، ثُمَّ طَالَبْتُ نَفْسِي بِالشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ، فَمَا وَجَدْتُهُ كَمَا يَنْبَغِي.

فَأَخَذْتُ أَنْوَحُ عَلَى تَقْصِيرِي فِي شُكْرِ الْمُنْعَمِ، وَكُونِي أَتْلُذُّ بِإِيرَادِ الْعِلْمِ

(١) «آداب النفوس» (ص ٦٢ - ٦٣).

من غير تحقيقٍ عملٍ به، وقد كنتُ أرجو مقامات الكِبَار، فذهب العمر وما حَصَلَ المقصود»<sup>(١)</sup>.

## ٥ - الاستعانة بالله استعانةً مخصوصةً على ترك الذنوب:

وهذا نابعٌ من مشهدٍ يشهده العبدُ بقلبه، وهو أنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو مشهدُ القضاء والقدرِ وردَّ الأمرِ إلى الله وحده، وإدراكُ أنَّ بيده التوفيق والإعانة، والخذلان والإهانة، وهل يُطاع - تعالى - إلاَّ بمعوَّنتِهِ؟!

فإنَّه - تعالى - قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وأتبعها بإرشادِنَا إلى سؤاله هدايتَنَا إلى الصَّراطِ المستقيم.

قال شيخ الإسلام: «فإنَّ الصَّراطَ المستقيمَ أنْ يفعلَ العبدُ في كلِّ وقتٍ ما أُمِرَ به في ذلك الوقتِ من علمٍ وعَمَلٍ، ولا يفعلَ ما نُهيَ عنه، وهذا يحتاج في كلِّ وقتٍ إلى أنْ يعلمَ ويعمَل، ما أُمِرَ به في ذلك الوقتِ وما نُهيَ عنه، وإلى أنْ يحصلَ له إرادةٌ جازمةٌ لفعلِ المأمور، وكراهةٌ جازمةٌ لتركِ المحظور، فهذا العلمُ المفصَّل والإرادةُ المفصَّلة لا يُتصوَّر أنْ تحصلَ للعبدِ في وقتٍ واحدٍ، بل كلُّ وقتٍ يحتاج إلى أنْ يجعلَ الله في قلبه من العلوم والإراداتِ ما يهتدي به في ذلك الصراطِ المستقيم.

نعم، حصلَ له هدىً مجملٌ بأنَّ القرآنَ حقٌّ، والرسولَ حقٌّ، ودينَ الإسلامِ حقٌّ، وذلك حقٌّ؛ ولكن هذا المجمل لا يغنيه إنْ لم يحصلَ له هدىً مفصَّلٌ في كلِّ ما يأتيه ويذرُّه من الجزئياتِ التي يحارُّ فيها أكثرُ عقولِ الخلقِ، ويغلبُ الهوى والشهواتِ أكثرُ عقولهم لغلبةِ الشَّهواتِ والشُّبُهاتِ عليهم.

(١) «صيد الخاطر» (ص ٤٧٤).

والإنسانُ خُلِقَ ظُلُومًا جَهُولًا، فالأصلُ فيه عدمُ العِلْمِ ومِثْلُهُ إلى ما يهواه من الشرِّ، فيحتاجُ دائمًا إلى علمٍ مَفْصَّلٍ يزوُّلُ به جهْلُهُ، وعدلٍ في محبَّتِهِ وبُغْضِهِ وِرْضاهِ وَغَضَبِهِ وفِعْلِهِ وتركِهِ وإِعْطائِهِ ومنْعِهِ، وأكْلِهِ وشُرْبِهِ ونَوْمِهِ وَيَقْظَتِهِ، فكلُّ ما يقوله ويعمله يحتاجُ فيه إلى علمٍ يَنَافِي جهْلَهُ، وعدلٍ يَنَافِي ظُلْمَهُ، فإن لم يَمُنَّ اللهُ عليه بالعلمِ الْمُفْصَّلِ والعدلِ الْمُفْصَّلِ، كان فيه من الجهلِ والظُّلمِ ما يخرُجُ به عن الصِّراطِ المُستقيم<sup>(١)</sup>.

فنعوذ بالله من الخذلان، فقد «أَجْمَعَ العَارِفُونَ بالله على أن الخِذْلَانَ أن يَكِلَكَ اللهُ إلى نَفْسِكَ ويُخَلِّيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا، والتوفيقُ أن لا يَكِلَكَ اللهُ إلى نَفْسِكَ»<sup>(٢)</sup>.

ويزيدُ ابنُ القَيِّم - رحمه الله - هذا المعنى وضوحًا؛ فيقول:

«وَلَمَّا عَلِمَ عَدُوُّ اللهِ إِبْلِيسُ أَنَّ المَدَارَ على القلبِ والاعتمادُ عليه؛ أَجْلَبَ عليه بالوساوسِ، وأَقْبَلَ بوجوه الشَّهَوَاتِ إِلَيْهِ، وَزَيَّنَ لَهُ مِنَ الْأَحْوالِ والأَعْمَالِ ما يَصُدُّهُ به عن الطريقِ، وأَمَدَّهُ من أسبابِ الغيِّ بما يقطعُهُ عن أسبابِ التوفيقِ، وَنَصَبَ لَهُ مِنَ المَصَائِدِ والحَبَائِلِ ما إن سَلِمَ من الوقوعِ فيها لم يَسْلَمْ من أنْ يَحْصُلَ لَهُ بها التَّعْوِيقُ.

فلا نِجاةَ من مَصَائِدِهِ ومَكَايِدِهِ إلا بدوامِ الاستِعاذَةِ بالله - تعالى -، والتَّعَرُّضِ لأسبابِ مرضاتِهِ، والتَّجاءِ القلبِ إِلَيْهِ وإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ في حركاتِهِ وسكناتِهِ، والتَّحَقُّقِ بِذُلِّ العبوديةِ الذي هو أَوْلى ما تلبَّسَ به الإنسانُ ليَحْصُلَ لَهُ الدُّخُولُ في صَمَانِ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ فهذه الإضافةُ هي القاطِعةُ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٧ - ٣٨).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٠).

بينَ العبدِ وبينَ الشياطينَ، وحصولُها بسببِ تحقيقِ مقامِ العبوديةِ لربِّ العالمينَ، وإشعارِ القلبِ بإخلاصِ العلمِ ودوامِ اليقينِ، فإذا أُشربَ القلبُ العبوديةَ والإخلاصَ صارَ عندَ اللهِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وشَمِلَهُ استثناءٌ ﴿لَا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]»<sup>(١)</sup>.

فَاللَّهُمَّ! نَسْأَلُكَ الْعَوْنَ عَلَى أَنْفُسِنَا.

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

«وسألتُ شيخَ الإسلامِ عن معنى دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ! طَهِّرْني من خطايايَ بالماءِ والثَّلجِ والبرَدِ»<sup>(٢)</sup>، كيف تُطَهَّرُ الخطايا بذلك؟ وما فائدة التخصيصِ بذلك؟ وقوله في لفظ آخر: «والماءُ البارد»، والحرُّ أبلغُ في الإنقاء؟

فقال: الخطايا تُوجبُ للقلبِ حرارةً ونجاسةً وضعفاً، فترخي القلبَ، وتُضَرِّمُ فيه نارَ الشهوةِ، وتنَجِّسه، فإنَّ الخطايا والذنوبَ له بمنزلةِ الحطبِ الذي يمدُّ النارَ ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلبِ وضعفه، والماءُ يغسلُ الحَبَثَ ويُطفئُ النارَ، فإنَّ كانَ بارداً أورثَ الجسمَ صلابَةً وقوَّةً، فإنَّ كانَ معه ثلجٌ وبرْدٌ كانَ أقوى في التبريدِ وصلابةِ الجسمِ وشِدَّتِهِ، فكانَ أذهبَ لأثرِ الخطايا.

هذا معنى كلامه، وهو محتاجٌ إلى مزيدِ بيانٍ وشرحٍ، فاعلم أنَّها هنا أربعةُ أمور:

أمرانِ حسيَّانِ، وأمرانِ معنويَّانِ:

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

فالتَّجَاسَةُ التي تزول بالماء؛ هي ومُزيلها حَسِّيَّان، وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار؛ هي ومزيلها معنويَّان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا، فذكر النبي ﷺ من كُلِّ شَطْرٍ قِسْمًا، نَبَّهَ به على القسم الآخر، فَتَضَمَّنَتْ كلماته الأقسامَ الأربعةَ في غاية الاختصار، وحُسْنِ البيان<sup>(١)</sup>.

قال العلامة فخر الدِّين الرازي - رحمه الله -: «والذي جَرَّبْتُهُ مِنْ أَوَّلِ عَمْرِي إِلَى آخِرِهِ، أَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا عَوَّلَ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ صَارَ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَى الْبَلَاءِ وَالْمِحْنَةِ وَالشَّدَّةِ وَالرَّزِيَّةِ، وَإِذَا عَوَّلَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ الْمَطْلُوبُ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ، فَهَذِهِ التَّجَرُّبَةُ قَدْ اسْتَمَرَّتْ لِي مِنْ أَوَّلِ عَمْرِي إِلَى هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي بَلَغْتُ فِيهِ إِلَى السَّابِعِ وَالْخَمْسِينَ، فَعِنْدَ هَذَا اسْتَقَرَّ قَلْبِي عَلَى أَنَّهُ لَا مَصْلَحَةَ لِلْإِنْسَانِ فِي التَّعْوِيلِ عَلَى شَيْءٍ سِوَى فَضْلِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَإِحْسَانِهِ»<sup>(٢)</sup>.

وعَلَّقَ عَلَيْهِ الْعَلَامَةُ تاج الدِّين السُّبْكِيُّ - رحمه الله - بقوله: «وَمَا ذَكَرَهُ حَقٌّ، وَمَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ وَجَدَ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، وَإِنْ فُرِضَ أَحَدٌ عَوَّلَ فِي أَمْرٍ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ وَحَصَلَ لَهُ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَخْلُو عَنْ أَحَدٍ رَجُلَيْنِ: إِمَّا رَجُلٌ مَمْكُورٌ بِهِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ -، وَإِمَّا رَجُلٌ يَطْلُبُ شَرًّا وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ خَيْرٌ لِنَفْسِهِ، وَيُظْهِرُ لَهُ ذَلِكَ بِعَاقِبَةِ ذَلِكَ الْأَمْرِ، فَمَا أَسْرَعَ انْقِلَابُهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ إِلَى أَسْوَأِ الْأَحْوَالِ، وَمَنْ شَاءَ اعْتَبَارَ ذَلِكَ فَلْيَحَاسِبْ نَفْسَهُ.

واعلم أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ دَالَّةٌ عَلَى مِرَاقَبَتِهِ طَوْلَ وَقْتِهِ وَمَحَاسِبَتِهِ

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (٩٦/١ - ٩٧).

(٢) «مِفْتَاحُ الْغَيْبِ» (١١٦/١٨).



لنفسه - رضي الله عنه - وقَبَحَ من يَسُبُّه أو يذكرُه بسوءٍ حَسَدًا وَبَغْيًا من عندِ نفسه .  
توفي الإمام - رحمه الله - بهرّاة، في يوم الاثنين يوم عيد الفطر، سنة ست  
وست مئة<sup>(١)</sup>.



---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ٩٣).

## طريقُ العودة إلى الله

إذا أقبلتَ على كتاب الله فقرأته، اقرأه لتعيش، وقرأه لتحيا، وقرأه قراءة طالب الهدى والباحث عن الحقيقة؛ حقيقة نفسه وقيمتها بين يدي ربّه، اقرأه قراءة الباحث عن أسباب الرّفعة والمجد في الدنيا والآخرة، اقرأه ليكون لك ذكراً، اقرأه ليكون لك بين هذه الأمم منزلة.

تدبّر معي أخي الحبيب قول ربك - عز وجل -: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وجاءت أداة التحقيق (لقد) المركّبة من لام القسّم وحرف التحقيق (قد) للتذكير بعظمة هذا القرآن ومنافعه التي عمي عنها الأكثرون، فجيئ بهذا التوكيد لإيقاظهم من غفلتهم التي أشير إليها وعيبت عليهم في أوّل سورة (الأنبياء) في قوله - تعالى -: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُنَزِّلُ السُّورَاتِ فِي اللَّيْلِ وَنَافِثَاتٍ فِيهَا السَّافِرَاتُ﴾ [الأنبياء: ٢-٣] (١).

وقال القرطبيّ - رحمه الله -:

«قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا﴾ يعني القرآن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾... والمُرَاد بالذّكر هنا الشرف؛ أي: فيه شرفُكم، مثل: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١٧/ ٢٢).

وَلَقَوْمٌ ﴿الزخرف: ٤٤﴾، ثم نبههم بالاستفهام الذي معناه التوقيف؛ فقال - عز وجل -: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقيل: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: ذكر أمر دينكم، وأحكام شرعكم، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الأشياء التي ذكرناها؟!

وقال مجاهد: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: حديثكم.

وقيل: مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم.

وقال سهل بن عبد الله: العمل بما فيه حياتكم.

قلت: وهذه الأقوال بمعنى، والأوّل يعُمّها؛ إذ هي شَرَفٌ كُلُّهَا، والكتابُ شَرَفٌ لِنَبِيّنا - عليه السلام -؛ لأنّه معجزته، وهو شَرَفٌ لنا إنّ عَمِلْنَا بما فيه، دليله قوله - عليه السلام -: «القرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك» (١) (٢).

قال أبو عبيدة: الأمر قد تمّ، فذكرنا وقيمتنا ومكانتنا في كتابنا، ولا ذكر لنا في غيره ولا بغيره.

قال العلامة السّعدي - رحمه الله -: «﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شَرَفُكُمْ وفخركم وارتفاعكم، إنّ تذكّرتُم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدرُكم، وعظُم أمرُكم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعكم وما يضرّكم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرّكم في الدنيا والآخرة؟ فلو كان لكم عقلٌ لسلكتم هذا السبيل، فلمّا لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق التي فيها ضَعَتُكم وخَسَّتُكم في الدُّنيا

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/٢٧٣).

والآخرة، وشقاوتكم فيها؛ عُلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ مَعْقُولٌ صَحِيحٌ، وَلَا رَأْيٌ رَاجِحٌ. وهذه الآية مصداقها ما وقع؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّسُولِ الَّذِينَ تَذَكَّرُوا بِالْقُرْآنِ مِنَ الصَّحَابَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الرَّفْعَةِ وَالْعُلُوِّ الْبَاهِرِ، وَالصَّيِّتِ الْعَظِيمِ، وَالشَّرَفِ عَلَى الْمُلُوكِ، مَا هُوَ أَمْرٌ مَعْلُومٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، كَمَا أَنَّهُ مَعْلُومٌ مَا حَصَلَ لِمَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِهَذَا الْقُرْآنِ رَأْسًا وَلَمْ يَهْتَدِ بِهِ وَيَتَزَكَّ بِهِ مِنَ الْمَقْتِ وَالضُّعَةِ، وَالتَّدْسِيَةِ، وَالشَّقَاوَةِ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِالتَّذَكُّرِ بِهَذَا الْكِتَابِ»<sup>(١)</sup>.

وقال البقاعي: «﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ طَوَالَ الدَّهْرِ بِالْخَيْرِ إِنْ أَطَعْتُمْ، وَالشَّرَّ إِنْ عَصَيْتُمْ، وَبِهِ شَرُّكُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ بِشَرَفِ مَا فِيهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي كُنْتُمْ تَتَفَاخَرُونَ بِهَا، وَبِشَرَفِ نَبِيِّكُمْ الَّذِي تَقُولُونَ عَلَيْهِ الْأَبَاطِيلَ، وَتَكْثُرُونَ فِيهِ الْقَالَ وَالْقِيلَ»<sup>(٢)</sup>.

«وعلى القول الأقوى - وهو أن المراد به الشرف - يكون خطاباً للعرب؛ إذ يذكرهم الله بنعمته عليهم، إذ شرفهم بهذا القرآن، بل التعبير يفيد أنه شرفهم الوحيد؛ إذ تقديم (فيه) وهو جار ومجرور على المبتدأ يفيد الاختصاص، ولو أنك تأملت شيئاً يشرف به العرب في هذا العالم لم تجد شيئاً غير هذا القرآن، فما من شيء قدمه العرب للعالم إلا وهم فيه عالة على غيرهم أو يشاركونهم فيه غيرهم إلا هذا القرآن الذي أنزله الله عليهم، فإنه الشرف الذي لا ينازعهم فيه غيرهم، وعندما يرفض العرب هذا القرآن يكونون قد رفضوا شرفهم، ويدللون بذلك على عدم عقلهم»<sup>(٣)</sup>.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٥١٩ - ٥٢٠).

(٢) «نظم الدرر» (٧١ / ٥).

(٣) «الأساس في التفسير» (٣٤٣٦ / ٧).

علينا أن نؤمن إيمانًا جادًا، وإيمانًا يبني في نفوسنا حائطًا منيعًا أمام المعاصي والشهوات، إيمانًا يجعلنا نُديمُ النَّظْرَ في العواقب، ونرجو ما عند الله وحده.

قال مسلم بن يسار: «ما أدري! ما إيمان رجلٍ كره شيئًا لم يدعه الله؟ وما أدري! ما حسَبُ رجلٍ نزل به أمرٌ، لم يصبر الله لما يرجوه من الثواب غدًا في القيامة؟ وما أدري! ما حسَبُ امرئٍ عرَضَتْ له شهوةٌ لم يدعها لِمَا يخافُ يوم القيامة؟»<sup>(١)</sup>.

فما الذي يحقِّقه لك الذنب؟ ما النتيجة؟ وما الغاية؟ وبماذا تفوز إن فُزْتَ به؟

إنَّ الذَّنْبَ هو السَّهْمُ الأَخِيبُ الذي لا يأتي إلَّا بالشَّرِّ، وبالقليل من النَّظَرِ في العواقب القريبة والبعيدة في الدنيا والآخرة؛ لا يختارُ العاقلُ معصيةَ الله وغضبه والتَّعَرُّضَ لعقابه.



---

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٨٧٧ - بتحقيقي)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٢/٢٩٢).

## الصَّبْرُ خَيْرُ عَطَاءٍ

قال ابن القيم - رحمه الله -: « الصَّبْرُ عن الشَّهْوَةِ أَسْهَلُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى مَا تَوَجَّبَهُ الشَّهْوَةُ؛ فَإِنَّهَا إِمَّا أَنْ تَوْجِبَ أَلَمًا وَعَقُوبَةً، وَإِمَّا أَنْ تَقْطَعَ لَذَّةً أَكْمَلَ مِنْهَا، وَإِمَّا أَنْ تُضَيِّعَ وَقْتًا إِضَاعَتُهُ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ، وَإِمَّا أَنْ تَثْلِمَ عِرْضًا تَوْفِيرُهُ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ مِنْ ثَلْمِهِ، وَإِمَّا أَنْ تُذْهِبَ مَالًا بَقَاؤُهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذَهَابِهِ، وَإِمَّا أَنْ تَضَعَ قَدْرًا وَجَاهًا قِيَامُهُ خَيْرٌ مِنْ وَضْعِهِ، وَإِمَّا أَنْ تَسْلُبَ نِعْمَةً بَقَاؤُهَا أَلَذُّ وَأَطْيَبُ مِنْ قَضَاءِ الشَّهْوَةِ، وَإِمَّا أَنْ تُطَرِّقَ لَوْضِيعٍ إِلَيْكَ طَرِيقًا لَمْ يَكُنْ يَجِدُهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجْلِبَ هَمًّا وَغَمًّا وَحُزْنًا وَخَوْفًا لَا يُقَارِبُ لَذَّةَ الشَّهْوَةِ، وَإِمَّا أَنْ تَنْسَى عِلْمًا ذَكَرَهُ أَلَذُّ مِنْ نِيلِ الشَّهْوَةِ، وَإِمَّا أَنْ تُشْمِتَ عَدُوًّا وَتُخْزِنَ وَلِيًّا، وَإِمَّا أَنْ تَقْطَعَ الطَّرِيقَ عَلَى نِعْمَةٍ مُقْبِلَةٍ، وَإِمَّا أَنْ تُحْدِثَ عَيْبًا يَبْقَى صِفَةً لَا تَزُولُ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ تَوَرَّثُ الصِّفَاتِ وَالْأَخْلَاقُ »<sup>(١)</sup>.

فَاللَّهُمَّ ارْزُقْنَا حُسْنَ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ.

وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ؛ فَقَدْ قَالَ: «وَمَنْ يَسْتَغْفِرُ يُعْفِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) «الفوائد» (ص ٢٠٢-٢٠٣).

(٢) رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣).

وقال: «إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله؛ فما يبلغها بعمل؛ فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها»<sup>(١)</sup>.

قال البقاعي: «لا كرامة أعظم من حفظ المكلف لحدود الشرع مع المنافاة لطبعه، فيكون جامعاً للإيمان بنصفه: الصبر والشكر»<sup>(٢)</sup>.

وقال شيخ الإسلام: «كثير من المرضى يُشفون بلا تداوٍ بدعوة مستجابة أو رقية نافعة أو قوة للقلب وحسن التوكل»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن القيم: «لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعُجب والفرعة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً»<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن حجر: «الله يجعل لأوليائه عند ابتلائهم مخارج، وإنما يتأخر ذلك عن بعضهم في بعض الأوقات تهذيباً وزيادة لهم في الثواب»<sup>(٥)</sup>.

وقال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: «من انتظر الفرج أثيب على ذلك الانتظار؛ لأن انتظار الفرج حسن ظن بالله، وحسن الظن بالله عمل صالح يثاب عليه الإنسان»<sup>(٦)</sup>.



---

(١) حسنه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٢٥٩٩).

(٢) «نظم الدرر» (٨ / ١٥١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢١ / ٥٦٣).

(٤) «زاد المعاد» (٤ / ١٧٩ ط الرسالة).

(٥) «فتح الباري» (٦ / ٤٨٣).

(٦) «فتاوى نور على الدرب» (٢٢٥).

## التوبة في البدء والختام

اعلم - رحمك الله - أنك لا تصل إلى مُبْتَغَاكَ في تحقيق التَّوْبَةِ، والشفاء من أثر الذَّنْبِ ظاهراً وباطناً؛ حتى تكون لك خمسة أطوارٍ تمرُّ ببعضِها، ويتفَضَّلُ الله - وهو ذو الإنعام والفضل - ببعضِها الذي لا تملكُه أنت، وما لم يشأَ الله؛ لم يكن:

الأوَّل: استشعار وطأة الذَّنْبِ، وحُرْفَتِهِ، ونَكَدِهِ، ومرارَتِهِ، فمن أين يتوب من يستمرئ ذنبه ويتلذَّذ به؟! قال - تعالى -: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾.

الثاني: حسن الظن بالله؛ قال - تعالى -: ﴿وَطَنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾. الثالث: أن يتوب الله عليك؛ ومعناه أن يوفِّقَكَ إلى التوبة إذا رأى صدقَ إرادتك وقوَّةَ توجُّهك، قال - تعالى -: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وفَّقهم للتوبة.

الرابع: توبتك أنت إلى الله؛ قال - تعالى -: ﴿لِيَسْتَوُوا﴾. الخامس: قبول توبتك من الله؛ قال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. وهذا كله منتزَعٌ على نحوٍ واضحٍ ظاهرٍ بيِّنٍ من قوله - تعالى -: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَطَنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَسْتَوُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

[التوبة: ١١٨].



ومع ذا؛ فالغفلة والنسيان جيلة في بني آدم، فقد خرَّج الطبراني<sup>(١)</sup> عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق، إن المؤمن خلق مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا، إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ».

وصدق الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فطريق الرجوع واضحة، مسلوكة، عامرة، ومقام التوبة والأوبة محبوب لله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

«وقال سفيان بن عيينة: «التوبة نعمة من الله أنعم بها على هذه الأمة دون غيرهم من الأمم، وكانت توبة بني إسرائيل القتل».

وقال الزهري: لما قيل لهم: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] قاموا صفين وقتل بعضهم بعضًا، حتى قيل لهم: كُفُّوا! فكانت لهم شهادة للمقتول وتوبة للحَيِّ»<sup>(٢)</sup>.

وإنما رفع الله عنهم القتل لما أعطوا المجهود في قتل أنفسهم، فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة، إنَّ الرجل ليفنى عمره أو ما أفنى منه في المعاصي والآثام، ثم يندم على ذلك ويقلع عنه ويقوم وهو حبيب الله، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»<sup>(٣)</sup>.

(١) في «المعجم الكبير» (١١٨١٠)، وصححه شيخنا في «الصحيحة» (٢٢٧٦).

(٢) القائل: «فكانت شهادة للمقتول...» هو قتادة؛ كما في «المجالسة» (٣٦٢/٤ - بتحقيقي).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠)، وحسنه شيخنا الألباني - رحمه الله - .

وقال ابن المبارك: «حقيقة التوبة لها ست علامات؛ أولها: الندم على ما مضى، والثانية: العزم على أن لا تعود، والثالثة: أن تعمد إلى كل فرضٍ ضيَعته فتؤدِّيه، والرابعة: أن تعمد إلى مظالم العباد فتؤدِّي إلى كل ذي حقٍّ حقَّه، والخامسة: أن تعمد إلى البدن الذي ربَّيته بالسُّحتِ والحرام فتذيبه بالهموم والأحزان، حتى يلصق الجلد بالعظم، ثم تنشئ بينهما لحماً طيباً إن هو نشأ! والسادسة: أن تذيب البدنَ أَلَمَ الطَّاعةِ كما أذقته لذَّةَ المعصية».

وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس: «كم تائبٍ يُردُّ يومَ القيامةِ يظُنُّ أنه تائبٌ وليس بتائب؟! لأنه لم يُحْكَمْ أبوابُ التوبة».

وقال عبدالله بن سُميط: «ما دام قلبُ العبدِ مصراً على ذنبٍ واحد، فعمله معلقٌ في الهواء، فإن تابَ من ذلك الذنبِ، وإلا بقيَ عمله أبداً معلقاً»<sup>(١)</sup>.

روى البخاري في «صحيحه»<sup>(٢)</sup> عن أبي هريرة؛ قال: سمعتُ النبي ﷺ قال: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا - وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي. فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي».

ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا - أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ - فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي».

(١) «شرح ابن بطَّال على صحيح البخاري» (١٠ / ٨٠ - ٨١)، ويُنظر: «التوضيح» (٢٩ /

٢٠٠) لابن الملقن.

(٢) برقم (٧٥٠٧) في (التوحيد، باب قول الله - تعالى -: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾).

ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ أَذْنَبْتُ آخَرَ؛ فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي - ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ».

ومن فوائد هذا الحديث:

أَنَّ تَوْبَةَ الْمَرْءِ بَعْدَ مَقَارَفَتِهِ الذَّنْبِ فِي كُلِّ حِينٍ تَخْرِجُهُ مِنْ حُدِّ الْإِصْرَارِ عَلَيْهَا. ومنها: أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَغْفِرُ لِلْمَرْءِ مَا أَنَابَ إِلَيْهِ وَتَابَ، وَإِنْ وَقَعَ الذَّنْبُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذَّنْبَ إِلَّا اللَّهُ - تَعَالَى -، فَهُوَ غَافِرُ الذَّنْبِ، وَقَابِلُ التَّوْبِ، قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ: «لَوْ تَكَرَّرَ الذَّنْبُ مِائَةَ مَرَّةٍ، أَوْ أَلْفَ مَرَّةٍ، أَوْ أَكْثَرَ، وَتَابَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ؛ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، وَسَقَطَتْ ذُنُوبُهُ، وَلَوْ تَابَ عَنِ الْجَمِيعِ تَوْبَةً وَاحِدَةً بَعْدَ جَمِيعِهَا؛ صَحَّتْ تَوْبَتُهُ»<sup>(١)</sup>.

ومنها: أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ فَائِدَةِ الْاسْتِغْفَارِ، وَعَلَى عَظِيمِ فَضْلِ اللَّهِ، وَسِعَةِ رَحْمَتِهِ وَحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ، لَكِنَّ هَذَا الْاسْتِغْفَارَ هُوَ الَّذِي ثَبَتَ مَعْنَاهُ فِي الْقَلْبِ مَقَارَنًا لِلْسَّانِ؛ لِيَنْحَلَّ بِهِ عَقْدُ الْإِصْرَارِ، وَيَحْصَلَ مَعَهُ، فَهُوَ تَرْجُمَةٌ لِلتَّوْبَةِ، لَا مِنْ قَالَ: (أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ) بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ مَصْرُوعًا عَلَى تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ، فَهَذَا الَّذِي اسْتَغْفَرَهُ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِغْفَارٍ.

ومنها: أَنَّ الْعُودَ إِلَى الذَّنْبِ وَإِنْ كَانَ أَقْبَحَ مِنْ ابْتِدَائِهِ؛ لِأَنَّهُ انْضَافٌ إِلَى مَلَابَسَةِ الذَّنْبِ نَقْضُ التَّوْبَةِ، لَكِنَّ الْعُودَ إِلَى التَّوْبَةِ أَحْسَنَ مِنْ ابْتِدَائِهَا؛ لِأَنَّهُ انْضَافٌ إِلَيْهَا مَلَازِمَةُ الطَّلَبِ مِنَ الْكَرِيمِ، وَالْإِلْحَاحُ فِي سَوْأِهِ، وَالاعْتِرَافُ بِأَنَّهُ لَا غَافِرَ لِلذَّنْبِ سِوَاهُ.

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٧/ ٧٥).

ومن المناسب أن نذيل هذه الفوائد المهمة بهذا التفصيل في (فقه التوبة) من شيخ الإسلام، وله - كعادته - رحمه الله - من التدقيق والتحقيق ما لا يقاربه فيه أحد؛ قال:

«الإنسان قد يستحضر ذنباً فيتوب منها، وقد يتوب (توبة مطلقة) لا يستحضر معها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته (التوبة العامة) فهي تناول كل ما يراه ذنباً؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزمًا عامًا بفعل المأمور وترك المحذور، وكذلك تتضمن ندمًا عامًا على كل محذور، فمن تاب (توبة عامة) كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب.

إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص، مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه؛ لقوة إرادته إياه أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبیح.

فما كان لو استحضره لم يتب منه؛ لم يدخل في التوبة، وأما ما كان لو حضر بعينه؛ لكان مما يتوب منه، فإن التوبة العامة شاملته.

وأما (التوبة المطلقة): وهي أن يتوب توبة مجملة، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله، كاللفظ المطلق، لكن هذه تصلح أن تكون سبباً لغفران المعين، كما تصلح أن تكون سبباً لغفران الجميع، بخلاف (العامة) فإنها مقتضية للغفران العام، كما تناولت الذنوب تناولاً عامًا.

وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيثار وحقائقه أعظم ضرراً عليه مما

فعله من بعض الفواحش، فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقاً أعظم نفعاً من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة؛ كحب الله ورسوله، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية.

وحينئذ فأَي ذنب تاب منه ارتفع موجبُه، وما لم يتب منه فله حكم الذنوب التي لم يتب منها، فالشدة إذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها، خفف منه بقدر ما تاب منه، بخلاف ما لم يتب منه، بخلاف صاحب (التوبة العامة).

والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون (توبة عامة) مع حاجتهم إلى ذلك. فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال؛ لأنه دائماً يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور، فعليه أن يتوب دائماً<sup>(١)</sup>.

وقد زاد شيخ الإسلام ابن تيمية الأمر بياناً بالتفريق بين مقام (التوبة) ومقام (الترك)، وهو تفريق مهم جداً؛ فقال - رحمه الله -:

«وقد يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّهُ تَائِبٌ وَلَا يَكُونُ تَائِبًا، بَلْ يَكُونُ تَارِكًا، وَالتَّارِكُ غَيْرُ التَّائِبِ، فَإِنَّهُ قَدْ يُعْرِضُ عَنِ الذَّنْبِ لِعَدَمِ خُطُورِهِ بِيَالِهِ أَوْ لِعَجْزِهِ عَنْهُ، أَوْ تَنْتَفِي إِرَادَتُهُ لَهُ بِسَبَبٍ غَيْرِ دِينِيٍّ، وَهَذَا لَيْسَ بِتُوبَةٍ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ سَيِّئُهُ، وَيَكْرَهُ فِعْلَهُ لِنَهْيِ اللَّهِ عَنْهُ، وَيَدَعَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - لَا لِرَغْبَةِ مَخْلُوقٍ وَلَا لِرَهْبَةِ مَخْلُوقٍ؛ فَإِنَّ التُّوبَةَ مِنْ أَعْظَمِ الْحَسَنَاتِ؛ وَالْحَسَنَاتُ كُلُّهَا يَشْتَرِطُ فِيهَا الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ، وَمُوَافَقَةُ أَمْرِهِ»<sup>(٢)</sup>.

قال إبراهيم بن أدهم: «أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان، ومن

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٢٥ وما بعدها).

(٢) «الفتاوى الكبرى» (٥/ ٢٧٦).

وَفِي الْعَمَلِ وُفِّي لَهُ الْأَجْرُ، وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ؛ رَحَلَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ بِمَا قَلِيلٍ  
وَلَا كَثِيرٍ»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) «حلية الأولياء» (١٦/٨).

## تَعَلَّمْ كَيْفَ تَتُوبُ

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا. فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَنْتَ قَرِيبٌ كَذَا وَكَذَا. فَأَدْرَكُهُ الْمَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي، وَأَوْحَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعِدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ، فُغْفِرَ لَهُ»<sup>(١)</sup>.

«وهذا إرشادٌ منه ﷺ لمن وقع في كبيرة أو كبائر إلى الطريق التي يتخلص بها من الكبائر، وهي التوبة التي عرَضَهَا الله على العباد، حيث أمرهم بها، وأوجبها عليهم، وأخبر - سبحانه - عن نفسه أَنَّهُ يقبلها، كُلُّ ذَلِكَ فَضْلٌ من الله ولُطْفٌ بالعبد لِمَا عِلِمَ من ضعفه عن مقاومة الحوامل على المخالفات، التي هي النَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ الْإِنْسَانِيُّ وَالْجَنِّيُّ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ أَوْجَبَ عَلَى النَّصَحَاءِ أَنْ يعرضوها على أهل المعاصي ويحثوهم عليها»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦).

(٢) «شرح سنن أبي داود» (٢١٨/١٨) لابن رسلان الرملي.

«ومن لطف الله - تعالى - أن انقلاب النَّاس من الشرِّ إلى الخير كثيرٌ، ومن الخير إلى الشرِّ في غاية النُّدور»<sup>(١)</sup>.

فقضت سنَّته في شرعه وفي كونه أنَّه يحبُّ التوبة ويوفِّق العباد لها، وما زالوا مجتهدين في الإخلاص، متحرِّزين من الرياء، تاركين العُجب بالأعمال، والرُّكون إليها، خوفًا من سوء الخاتمة.

وفي الحديث المتقدم من معالم التوبة وفقهها فوائدٌ كثيرةٌ مهمَّةٌ:

منها: أنه يجب على المرء لزوم الندم على ما كان منه رجاء مغفرة الله - تعالى - ذنوبه، وتكفيره عن سيئاته.

ومنها: أن القتل - وهو من أعظم العظائم المردية - يُرَجى العفو عن مرتكبه إذا تاب وأناب إلى الله - عز وجل -، ومن الوارد في ذلك قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومنها: أن بيئة المرء لها أكبر الأثر في نفسه، فهو كالشجرة إذا نبتت في أرض سوء أخرجت ثمرًا خبيثًا، وإن نبتت في أرض طيبة آتت أكلها طيبًا بإذن الله، وقد صرَّح العلماء باستحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب، ومقاطعة الحائِثين له على ذلك ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح من العلماء والمتعبِّدين الورعين ومن يقتدى بهم ويتنفع بصحبتهم، فتأكد بذلك توبته؛ فإن مزايلة أماكن السوء ومواطن الضلال، والركون إلى أهل الخير والعيش معهم، ومنابذة الفجار والأشرار؛ كلها من علامات ثبوت التوبة.

---

(١) «شرح سنن أبي داود» (٢٦٨ / ١٨) لابن رسلان الرملي.



ومنها: أن فيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية.

ومنها: أن الله - تعالى - يجازي عبده حسب نيته وعزمه، وإن لم يعمل، فإن الله - تعالى - قد رحم هذا الرجل قبل أن يصل إلى القرية الصالحة، وقبل أن يعمل شيئاً من الصالحات.

ومنها: أن فيه دليلاً على أهمية السؤال، والتثبت فيه، وأنه ينبغي أن يكون ذلك للعلماء، فهم الذين يبينوا المخرج، ويحلّوا المعضل، ويوضّحوا المشكل.

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أيضاً - عن النبي ﷺ قال: «أَنَّ رَجُلًا كَانَ قَبْلَكُمْ رَغْسَهُ<sup>(١)</sup> اللَّهُ مَا لَا، فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حُضِرَ: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرُ أَبٍ. قَالَ: فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَإِذَا مِتُّ؛ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللَّهُ - عز وجل -، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ»<sup>(٢)</sup>.

ففي هذا الحديث:

أَنَّ مَنْ مَلَأَ الْخَوْفَ مِنْ عَاقِبَةِ ذُنُوبِهِ قَلْبَهُ، وَخَافَ مَقَامَ رَبِّهِ حَقَّ الْخَوْفِ، وَعَلِمَ اللَّهُ صِدْقَهُ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ تُرْجَى رَحْمَتُهُ.

فالحمد لله الرحيم الرحمن على فضله ونعمه ورحمته، وعلى باب التوبة مفتوح لا ينغلق إلا إن غرغرت الروح.

وتذكر دائماً أن «للتوبة أركان: الندم على ما وقع، والعزم على ألا تعود،

(١) الرَغْسُ: السَّعَةُ في النعمة والبركة فيها.

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٨) ومسلم (٢٧٥٧).

والإقلاع عن المعصية، فإن تعلّقت بآدمي توقف على استحلاله منه، وهي فرض على الإنسان إجماعاً في كل وقت وأن، ومن كل ذنب أو غفلة أو تقصير في كمال، وما منّا أحدٌ خلا من ذلك بالقلب والجوارح واللسان، وأصلها الرجوع، وعلامتها حسن الحال، وصدق المقال، وخلق الله لها في الحال، وتجب في الحرام، وتستحب في المكروه، وتوبة الزهاد عن الشهوات، والمقربين عن الشبهات، فمن لطفه بنا توبةٌ من قبلنا بالقتل بالمحدد، وتوبتنا بإظهار الندم والتجلّد، وتلك في لحظة، وتوبتنا مستمرة والله الحمد.

وفي التوبة والاستغفار معنى لطيف؛ وهو استدعاء محبة الله - كما سلف -، لا جرم جرى عليها السلف والخلف، والأنبياء أكثرها منها ومن الأوبة والإنابة في كل حين، والبراءة من الخوبة استدعاء للمحبة، والاستغفار في معنى التوبة؛ قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [التوبة: ١١٧]، ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]»<sup>(١)</sup>.

وعياذاً بك اللهم من اغترارٍ بحلمك، ومن طمع كطمع المفاليس في عفوك. فيا عبدالله! في الخلوة مع الله لا تحتاج إلى حجزٍ ميعادٍ مُسبق، فكلُّ الأوقات لك.

ويا عبدالله! في دعاء الله كرّر حاجتك ما شئت، فإذا ملّ البشرُ الإعادة فإنَّ الله لا يملُّ سماعك.

ويا عبدالله! في خلوتك بالله لا أحد يُعجلُك، ولا أحد يطلبُ منك المُغادرة لأنّك طوّلت في اللقاء، بل كلّما أطّلت كنت أقرب إلى ربك.

---

(١) «التوضيح» (٢٠٢ - ٢٠٣) لابن الملقن.

ويا عبدالله! لا عليك في خلوتك بالله لو دَمَعَتْ عيناك وحَشَرَجَتْ  
وتَلَعَمَتْ، فَإِنَّ الانكسارَ له والتذللُ بين يديه هو القوَّة والعزُّ.

ويا عبدالله! بُحْ بها شئتَ، واعترف بها شئتَ، فَإِنَّكَ إِذَا خَلَوْتَ بِرَبِّكَ بَيْنَ  
يَدَيِ السَّيِّئِ الَّذِي لَا أَحَدَ يَحِبُّ العُدْرَ أَكْثَرَ مِنْهُ.

قال ابن القيم: «فليس للعبد إِذَا بُغِيَ عَلَيْهِ وَأُذِيَ وتسلَّطَ عَلَيْهِ خصوصُهُ؛  
شيءٌ أنفع له من التوبة النصوح.

وعلامةُ سعادته: أَنْ يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل  
بها وبإصلاحها والتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغٌ لتدبُّر ما نزل به، بل يتولَّى هو التوبة  
وإصلاح عيوبه، والله يتولَّى نُصْرَتَهُ وحِفْظَهُ والدَّفْعَ عنه ولا بُدَّ.

فما أسعده من عبدٍ!

وما أبركها من نازلةٍ نزلت به!

وما أحسن أثرها عليه!

ولكنَّ التوفيق والرُّشد بيد الله، لا مانع لما أعطى، ولا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، فما  
كُلُّ أَحَدٍ يُوفِّقُ لهذا، لا معرفةً به، ولا إرادةً له، ولا قدرةً عليه، ولا حَوْلَ ولا قوَّةَ  
إِلَّا بِاللَّهِ»<sup>(١)</sup>.



---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٧١).

## الختام

قال عمر بن ذر: «يا أهل معاصي الله! لا تغتروا بطول حلم الله عنكم، واحذروا أسفه<sup>(١)</sup>، فإنه قال - جل من قائل -: ﴿فَلَمَّا أَصَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]»<sup>(٢)</sup>.

وقال الفضيل بن عياض: «تفكروا واعملوا من قبل أن تندموا، ولا تغتروا بالدنيا، فإنَّ صحيحها يسقم، وجديدها يبلى، ونعيمها يفنى، وشبابها يهرم»<sup>(٣)</sup>. وإن لم تعزم الآن على التوبة وإصلاح نفسك؛ فقد قدّمت لك ما أرجو أن يكون رادعاً لي ولك - أخي في الله - عن كل تفريط وإهمال، فقد هدانا ربنا النجدين، وبين السبيلين، وليس لأحد أن يستنكر إلباسه ثوباً في العاقبة غزله على مغزله، ولا أن يستوحش داراً بناها بيديه.

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها  
فأول راضٍ سُنّة من يسيرها

(١) أي: غضبه.

(٢) «تاريخ دمشق» (٤٥/٢٢).

(٣) «الزهد الكبير» (١٩٧/١) للبيهقي.

آخره، والحمد لله رب العالمين.  
وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا مُحَمَّدٍ، وآله وصحبه أجمعين.



## أسئلة وأجوبة حول الذنوب والتوبة منها<sup>(١)</sup>

السؤال الأول: شيخ بارك الله فيك، كيف يتخلص الإنسان من معاصي الخلوات؟

الجواب: أخرج ابن ماجه<sup>(٢)</sup> من حديث ثوبان - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَلَّمَنَّا أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي، يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فيجعلها الله - عز وجل - هباءً منثورًا».

قال ثوبان: يا رسول الله! صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ!

قال: «أَمَّا إِيَّاهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمَنْ جَلَدَتْكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا».

أسباب الثبات، وأسباب وجود لذة الطاعة وحلاوة الإيمان، بل سبب الخير كله في هذه الدنيا هو أن يكون ظاهر الإنسان كباطنه، وأن يكون حاله في الخلوات

---

(١) تم اختيارها من (مجالس فجر الجمعة) للسؤال والجواب، والتي تنعقد على نحو مستمر منذ نحو عشر سنوات، والحمد لله.

(٢) (٤٢٤٥)، وصححه شيخنا الألباني - رحمه الله - .

كحاله في الجلوات، فَإِنَّ كُلَّ من اقترف الذنوب في الخلوات لا يكتب له الثبات إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، فالله لا يُجَادَع؛ لَأَنَّهُ هو العزيز الحكيم، والعربُ في أمثالها تقول: «من عَزَّ بَزَّ»؛ أي: من غلبَ سَلَبَ، فالله هو القويُّ الغالبُ على أمره، وهو الذي يهدي إلى الاستقامة ويثبت عليها، وإذا شاء فهو الذي يسلبها - أيضًا -.

فهذا الذي هو في خلوته شيطان، وفي جلوته إمامٌ من أئمة المسلمين، طريقه إلى الانتكاسة ولا بدَّ، فَإِنَّ أكثر ما يرفع درجة العبد، ويعزُّه، ويُشعره بقوة نفسه؛ طاعاته في الخلوات، فإذا انعكست حاله نال جزاءه.

والخلاص منها بأنْ تُدْرِكَ أَنَّ نظر الله إليك أسرع من نظرك إلى ما تشتهي، وَأَنَّهُ أَقْدَرُ عليك من قُدْرَتِكَ على ما تشتهي، فتُنْظَرُ إليه نظر الخشية والتعظيم، ثُمَّ تتجنَّب الخلوة أصلاً ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فَإِنَّ الخلوة مع فراغ النفس من معالي الهمم؛ ثُلْمَةٌ في حصن النفس، يدخل منها الشيطان بسهولة، فتجنَّب ذلك.



السؤال الثاني: كيف يأتي انتقام الله إذا اعتدى أحدهم على شرعه بمسائل الحلال والحرام؟

الجواب: هذا شأن الله - تعالى - وحده، وكيفية عقابه ليس اختيارها إلينا ولا العلمُ بها من صفاتنا، فإذا اعتدى إنسانٌ على حكم الله - عز وجل -، فالله - تعالى - يربِّي عباده ويخوِّفهم بما يشاء؛ كما قال: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْزِينًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبا: ١٦]، هذا أرسله

على سبأ، وعلى غيرهم، وقد يرسل على اليهود أو الروافض أو النصارى ولا يقع شيء إلا على وفق حكمته.

طالما المعاصي موجودة، فنحن خائفون على ديننا، وعلى وطننا، فنحن نخاف على بلادنا وأنفسنا ورزقنا وأمننا؛ لأنَّ المعاصي هي التي تُزيل النعم، وتستنزِل النعم.

فالواجب علينا أن نتوب إلى الله، وأن يكون حديثنا وهجيرانا أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلى تبوة، فهذا هو أهم ما نحتاج إلى فقهه الآن، وفي كل وقت.

\* \* \*

السؤال الثالث: نرى في هذه الأيام أنَّ بعض الشباب يكون في ركب المتزمين، ثمَّ إذا به يتقلب فجأة على عقبيه، فأول ما يظهر التقصير من لحيته، ثمَّ سماع الأغاني، ثمَّ ينهار سلوكه بالكلية ويتنكر لالتزامه السابق، فما هي نصيحتكم لهم ولغيرهم؟

الجواب: أولاً أسأل الله التوفيق للجميع، وأسأله الثبات للجميع، وهذا الذي وصفتم من نتائج الغفلة عن دعاء النبي ﷺ: «يا مقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك»، فقد كان النبي ﷺ كثيراً يدعو بهذا الدعاء، وكان شديد اللهج بهذا التضرع إلى الله، ولما سمعه أنس - رضي الله عنه - يكثر منه، قال: يا رسول الله! آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟

قال: «نعم؛ إنَّ القلوب بين إصبعين من أصابع الله، يقلبهما كما يشاء»<sup>(١)</sup>.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه شيخنا الألباني - رحمه الله - .



حينما يغفل الإنسان عن تفقُّد نيَّته وباعثه على العبادة، وعلى الصلاة في المسجد، وعلى قيام الليل، وعلى طلب العلم؛ تصبح هذه الأعمال - التي هي من أجلَّ القربات - تُؤدَّى كأنها أعمال اعتياديَّة لا روح فيها، وكأنَّها لا باعث عليها إلاَّ العادة، حينئذ يذهب بهاؤها، ويتلاشى تأثيرها، ومن مثل هذه الحال تتولَّد الغفلة.

والغفلة - عمومًا - من أشرِّ الأشياء التي تطرأ على صاحب الدِّين وطالب العلم، لكن أن يبلغ الحال إلى أداء العبادة دون أن تتأثر بشيٍّ منها؛ فتجدك تقرأ القرآن ولا تتأثر، وتسبِّح ولا تتأثر، وتكبِّر ولا تتأثر، بل الذي يدعوك - غالبًا - إلى المسجد جارك أو صديقك، ولو لم يدعك لتردَّدت في المجيئ أو تركته؛ فهذه غفلة خطيرة، ونيلٌ عظيمٌ، وحظٌّ وافٍ قد حصَّله الشيطان من قلبك، وهكذا يكون الحال إذا أوصلَكَ إلى حدٍّ أن تكون غافلاً وأنت بين يدي الله تصلِّي له، فهذه بداية الانتكاسة.

ثمَّ تبدأ - أعاذك الله - في استئصال الطَّاعات والنُّفوس منها، ولا تجد لك فيها قلبًا حاضرًا، وحينئذ يسهلُ عليك التخلِّي عن المظاهر، كاللَّحْية ولباس السُّنَّة من قميصٍ أو عمامةٍ ونحوها، بل لشدَّة الانفصام بين ظاهره وباطنه سيعدُّ أن بقاء هذه المظاهر التي كان يعدُّها من أسباب سعادته؛ صارت الآن من أسباب شقاءه وحرمانه، والله المستعان.

ومن نعمة الله علينا أن جعل الله - تعالى - لنا إسنادًا متصلًا بالنبِيِّ ﷺ

---

= ويزيد النَّاس من كيسهم في هذا الدعاء: (والأبصار)، وليست من الحديث، وليست من السُّنَّة في شيء.

وأصحابه - رضي الله عنهم - في الظَّاهر، ونطمعُ في أن يبقى هذا الإسناد متَّصلاً في الباطن كذلك، ونطمع بهذا الحرصِ على التَّأسيِّ الكامل - ظاهراً وباطناً - أن يكون مألُفًا كمالهم - إن شاء الله -، فإنَّنا لا نقدِّم على حُبِّهم حبًّا لأحد.

والشيطان لأنَّه يطمع في أن يصل بك إلى مصيرٍ آخر غير هذا المصير، نسأل الله السلامة، يبدأ بمحاولات التَّلَاعِبِ بباطن الإنسان، فإذا أفسدَه عليه ولم يداوِ الإنسانُ جراحات قلبه، ورضي بالانحدارِ من نقصٍ إلى نقصٍ، انتهى الأمرُ إلى سُلْخِهِ من الظَّاهر الذي كان يظهر به أنَّه من أهل الالتزام، لأنَّ الشيطان يُريهِ أنَّ عليه قيودًا لا يستطيع تحمُّلها، فهذا لا يكون إلا لأنَّ باطنه قد تغيَّر.

فنصيحتي هي الإخلاص، والنيَّات الحسنة، واحتساب الأجر، والصُّحبة الطيِّبة، وأن تتضرَّع إلى ربِّك بأن يثبتك على الإسلام، وأن يميِّتك على الإسلام، فأسأل الله - تعالى - الثبات وحُسن الختام لنا جميعاً.

\* \* \*

السؤال الرابع: هل صحيح أنَّ ذنوب الخلوات تكفِّرُها طاعات الخلوات؟

الجواب: نعم.

الذنوب قسمان: ذنوبُ خلوات، وذنوبُ جلوات.

والإنسانُ مؤهَّلٌ للعافية ما دام لم يجاهر بذنبه؛ لأنَّه ما دام لا يجرؤُ على إظهار ذنوبه ويحمله الحياء على سترها، فذلك يعني أنَّ واعظَ الله في قلبه ما زال حيًّا لم يُمُتْ، ومن جاهر بالمعصية فعليه أن يجاهر بالتَّوبة.

ولابن القيم - رحمه الله - كلماتٌ مهمَّاتٌ تنفع المسلمين لا سيما الشباب

وَالشَّابَّاتِ، مَلَخَّصَهَا وَمَعْنَاهَا أَنَّ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الثَّبَاتِ فِعْلُ الطَّاعَاتِ فِي الْخُلُوتِ، وَمِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الْإِنْتِكَاسَاتِ مَعْصِيَةُ اللَّهِ فِي الْخُلُوتِ.

لَكِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي إِذَا خَلَا بِالْمَعْصِيَةِ غَرِقَ فِيهَا وَلَمْ يَزَجِرْ نَفْسَهُ عَنْهَا، فَهَذَا الَّذِي وُصِفَ حَالُهُ فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَهُمْ الَّذِينَ تَكُونُ لَهُمْ حَسَنَاتٌ عَظِيمَةٌ كَأَمْثَالِ جِبَالٍ تَهَامَةٌ، لَكِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى، الْغَنِيُّ عَنْ عِبَادِهِ - يَجْعَلُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَبَاءً مَثُورًا، لِأَنَّهُمْ اجْتَرَأُوا عَلَيْهِ فِي الْخُلُوتِ، وَلَمْ يَعِظُمُوهُ، وَاسْتَهَانُوا بِنَظَرِهِ إِلَيْهِمْ وَمَرَاتِبَتِهِ لَهُمْ.

وَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ التَّجَارِ، أَنَّهُ دَعَاهُ تَاجِرٌ إِلَى الْإِفْطَارِ عِنْدَهُ فِي رَمَضَانَ، وَالذَّاعِي مُتَصَدِّقٌ، وَمَطْلُوقٌ لِلْحَيْتَةِ، وَمُصَلٍّ، وَيَذْهَبُ لِلْعُمْرَةِ عَلَى نَحْوِ مُسْتَمَرٍّ مُتَكَرِّرٍ، قَالَ: فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْإِفْطَارِ، إِذَا بِهِ قَدْ أَحْضَرَ بَعْضَ الرَّاqَصَاتِ! وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

فَأَيُّ فِهْمٍ مَنكُوسٍ هَذَا؟ رَجُلٌ صَنَعَ وَلِيْمَةً لِّصَائِمِينَ يَبْتَغِي بِهَا الْأَجْرَ، ثُمَّ إِذَا رُفِعَ طَعَامُهُ دَعَاهُمْ وَدَعَا نَفْسَهُ إِلَى الْفَسْقِ؟!

هَكَذَا يَفْعَلُ هَذَا الصَّنْفُ مِنَ النَّاسِ، وَهَكَذَا يَكُونُ الْحَالُ إِذَا كَانَتْ كُلُّ الطَّاعَاتِ ظَاهِرَةً، وَلَكِنْ فِي الْخُلُوتِ يَكُونُ الطَّرِيقُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ مَغْلَقًا، وَالسَّكَّةُ مَهْجُورَةً، فَإِنَّ الطَّاعَاتِ الظَّاهِرَةَ تَصْبِحُ فِي الْآخِرَةِ لَا وَزْنَ لَهَا مَا لَمْ تَنْتَفِعْ بِهَا فِي بَاطِنِكَ، وَيَكُونُ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ فِي السِّرِّ وَالْخُلُوتِ عَامِرًا بِالْخَيْرِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّعْظِيمِ.

وَاللَّهُ - تَعَالَى - أَعْلَمُ.



# الفهارس العامة<sup>(١)</sup>

- \* فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- \* فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- \* فهرس الآثار.
- \* الموضوعات والمحتويات.

---

(١) ما كان أمامه (ت) فهو في الحاشية.



# فهرس الآيات القرآنية الكريمة

رقم الآية	الصفحة
٥	٣٦٢
	سُورَةُ الْفَاتِحَةِ
١٤ - ١٥	٢٣١
٤٥	٣٤٩
٨١	١٤٢
٨٥	٢٧٨
١١٢	٣٩
١٢٤	٢٢٧٦، ٢٧٥٠، ٢٢٧
١٢٥	٢٢٧
١٤٦	١٦٨
١٥٣	٣٤٨
١٥٩ - ١٦٠	١٨١
١٦٨	٨٦

رقم الآية	الصفحة
١٨٧	١٢٦
٢١٣	٢٤٣
٢٢٢	٣٧٤
٢٦٨	٨٦
٢٧٦	٢٨٢
٢٧٨-٢٧٩	٢٨١
٢٨٢	١٧٥
سُورَةُ الْعَمَلِ	
٣-٤	٣٤٣
٧	٥١
٧٧	٢٢٧
١٠٢	٢٤٣، ٩
١٠٣	٤٨، ٤٧
١٠٦	١٢٦
١٣٥	٣٣٨
١٣٧-١٣٨	١٠٣
١٣٩	٣٣
١٥٥	١٤٢
١٦٠	٣٠
١٦٥	٢٨٠، ١١٠
١٧٣-١٧٥	٣٧

رقم الآية	الصفحة
١٨٠	٢١٨
١٨٣	٢٢٧، ٢٢٥
١٨٧	٢٢٦
	سُورَةُ النِّسَاءِ
١	٩
٩	٥٩، ٥٨، ٥٧
١٧	٦٦
٢٦	١٠٣
٤٠	١١١
٤٨	٣٨١
٥٨	٢٠٩
٥٩	٢٤٢
٦٥	٢٤٢، ٢٣٧
٧٦	٩٨
٩٣	٢٨٥
١٠٩ - ١٠٧	١٩٩
١٢٠ - ١١٧	٨٧
١٢٣	٢٨٠، ١٠٨
١٤١	٣٤
١٤٢	٢٣١، ١٩٩
١٥٥	١٤٢



رقم الآية	الصفحة
-----------	--------

## سُورَةُ التَّائِيَةِ

٣١٨	٢
١٧٥	١٣
٢٧٣، ٤٨	١٤
٣٤٣	١٦-١٥
٢٨٤	٣٢
١٠٠	٣٨
٣٢٩، ٤٠	٦٦-٦٥
٤٩	٧٥
٣٤٥، ٢٨٨	٩١-٩٠

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٦٥	٣٣
٥٤	٦٥
٣٦	٨٢-٨٠
١٤٢، ٦٨	١١١-١١٠
٢٤٠	١٤٠
١٨٩	١٥١
٢١٣	١٦٤

## سُورَةُ الْأَعْرَافِ

١٢٣	١٢
٩٤	٢٠

رقم الآية	الصفحة
٢٦	١٢٦
٥٦	٣٣٨
٩٦	٣٢٩، ٤٠
١٣٨	٦٨
١٥٢	٢٤٠
١٦٦	١٠٠
١٧٥-١٧٦	١٧٥
١٩٦	٦٠
٢٠١	٣٧٤
<b>سُورَةُ الْأَنْعَامِ</b>	
٢-٤	١٦٦
٩	٣٣
٢٥	٣٢٨، ١٨٦
٢٩	١٧٩
٣٨	١٠٨، ١٠٣
٤٨	٩١
٥٣	١١٨، ١١٠
٥٨	٢٣٢
٦٢-٦٣	٤٦، ٤٥
٦٤	٣٣
٧١	٢٣١

## سُورَةُ التَّوْبَةِ

٢٢٦	٧
١٥٤	١٧
٢١٦	٣٥-٣٤
١٤٢	٧٧-٧٥
٢٣١	٧٩
٢٥٤	١٠٠
٢٢٧	١١١
٣٨٣	١١٧
٣٧٣	١١٨
٦٥	١٢٨

## سُورَةُ لُؤْلُؤِ

٢٤٣	١٩
٣٠١	٢٣-٢٢
٣٤٣، ٢٤٦	٥٧
٢٣٨	٥٨

## سُورَةُ هُودٍ

٢٠٦	١١-٩
٦٨	٢٩
٣٣٨	٩٠

رقم الآية	الصفحة
١١٢	١٦، ١٢، ١١
١١٦-١١٧	٣٢١، ٣٢٠
<b>سُورَةُ يُسُفٍ</b>	
٥٣	٧٩
٨٩	٦٨
٩٠	١٩٨، ٢٢
١٠٥-١٠٩	١٠٥
١١١	١٠٢
<b>سُورَةُ الزُّمَرِ</b>	
١١	١١٨، ١١١
١٣	١٢٩
٢٥	٣٠٢
<b>سُورَةُ الزَّحٰرِ</b>	
٢٧	٣٤٠
<b>سُورَةُ الْحٰجِّ</b>	
١٠-١١	١٠٤
٣٩	٩١
٤٠	٣٦٤
٤٢	٣٦٣

رقم الآية	الصفحة
-----------	--------

## سُورَةُ الْحَٰكِمِ

٢٤٦	٨٩
٤٠	٩٧
١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨	١١٢

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١١٢	٧
١١٢	٨
٢٤٦	٩
٣٢٩، ٢٢٣	١٦-١٧
١٩١	٣١-٣٣
٢٢٧	٣٤
٣٥٧	٣٦
٣٥٧	٣٧
٣٥٧	٥٣
٣٨٨	٥٩
١٠٤	٧٦-٧٧
٣٤٣	٨٢
١٢٩	١٠٠

## سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

٧٥	٢٨
----	----

رقم الآية	الصفحة
٣٦	٢٠٦
٤٦	٥٧
٤٩	٣٣٤، ٣٢٦
٥٠	٨٦
٨٢	٦١، ٦٠
	<b>سُورَةُ صُرَّتِ</b>
٨	١٥١
٥٩	٣٥١
	<b>سُورَةُ طٰهٍ</b>
١٦-١٥	٧٥
٨٢	١٥٨
١١٥	٢٢٧، ١٣٧
١٢٠	٩٤
١٢٧-١٢٩	١٠٥
	<b>سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ</b>
٣-٢	٣٦٧
١٠	٣٦٩، ٣٦٨، ٣٦٧
١٥-١١	٢٢٣، ٢٢٢، ٢٢١
٢٥	١٦٧
١١١	٥٥
١٠٧	٦٥

الصفحة	رقم الآية
<b>سُورَةُ الْحَاجِّ</b>	
٣٣	٣٨
٣٠	٤٠-٤١
٨٦	٤٦
<b>سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ</b>	
٨٤	٥-٧
<b>سُورَةُ النُّورِ</b>	
٣٠٣	٤-٥
٣٣٤	١٥
١٩٧، ٨٨	١٩
٣٥٧	٣٠
١٧	٣١
٨٥	٣٩
٢٤٣، ٢٦، ٢٥	٤٧-٥٤
٣٨	٥٥
١٤٢	٦٣
<b>سُورَةُ الْفُرْقَانِ</b>	
١٩١	٦٨-٦٩
<b>سُورَةُ النَّازِعَاتِ</b>	
١١٣	٢٢

رقم الآية	الصفحة
٥٤ - ٥٥	٦٨
<b>سُورَةُ الْقَصَصِ</b>	
٥٠	٧٥
٥٧	٩٣
٧٦ - ٧٧	١١٩
٧٨ - ٨١	١٢١ ، ١٢٣
<b>سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ</b>	
٤٠	١٣٠
٤٥	٣٤٩ ، ٣٥٠
٥١	٢٤٦
<b>سُورَةُ الشُّرُوحِ</b>	
٨ - ١٠	١٠٥
٣٦ - ٣٧	٢٠٣
٤١	٤٤ ، ١١٠
٤٧	٣٠
<b>سُورَةُ الْقِسَافَةِ</b>	
١٥	٢١٠
<b>سُورَةُ النَّجْمِ</b>	
٢١	١٢٧



رقم الآية	الصفحة
٢٤	١٧٢
٢٦	١٠٥
<b>سُورَةُ الْاِنْشَارِ</b>	
١٥	٢٢٦
٢٣	٢٢٦
٣٧	١١
٣٨	١٠٨
٤٦-٤٥	٦٥
٥٠	١١
٦٢-٦٠	١٠٤
٧٠	٣٥٧
٧٢-٧١	٧٩، ٩
<b>سُورَةُ النَّازِعَاتِ</b>	
١٣	١٢٥
١٧-١٥	١١٣، ١١٤، ١١٥،
	١١٦
١٦	٣٨٨
١٨	١١٦
١٩	١١٧، ١١٨

رقم الآية	الصفحة
<b>سُورَةُ طه</b>	
٣-٢	١٢٨
٦	٨٦
٨	١٥٠
٢٨	٦٧
٣٤	٣٣٥
٤٢-٤٣	١٠٤
<b>سُورَةُ التَّيْنِ</b>	
١٢	٢٣٩، ٢١١
٦٥-٦٠	٢٢٧، ٢٢٥، ١٦٢
<b>سُورَةُ الْكَافِرِ</b>	
٤٢	٣٠٠، ٢٢٢
٤٦	٣٣٦
٦٢	٢٠٦
٨٣	٩٢
<b>سُورَةُ الزُّمَرِ</b>	
٣٧-٣٦	٣٧، ٣٦
٦٤	٦٨
<b>سُورَةُ غَافِرٍ</b>	
٥١	٣٤، ٣٠

رقم الآية	الصفحة
٨٣-٨٥	١٠٤
<b>سُورَةُ فَصَّلَاتٍ</b>	
٧-٦	١٨، ١٦، ١٢
٢٣-٢٠	١٦٢
٣٢-٣٠	٢١، ٢٠، ١٩
٤٤	٣٤٣
٤٩	٢٠٤
٥٠	٢٠٦
<b>سُورَةُ الشُّورَى</b>	
٣٠	٢٨٠، ١٧٥، ١١٠
٤٨	٢٠٦
<b>سُورَةُ الزُّحُورِ</b>	
١٣	١٢٢
٤٤	٣٦٨
٥١	١٢٣
٥٥	٣٨٥، ١٠٠
<b>سُورَةُ الدُّخَانِ</b>	
٤٩	١٢٦
٥٦	١٢٧

رقم الآية	الصفحة
	<b>سُورَةُ الْاِشْرَاقِ</b>
٢٣	٧٥
	<b>سُورَةُ الْاِخْلَاقِ</b>
١٥	٦١، ٦٠
٣٥	١٣٧
	<b>سُورَةُ مُحَمَّدٍ</b>
١	١٤٢
٤	١٤٨
٩-٧	٣٠، ٢٩، ٢٨
	<b>سُورَةُ الْفَتْحِ</b>
١٥	٣٧٣ ت
٢٣-٢٢	١٠٤
	<b>سُورَةُ الْحَجَرِ</b>
٢	١٤٥
٣	٨٤
١١	١٧
	<b>سُورَةُ الْاَنْعَامِ</b>
٥	٥٣
١٨	١٩٤
٣٧-٣٦	١٠٦

الصفحة	رقم الآية
<b>سُورَةُ الطُّورِ</b>	
٣٣٤	٢٨-٢٥
<b>سُورَةُ النُّجُومِ</b>	
٢٣٧	٤
٢٠٥	٢٢
<b>سُورَةُ الْقَمَرِ</b>	
١٢٧	٤٨
٣٣٤	٥٣-٥٢
<b>سُورَةُ الْحَاشِيَةِ</b>	
٢٣٣	٢
٢٥٥	٧
٢٥٤، ٢٣٤	٨
٢٥٤، ٢٣٤	٩
٢٥٤، ٢٣٤	١٠
٣٥٧، ٣٥٤	١٨
٣٤٧، ١٤١	١٩
<b>سُورَةُ الصَّفِّ</b>	
١٧٥، ١٤٢	٥
٣٤	١٤

رقم الآية	الصفحة
	سُورَةُ الْجُمُعَةِ
٢	٧٩
٥	١٧٩
	سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ
٨	٣٣
	سُورَةُ التَّغَايُنِ
١٦	٢٤٣
	سُورَةُ الطَّلَاقِ
٣	١٥٣
	سُورَةُ الْقَلْبِ
١١ - ١٠	٣١٠
٣٣ - ١٧	٢١٩
	سُورَةُ الْحَاقَّةِ
١١	١٥١
	سُورَةُ الْمَعَارِجِ
٢١	٢٢٠
	سُورَةُ نُوحٍ
١٢ - ١٠	١٣٩، ١٣٨

رقم الآية	الصفحة
سُورَةُ الْحَاقَّةِ	
١٦	٣٢٩، ٢١
سُورَةُ الْقِيَمَةِ	
١٣	٢١١
سُورَةُ النَّازِعَاتِ	
١٠	١٢٦
٢٥-٢٤	١٢٧
سُورَةُ النَّارِ	
٤١-٣٧	٣٥٤، ٨٠
سُورَةُ الشُّعَرَاءِ	
١٠-١	٨٦
١٥	٣٣١
سُورَةُ النَّازِعَاتِ	
١١-٨	٢١٨
سُورَةُ الشُّعَرَاءِ	
٣-٢	١٤٨
سُورَةُ الْعَصَّةِ	
٢	٢٠٧

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

٣٨٣

٣







# فهرس الأحاديث النبوية الشرففة

## مرتبة على الحروف

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
الألف		
أمرك بـ (لا إله إلا الله)، فإن السَّماءات السَّبْع	-	١٣٩
أبوء لك - أي: لله - عزَّ وجلَّ - بنعمتك علي	-	١٢٢
اجتنبوا هذه القاذورة	-	١٩٧
أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك	-	٢٣٢
إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران	-	٢٤٤
إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس	-	٢٤٧
أرايتم لو أن نَهْرًا بباب أحدكم	أبو هريرة	٣٥١
استحيوا من الله حق الحياء	-	٧٨
أشدُّ النَّاس عذابًا يوم القيامة	-	١٧٨
أصلح لي شأني كلَّه	-	٣٣
اغفر لي جدِّي وهزلي	أبو موسى الأشعري	١٢٣
أفضل الجهاد أن تُجاهد نفسك وهواك	-	٧٦
الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! الحمد لله الذي	عبدالله بن عباس	٩٨

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
اللهم! اغفر لي خطيئتي وجهلي	أبو موسى الأشعري	١٢٤ ت
اللهم! ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل	عائشة	٢٤٣
اللهم! طهّرني من خطاياي بالماء والثلج	-	٣٦٤
اللهم! من وليّ من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم	عائشة	٢١٤
اللهم! هو- أي: خالد بن الوليد - سيفٌ من	أبو قتادة الأنصاري	٢٥٣
إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة، وما هي	عوف بن مالك	٢١٤
إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم	أبو هريرة	١٦١
إنَّ الإيَّان قيّد الفتك، لا يفتك مؤمنٌ	-	١٦٤
إنَّ الرَّجل ليكون له المنزلة عند الله	-	٣٧٢
أنَّ رجلاً سأل النبي ﷺ ما سبأ؟	فروة الغطفاني	١١٣ ت
أنَّ رجلاً كان قبلكم رَعَسه الله مالا	أبو سعيد الخدري	٣٨٢
إنَّ الشَّمس والقمر من آيات الله	عائشة	١٨٨
إنَّ عبداً أصاب ذنباً	أبو هريرة	٣٧٥
إنَّ مَسْحَهُما - أي: الرُّكنين - كفَّارة للخطايا	عبدالله بن عمر	٣١٣
إنَّ الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم	-	٢٤٧
إنَّ مما أخشى عليكم؛ شهوات الغيِّ في	أبو برزة الأسلمي	٧٥
إنَّ النَّاسَ نزلوا مع رسول الله ﷺ على	عبدالله بن عمر	٣١٥
إنَّما مثلي ومثل النَّاس كمثل رجل	-	٦٤
إنَّه - أي: الخمر - ليس بدواء، ولكنه داء	طارق بن سويد الجعفي	٢٩٤
إنَّه لم يكن نبيُّ قبلي إلا كان حقاً عليه	-	٦٤

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
إنَّهَا صَلَاةٌ رَغِبٍ وَرَهَبٍ	معاذ بن جبل	٢٧٢
أنهلك وفينا الصالحون؟	زينب بنت جحش	١١١
الإيمان بضعٌ وسبعون شُعبة	-	١٥٤
إِيَّاكُمْ وَمَحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ	-	٨٨، ٨٩، ت،
		٣٣٤
أَيُّمَا رَاعٍ اسْتُرْعِيَ رَعِيَةً فَغَشَّاهَا	معقل بن يسار	٢١٤
أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّقُوا اللَّهَ وَاجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ	-	٤١، ٤٢
الباء		
بينما رجل يمشي قد أعجبته جمته وبرداه	-	١٢٢
البيعان بالخيار ما لم يتفرقا	-	٣٠٤
التاء		
التائب من الذنب كمن لا ذنب له	-	٣٧٤
تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة	عبدالله بن عباس	٢١
تُعرض الفتن على القلوب كالحصير	حذيفة بن اليمان	١٥٩
الثاء		
ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان	-	١٢٧
ثلاثةٌ لا يكلمهم الله - عزَّ وجلَّ - يوم القيامة	أبو هريرة	٢١٤
الجيم		
جاء ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ فسألوه	أبو هريرة	٩٨
الحاء		
الحمد لله، نستعينه ونستغفره	-	٨٠

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
الحاء		
خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة	عبدالله بن عباس	٣١١
الدال		
دعانا النبي ﷺ فبايعناه	عبادة بن الصامت	٢٧٥ ت
دعوا لي أصحابي!	أنس بن مالك	٢٥٢
الذال		
ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا	-	١٢٧
الراء		
رأيتُ الليلة رجلين أتياني فأخرجاني	سمرة بن جندب	٢٨٢
ربِّ اغفر لي وتب علي	-	١٧
السين		
سُئِلَ النبي ﷺ عن الوسوسة	عبدالله بن مسعود	٩٨
سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر	-	١٦٤
سدّدوا وقاربوا وأبشروا	-	١٦
الصاد		
صلى رسول الله ﷺ صلاةً فأحسن فيها	معاذ بن جبل	٢٧٢
صنفان من أهل النار لم أرهما	-	٣١٩
الضاد		
ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً	النّوّاس بن سمعان	١٥
العين		
عبث رسول الله ﷺ في منامه	عائشة	٣٢٧

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
العجب! إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤْمِنُونَ بِالْبَيْتِ	عائشة	٣٢٧
العلم بالتَّعَلُّمِ	-	١٨٠
عليكم بالصَّدَق؛ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ	عبدالله بن مسعود	٣٠٣
الفاء		
فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ	سمرة بن جندب	٣٠٤
فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ	-	٢١٣
فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْإِسْلَامُ	النَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ	١٥
فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ	-	٢٣٥
فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسَفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ	عمران بن حصين	٢٩٧
فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ	أبو هريرة	١٣٣
القاف		
قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: مَنْ تَرَكَ الْخَمْرَ وَهُوَ	-	٢٩٩
قَتَلَ الْمُؤْمِنَ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا	-	٢٨٧
الْقُرْآنَ حِجَّةً لَكَ أَوْ عَلَيْكَ	-	٣٦٨
قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِم	-	١٩ ت
قُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِم	-	١٩
الكاف		
كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ	أبو سعيد الخدري	٣٨٠
كُلَّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمَجَاهِرِينَ	أبو هريرة	١٩٦
الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنْ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ	-	٤٣

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
اللام		
لا إله إلا الله! ويل للعرب من شرّ قد اقترب	زينب بنت جحش	٣٢٨
لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين	عبدالله بن عمر	٣١٥
لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم	عبدالله بن عمر	٣١٤
لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق	أبو سعيد الخدري	٢٥٢
لا تُصَرُّوا الإبل والغنم	أبو هريرة	٢٦٤ ت
لا يدخل الجنة نّام	-	٣١١
لا يزال المؤمن في فسحة من دينه	-	٢٨٦
لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن	-	١٦٣، ٢٩١
لا يُصلِّينَ أحدكم العصر إلا في بني قريظة	-	١٠٧ ت
لا يُقتل مؤمنٌ بكافر	-	٢٢٩
لأعلمنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة	ثوبان	٣٨٧
لعن رسول الله ﷺ أكل الربّا	جابر بن عبدالله	٢٨٢
لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة	أنس بن مالك	٢٨٨
لم تظهر الفاحشة في قوم قط	عبدالله بن عمر	١٨٥
لو أن ابن آدم هرب من رزقه	-	٤٢
لو أن أهل السّماء وأهل الأرض اشتركوا	-	٢٨٧
لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله	عمر بن الخطاب	٤٠
لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً	-	٣٣٤
ليس الخبر كالمعاينة	عبدالله بن عباس	١٧١
ليس شيءٌ أطيع الله فيه أعجلُ ثواباً	-	٣٠٨

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
ليست السنة بأن لا تمطروا	-	٢٠٢
ليكوننَّ من أمتي أقوام يستحلُّون الحرَّ	-	٢٩٧
الميم		
ما أحدُّ أكثرَ من الرِّبَا إلَّا كان عاقبة أمره	-	٢٨٢
ما ظهر في قوم الرِّبَا والزَّنا إلَّا أحلوا بأنفسهم	-	٣٢٦
ما من إمام يُغلق بابه دون ذوي الحاجة	عمرو بن مرة	٢١٥
ما من أمير عشرة؛ إلَّا يُؤتَى به يوم القيامة	أبو هريرة	٢١٥
ما من ذنب أجدر أن يُعجِّل الله لصاحبه	-	٣٠١
ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها	-	٢١٦
ما من عبدٍ مؤمنٍ إلَّا وله ذنب يعتاده	عبدالله بن عباس	٣٧٤
ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي	جرير بن عبدالله	٣٢٧
ما من نفسٍ تُقتل ظلماً	-	٢٣٩
مالي وللدنيا؟! ما أنا إلَّا كراكب	-	٢٢
المؤمن مألوفة، لا خير فيمن لا يألف	-	٤٥
مَثَلِي ومثل ما بعثني الله، كمثـل رجل أتى قومًا	-	٦٤
مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابد وثن	عبدالله بن عباس	٢٩١
مستريحٌ ومستراحٌ منه	الحارث بن ربيعي	١٨٦
من أخذ شبرًا من الأرض ظلماً	سعيد بن زيد	٣٠٦
من ارتدَّ عن دينه، فاقتلوه	-	٢٠
من اشترى شاةً مُصرَّاةً فليقلب بها فليحلبها	أبو هريرة	٢٦٤
من بدَّل دينه، فاقتلوه	-	٢٢٠



طرف الحديث	الراوي	الصفحة
من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها	عبدالله بن مسعود	٢٢٦
من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات	-	٢٢٩
من سُئل عن علم فكتمه، ألجمه الله	أبو هريرة	١٨١
من ستر مسلماً في الدنيا، ستره الله - عز وجل -	-	١٩٧
من سنَّ سنةً حسنة	-	٢١٠
من سيّدكم يا بني سلمة؟	جابر بن عبدالله	٢٢٠
من شرب الخمر فلم يَتَنَشَّ	-	٢٩١
من شرب الخمر في الدنيا لم يشر بها	عبدالله بن عمر	٢٩٦
من عمل عملاً ليس عليه أمرنا	-	٢٤١ ت
من قال: لا إله إلا الله؛ نفعته يومًا	-	١٦٨، ١٦٩
من قتل معاهدًا؛ لم يَرَحْ رائحة الجنة	-	٢٢٩
من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله	-	١٦٧

### النون

نزل الحجر الأسود من الجنة	عبدالله بن عباس	٣١٣
نعم؛ إنَّ القلوب بين إصبعين من أصابع الله	أنس بن مالك	٣٨٩

### الهاء

هل رأى أحدٌ منكم من رؤيا؟	سمرة بن جندب	٣٠٤
هو - أي: القرآن - حبل الله المتين	علي بن أبي طالب	١٥

### الواو

وأمركم بذكر الله - عز وجل - كثيرًا	الحارث الأشعري	٣٤٥
والله! لا يؤمن، والله! لا يؤمن، والله!	-	١٦٣

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
والذي نفس محمد بيده! ما تواذَّ اثنان	عبدالله بن عمر	٥٦
وأما الرجل الذي أتيت عليه	سمرة بن جندب	٣٠٥
وإنَّ أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله	بلال بن الحارث	٢٣٩
وذمة المسلمين واحدة	-	٢٢٩
ومن يستعفف يُعِفِّه الله	-	٣٧١
ويلٌ للذي يُحدِّث بالحديث ليُضحك	جدبَّز بن حكيم	٣٠٥

### الباء

يا أبا ذر! إنَّك ضعيف، وإنَّها - أي: الإمارة -	أبو ذر الغفاري	٢١٤
يا أنجشة! رويدًا رفقا بالقوارير	-	١٩٣
يا أيها النَّاس! توبوا إلى الله	أبو هريرة	١٧، ١٧، ت، ١٨
يا حي قيوم! لا إله إلا أنت	-	٣٣
يا رسول الله! كيف يُخسَف بأولهم وآخرهم	عائشة	٣٢٧
يا معشر من آمن بلسانه	أبو برزة الأسلمي	٣١١
يا معشر المهاجرين! خَسُّ إذا ابتليتم	عبدالله بن عمر	١٨٣، ١٨٥
يا مُقَلَّب القلوب! ثبت قلبي على دينك	-	٣٨٩
يأتي المقتول مُعلَّقاً رأسه بإحدى يديه	عبدالله بن عباس	٢٨٦
يُقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن	أبو هريرة	٦٩





# فهرس الآثار مرتبة على القائلين

الصفحة

طرف الأثر

## الألف

إبراهيم بن أدهم

٣٧٨

أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان

إبراهيم بن ميسرة

٢٤١ ت

من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام

إبراهيم التيمي

١٥٨

ما عرضتُ قولي على عملي؛ إلا خشيتُ

٣٥٦

مثَّلتُ نفسي في الجنة؛ أكل ثمارها

٣٣٥

ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف

إبراهيم النخعي

١٦٥

تركْتُ المرجئةُ الدينَ أرقَّ من ثوب سايري

١٦٤

لَفَتَنَتِ المرجئةُ على هذه الأُمَّةُ أخوفَ عندي

أنس بن مالك - رضي الله عنه -

٣٣٤

إنَّكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعْيُنكم

٣٥٦

سمعتُ عمر بن الخطاب - وخرجتُ معه حتى دخل حائطاً -

طرف الأثر	الصفحة
كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف كلام الأوزاعي	٢٥٢
كان يحيى وقتادة يقولان: ليس من الأهواء شيء أخوف من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام الباء	١٦٥ ٢٤١ ت
البراء بن عازب - رضي الله عنهما -	
صَدَقَ - أي: عبدالله بن مسعود - ! أما سمعتَ بقول الله بلال بن سعد	٢٠٩
عباد الرحمن! إِنَّ العبد ليقولُ قولَ مؤمن الجحيم	١٥٨
جابر بن سمرة - رضي الله عنه -	
شكا أهل الكوفة سعدًا إلى عمر - رضي الله عنه - فعزله	٣٠٦
جبير بن نفير - رضي الله عنه -	
لَمَّا فُتِحَتْ مدائنُ قُبرس؛ وقع النَّاسُ يَقتسمون السَّبي الجراح بن عبدالله الحكمي	٢٣٢
إِنَّ أَهْلَ خُرَاسانِ قومٌ ساءت رعيَّتُهُم	٣٩
تركْتُ الذُّنوبَ حياءً أربعين سنة	٣٥٩
جعفر بن برقان	
قلتُ لرجلٍ من أهل البصرة: كيف لا يشتهي أحدُنا أَنَّهُ جعفر بن محمد الصادق	٨١ ت
سُئِلَ: لم حرَّم الله الرُّبَا؟	٢٨٣

جندب بن عبدالله البجلي - رضي الله عنه -

٢٨٧ إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنْتَنَ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ

الجُنْدِ

١٣٨ لَوْ أَقْبَلَ صَادِقٌ عَلَى اللَّهِ أَلْفَ عَامٍ

الحاء

حذيفة بن اليمان - رضي الله عنهما -

١٥٦ الْإِسْلَامُ ثَمَانِيَةُ أَسْهُمٍ

٢٧ مَنْ أَرَادَ أَنْسًا بِلَا جَمَاعَةٍ، وَعِزًّا بِلَا عَشِيرَةٍ

الحسن البصري

٦٢ إِذَا رَأَيْتَ فِي وَلَدِكَ مَا تَكْرَهُ، فَأَعْتَبْ رَبَّكَ

١٥ اسْتَقَامُوا - أَيُّ: أَهْلُ الْإِسْتِقَامَةِ - عَلَى أَمْرِ اللَّهِ فَعَمِلُوا بِطَاعَتِهِ

٣٥٩ أَمَا وَاللَّهِ! لَنْ تَدْقُقَتْ بِهِمُ الْهَمَالِجُ، وَوُطِئَتْ الرِّجَالُ أَعْقَابَهُمْ

١٥٧ إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ

٣٥٦ إِنَّهَا الدُّنْيَا حُلْمٌ، وَالْآخِرَةُ يَقْظَةٌ

١٩٩ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ لَا يَتَحَاشَى مِنْ مَعْصِيَةٍ

١٣٩ شَكَا إِلَيْهِ رَجُلٌ الْجَدْبَ، فَقَالَ لَهُ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ

١٧٦ عَقُوبَةُ الْعَالَمِ مَوْتُ الْقَلْبِ

٥٤ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاقِدُ رُغْلًا أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ هِيَ فِي أَهْلِ الصَّلَاةِ

١٨٠ قِيلَ لَهُ: نَرَاكَ طَوِيلَ الْبُكَاءِ!

٨١ مَا أَعْلَمُ هَذَا - أَيُّ: التَّوْبَةُ بَعْدَ الذَّنْبِ - إِلَّا مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ

٧٤ مَا ضَرَبْتُ بِبَصْرِي، وَلَا نَطَقْتُ بِلِسَانِي، وَلَا بَطَشْتُ بِيَدِي

١٨ مَرَحَبًا بِمَنْ يَحْمِلُ زَادِي إِلَى الْآخِرَةِ

الصفحة	طرف الأثر
١٧٦	من أفرط في حب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه
١٤٤	من عمل حسنة وإن صغرت أورثته نورًا
٢٧٦	والله! ما يستقيم الدين إلا بهم - أي: الأمراء -
٣٤٥	والله! يا ابن آدم! لئن قرأت القرآن ثم آمنتَ به
٨١ ت	ودَّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه - أي: ترك الاستغفار -
	الحسن بن صالح
١٧٣	إنَّكَ لا تفقه حتى لا تبالي في يدَي مَنْ كانت الدنيا
	الحسن بن علي - رضي الله عنهما -
٥٥	أما بعد: إنَّ كل ما هو آتٍ قريب
٥٥	إنَّ أكيس الكيس التَّقَى
٥٥	لا تَقُلْ ذاك يا أبا عامر! لستُ بمُذِلِّ المؤمنين
	الحسين بن أحمد الهروي
٢٧	سمعتُ الشبلي يقول: أطع الله، يُطعكَ كل شيء
	حماد بن زيد
١٢١	جعل رجلٌ لرجلٍ جُعلًا على أن يعبرَ نهرًا
	الذال
	ذو النون المصري
٣٥٩	من عمل في السِّرِّ عملًا يستحيي منه في العلانية
	الراء
	الرَّبِيع بن خُثَيم
١٣٨	داء البدن الذُّنوب، ودواؤها الاستغفار

## الرَّبيع بن صبيح

١٣٩

أَنَّ رجلاً أتى الحسن وشكا إليه الجذب

الزاي

الزُّهري

١٧٢

إِنَّ للعلم غوائل، فمن غوائله: أَنْ يَتْرُكَ الْعَالَمَ

٣٧٤

لَمَّا قِيلَ لَهُمْ: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قَامُوا صَفَيْنِ

زيد بن أسلم

١٥٨

لَا بُدَّ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ مِنْ أَرْبَعِ

السين

السُّدِّي

٢٥٨

أَتَيْتُ كَرْبَلَاءَ أَبِيعَ الْبَزَّهَا

سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -

٣٠٦

أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ! فَإِنِّي كُنْتُ أَصْلِي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

٣٠٧

أَمَّا وَاللَّهِ! لَأَدْعُونَ بِثَلَاثِ

١٥٧

الْمُؤْمِنِ يُطْبَعُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا، إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذْبَ

سعيد بن إياس الجريري

٨١ت

قُلْتُ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! الرَّجُلُ يُذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ

سعيد بن جبير

٦١

إِنِّي لِأَزِيدُ فِي صَلَاتِي مِنْ أَجْلِ ابْنِي هَذَا

١٥٧

لَا يُقْبَلُ قَوْلٌ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا بِقَوْلٍ

١٦٥

مَثَلُ الْمَرْجُئَةِ مَثَلُ الصَّابِئِينَ



- سعيد بن زيد - رضي الله عنه -
- ٣٠٦ اللهم! إن كانت كاذبة - أي: أروى بنت أويس - فعمّ بصرها
- ٣٠٥ أنا كنتُ آخذُ من أرضها - أي: أروى بنت أويس - شيئاً
- سعيد بن المسيّب
- ٦١ قال لابنه: لأزیدنَّ في صلاتي من أجلك
- سفيان بن عُيينة
- ١٦٥ دينٌ محدثٌ دينُ الإرجاء
- سفيان الثوري
- ١٧٠ إنّما يُطلب الحديثُ لِيَتَّقَى به الله - عزَّ وجلَّ -
- ١٥٠ البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية
- ٣٢١ جئتُ من دار الصيادلة، نهيتهم عن بيع الذّاذي
- ١٦٦ ما أحدٌ أبعد منه - أي: القرآن - من المرجئة
- سليمان بن حرب
- ٣٠٧ كان مُطرّف مُجاب الدّعوة
- سهل الأنباوي
- ٢٩٨ أتيتُ رجلاً أعوده وقد احتضر
- سهل بن عبدالله التستري
- ٣٦٨ قوله - تعالى - : ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: العمل بما فيه حياتكم
- ٦٨ ما عبَدَ اللهُ إلا بالعلم، وما عُصيَ بمعصية أعظمَ من الجهل
- الشين
- شريك
- ١٦٥ هم - أي: المرجئة - أخبثُ قوم

## الشَّعْبِي

٥٥

أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ خَطَبَ، فَحَمَدَ اللَّهَ

٣١٠

وَهَلْ يُسْفِكُ الدَّمَ وَتُرْكَبُ الْعِظَائِمُ إِلَّا بِالنَّمِيمَةِ؟

٣١٠

يَا أَبَا زَيْدٍ! أَطْرَفْنَا مِمَّا سَمِعْتَ بِمَكَّةَ؟

## الشَّيْبَانِي

٥٩

كُنَّا عَلَى قَسْطَنْطِينِيَّةَ فِي عَسْكَرِ مُسْلِمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

## الضَّاد

## الضَّحَّاكُ بْنُ مَزَاحِمٍ

١٧٥

مَا نَعْلَمُ أَحَدًا حَفِظَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ إِلَّا بِذَنْبٍ

## الطَّاء

## طَلْحَةُ بْنُ مَصْرُوفٍ

٦١

قَالَ لِلْمَلِكِ بْنِ مَغُولٍ: اسْتَغْنِ عَلَيَّ - أَيُّ: ابْنُكَ - بِهَذِهِ الْآيَةِ

## العين

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

١٧٢

قَالَ لِكَعْبٍ: مَا يَنْفِي الْعِلْمَ عَنْ صُدُورِ الْعُلَمَاءِ بَعْدَ أَنْ يَعْلَمُوهُ؟

## عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَمِيطٍ

٣٧٥

مَا دَامَ قَلْبُ الْعَبْدِ مَصْرًّا عَلَى ذَنْبٍ وَاحِدٍ

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -

١٤

اسْتَقَامُوا: أَدَّوْا الْفَرَائِضَ

٢٠٨

إِنَّكُمْ - أَيُّ: الَّذِينَ يَلُونُ أَمْرَ الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ - قَدْ وُلِّيتُمْ أُمُورَيْنِ

حُفْظًا - أَيُّ: صَاحِبَا الْجِدَارِ الَّذِي بَنَاهُ الْخَضِرُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِصَلَاحٍ

٥٨

أَبَيْهِمَا

الصفحة	طرف الأثر
٢٨٦	القاتل لا توبة له
٢٧٧	قدم على عمر رجل، فجعل عمر يسأله عن الناس
٩٤	قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَين﴾ قرأ (مَلِكَيْن) بكسر اللام
٥٧	قوله - تعالى -: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا﴾ يعني بذلك الرجل يموت وله أولاد
٩٤	لم يطمعا - أي: آدم وحواء - عليهما السَّلام - أن يكونا من الملائكة عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما -
٢٨٧	إنَّ العلم كثيرٌ، ولكن إن استطعت أن تلقى الله
٢٨٦	إنَّ من ورطات الأمور التي لا مخرج
٣١٣	أنَّه كان يُزاحم على الرُّكنين
٢٠٩	لا تنظروا إلى صلاة أحدٍ ولا صيامه
	عبدالله بن المبارك
٣٧٥	حقيقة التَّوبة لها ست علامات
	عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -
٧٠	اغْذُ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوْ مُسْتَمِعًا
٢٩٦	إنَّ الله لم يجعل شفاءكم فيما حَرَّمَ عليكم
٣٣٢	إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنَّه قاعدٌ تحت جبل
٧٦	إنَّكم في زمان كثيرٌ فقهاؤه؛ قليل خطبأؤه
٢٤٣	حقُّ ثقَاتِهِ هو: أن يُطَاع فلا يُعصى
٢٠٩	الصَّلَاة أمانة، والوضوء أمانة
٢٠٩	القتل في سبيل الله يُكَفِّرُ الذَّنوب كُلَّهَا إِلَّا الْأَمَانَةَ
١٠٢	من أكبر الذَّنْب أن يقول الرجل لأخيه: اتقِ الله! فيقول

- عبدالرحمن بن سابط  
 لا يسكن مكة سافك دم ٣١٠
- عبدالملك بن عمير  
 كان بالكوفة رجل يعطي الأكفان ٢٦٠
- عبدالواحد بن زيد  
 خرجتُ إلى ناحية الحُرَيْبِية، فإذا أسود مجذوم ١٨١
- عبيد بن عمير  
 من صدق الإيمان وبرّه؛ إسباغ الوضوء في المكاره ١٥٧
- عثمان بن عفان - رضي الله عنه -  
 اجتنبوا الخمر، فإنّها أم الخبائث ٢٩٢
- عروة بن الزبير  
 استقاموا: أخلصوا العمل لله ١٤
- عطاء بن أبي رباح  
 إذا رأيتَ الرجل يعمل الحسنة فاعلم أنّ لها عنده أخوات ١٤٤
- عطاء بن السائب  
 أنّ أروى بنت أويس ادّعت على سعيد بن زيد أنّه أخذ ٣٠٥
- عطاء بن السائب  
 سُئل ما أفضل ما أُعطي العباد؟ قال: العقل عن الله - تعالى - ٧١ ت
- عطاء السليمي  
 قدمْتُ من مكة فلقيني الشَّعبي ٣١٠
- عطاء السليمي  
 قيل له: لو أُجِّجَت نارٌ، وقيل مَنْ دخلها نجا ٣٣٦

عكرمة بن أبي جهل - رضي الله عنه -

والله! لئن لم يُنَجِّنِي من البحر إلا الإخلاص ٢٢

علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -

استقاموا: أدّوا الفرائض ١٤

بؤساً لكم - أي: قتلى الخوارج - ! لقد ضرَّكم مَنْ غَرَّكم ٩٧

خمسٍ احفظوهنَّ، لو ركبتن الإبل لأنضيتنموها ١٥٦

النَّاسُ ثلاثة: فعالم ربَّانيٌّ، ومُتعلِّمٌ على سبيل نجاة ٧٠

علي بن خشرم

رأيتُ وكيعاً، وما رأيتُ بيده كتاباً قط! ١٧٣

علي بن المديني

لَمَّا ودَّعْتُ سفيان قال: أما إِنَّكَ ستُبلى بهذا الأمر ١٧٣

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي ١٤

إِنَّ عَبْدَ المسلمين من المسلمين، ذمَّتْه ذمَّتْهم ٢٣٠

سُئِلَ عن قوم يشتهون المعاصي ولا يعملون بها ٨٤

عمر بن الخطاب؛ أمير المؤمنين! بخِ بخِ ٣٥٦

قال لابن عباس: لله أبوك! ٢٧٨

لِيَمُتْ يهودياً أو نصرانياً - يقوها ثلاث مرَّات - رجلٌ مات ١٥٦

يا أبا إسحاق! إِنَّ هَؤُلَاءِ - أي: أهل الكوفة - يزعمون إِنَّكَ لا تحسن ٣٠٦

عمر بن ذر

يا أهل المعاصي! لا تغترُّوا بطولِ حلمِ الله عنكم ٣٨٥

## عمر بن عبدالعزيز

أَيُّهَا النَّاسُ! مَنْ أَلَمَّ بِذَنْبٍ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُوبْ ٣٣٨

كَانَ يُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ ٣٢٨

كُتِبَ إِلَى الْجِرَاحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَمَّا بَعْدُ! فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذَكُّرُ أَنَّ أَهْلَ خِرَاسَانَ ٣٩

كُتِبَ إِلَى الْحَسَنِ: اجْمَعْ لِي أَمْرَ الدُّنْيَا، وَصِفْ لِي الْآخِرَةَ ٣٥٦

كُتِبَ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ: عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ ٣٥

## عمرو بن سلمة

الْمَعَاصِي بِرِيدَ الْكُفْرِ ١٤٤

عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

قَتَلَ كِنَانَةَ بْنَ بَشْرِ التَّجِيبِيِّ ٢٥٨

## العوام بن حوشب

الِابْتِهَاجَ بِالذَّنْبِ أَشَدَّ مِنْ رُكُوبِهِ ٢٠١

## الفاء

## فضيل بن زيد الرقاشي

بَعَثَ عَمْرُ جَيْشًا فَكَنتَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ ٢٣٠

## الفضيل بن عياض

أَصْلَحَ مَا أَكُونُ أَفْقَرَ مَا أَكُونُ ١٠١

تَفَكَّرُوا وَعَمَلُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمُوا ٣٨٨

## القاف

## القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الذَّنْبِ أَنْ يَسْتَخْفَ الْمَرْءُ بِذَنْبِهِ ٣٣٩

## قتادة

- ١٣٧ أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصِيَ الله  
 ٥١ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ إن لم تكن الحُرورية والسبئية فلا أدري  
 ٢٣٧ كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون

## الميم

## مالك بن دينار

- ٤٤ إِنَّ اللَّهَ - تعالى - عقوبات؛ فتعاهدوهنَّ من أنفسكم  
 ٦١ رأى رجلاً يُسِيئُ صلاته، فقال  
 ٣٦١ قلوب الأبرار تغلي بأعمال البر  
 ٣٤٤ يا حملة القرآن! ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟

## مالك بن مغول

- ٦١ شكّا أبو معشر ابنه إلى طلحة بن مُصَرِّف

## مجاهد

- ١٥ استقاموا - أي: أهل الاستقامة - على شهادة أن لا إله إلا الله  
 ٦١ إِنَّ اللَّهَ لَيُصْلِحْ بِصَلَاحِ الْعَبْدِ وَلَدَهُ  
 ٣٣٦ قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قال: بذكر الآخرة  
 ٣٦٨ قوله - تعالى -: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: حديثكم  
 ٣٤٠ ما من ميت يموت إلا مثّل له جُلُساؤه

## محمد بن سيرين

- ٣١٤ قلتُ مرةً لرجل: يا مُفلس! فعوقبت

## محمد بن عبد الله العتبي

- ٢١٥ أتى أعرابيٌّ واليًا، فقال له الوالي: لتقولنَّ الحق

## المدائني

١٢٢ ركب يزيد بن نهشل النهشلي بغيراً

مسلم، أبو عبدالله الحنفي

٦٢ بِرٍّ ولدك، فإنه أجدر أن يبرِّك

مسلم بن يسار

٣٧٠ ما أدري! ما إيمان رجل كره شيئاً لم يدعه الله؟

مُطَرِّف بن عبدالله الشَّخِير

٣٠٧ اللهم! إن كان كَذَبَ عليَّ فأرني به

## معروف

٣٣٨ رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان

ميمون بن مهران

٢١٠ ثلاثُ المؤمن والكافر فيهنَّ سواء

٣٥٦ لا يكون الرجل تقيّاً حتى يكون لنفسه

## النون

الثَّعْمَان بن بشير - رضي الله عنهما -

٧٦ إِنَّ لِلشَّيْطَانِ مَصَالِيَّ وَفُخُوحاً

٢٨٠ الهلكة كل الهلكة أن يُعمل بالسيِّئات في أزمان البلاء

## الواو

والد عمرو بن محمد

٣٠٦ فرأيتها - أي: أروى بنت قيس - عمياء تلتمس الجُدُر

وكيع بن الجراح

٧٠ إِنَّمَا الْعَاقِلُ مَنْ عَقَلَ عَنْ اللَّهِ أَمْرَهُ



الصفحة	طرف الأثر
١٦٧	ترى إيمانَ الحجاج مثل إيمانِ أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -!؟
١٧٣	سأله علي بن خشرم عن أدوية الحفظ؟ فقال: تركُ المعاصي
٢٧٤	لو أنَّ الرجل لم يُصب في الحديث شيئاً
٢٧٤	من طلب الحديث كما جاء فهو صاحب سنة
	وهب بن منبه
٧٠	ولإزالة الجبل صخرة صخرة، وحجرًا حجرًا، أشدُّ على الشيطان
	وهيب بن الورد
٣٣٩	اعلم أنَّ من صلاح نفسك علمُك بفسادها
	الباء
	يحيى بن أبي كثير
٢١٠	لا يُعجبك حلم امرئ حتى يغضب
	يحيى بن معاذ
٢٧	من سُرَّ بخدمة الله، سُرَّت الأشياء كلها بخدمته
	يحيى بن يمان
٦١	خرجتُ إلى مكة؛ فقال لي سعيد بن سفيان: أقرئ أبي السَّلام
٣٢١	لقيني سفيان الثَّوري عند جبل بني فزارة
	يحيى الغساني
٣٩	لَمَّا ولَّاني عمر بن عبدالعزيز المَوْصِل
	يونس بن عبيد
٣٥٥	إِنِّي لَأَعِدُّ مئة خصلةٍ من خصال الخير

## الآباء

## أبو إسحاق الفزاري

- ٣٠٢ قال لعبدالله بن المبارك: يا أبا عبد الرحمن! كان رجل من أصحابنا  
أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -

١٥٦ إياكم والكذب، فإنَّ الكذب مُجانب الإيمان

١٤ سئل عن الاستقامة فقال: أن لا تشرك بالله شيئاً  
قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قال: على لا إله

١٩ إلا الله

٥٣ لستُ تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به

١٣٩ ما صيد من صيدٍ، ولا عُصِد من شجر

## أبو حازم الأعرج

٧٦ قاتِلْ هواك أشدَّ مما تُقاتِلْ عدوكَ

٩٩ وما إبليس؟! لقد عُصي فما ضر

أبو الحباب، عمُّ عمَّار بن سيف الضبي

٢٦٢ كُنَّا في غزاة في البحر، وقائدنا موسى بن كعب

## أبو الحسين المزين

١٤٤ الذَّنْب بعد الذَّنْب عقوبة الذَّنْب

## أبو خلاد

٤٥ ما من قوم فيهم من يتهاون بالصَّلاة ولا يأخذون على يديه

أبو الدرداء - رضي الله عنه -

٢٣٢ ثكلتك أمُّك يا جبير بن نفير!

طُرف الأثر	الصفحة
لا يفقه الرَّجل كلَّ الفقه؛ حتى يمقت النَّاسَ	٣٥٥
ويُلِّ لمن يعلم مرَّةً، ويُلِّ لمن علم ولم يعمل	١٧٨
أبو سليمان الدَّارني	
قَلَّتْ ذنوب القوم، فعرفوا من أين أُتُوا	٣١٤
من أحسن في نهاره كُوفِي في ليله	٣٤١
أبو عبدالرحمن العمري	
من ترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر	٦٢
أبو الغريف	
كُنَّا مقدِّمة الحسن بن علي، اثني عشر ألفاً بمسكن مستميتين	٥٥
أبو قحذم	
وُجد في زمن زياد أو ابن زياد صُرَّةٌ فيها حب	٢٤٢ ت
أبو نضرة والد عبدالملك	
كُنَّا بالمدينة، فسبَّ رجلٌ عثمان	٢٥٦
أبو هريرة	
أنَّه سمع رجلاً يقول: إِنَّ الظَّالِمَ لا يضر	١٨٦
بلى والله! حتى الحبارى تموت في وكرها	١٨٦
الأبناء	
ابن سمعون	
رأيتُ المعاصي نذالة؛ فتركْتُها مروءة	٣٥٨
المبهمون	
جد صدقة بن المثني	
أَنَّ النَّاسَ اجتمعوا إلى الحسن بن علي بالمدائن	٥٨

رجل من الأنصار

٢٩٧

حضرنا مولًى لنا عند موته

لم يُذكر قائله

٤٢

وُجِدَتْ فِي خَزَائِنِ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةٍ حَنْطَةٌ





## الموضوعات والمحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف .....	٩
* الاستقامة .....	١١
حقيقة الاستقامة وحدها .....	١٣
من آثار السلف الواردة في معناها، وبيان مظاهرها وخصائصها .....	١٤
ثمار الاستقامة .....	١٩
كلمات جامعات في بركات الطاعات .....	٢٣
أولاً: النصر على العدو .....	٢٨
ثانياً: تحقيق الأمن في المجتمع، والتمكين له واستقراره .....	٣٦
ثالثاً: البركة في الرزق، وتيسير أسبابه .....	٤٠
رابعاً: تحقيق الأخوة، وتحقيق الوحدة .....	٤٥
* إلماع لأثر الذنوب على الأولاد والذرية .....	٥٧
* أسباب الوقوع في الذنوب .....	٦٤
السبب الأول: الجهل .....	٦٦
آثار السلف في التحذير من الجهل .....	٧٠
من كلمات أهل العلم في التحذير من الجهل .....	٧١

الموضوع	الصفحة
السبب الثاني: الهوى .....	٧٣
السبب الثالث: النَّفْس .....	٧٨
السبب الرابع: الشيطان .....	٨٦
مطالبُ الشيطان من الإنسان .....	٨٧
وسائلُ ومكايدُ ومسالكُ الشيطان لتحقيقها .....	٩١
مثالٌ عمليٌّ للمعاصي النَّاشئة عن كُلِّ هذه الأسباب .....	٩٤
فمتى يعصي العبدُ إذن؟! .....	٩٧
الجزاء من جنس العمل .....	٩٩
ماذا نخسر بالانحراف؟ .....	١٠٢
* مع السُّنن الإلهية في المجتمعات .....	١٠٣
من خصائص السُّنن الإلهية .....	١٠٨
من سُنن الله الكونية: (سُنَّةُ التَّغْيِيرِ) .....	١٠٩
* نظراتٌ في حقائق وحوادث .....	١١٣
حكاية سبأ .....	١١٣
حكاية قارون .....	١١٩
حادثةُ قريةٍ ذكرها الله .....	١٢٤
* ذنوب الأ أقوام السابقة .....	١٣٠
* الذَّنْبُ عَثْرَةٌ فِي الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ .....	١٣٣
* كيف ينسى الإنسان ربه؟ .....	١٤١
* فوائد في أسماء الذَّنْب، ومرادفاته، والفروق بين مراتبه .....	١٤٧
* أثر الذنوب على الإيمان .....	١٥٣

الموضوع	الصفحة
النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ الذَّنْبَ تُنْقِصُ الْإِيمَانَ .....	٢٦٣
* أثر الذنوب على طلب العلم .....	١٧٠
الآثار الواردة في إفضاء المعاصي إلى سَلْبِ العلم .....	١٧٢
* أثر الذنوب على مناحي الحياة الأخرى .....	١٨٣
حديثٌ عظيمٌ في نتائج المعاصي .....	١٨٣
* آثار الزَّنا .....	١٨٥
الغناء رُقِيَّةُ الزَّنا .....	١٩١
* المُجَاهَرَةُ بِالذَّنْبِ ذَنْبٌ آخَرُ .....	١٩٦
* آثار التطفيف في الميزان وذهاب الأمانة .....	٢٠٢
* ظَلَمُ الرَّعِيَّةِ سَبَبٌ كَوْنِيٌّ لظَلَمِ السُّلْطَانِ، لَا مَسْوُوعٌ لَهُ .....	٢١٣
* آثار منع الزكاة في الدنيا والآخرة .....	٢١٦
* آثار نقض العهد .....	٢٢٥
معنى (العهد) .....	٢٢٥
معنى (نقض العهد) .....	٢٢٨
العهدُ مع رسول الله ﷺ .....	٢٣٣
* قَوَارِعُ وَمَصَارِعُ .....	٢٤٧
* عقوبة سبِّ الصحابة وانتقاصهم .....	٢٥٢
* مُؤَنَسَاتٌ وَمُوحِشَاتٌ مِنْ مُخْتَارِ الرُّؤْيَى وَالْمَنَامَاتِ .....	٢٦٦
* آثار الحكم بغير ما أنزل الله .....	٢٧٢
الموقف الشرعي من المصائب والكوارث التي تحلُّ بالشعوب الإسلامية .....	٢٨٠
* آثار أكل الربا وعقوبته .....	٢٨١



الموضوع	الصفحة
* آثار قتل النَّفس بغير حقٍّ .....	٢٨٤
* آثار شرب الخمر وعقوبته .....	٢٨٨
* آثار العقوق وقطيعة الرحم وعقوبته .....	٣٠١
* عقوبة الكذب والزُّور والافتراء والبهتان .....	٣٠٣
* عقوبة اليمين الفاجرة .....	٣٠٨
* سُؤم النَميمة وأثرها على المجتمع .....	٣١٠
* تأثير المعصية في الماء والهواء والحجارة .....	٣١٣
* دور الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر في محاربة الذنوب .....	٣١٧
* تعاظُم الذُّنوب عند غياب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر .....	٣١٩
* الاستخفاف بالذَّنْب هلاكٌ .....	٣٣١
* الإصرار على الذَّنْب مُصِيبَةٌ .....	٣٣٧
* كيف الخلاص من الذُّنوب؟ .....	٣٤٢
* طريقُ العَودة إلى الله .....	٣٦٧
* الصَّبْرُ خيرُ عَطَاء .....	٣٧١
* التوبةُ في البدء والختام .....	٣٧٣
* تعلَّم كيف تتوب .....	٣٨٠
* الخاتمة .....	٣٨٥
* أسئلة وأجوبة حول الذنوب والتوبة منها .....	٣٨٧

## الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية الكريمة .....	٣٩٥
فهرس الأحاديث النبوية الشريفة .....	٤١٥

الموضوع	الصفحة
فهرس الآثار.....	٤٢٥
الموضوعات والمحتويات.....	٤٤٣



